

عرض وتحليل لأصول الإسلام وآدابه وأحكامه
تحت ضوء العلم والفلسفة

تأليف
عفيف عبد الفتاح طباره

الإهداء

إلى أهل الفكر الإنساني الذين يتلمّسون الطريق السويّ
لبناءِ عالمٍ جديد على أساسٍ من الإيمان والخير والحبّ والسّلام



روح الدين الإسلامي

وكذلك أوحينا أليك روحًا من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب
ولا الأيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا..

قرآن كريم

تأليف

عفيف عبد الفتاح طبارة

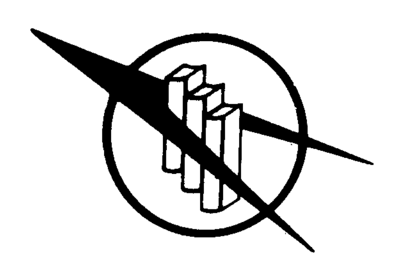
الطبعة الثامنة والعشرون
طبعة منقحة



الموزعون الوحيدون لجميع أقطار العالم
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص.ب ١٠٨٥

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



حزيران ١٩٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة قاضي الشرع الشريف
حسين يوسف غزال

الحمد لله رب العالمين والصلاة على خاتم المرسلين، وبعد لقد اطلت على الاسواق *الطبعة السادسة والعشرون* لكتاب (روح الدين الاسلامي) لمؤلفه الاستاذ عفيف طبارة . وإنه لرائع حقاً ان تنفد طبعات هذا الكتاب النفيس بهذه السرعة المدهشة .

وقد توقعت منذ صدوره أول مرة ان يلاقي نجاحاً مرموقاً وانتشاراً واسعاً، وها هي طبعاته المتعددة خير شاهد على ذلك .

إن هذا الاقبال المنقطع النظير يدل على ان القارىء العربي أصبح بثقافته المتطورة يغربل الكتب ويختار منها الأجود فالأجود ؛ ولا ريب أنه وجد في هذا الكتاب ضالته المنشودة لأخذ تعاليم الاسلام بسهولة ويسر في شتى الأغراض ومختلف الابواب سواء ما كان متصلاً بالجانب الالهي وضروب العبادات ومكارم الاخلاق، أو ما كان متعلقاً بجانب الروح واسرار النفس والعمل على تهذيبها وصقلها .

إن مكتبتنا الاسلامية غنية بهذه الابحاث، وفيها المجلدات الطوال، ولكن هذا يرضي المتخصصين ، أما السواد الغالب من الناس الذي لا يجد أمامه متسعاً من الوقت للخوض في غمارها، واستخراج دررها من أصدافها، وإن وجد الوقت فلا يجد الكتاب الشافي لما تصبو اليه نفسه ؛ فهو يريد كتاباً لا تعقيد

فيه ، يجمع مواضيع الاسلام المهمة بعبارة سهلة وتنظيم أخاذ ، وقد وجد ذلك كله في هذا السفر النفيس .

لقد أكب مؤلفنا الفاضل على ذخائر الكتب وطوال المجلدات وكل ما كتب عن الاسلام قديماً وحديثاً، وطوّف في أرجائها مستعرضاً باحثاً منقباً ينتخب من لآلئها وجواهرها ما يرصع به مؤلفه من جوهر العقيدة ولبابها الى روح العبادة وصفائها الى كل ما يجلي جوانب النفس المظلمة ويرتفع بها الى الاشراق والسمو والنور .

لقد عرف قيمة هذا الكتاب خاصة الناس ، كما عرفته عامتهم . ولذلك قررت تدريسه كثير من الكليات والجامعات في العالم العربي ، كما ترجم الى اللغتين التركية والفارسية ، وليس بدعاً ان يترجم الى سائر اللغات ليتعرف العالم أجمع على حقيقة الاسلام الصافية الناصعة .

ذلك ان كتابنا هذا يفتح نوافذ مغلقة على أسرار الاسلام وفهم القرآن فهماً متطوراً مع الحضارة الحديثة .

وإن كان لي أن أضيف من سبب فهو ان موجة الالحاد في العالم بدأت تنحسر وتنكسر على نفسها بعد أن دخل العالم بما يشبه اليقين ان سعادة الانسان في هذا الكون لا تتحقق الا برجوعه الى حظيرة الدين وارتشافه من رحيق الايمـــان .

فاللذائذ الفانية التي يتهافت عليها الناس لا توفر لهم السعادة، وبريق المادة لا يؤمن للقلوب نوراً تطمئن اليه ، ومهما أوغلوا في حطام الدنيا وأسرفوا في شهواتها فشأنهم معها كالذي يشرب من ماء البحر كلما ازداد منه شرباً كلما ازداد عطشاً ، أو كمثل الظمآن الذي يرى السراب يحسبه ماء وما هو بماء ، ولذلك أدرك الناس بعد طول الطواف ان السعادة تنبع من داخل النفس ولا ترد اليها من الخارج ..

ان عالمنا سائر نحو الروح بخطى حثيثة، وواجد في هذا الكتاب ضياء ينير له جوانب الطريق، ويعرفهم على الله، ولا شيء مثل الايمان بالله يعيد السكينة الى النفوس والطمأنينة الى القلوب « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

تعريف بالكتاب

لفضيلة الاستاذ
شريف خليل سكر
ماجستير في الشريعة الاسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله خاتم المرسلين وبعد .

لا استطيع في هذه الكلمة أن احصي مناقب هذا الكتاب واذكر محاسنه، فهذا ما سيكتشفه القارىء بنفسه كلّ حسب ثقافته واستيعابه لمعانيه .

ولكن حسبي ان ألفت نظر القارىء الكريم الى ان المؤلف قصد اهدافاً رئيسية ثلاثة :

اولاً : عرض اصول الاسلام وأحكامه وآدابه على ضوء ما وصلت اليه المدنية الحديثة من رقي ، ثم بيان ان الإسلام يسير في ركب الحضارة الحقيقية .

ثانياً : اثبات ان القرآن وحي الهي ، وصدق نبوة محمد ﷺ .

ثالثاً : دحض الشبهات التي أثارها اعداء الإسلام حوله لتشويهه وهدمه .

اما في الناحية الأولى فقد عالج المؤلف أبحاثاً كثيرة متعلقة بأصول الإسلام واحكامه وآدابه ، وكانت ابحاثه عبارة عن عرض مفصل حوى كل ما تهفو اليه النفس من موضوعات اسلامية لا يجدها القارىء في كتب سواه إلاّ بصعوبة.

وفي الكتاب بعض الآراء المبتكرة في فهم اسرار الاسلام لم يسبق أن كتبها مؤلف قبله بهذه الدقة وهذا الاستيعاب ، من ذلك بحثه القيّم (الايمان بالله) الذي استعرض فيه آراء العلماء الكونيين الغربيين في الدلالة على وجود الله ، مقارناً إياها بالأدلة القرآنية ، فجاء بحثه فيه من الحجّة والبرهان ما يدحض ريب كل مرتاب ويفحم ادعاء كل ملحد .

ومن الابحاث المتفوقة (صلة الانسان بالله ، وآثرها في الطب النفساني) الذي عالج فيه المؤلف موضوعاً احتل مكانة مرموقة في السنوات الأخيرة وهو (الطب النفسي) فقد ثبت اخيراً ان كثيراً من الأمراض الجسدية مرجعها الى امراض وعلل نفسية ، فالحزن والغضب والقلق كل ذلك له اثر ايجابي على صحة الأبدان ، هذا وإن المؤلف بيّن كيف ان صلة الإنسان بالله في الإسلام تشفي كثيراً من امراض النفس .

ومنها بحث (الاقتصاد في الاسلام) الذي اثبت فيه المؤلف انفراد الإسلام بابتكار مذهب اقتصادي يمتاز على المذاهب الاشتراكية والرأسمالية لاحتوائه على احسن ما فيها ولاجتنابه مساوئها .

وفي بحث (نظام الحكم) يبين المؤلف أسس العدالة التي سنها الإسلام لبناء دولة سليمة لا يعتورها الفساد والفوضى .

وفي بحث (المرأة والأسرة) يبين الاسس التي وضعها الإسلام لتحرير المرأة والنهوض بها واصلاح الأسرة اصلاحاً لم يتيسر حتى الآن عند سواه .

اما الهدف الثاني من هذا الكتاب وهو اثبات ان القرآن وحي الهي فهو من اخطر الدراسات في عصرنا الحاضر ، لأن اكثر سكان الأرض الذين لايدينون بالاسلام لا يعترفون بنبوة محمد ﷺ ، ومتى استطاع أي باحث أن يأتي بأدلة مقنعة تثبت ان القرآن كتاب الهي فإنه حينئذ يفحم الجاحدين وينير لهم الطريق للاعتراف به والأخذ بتعاليمه .

والمؤلف ساق لهذه الناحية أدلة علمية باهرة استخرجها من القرآن الكريم ، وهي من الوضوح بحيث يخضع لها كل راغب في تقبل الحقيقة المعتمدة على العلم ، وقد عالج المؤلف هذه الناحية في بحثه (القرآن الكريم) وقد بيّن فيه حقيقة القرآن ووجوه اعجازه ، كما ذكر ما فيه من المعجزات العلمية الشيء الكثير ، ثم انه خص معجزاته الطبية في موضوع سماه (صحة الابدان) .

ولم يكتف المؤلف بهذا بل نراه في كل بحث من ابحاثه يضع امام القارىء البراهين الحسية والعقلية والأدبية التي تثبت ان القرآن وحي الهي وتثبت صدق نبوة محمد ﷺ ، كما انه أفرد بحثاً مستقلاً في تبيان صدق نبوة محمد ﷺ بعنوان (الأدلة العقلية على صدق نبوة محمد عليه السلام) .

واما الهدف الثالث وهو قضية الشبهات التي اثارها حول الاسلام اعداؤه الألداء الذين لا يتركون فرصة إلاّ وينالون منه ويفترون عليه الأكاذيب لمآرب معروفة مشبوهة ، فإن المؤلف إزاء هذا قام بواجب عظيم إذ تصدى لجميع تلك الشبهات ودحضها الواحدة تلو الأخرى دحضاً علمياً رصيناً ، بعيداً كل البعد عن المهاترات ، ثم إن الأدلة التي سردها اعتمد فيها على النصوص القرآنية وشهادة التاريخ الصحيح ، ومنطق العلم الحديث .

ومن بين الشبهات التي دحضها المؤلف مثلاً ، الزعم القائل : (ان الاسلام شريعة مدنية لا تهتم بالمعاني الروحية ولا تحاول غرسها في نفوس المؤمنين) .

لقد عالج المؤلف هذه الشبهة في عدة بحوث منها : (صلة الانسان بالدنيا) (والعبادات) .

وفي بحث (العلم في الاسلام) رد على العالم الفرنسي ارنست رينان الذي ادعى : (ان الاسلام كان حرباً على حرية الفكر وانه كبت جميع الحركات العلمية) .

وفي بحث (نظام الحرب في الاسلام) رد على الزعم القائل : (ان الإسلام انتشر بالسيف لا بالاقناع) .

وفي بحث (الاخلاق في الاسلام) رد على الذين ادعـــوا ان القرآن لم يتعرض لمبادىء الاخلاق .

هذه لمحة سريعة عن بعض محتويات الكتاب الذي فيه كل ما يهم القارىء من موضوعات تمس حياته وتتعلق بمجتمعه .

إن هذا الكتاب جدير بأن يدخل بيت كل مسلم ومكتبة كل مثقف ، وإني ادعو مدراء الكليات والمعاهد واساتذتها ان يوجهوا اليه انظار طلابهم ليتعرفوا به على حقيقة الإسلام وليصححوا كثيراً من الأخطاء التي وقرت في اذهانهم بسبب قراءتهم ما كتب المغرضون ، وليقتبسوا ما فيه من دروس تربوية ومعان روحية هم بأشد الحاجة اليها في هذا العصر المادي .

وفقنا الله جميعاً لخدمة الاسلام وألهمنا الخير والصواب .

تمهيد

لنختر الدين عن علم واقتناع

هناك ظاهرة واضحة تتميز بها المدنية الحديثة وهي : انتشار المذاهب العقائدية والنظم الاجتماعية والسياسية ، وكثير من الأفراد اليوم الذين نالوا حظاً من الثقافة نراهم يتميزون بطابع خاص هو الاستقلال الفكري في اختيار المذهب والنظام الذي يقتنعون به ، وما يرون مصلحتهم تتوافق مع أسسه .

هذا الاستقلال الفكري هل يؤدي – في القريب العاجل – بالمثقف الى اختيار الدين الذي يقتنع به ؟

ان متبعي الأديان اليوم يرثون دينهم عن آبائهم ، فهذا مسلم وليس هناك تعليل لذلك غير ان أباه كان مسلماً فورث عنه دينه ، وهذا مسيحي أو يهودي بالوراثة أيضاً عن أبويه ، وحريّ بنا في هذا العصر الذي بلغت فيه المعارف الإنسانية أوجها من المعرفة أن يتحرر العقل البشري من التقليد ويختار عن علم وبيّنة الدين الذي يطمئن الى صحته ، وتثبت قضاياه أمام بحثه .

ان العقيدة فطرة في النفس الانسانية، وهي الملاذ الوحيد الذي يعتصم به في الملمات ، هذه العقيدة جديرة بأن تأخذ حظاً وافياً من البحث والدراسة وان تكون مبنية على الاقتناع في هدي من العقل الباحث المتحرر .

والاسلام – ويا للأسف – لا يزال يجهل حقيقته وسماحته أكثر سكان هذه الأرض ، مع ان أي انسان نال قسطاً من العلوم لو درس الاسلام دراسة خالية من تأثير الوراثة والعاطفة لبهرته روعته ولانقادت نفسه بقوة الى اعتناقه والأخذ بتعاليمه لما يرى في هذا الدين مما يبل ظمأه الروحي ، وما يشفي صدره من الآلام النفسية ، وما يرى فيه من الحقائق التي تسعد الناس ، وهم عنها غافلون .

سوء حال المسلمين

ولكن هذه الصورة الرائعة التي يتلقاها الدارس للاسلام لا يلبث أن يرى نقيضها عند التأمل في حالة المسلمين . والحقيقة ان الاسلام شيء والمسلمون شيء آخر . وقد أصاب الشيخ محمد عبده في تقرير ذلك بقوله : « فجلّ ما تراه الآن مما تسميه العامة اسلاماً فهو ليس باسلام، وانما حُفظ من اعمال الاسلام

صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلاً منها حرّفت عن معانيها ، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذي ذكرته وعدّوه ديناً، نعوذ بالله منهم وما يفترون على الله وعلى دينه ، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام وإنما هو شيء آخر ، سموه اسلاماً ... »[1].

وقد كان الشيخ جمال الدين الافغاني حكيم الاسلام يرى: ان سوء حال المسلمين أكثف الحجب الحائلة بين شعوب اوروبا والاسلام ، ومن أقواله : « إذا أردنا ان ندعو أحرار اوروبا الى ديننا فيجب علينا ان نقنعهم أولاً اننا لسنا مسلمين ، فانهم ينظرون الينا من خلال القرآن هكذا — ورفع كفيه وفرج بين أصابعهما — فيرون وراءه أقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل ... فيقولون : لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان أتباعه كما نرى ... »

والحق نقول : ان كثيراً من المسلمين اليوم مسلمون بالاسم لا يعرفون دينهم في تشريعهم وعاداتهم التي يأخذون بها انفسهم في هذه الأيام ، ولهذا لا يصح والحالة هذه اطلاق لفظ (الاسلام) عليهم ، فكما أن اي فرد لا يقبله اي حزب في عداده بدون ان يعمل بمبادىء الحزب فكذلك الاسلام لا يصح اطلاقه على شخص لا تظهر اعماله مطابقة لتعاليم الاسلام .

ولهذا نرى في هذا الكتاب ان الاسلام اشترط شروطاً خاصة ووضع أسساً يجب ان يعمل بها الفرد لقبوله في جماعة المسلمين .

ولكننا نرى اليوم في البلاد الاسلامية نهضة جبارة لاحياء الاسلام واظهار حقيقته تتراءى لنا تباشيرها بجهود كثير من العلماء المخلصين وبعض رؤساء الدول الاسلامية الذين ينتظر على يدهم الخير الكثير ، وبعض المعاهد والجمعيات الدينية التي يدرّس فيها الاسلام على وجهه الصحيح .

الذين شوّهوا الاسلام

وإذا كان حال العالم الاسلامي كما وصفنا فليس بغريب على غير المسلمين ان يتنكروا للاسلام خصوصاً العالم الغربي الذي يتميز بطابع خاص هو الجهل بحقيقة الاسلام، وسبب ذلك: تلك الحملة الباطلة التي قام بها أعداؤه لتشويهه أمام أقوامهم والتي فيها من الافتراء على التاريخ والكذب الشيء الكثير وذلك بما

---

(١) الإسلام والنصرانية ص ١٥٠ ط ٧ .

نشروه من كتب ورسائل وقصائد تخدم غرضهم . يقول الكونت(هنري دي كاستري) في كتابه (الاسلام خواطر وسوانح) : « ... لست أدري ما الذي يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوّال من المسيحيين ، فجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب في الحروب الصليبية ، وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بديانتهم ، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان ولا يزال بعضها راسخاً إلى هذه الأيام ، فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين ... »[1] .

ويقول الاستاذ « ديرمنجم » : « حينما اشتعلت الحرب بين الاسلام والمسيحية ودامت عدة قرون اشتد النفور بين الفريقين ، وأساء كل منهما فهم الآخر ، ولكن يجب الاعتراف : بأن اساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين . وفي الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التي أرهق فيها الجدليون البيزانتيون الاسلام بمساوىء واحتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم في دراسته ، هبّ الكتاب والشعراء المرتزقة وأخذوا يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجمتهم إياها إلا تهماً باطلة بل متناقضة »[2] .

والدراسة الجدية لتعاليم الاسلام والبحث الدقيق النزيه في أسراره ومزاياه لم يبدآ إلا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية في أوروبا وأخذ المستشرقون يجدّون في كشف الثقافة الاسلامية ، وكان من وراء ذلك ان افترق الناس في القرآن إلى معجب به وطاعن فيه لغرض في نفسه .

ولا ريب في ان الاسلام اليوم بحاجة الى بيان مزاياه وفضائله امام العالم المتمدن ، ودحض المعتقدات السيئة التي الصقت به ، واظهار حقيقة ما قدمه من علاج لازمات الانسانية المستعصية .

وفي العالم اليوم من يبحث عن العلاج الناجع مهما كان مصدره للخلاص من المشاكل التي تنتاب الإنسانية ، والاسلام هو خير علاج كما سيتبين لنا في هذا الكتاب .

---

(١) نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ أحمد فتحي زغلول ص ٧ .

(٢) انظر صفحة ١٣٥ من كتاب « حياة محمد » لإميل ديرمنجم طبعة باريس ١٩٢٩ .

الفصل الأول



المعنى اللغوي – المعنى الشرعي– الاديان دعت الى وحدانية الله – الاختلاف في الدين بسبب البغي والعدوان .

الاسلام[1] هو الاسم الذي عُرِف به الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، ولم تكن هذه التسمية عن اجتهاد من الرسول محمد وإنما كانت من الله تعالى ﴿ ورضيتُ لكم الاسلام ديناً ﴾ المائدة : ٣ .

المعنى اللغوي

عُنِي اللغويون والمفسرون والمستشرقون برد المعنى الشرعي للفظ (اسلام) إلى أصله اللغوي ، وأثار البحث فيه كثيراً من الجدل ، ونريد أن نثبت هنا الرأي الراجح ، فإذا تتبعنا مادة (سلم) في اللغة رأيناها تأتي بهذه المعاني :

أولاً : معنى الخلوص والتعري من الآفات الظاهرة أو الباطنة .

ثانياً : معنى الصلح والأمان .

ثالثاً : معنى الطاعة والإذعان .

---

(١) الاسلام : وقد يسمى السلم (بكسر السين أو بفتحها) على ما ذكره لسان العرب، وهذه الأسماء الثلاثة هي الفاظ عربية لها معان هي حقائق لغوية، ولما استعمل القرآن هذه الألفاظ في الدلالة على الدين الاسلامي كان ذلك تصرفاً في المعنى اللغوي الأصلي، وقد جرى عرف العلماء على تسمية الألفاظ المستعملة في المعاني الشرعية (بالاسماء الشرعية) ، وهذه الاسماء الشرعية متفرعة عن المعاني اللغوية ووثيقة الصلة بها .

المعنى الشرعي

الاسلام هو توحيد الله والانقياد والخضوع وإخلاص الضمير له ، والإيمان بالأصول الدينية التي جاءت من عند الله .

فالقرآن جعل الاسلام في مقابلة الشرك : ﴿ قُلْ أغَيْرَ الله أتخذُ ولياً فاطر[1] السموات والأرض وهو يُطعِمُ ولا يُطعَم قل إني أمِرتُ أن أكون أوّل مَن أسْلَمَ ولا تكونن مِنَ المشركين ﴾ الانعام : ١٤ .

كما أن القرآن جعله في مقابلة الكفر : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مُسلمون ﴾ آل عمران : ٨٠ .

وجعله بمعنى الاخلاص لله : ﴿ ومن أحسنُ ديناً ممن أسلَم وجههُ لله وهو مُحسن ﴾ النساء : ١٢٥ . ففي هذه الآية ثناء على من أخلص نفسه لله وجعلها سالمة لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه .

وورد في القرآن بمعنى الخضوع والانقياد لله : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ الزمر : ٥٤ .

ولفظ (أسلم) أطلقه القرآن بهذا المعنى أحياناً على المؤمنين والكافرين جميعاً لأنهم خاضعون لله ومنقادون له بحكم خلقتهم رضوا أم كرهوا تسري عليهم قوانين العالم . قال تعالى : ﴿ أفَغَيْرَ دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يُرجعون ﴾ آل عمران : ٨٣ . ومعنى أسلم هنا أي خضع لأمر الله وأطاع لما وضع في العالم من قوانين ، ثم قُصرت في الاستعمال على من أسلم وجهه لله طوعاً ، فكأن (المسلم) هو الذي رضي بإطاعة الله فاجتمعت فيه الطاعة الطبيعية والطاعة بالإرادة ، ولهذا تطلق كلمة (مسلم) على كل من خضع لله وأطاع أي نبي من الأنبياء .

فالنبي نوح يقول : ﴿ وأُمرت أن أكون من المسلمين ﴾ يونس : ٧٢ .

ويذكر الله نبيه إبراهيم بقوله : ﴿ ولَقَدِ اصطفيناه في الدنيا وإنَّهُ في الآخرة لَمِنَ الصالحين . إذ قال له ربُّهُ أسلم قال أسلمتُ لِربِّ العالمين ﴾ البقرة : ١٣٠ ــ ١٣١ .

---

(١) فاطر : خالق .

والنبي يوسف يقول مخاطباً ربه : ﴿ أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفني مُسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ يوسف : ١٠١ .

كذلك النبي موسى يقول لقومه : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ يونس : ٨٤ .

وجاء في القرآن عن عيسى : ﴿ فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال: من أنصاري إلى الله ، قال الحواريون[1] : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون ﴾ آل عمران : ٥٢ .

ثم ارسل الله رسوله محمداً عليه السلام بالشريعة المكملة لهؤلاء الانبياء ، ولهذا خاطبه الله بقوله : ﴿ إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نُوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط[2] وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قَبْلُ ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلّم الله موسى تكليماً . رُسُلاً مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس عَلى اللهِ حُجَّة بَعْدَ الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ النساء : ١٦٣ — ١٦٥ .

وهنا قد يقول معترض : إذا كان الله أوحى لمحمد كما أوحى إلى النبيين من قبله فلماذا اختلفت هذه الاديان جميعها ؟..

نرد على المعترض فنقول : ان القرآن نفسه عالج هذا الاعتراض ، وقدّم لذلك بدهيات علمية منطقية تلقي ضوءاً على الأديان الحاضرة ، وتبين الحق من الباطل .

الاديان دعت إلى وحدانيّة الله

منها : ان القرآن أخبر أن الله لم يُرسل رسولاً إلا بالدعوة إلى وحدانية الله ولهذا يخاطب الله رسوله محمداً عليه السلام بقوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنّه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ الانبياء : ٢٥ . ولهذا أمر الله رسوله محمداً بدعوة اليهود والنصارى إلى الوحدانية الخالصة ﴿ قـــل

(١) الحواريون : هم خاصة عيسى واصفياؤه وأنصاره .

(٢) الاسباط : اولاد يعقوب الاثنا عشر .

يا أهل الكتاب[1] تعالوا إلى كلمة سواءٍ[2] بيننا وبينكم الاّ نعبد إلاّ الله ولا نُشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً[3] من دون الله فإن تولّوْا[4] فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾ آل عمران : ٦٤ .

هذه الآيات تخبر أن الله لم يُرسل رسولاً إلاّ بالدعوة إلى وحدانيته ، فغير التوحيد إذن دخيل على الأديان .

الاختلاف في الدين بسبب البغي والعدوان

ومنها : أن الدين واحد ، وأن الاختلاف الذي كان فيه عبر العصور هو بسبب البغي والعدوان على الدين وتحريفه مِن قبل القائمين عليه بما يوافق مصالحهم للوصول إلى الرياسة وحظوظ الدنيا . وكانت رسالة محمد إظهار هذه الحقيقة ، ودعوة الناس جميعاً أن يجتمعوا على الدين الإسلامي ، قال تعالى : ﴿ إنّ الدينَ عِندَ الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب . فإن حاجّوك فقل : أسلمتُ وجهي لله ومن اتبعنِ ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين[5] : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصيرٌ بالعباد ﴾ : آل عمران : ١٨ — ٢٠ .

وإذا كان الدين واحداً لا يجوز الإختلاف فيه فهذا الخلاف الذي حصل من اتباع الأديان : المسيحية واليهودية والإسلاميّة من افتراق كل طائفة إلى فِرَقٍ وحصول العداوة بينهم هو مخالف لتعاليم الله الذي ما أنزل الله الأديان إلا لتكون سلاماً على الأرض ، ومحبة بين الأفراد والأمم ، ولهذا كانت رسالة محمد التوفيق بين المتخالفين ببيان الحق الذي حادوا عنه والتحذير من الإختلاف ولهذا يقول تعالى مخاطباً أتباع محمد : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً

---

(١) اهل الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والمراد بالكتاب التوراة والانجيل .

(٢) سواء : أي عدل وانصاف .

(٣) اربابا : جمع رب ، وهو السيد المربي الذي يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد به هنا من له حق التشريع من تحريم وتحليل . اي لا تطيعوا احباركم ورهبانكم فيما احدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع الى ما شرع الله .

(٤) تولوا : اعرضوا .

(٥) الأميين : الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .

والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين[1] ولا تتفرقوا[2] فيه كَبُر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبي[3] إليه من يشاء ويهدي إليه من يُنيبْ[4]. وما تفرّقوا[5] إلا من بعد ما جاءهم العلمُ بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجلٍ مسمى لقُضي بينهم وإن الذين أُورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مُريب. فلذلك فادع[6] واستقم كما أُمِرتَ ولا تتبع أهواءهم وقل: آمنتُ بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعْدِلَ بينكم، الله ربُنا وربكم[7]، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حُجّة[8] بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ الشورى : ١٣ – ١٥.

فوحدة الدين حقيقة أعلنها القرآن وهي تدحض شبهات الذين ينكرون الأديان بسبب إختلافها في جوهرها وأصولها، فادعاؤهم: بأن كل نبي يأتي من عنده بدين يناقض سابقيه قول لا يمت إلى حقيقة الأديان بصلة. فالدين واحد في أصوله – في نظر القرآن – ولكن الأديان تختلف في تشريعاتها لاختلاف أحوال الأمم الإجتماعية ودرجة إستعدادها العقلي.

ولقد اختتم الله الأديان بالدين الإسلامي، وأعطى محمداً شريعة تنسخ ما قبلها من الشرائع مظهراً فيها كنه الدين الحق. وهذه الشريعة توافق ما اقتضاه التطور العقلي للانسان وتصلح لكل زمان ومكان، وانها هي الشريعة المقبولة عند الله ولا يقبل غيرها ﴿ ومن يبتغِ غيْرَ الاسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ آل عمران : ٨٥.

والمعنى : من يطلب بعد بعثة محمد ديناً وشريعة غير الإسلام فلن يرضى الله منه ذلك، وهو في الدار الآخرة من الخاسرين الذين خسروا نعيمها.

---

(١) اقيموا الدين : اقامة الشيء توفيته حقه من علم وعمل، والدين المراد هو الاسلام.

(٢) ولا تتفرقوا فيه : تحذير للمسلمين من الاختلاف والتفرق.

(٣) يجتبي : يصطفي، يختار.

(٤) ينيب : يرجع اليه.

(٥) تفرقوا : يعني اليهود والنصارى.

(٦) فادع : الخطاب هنا لمحمد عليه السلام.

(٧) الله ربنا وربكم : يبين القرآن الكريم مساواة الناس جميعاً وعدم استعلاء بعضهم على بعض، فالله رب الجميع، وكلهم متساوون عنده لا ميزة لاحدهم الا بالعمل الصالح « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ».

(٨) لا حجة : لا خصومة.

الفصل الثاني

القرآن الكريم

بعض وجوه إعجازه والدلائل العلمية على أنه من عند الله

معنى الوحي – دحض شبهة عنه – جمع القرآن ونسخه في المصاحف – سلامة القرآن من التحريف – كيف كان ينزل القرآن وحكمة ذلك – القرآن يتحدى – القرآن معجزة محمد – أسلوب القرآن – من خصائص اسلوب القرآن وبلاغته – من وجوه اعجاز القرآن – اشتمال القرآن على أنباء غيبية – القصص في القرآن – روح القرآن .

القرآن هو الوحي المنزل من عند الله على رسوله محمد بن عبد الله خاتم النبيين المنقول عنه نقلاً متواتراً[1] نظماً ومعنى ، وهو آخر الكتب السماوية نزولاً .

وقبل ان نشرع في تفصيل موضوع القرآن يحسن بنا أن نلم إلمامة سريعة **بمعنى الوحي** وكيف كان يأتي لمحمد ﷺ .

الوحي لغة : هو الإشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك .

وأصل الوحي في اللغة إسرار وإعلام في خفاء ، يقال : وحى إليه وأوحى كلمة بكلام يخفيه عن غيره ، ووحى إليه وأوحى : أومأ ، وفي القرآن ﴿ فأوحى إليهم أنْ سبِّحُوه بُكْرةً وعشيًّا﴾ مريم : ١١ . قيل معنى أوحى هنا : أشار إليهم . ويأتي الوحي بمعنى الإلهام ، وفي القرآن : ﴿ وإذ أَوْحَيْتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ المائدة : ١١١ . أي ألهمتهم .

---

(١) التواتر : هو ان يتلقى الكلام الجمع العظيم عن النبي عليه السلام ، ثم ينقله جمع عن هذا الجمع ، وهكذا حتى يصل الينا كما نطق به النبي من غير تحريف ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة .

الوحي شرعاً : هو ما يلقي الله إلى أنبيائه ورسله ما يريد أن يعلموه من المعارف الدينية . ويكون على أنواع حسبما دل عليه قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ الشورى : ٥١ .

وقد ذكر المفسرون في تأويل هذه الآية : أنه ما صح لأحد من بني آدم أن يكلمه ربه إلّا على ثلاثة أوجه ، إما على الوحي : وهو الإلهام والقذف في القلب أو المنام . أو من وراء حجاب وهو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما كلّم الله موسى عليه السلام ، وإما الوحي بواسطة رسول من الملائكة تُرى ذاته ، ويسمع كلامه ، كتبليغ الملك جبريل للرسول محمد ﷺ ما ألقاه الله إليه من الوحي وبلّغه إياه .

الوحي في السنة

فصلت كتب الحديث مراتب الوحي لمحمد ﷺ كما يلي :

اولاً ــ الرؤيا الصادقة : ففي صحيح البخاري عن عائشة زوج النبي انها قالت : (أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح) .

ثانياً ــ ما كان يلقيه المَلَك في روعه من غير أن يراه ، كما قال محمد عليه الصلاة والسلام: (ان روح القدس [٢] نفث في روعي [٣] أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يطلب إلاّ بطاعته) .

ثالثاً ــ ما كان يأتيه مثل صلصلة الجرس [٤] .

رابعاً ــ ان يتمثل له جبريل رجلاً . جاء في صحيح البخاري : (ان الحارث

---

(٢) روح القدس : أي جبريل .

(٣) روعي : نفسي .

(٤) صلصلة الجرس : صوت الجرس .

ابن هشام رضي الله عنه ، سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ فيفصم[1] عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول) .

خامساً ــ رؤية الملك في صورته التي خلق بها ، فيوحي إليه ما شاء الله ان يوحيه .

سادساً ــ ما أوحى الله إليه به وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلوات وغيرها .

سابعاً ــ تكليم الله له من وراء حجاب بلا واسطة ملك ، كما كلّم الله نبيه موسى ، وهذا ما ذكر في حديث الاسراء .

دحض شبهة عن الوحي

هذا ما رُوي في كيفية الوحي ، ولكن ما كان يحصل لمحمد ﷺ هل هو صورة ذهنية ، أم حقيقة لها وجود في الخارج ؟ لأن الباحث المدقق يعلم ان ضروباً من الامراض العصبية ــ وخصوصاً الهستيريا ــ تظهر للمريض بها أشباح لا حقيقة لها ، وقد تجرأ بعض كتاب الغرب فقدّم هذا الإفتراء على محمد ﷺ ، ووصف الوحي الذي كان ينزل عليه بأنه نوع من الهستيريا، ولكن هذا الافتراء لا يرتكز على أي اساس علمي أو واقعي كما سيتبيّن لنا من هذه الوجوه :

منها : « ان الهذيان الهستيري لا يحدث إلاّ مصحوباً بأعراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل ، وهو ما لم يحصل قط لمحمد حتى في أثقل حالات الوحي عليه .

ومنها : ان ما ينسب للهستيريا من هذيان يحدث في أثناء النوبة فإذا أفاق المريض لم يذكر شيئاً مما قاله. وهذا على عكس حالة محمد، فقد كان لا ينطق في أثناء الوحي بشيء حتى يتم ، فيعيد كل ما أُلقي إليه ، ويأمر بتدوينه ...

ومنها : أن مواضيع الهذيانات الهستيرية لا تخرج عادة إلا عن تصورات

---

(١) يفصم : ينفصل عنه ويفارقه .

وهمية تناسب الأعصاب المتعبة المريضة كتخيل المريض رؤية روح شريرة يتوعّده بالأذى ، أو يتقصّده بالقتل ، أو يقلقه بالاستهزاء والتحقير ، ولم يشاهد هذيان هستيري قط موضوعه نشر فضيلة أو اذاعة هداية ... » [1].

بدء نزول القرآن وسوره

بدأ نزول القرآن[2] بمكة ، وأول ما نزل منه – عندما كان رسول الله يتعبد وحده في غار حراء – هذه الآيات : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق[3] . إقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ثم توالى نزول القرآن على حسب الحوادث حتى تمّ نزوله في ثلاث وعشرين سنة تقريباً .

والقرآن يشتمل على سُور. والسورة[4] هي قطعة من القرآن مستقلة تشتمل على ثلاث آيات فأكثر ، وسور القرآن مئة وأربع عشرة سورة لكل سورة منها اسم خاص . وقد وقع لبعضها اسمان فأكثر ، من ذلك فاتحة الكتاب وتسمى أيضاً أم القرآن والسبع المثاني .

وأسماء السور تارة تؤخذ من أوائلها ، وبعضها يسمى بأشياء إختصت السورة بها ، وبعضها يسمى بما كثر تردّده فيها من أحكام وقصص .

وسور القرآن قسمان : فما نزل قبل الهجرة يقال له : المكي ، وما نزل بعد الهجرة يقال له : المدني .

كُتّاب القرآن

وكان رسول الله قد اتخذ له كتّاباً يكتبون ما ينزل من القرآن أشهرهم : الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي، كذلك زيد بن ثابت ،

---

(١) محمدفريد وجدي – المجلد العاشر من مجلة الأزهر ص ٤١٠ .

(٢) القرآن لغة ، قال الزجاج : هو وصف على وزن فعلان مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع ، وسمي الكلام المنزل على النبي قرآناً لانه جمع السور أو جمع ثمرات الكتب المقدسة .

(٣) علق : دم جامد .

(٤) قال الجاحظ : سمى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم جملة وتفصيلا ، فسمى جملته قرآناً وسموا ديواناً . وسمى بعضه سورة ، وسموا قصيدة. وسمى بعض السورة آية، وسموا بيتاً، وسمى آخر الآية فاصلة ، وسموا قافية .

وابيّ بن كعب ، ومعاوية ، وثابت بن قيس ، وخالد بن الوليد. وكانوا يخطونه على ما اتفق لهم يومئذ من جريد النخل[1] ، والحجر الرقيق ، وعظام الأكتاف والأضلاع من الشياه والابل ، وكل ما أصابوا من مثلهـــا كالكتابة على الجلد أو الخشب .

وكان النبي ﷺ يدلهم على موضع كل آية من سورتها .

وكان من الصحابة في العهد النبوي من جمع القرآن حفظاً عن ظهر قلب ، كعبد الله بن مسعود ، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة ، ومعاذ بن جبل ، وأبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت .

جمعُ القرآنِ ونسخهُ في المصاحِفْ

لم يجمع القرآن في مصحف على عهد رسول الله على أمل نزول الوحي عليه ما دام حيّاً ، ثم توفي رسول الله والقرآن في الصدور وفيما كتبوه عنه ، وخلفه أبو بكر الصديق ، وفي خلافته حصلت حروب أهل الردة ، ومنها غزوة اليمامة التي قتل فيها كثير من حفظة القرآن ، فأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمع القرآن في مصحف خشية أن يذهب بذهاب الحفظة ، فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه فعل لم يكن على عهد رسول الله، ثم ارتاح لرأي عمر لما فيه من المصلحة ، فدعا زيد بن ثابت لأنه كان ألزم الصحابـــة لمجلس رسول الله ومن أحفظهم للقرآن ، وكلفه بكتابة القرآن في مصحف واحد ، فجمع زيد جميع الصحف ، وأودع كل ذلك بين دفتي كتاب واحد ، ثم أبقى أبو بكر تلك الصحف عنده إلى أن توفاه الله، ثم كانت عند عمر بن الخطاب، ثم جعلها عمر عند بنته حفصة زوجة رسول الله .

ثم لما انتشر المسلمون في الآفاق إختلف الناس في قراءة القرآن على قدر اختلاف لهجاتهم مثل كلمة « التابوت » كان يقرأها بعضهم بالتاء وبعضهم بالهاء ، فأخبر عثمان بن عفان وكان أميراً للمؤمنين ، فاستحضر الصحف التي كانت عند حفصة ، وجمع ثلاثة من الرجال الذين اشتهروا بالحفظ والضبط وجمع القرآن ، وهم المعروفون بالنفر القرشيين، وعهد إليهم بكتابة المصحف

---

(١) كانوا يكتبون على الطرف العريض .

على ما استقر عليه الأمر في العرضة الأخيرة التي عرض بها رسول الله القرآن على جبريل في عامه الأخير على العادة التي جرت من مدارسة القرآن بين جبريل والنبي في رمضان . ومع ذلك فقد كان زيد بن ثابت لا يكتب آية في المصحف إلاّ بعد أن يشهد له رجلان بأنهما سمعاها من فم رسول الله عند نزول الوحي . فكتب هؤلاء النفر القرشيون أربع نسخ ، وقيل سبعاً ، وبعث بها أمير المؤمنين عثمان ابن عفان إلى الآفاق : الكوفة والبصرة والشام ، وترك واحداً عنده وقيل : بعث خامساً إلى اليمن وسادساً إلى البحرين وسابعاً إلى مكة . ثم أمر بإحراق ما عدا تلك الصحف الآنفة الذكر ، فكان كل مصحف من هذه المصاحف هو الامام في رجوع الناس إليه وتعويلهم في انتساخ مصاحفهم .

سلامة القرآن من التحريف

لم تُعنَ أمة في العالم بكتاب سماوي أو أرضي عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم ، ولم يُحط كلام إلهي أو بشري بمثل ما أحيطت به آياته من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس .

فقد كانت تنزل الآية أو الآيات منه فيحفظها النبي عن ظهر قلب ، ثم يتلوها ساعة نزولها على المحيطين به ، ثم يأمر كتبة الوحي بتدوين ما أنزل اليه . كما أن النبي كان يحتفظ بنسخة مما كتب في داره .

ثم لم يكن القرآن كغيره من الكتب المقدسة التي سبقته محتكراً في يد طائفة من الطوائف حتى يتسرب إلى الذهن ظنّ في احتمال طروء التحريف إليه قصداً أو عفواً بل كان عاماً شائعاً بين أيدي المسلمين ، أمروا ان يتعبدوا بتلاوته في صلواتهم ، وأن يحكموا به ، فكيف يتصور ان يقع فيه تحريف ولا يدري به جمهورهم وهم إذ ذاك جاعلوه دستورهم في كل محاولاتهم الدينية والاجتماعية ؟

ثم إن القرآن قبل أن يجمع في زمن أبي بكر كانت أجزاؤه المكتوبة موجودة عند الرسول وكثير من الصحابة ، وكان هؤلاء يتلونه في بيوتهم ، ولما جمعه عثمان أخيراً كان أكثر كتّابه وحفّاظه لايزالون على قيد الحياة ، فكيف يعقل ان يتطرّق اليه التحريف مع هذا ؟ وصدق الله إذ قال : ﴿ إنّا نحنُ نزّلنا الذكر [1] وإنّا له لحافظون ﴾ الحجر : ٩ .

---

(١) الذكر : القرآن .

كيف كان ينزل القرآن وحكمة ذلك ؟

أنزل القرآن مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة تقريباً ، فربما نزلت الآية المفردة ، وربما نزلت آيات عدة إلى عشر ، وذلك بحسب الحاجة التي تكون سبباً في النزول ليكون ذلك آنس للعرب وأدعى للقبول ، وأبلغ في الحجة عليهم وأظهر لوجه إعجازه . ولولا نزوله متفرقاً آية واحدة إلى آيات قليلة ما أفحمهم الدليل في تحديهم بأقصر سورة ، لأن القرآن تحداهم بأن يأتوا بسورة مثل سوره كما سيأتي ، فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان لهم بعض العذر في عجزهم عن معارضته، ولكن الآية أو الآيات كانت تنزل في وقت، وكان يفصل بين وقت وآخر زمن يكفي لأن تتهيأ نفوس لمعارضته ، أو الإتيان بمثله، ولكنهم كانوا يعجزون رغم الفرصة الكافية التي كانت تسنح لهم ، وهذا من أعظم الدلائل على وجه إعجاز القرآن ، وخاصة إذا اعتبرت ان أكثر ما نزل في إبتداء الوحي إلى أن هاجر النبي من مكة إنما هو من قصار السور ، وذلك ولا ريب مما تتهيأ فيه المعارضة .

كما ان في نزول القرآن مفرقاً حكمة أخرى هي : إستدراج العرب وتصريف أنفسهم بأوامره ونواهيه على حسب النوازل والحوادث — فمن الحكمة ان يكون الدواء عند حدوث الداء — ليكون تحولهم عن أخلاقهم وعاداتهم بسهولة ويسر . فالعرب كانوا قبل الإسلام في اباحة مطلقة ، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ولنفرت قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي .

ومن حكمة إنزاله مفرقاً : أن يحفظه النبي ويعيه ، وان يثبت الله به فؤاده كلما اشتدت معارضة المعارضين ، قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا ﴾ الفرقان : ٣٢ .

فقد كان الرسول امياً لا يقرأ ولا يكتب ، أما غيره من الرسل فقد كانوا كاتبين قارئين يمكنهم أن يضبطوا ما ينزل عليهم من الكتب جملة .

---

(١) ترتيله : تفريقه آية بعد آية .

القرآن يتحدى

التحدي الذي أبداه القرآن في أن يأتي العرب أو غيرهم بمثله أو بسورة منه وعجزهم في ذلك لهو من أعظم الدلائل على أنه وحي إلهي ، وإليكم توضيح ذلك :

كانت العرب مفطورة على حب البلاغة والأدب والشعر والخطابة ، وكانوا يقيمون في كل سنة مواسم يتبارى فيها الشعراء وينشدون أشعارهم في مكان يطلق عليه اسم : (عكاظ) ، وكان هناك شعراء فحول يحكمون بينهم .

وهذه الفنون من القول إشتهرت بها العرب ، وكانت أسمى ميزاتهم لأمرين :

أولاً — ان حياة الصحراء تدعو إلى التأمل واثارة العواطف وإنماء الخيال ، وهي أمور تلهم الشاعرية وتوحي ضروب القول .

ثانياً — ان حياتهم القبلية كانت مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، لذلك كانوا بحاجة إلى الشاعر البليغ الذي يرفع منزلة قبيلته ويعلي من شأنها ويحط من قيمة القبيلة الأخرى المخاصمة ، من هنا كثر اهتمامهم بالخطابة والشعر ، فرفعوا منزلة الشاعر المفلق ، والخطيب البليغ .

جاء القرآن الكريم أفصح كلاماً وأبلغ أسلوباً ومعنى ، ليجد السبيل إلى قلوب أهل الجزيرة العربية التي كانت مسرحاً للفوضى والاضطراب ... وهو لا يستطيع أن يستولي عليها إلاّ إذا كان أقوى منها فيما هي قوية به بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف « ومن طباع النفس التي جُبلت عليها انها متى خُذلت وكان خذلانها من قِبَلِ ما تعدّه أكبر فخرها وأجملَ صنعها وأعظم همها ، وأصابها الوَهَنُ في ذلك وضربها الخذلانُ باليأسِ فقلما تنفعها نافعةٌ بعد ذلك أو تجزئها قوة أخرى ...

فمن ثمّ لم تقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة التي هي أكبر أمرهم ومن جهة الكلام الذي هو سيّدُ عملهم »[1] .

سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم فخرسوا لفصاحته ، مذعنين لبلاغته ، بهر

---

(١) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢١٨ ط ٣ .

الشعراء منهم فخرست ألسنتهم ، وسكتت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم .. وذهبت كل بلاغة في تياره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الاذعان للدين الجديد والايمان برسالة محمد ، فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، فقالوا في القرآن : هو شعر ، وهو سحر ، وهو أساطير الأولين ، ورموا محمداً بالجنون تارة ، وبالكهانة تارة أخرى .

ولما كان من عادة العرب ان يتحدّى بعضهم بعضاً في المساجلة بالكلام ، والمقارضة بالقصيد والخطب لهذا تحدّاهم القرآن في آيات كثيرة ان يأتوا بمثله أو بعضه .

« وحكمة هذا التحدي وذكره في القرآن انما هي أن يشهد التاريخ في كل كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدّ[1] والفصحاء اللّسْنُ ... حتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مُولّدٌ[2] أو أعجمي كاذب أو منافق أو ذو غفلة فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وانه غيرُ مُعجز[3]... »

أما الطريقة التي سلكها القرآن في هذا التحدي فقد كانت مقصورة على طلبه من العرب أن يأتوا بمثل القرآن ، قال تعالى : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتّبعْهُ إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل مِمّن اتبع هواه بغير هُدًى مِنَ الله ، انّ الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ القصص : ٤٩ – ٥٠ .

طلب القرآن منهم في هذه الآية إنشاء كتاب مثل القرآن ، وكان قد نزل قبلها من القرآن سبع وأربعون سورة .

حار العرب في أمرهم لا يدرون كيف يأتون بكتاب مثل القرآن ، حاولوا ان يردوا على هذا التحدي فعجزوا ، ولذا نرى القرآن يخاطبهم بما ورد في سورة الاسراء من أنهم لن يستطيعوا ، بل ولن يستطيع الانس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله ، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتونَ بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا[4] ﴾ : ٨٨ .

---

(١) اللد : الخصم الشديد .

(٢) مولد : عربي غير محض .

(٣) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٢٢ ط ٣ .

(٤) ظهيراً : معيناً .

ومضى القرآن خطوة أخرى في تحديهم ، فلم يطالب بكتاب ، ولكن طالب بعشر سور كما جاء في سورة هود : ﴿أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سُوَرٍ مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلاّ هُوَ فهل أنتم مسلمون﴾ : ١٣ — ١٤ .

فالقرآن يستغرب قول الذين ادعوا ان القرآن من تأليف محمد واختلاقه ، فليأت هؤلاء بعشر سور من القرآن مختلقات — كما يدعون — وليستعينوا على ذلك بجميع البلغاء، ولكن هؤلاء المرتابين عجزوا ، وأثبت التاريخ عجزهم إلى يومنا هذا . والجدير بالذكر ان الله جعل عجزهم عن الإتيان بمثل عشر سور من القرآن دليلاً على أنه من عنده ، ودليلاً على وحدانيته .

ثم مضى القرآن خطوة ثالثة، فطالب بسورة واحدة، كما جاء في سورة البقرة ، وهذا نهاية التحدي : ﴿وإن كنتم في رَيْبٍ[1] مِمَّا نزّلنا على عبدنا[2] فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم[3] من دونِ الله ان كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار[4] التي وقودها الناس والحجارة أُعِدّت للكافرين﴾ : ٢٣ — ٢٤ .

« فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشرياً ، ومن الصعب بل ومن المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوّته، وإنما ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير هو الناطق على لسانه « أي محمد » ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه »[5] .

---

(١) الريب : الشك .

(٢) العبد : يطلق بمعنى الرقيق أي غير الحر . ويطلق على الانسان ولو كان حراً باعتبار معنى عام هو عبوديته لله ، وعلى هذا الوجه اطلق في الآية مراداً منه الرسول محمد عليه السلام ، وفي اضافته الى الله تعالى « عبدنا » تنبيه على شرف منزلته عنده .

(٣) شهداءكم : آلهتكم ، فقد كان العرب يزعمون : ان آلهتهم تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على الحق والمعنى: نادوا الذين اتخذتموهم أولياء من غير الله ليعينوكم على المعارضة .

(٤) فاتقوا النار : أي خافوا العذاب الذي أعده للجاحدين، وهو النار .

(٥) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٧٠ .

سمع العرب آيات التحدي وانتشرت فيما بينهم، ودارت على الألسنة، فبدا عجزهم وظهر ضعفهم عن مجاراة هذا التحدي، وعرفوا أنها تعجزهم إلى آخر الحياة.

«فلو أن هذا القرآن غيرُ فصيح أو كانت فصاحته غيرَ معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم ... لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص. ثم لنقضوه كلمةً كلمةً وآية آية دون أن تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعُهم ولكان لهم وله شأن غير ما عُرف»[1].

وبلغاء العرب كثيرون، منهم من يضمر للدعوة الإسلامية العداء، فلو وجدوا في بلاغة القرآن منفذاً من ضعف لجاهروا بذلك، ولأتوا بأقوال تفوق فصاحته.

يقول الجاحظ في معرض كلامه عن القرآن: «فمحالٌ أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر والخطأ المكشوف البيّن مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلامُ سيدُ عملهم، وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة! وكما أنه محال أن يُطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه، وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه وهم يبذلون أكثر منه».

ثم امتدت الأجيال وتوالت العصور، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون باعجازه ويقرّون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان.

وفي تاريخ العربية فحول في النثر: كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع، وفحول في النظم: كجرير والفرزدق وبشار وابي نواس وابي تمام والمتنبي والمعري وشوقي وسواهم ولكن أين بلاغتهم من بلاغة القرآن؟ وهل منهم إلا من أذعن وانبهر وخشع وخضع، وأيقن أنه وحي السماء.

القرآن معجزة محمد عليه السلام

إقتضت حكمة الله أن تكون معجزة محمد من جنس ما اشتهر العرب

---

(1) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠٩.

بالنبوغ فيه لأن كل رسول تكون معجزته من جنس ما نبغت فيه أمته .

ولما كان قوم فرعون أهل علوم رياضية وطبيعية واولي سحر وصناعة ، آتى الله رسوله موسى آيات كان العلماء والسحرة أعلم الناس بها بأنها من عند الله لا من كسب موسى ، فكانت معجزة موسى عصا انقلبت حية تسعى فلقفت كل حبال السحرة .

ولما كان قوم عيسى قد اشتهروا بالطب وغلب عليهم إنكار الروح آتاه الله من الآيات إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت .

والحق يقال : ان معجزات الرسل السابقين الدالة على صدق نبوتهم هي وقائع تنقضي ، يراها الذين عاصروا الأنبياء فيؤمنون حق الايمان بمن جاءت على يدهم ولا يراها الذين يأتون من بعدهم بل تصل إليهم أخبارها فيضعف تأثيرها على الأمم التالية . ثم إنّ المعجزات توافق عقول تلك الأزمان التي كان فيها العقل في طور الطفولة . والآن بعد أن ترقى العقل وكثرت المعارف ودخلت الشبهات على الأديان ضعف تأثير هذه المعجزات على اتباع الأديان ، أو بالاحرى ضعف الإيمان وسرى الإلحاد فكان الدين بحاجة إلى دلائل وبراهين على صحته غير البراهين السالفة .

ومما يجهله أكثر الناس ان الإسلام سار على غير سمت الأديان التي كانت قبله ، وسن نهجاً جديداً في البرهان على صحته ، وعلى أنه من عند الله ، فالقرآن هو الكتاب المعجز للبشر بهدايته وتشريعه وأسلوبه ومعانيه التي تتميز بخلودها وبقائها على الزمن ، فقد أُنزل القرآن بعد أن ترقى العقل البشري ، فكان البرهان الذي اتى به يتفق مع هذا الرقي .

وفيما يلي دراسة علمية موجزة عن إعجاز القرآن تشهد انه وحي إلهي ، يقتنع بها كل ذي عقل سليم ولا يرفضها إلاّ كل مكابر معاند .

إعجاز القرآن

الاعجاز في اللغة : نسبة العجز الى الغير وإثباته له ، يقال : اعجز الرجل اخاه اذا أثبت عجزه عن شيء ، وأعجز القرآن الناس أي أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله « والقرآن معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الاعجاز على إطلاقه .. فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس الى ذلك مأتى ولا جهة ، وإنما

هو أثر كغيره من الآثار الإلهية يشاركها في اعجاز الصنعة وهيئة الوضع[1] ... »

ووجوه اعجاز القرآن وافرة، الا أنها تحتاج إلى تحليل واسهاب واستدلال عليها بالآيات القرآنية، وهذه الأمور تستغرق عدة مجلدات. ونحن مضطرون في هذا البحث الى الايجاز والاكتفاء بلمحة عن بعض نواحي اعجاز القرآن التي تشهد انه وحي إلهي ليكون لدى القارىء فكرة مجملة عن اعجازه. ونبدأ بأسلوب القرآن والخصائص التي يمتاز بها.

اسلوب القرآن

في القرآن مظهر غريب لاعجازه المستمر ألاوهو أسلوبه، فهو نمط فريد في البلاغة والروعة واشراق البيان، وجمال الديباجة. وأسلوبه مخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها.

يقول الدكتور طه حسين: « ان القرآن ليس نثراً كما انه ليس بشعر انما هو قرآن ولا يمكن ان يسمى بغير هذا الاسم. ليس شعراً وهذا واضح فهو لم يقيد بقيود الشعر. وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به لا توجد في غيره وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة »[2]. ويقول الباقلاني: « ان نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله اسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد[3] ».

« من ذلك يخلص لنا أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه لأنه ليس وضعاً إنسانياً البتة، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد[4] » وما من عالم أو بليغ إلاّ وهو يعرف ذلك، ويعد خروج القرآن عن أساليب العرب دليلاً على إعجازه، وعلى أنه ليس من كلام الناس ولا من كلام محمد، ولولا هذا الأسلوب

---

(١) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠٣ .
(٢) حديث الشعر والنثر ص ٢٥ ..
(٣) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٨ .
(٤) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٦٩ .

ما أفحم العرب لأنهم رأوا جنساً من الكلام غير ما تؤديه طباعهم. ولمّا حاول بعضهم معارضته (كمسيلمة) - الذي ادعى النبوة — جاء بشيء لا يشبهه ولا يشبه كلام نفسه فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها .

اختلاف أسلوب القرآن عن الحديث النبوي

وهناك ناحية جديرة بإمعان النظر تشهد بأن القرآن وحي إلهي وهي : اننا نرى أسلوب القرآن مخالفاً لأسلوب كلام النبي عليه السلام ، فإذا رجعنا الى كتب الأحاديث التي جمعت أقوال النبي وقارناها بالقرآن رأينا الفرق واضحاً في كل شيء ، في أسلوب التعبير ، وفي الموضوعات ، فالحديث النبوي تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب بايجاز في القول ، بخلاف أسلوب القرآن الذي لا يعرف له شبيه في أساليب كلام العرب .

كما وان الحديث النبوي تستشعر من خلال أسلوبه بشخصية بشرية ، وذاتية يعتريها الضعف وتعتز بهذا الضعف أمام الله ، بخلاف القرآن الذي تتراءى لك من آياته ذاتية جبارة عادلة حكيمة رحيمة ، وهذه الذاتية لا تضعف حتى في المواطن التي تعبر فيها عن الرحمة .

فلو كان القرآن من كلام محمد كما يدعي البعض لكانت أقواله والقرآن صنوين ، لأنه من المسلّم به لدى أهل البصر الادبي أنه من المتعذر على الشخص الواحد ان يكون له أسلوبان في بيانه يختلفان اختلافاً كبيراً أحدهما عن الآخر .

فهذا الاختلاف الواسع المدى بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث والذي يدركه من له إلمام ببسائط اللغة العربية يشهد بأن القرآن وحي إلهي .

مِنْ خصائِصِ أُسلوبِ القرآنِ وَبلاغتِه

كتب كثير من علماء البلاغة في أسلوب القرآن ، وما اختص به من فنون البلاغة مما لو استعرضناها جميعاً لضاق بنا المجال ، ولكن سنقصر الكلام هنا على بعض خصائص أسلوب القرآن ، وما احتواه من تشبيه ، واستعارة ، وإيجاز ، وضرب للأمثال كي نعطي القارىء صورة مجملة عن بلاغته ، فيكون عند تلاوته متذوقاً سحر بيانه وروعة أسلوبه . والحق « انما يعرف فضل القرآن من أكثر نظره فيه ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب ، وافتنانها في الأساليب ، وما خصت به لغتها دون جميع اللغات»[1] .

وَزنُ القرآنِ وَجَمالُه الصَّوتي

يتميز أسلوب القرآن بذلك الجمال الصوتي الناشئ من تخير الألفاظ العذبة ، التي لا امتهان فيها ولا ابتذال ، ونظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة درجة لا يعلى عليها .

هذا الجمال الصوتي لأسلوب القرآن يصل في بعض الأحيان أن تتفق الآية مع وزن بحر من بحور الشعر ، وليس معنى ذلك أن القرآن هو شعر فهو لم يقصد إليه إلّا أنه « جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً ، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقي الداخلية والفواصل[2] المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي[3] » .

وتارة نرى في أسلوب القرآن تشابهاً بينه وبين السجع ، ولكنه يخالف غالباً ما ألف الناس في السجع والإرسال ، فالقرآن يلتزم حرف السجع في

---

(١) تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد بن قتيبة تحقيق الأستاذ احمد صقر . ص ١٠ .

(٢) الفاصلة : هي اصطلاح اطلق على الكلمة التي تختم بها الآية من القرآن فمكانتها في الآية مكانة القافية ، لها قيمتها في اتمام المعنى ولها اثرها الموسيقي في نظم الكلام .

(٣) التصوير الفني في القرآن للاستاذ سيد قطب ص ٨٣ – ٨٤ .

أكثر من آيتين ، بل قد تكون السورة كلها على حرف واحد كسورة القمر التي التزم فيها حرف الراء ، والسجع نوع من الأداء اللفظي برز عند العرب من قديم الزمن ، وكانوا يلتزمونه لوقعه في آذانهم من حيث جرس الألفاظ ورنين موسيقاها ، وكان الخطباء في الجاهلية والكهان يعمدون إلى السجع للتأثير على السامعين ، ولكن القرآن ليس بسجع .

فالقرآن يمتاز أسلوبه بجمال صوتي خاص لم يعهده العرب في كلامهم سواء أكان مرسلاً أو مسجوعاً حتى خيل إلى هؤلاء العرب في بدء الإسلام الإسلام أن القرآن شعر لأنهم أدركوا في إيقاعه لذة لم يعرفوا شيئاً قريباً منها إلّا في الشعر ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا ، لأن الشعر معروف لهم بأوزانه وقوافيه ، والقرآن ليس شعراً .

التشبيه في القرآن

التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى يجمعهما ، والغرض منه الوضوح والتأثير ، وقد احتوى القرآن على أنواع من التشابيه البليغة تكسب المعاني روعة وتجعلها أكثر تأثيراً في النفس .

فمن تشابيه القرآن ايضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، فهو مثلاً يشبه ضعف ما اعتمد عليه المشركون في عبادتهم لغير الله وما يبذلون من جهد يظنونه مثمراً ولكنه لا يُجدي لهم نفعاً شبهه بالعنكبوت تلك الحشرة الصغيرة التي تجهد نفسها في البناء وهي لا تبني سوى أوهن البيوت . قال تعالى:

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوْهَنَ البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

والقرآن يحدثنا عن أعمال الكفرة وانها لا ثمرة ترجى منها فشبهها بالرماد وقد هبت عليه ريح شديدة فنثرته ولم تبق له أثراً : ﴿ مَثَلُ الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ إبراهيم : ١٨ .

فكما لا يقدر صاحب الرماد المتطاير على إمساك شيء منه فكذلك الكفرة

لا يمكنهم الانتفاع يوم القيامة بشيء من أعمالهم إذ لا يرون لها آثراً من الثواب.

وتشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة فهي تؤثر في السامع لأنه يدرك عناصرها ويراها قريبة ، أنظر إليه حين يشبه أعمال الكافرين بالسراب الذي يراه الظمآن في الصحاري فيظنه ماء فيسعى إليه لاطفـاء ظمأه ولكن لايلبث ان تملأ الخيبة قلبه عندما يصل إليه فلا يجد شيئاً، وهكذا يغتر الكافرون بأعمالهم فيظنونها نافعة مجدية فإذا جاءوا يوم الحساب لم يجدوا شيئاً مما كانوا يؤملون بل وجدوا العقاب الذي توعدهم به ربهم ، اقرأ قوله تعالى : ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة[1] يحسَبُهُ الظمآنُ ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه﴾ النور : ٣٩ .

ويشبه القرآن حال الدنيا والمغترين بقوتهم فيها ومآل حالهم بهذه الآية البليغة : ﴿انما مَثَلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زُخْرُفها وازيّنت وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حَصيداً كأن لم تَغْنَ بالأمس﴾[2] يونس : ٢٤ .

فهذه الدنيا في روعتها وبهجتها كحال الماء الذي ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض فيزدهر ويثمر فيأكل منه الناس والحيوان . حتى إذا استكملت الأرض جمالها وظن الإنسان انه بقوته وقدرته متمكن فيها ، فبغى وأعرض عن هدي الله وإذ يفاجئه الله بزوالها سواء بالزلازل أو بالإغراق أو بالحروب المدمرة فيجعلها سبحانه كالأرض المحصودة التي استؤصل زرعها .

تأمل كيف كثرت الجمل في هذه الآية حتى انها بلغت عشراً سرى بعضها في إثر بعض حتى كأنها جملة واحدة ، والتشبيه المراد منتزع من مجموعها .

الاستعارة في القرآن

هي إستعارة الكلمة من معناها المعروف بها إلى معنى جديد لم تُعرف بها

---

(١) القيعة : الأرض المنبسطة .

(٢) في هذا العصر الذي استكملت الأرض زينتها وظن الانسان انه مسيطر على مقدراتها، اخشى ما اخشاه ان يكون حال هذه المدنية الى الدمار. ان الانسان يلوح بدمار العالم بيده عن طريق القنابل الذرية، ولكن هل يرجع الانسان الى الايمان بالله ليستنير بنوره في تصريف اموره ؟ فيمنع عنه كارثة ستحل به بسبب عماه واغتراره بقوته مما لم يكن له مثيل في تاريخه من قبل .

في أصل اللغة وذلك بعد أن تتوفر بينهما علاقة المشابهة ، وحكمة ذلك إظهار الخفي وإيضاح الظاهر الذي ليس بجلي بصورة أجلى وأوضح .

وقد احتوى القرآن على صنوف من الاستعارة تظهر بلاغة القرآن وعلو منزلته في التعبير .

هذا والاستعارة تؤدي بألفاظ قليلة ما تؤديه شروح كثيرة ، من ذلك ما جاء في القرآن : ﴿ إشتعل الرأس شيباً ﴾ فاشتعل إستعارة لأن الإشتعال للنار ، ولما كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتّى يشمله كان بمنزلة النار التي تدب في الفحم مبطئة في دأب واستمرار حتّى تأتي عليه ، والعلاقة واضحة بين ضوء النار وبياض الشيب .

ومن الاستعارة في القرآن ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمَغُهُ فإذا هو زاهق ﴾ الأنبياء : ١٨ .

فالقذف والدمغ مستعاران ، وحقيقتهما ان يُقال : بل نورد الحق على الباطل فيذهبه ، وإنما كانت الاستعارة بلفظ (القذف) ابلغ لأنها تصوّر القوة التي يهبط بها الحق على الباطل ، وكلمة (يدمغه[1]) توحي بتلك المعركة التي تنشب بين الحق والباطل حتّى يصيب رأسه ويحطمه فلا يلبث أن يموت .

وجاء في القرآن : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ فتنفس هنا مستعار ، وحقيقته بدأ إنتشاره ، وتنفس أبلغ ، فكأنما كانت الطبيعة هادئة هاجعة لا تحس فيها حركة ولا حياة فلما أقبل الصبح صحا الكون ودبّت الحياة في أرجائه ، أو من وجه آخر ان طلوع الشمس أولاً فأولاً أشبه بخروج النفس شيئاً فشيئاً .

ويصف القرآن حشود الناس ترقباً للحساب يوم القيامة : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونُفِخَ في الصور فجمعناهم جمعاً ﴾ الكهف : ٩٩ .

أصل الموج حركة الماء فكلمة (يموج) لا تقف عند حد إستعارتها لمعنى الاضطراب بل انها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس إحتشاداً لا تدرك العين مداه حتّى صار هذا الحشد الزاخر كبحر يتموج ويضطرب ولا تأتي كلمة (يموج) إلاّ موحية لهذا المعنى .

وجاء في القرآن : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ .

---

(١) دمغ : شجه في رأسه حتّى بلغت الشجة دماغه .

والمعنى : ولما زال عن موسى الغضب فالمستعار السكوت وحقيقة السكوت زوال الكلام . ألا تحس بالغضب هنا وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الإنفعال والثورة ثم سكت وكف عن دفع موسى وتحريضه .

وجاء في القرآن : ﴿ أوَ من كان ميتاً فأحييناه [1] وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثَلُه في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ الانعام : ١٢٢ .

ففي هذه الآية أستعير النور مكان الهدى لأن النور مشاهد محسوس بالبصر يدري به السائر على الطريق المقصود ، ويحصل به الإنسان على ما يبتغيه من نفع ، واستعيرت الظلمة للضلالة ، فالسائر في الظلمة يذهب في غير الطريق المراد ، وربما دفع به الى الهلاك بالتردي في حفر عميقة .

الايجاز في القرآن

الايجاز هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ ، فالعبارة الموجزة التي تعطي معاني كثيرة هي بليغة ، وبقدر ما يقل اللفظ ويزداد المعنى ترتفع نسبة القول في مراتب البلاغة حتى تصل إلى درجة الاعجاز .

فالقرآن يدل بالكلمة الواحدة ، وبالكلمات المختصرة على معانٍ متعددة يطول شرحها ، وإذا أراد المتكلم البليغ التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن لم يصل الى بغيته إلاّ بألفاظٍ أطول ودلالة أقل ، والمثال على ذلك ما جاء في القرآن في إثبات وحدانية الله : ﴿ ما اتخذ الله من ولد . وما كان معه من إله اذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ وجاء في القرآن : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ الانبياء : ٢٢ . فلو كان مع الله آلهة أخرى لتقاسموا هذا الكون ، ولتنازعوا فيما بينهم ، والتنازع يؤدي الى فساد الكون ، وبما أن الكون لم يعتره الفساد منذ ملايين السنين فهذا دليل على وحدانية الله وتفرده بالقدرة .

وجاء في القرآن : ﴿ خُذ العفو وأمُرْ بالعُرف [2] وأعرض عن الجاهلين ﴾ جمع القرآن في هذه الكلمات جميع مكارم الأخلاق : لأن في العفو صلة

---

(١) او من كان ميتاً فأحييناه : اي ضالا فهديناه ، فان الموت والحياة هنا مجاز فاستعير الاحياء للهداية .

(٢) العرف : هو المعروف الذي تعرفه العقول السليمة وتقر بحسنه ونفعه .

المتخاصمين ، وفي الأمر بالمعروف تقوى‌الله وصلة الرحم والترفع عن كل قبيح لأنه لا يجوز ان يأمر بالمعروف وهو يقترف المنكر ، وفي الاعراض عن الجاهلين الصبر والحلم وكبح النفس عن الرد على السفيه .

وجاء في القرآن : ﴿ ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء[1] والمنكر[2] والبغي[3] يعظكم لعلكم تذكـرون ﴾ النمل : ٩٠ .

أمر الله في هذه الآية بكل معروف ، ونهى بعد ذلك عن كل منكر ، وختم الآية بأبلغ موعظة ، كل ذلك بألفاظ قليلة .

وجاء في القرآن عن نعيم الجنة : ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفُس وتَلَذُّ الأعين ﴾ الزخرف : ٧١ .

فهذا اللفظ القليل دل على مَعان لا تنحصر عداً ، فقد ألمح فيه كل ما تميل إليه النفس من الشهوات وتلذ الأعين من المرئيات .

وجاء في القرآن : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها[4] أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ فقد دل بكلمتي : ماءها ومرعاها على جميع مظاهر الحياة على هذه الأرض .

وجاء في القرآن : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب[5] ﴾ البقرة : ١٧٩ هذه الآية بيّنت حكمة القصاص بأبلغ معنى وأوجز تعبير .

---

(١) الفحشاء : الزنى وما اشتد قبحه من الذنوب .

(٢) المنكر : ما ليس فيه رضى الله من قول أو فعل .

(٣) البغي : الظلم ، ويأتي بمعنى العصيان .

(٤) دحاها : بسطها .

(٥) كان العرب قبل الاسلام يمتدحون هذا القول البليغ (القتل أنفى للقتل) فلما جاء القرآن بهذه الآية (ولكم في القصاص حياة) تركوا القول العربي لعلو بلاغة القرآن عليه والتي تبرز من عدة وجوه منها : أن الآية مطردة بخلاف المثل فإنه ليس كل قتل انفى للقتل بل قد يكون ادعى له وهو القتل ظلماً وإنما ينفيه قتل خاص وهو القصاص ففيه حياة ابداً وهو الذي نص عليه القرآن . ومنها : ان التكرار حصل في المثل العربي ولم يحصل في القرآن . ومنها : ان (القصاص حياة) اقل حروفاً فإن حروفها عشرة وحروف (القتل انفى للقتل) اربعة عشر . ومنها : ان لفظ القصاص مشعر بالمساواة فهو منبىء عن العدل بخلاف مطلق القتل .

إيجاز القرآن في تصوير طوفان نوح

ومن الإيجاز البليغ الذي جاء في القرآن هو وصف طوفان نوح قال تعالى :

﴿ كذّبت قبلهم قوم نوح فكذّبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجر . فدعا ربه اني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بمـــاء منهمر . وفجّرنا الأرض عُيُوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِر . وحملناه على ذات ألواح ودُسُر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر ﴾ القمر : ٩ — ١٤ .

أرأيت أيها القارىء — جمال سبك هذه الآيات ووزنها وتصويرها المراد بأقل الألفاظ وأبلغ المعاني ؟! ثم تأمل كيف وصف القرآن إنتهاء الطوفان بهذا القول البليغ :

﴿ وقيل يا أرض إبلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجُودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين ﴾ هود : ٤٤ .

هذه الآية تصف إنتهاء الطوفان بأخصر عبارة تتحدر كتحدر المياه بسهولة سبك وعذوبة ألفاظ ، فمعانيها تسابق ألفاظها وألفاظها تسابق معانيها ، أنظر الى توالي جمل هذه الآيات معطوفاً بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة فقد بدأ القرآن بذكر الأهم وهو تخليص السفينة من الماء المحيط بها ولا يحصل إلاّ بانحسار الماء عن الأرض فلذلك بدأ الله بأمر الأرض بابتلاع مائها ، ولكن إذا لم ينقطع المطر فلربما تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها فأمر الله السماء بالكف عن المطر ، ثم أخبر القرآن بغوران الماء عندما ذهب ماء الأرض وانقطع المطر . (وقضي الأمر) أي هلك من قضى الله في علمه هلاكه ونجا من أراد نجاته ، وكذلك استواء السفينة على جبل الجودي ثم الدعاء على الهالكين بعد أن وصفهم الله بالظلم ليبين أن الهلاك إنما شمل من يستحق العذاب .

ولكن لما كان هذا الأمر الإلهي بإهلاك الظالمين قد صدر من غير أن يسمعه من في الكون بُني الفعل للمجهول فابتدأ الأمر بقوله : (وقيل يا أرض) . وانظر الى التناسق الموسيقي بين (ابلعي) و (اقلعي) . وهما استعارة لغوية ، وجاءت كلمة (ابلعي) هنا مصورة لما يُراد أن تصنعه الأرض وهي أن تبتلعه في سرعة فهي هنا أفضل من إمتصي مثلاً لأنها تدل على الإسراع في

التشرب ، وفي اضافة الماء إليها ما يوحي بأنها جديرة أن تمتص ماء هو ماؤها . وانظر الى كلمة استوت للسفينة دون استقرت لما يحتمله الإستقرار من ذهاب الخوف وحصول الأمن من الاضطراب ، فاستواء السفينة حقيقتها انها استقرت إستقراراً لا ميل ولا حركة فيها وهذا مما يُدخل الطمأنينة لأهل السفينة ويُسهل خروجهم منها . وجاءت كلمة (بعداً) دون (هلاكاً) اشارة الى أن هلاك الظالمين انما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض[1] .

الامثال في القرآن

ومن خصائص أسلوب القرآن ضرب الأمثال : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكّرون ﴾ الزمر : ٢٧ . وذلك للتذكير والوعظ والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل في تصويره بصورة المحسوس لأن ذلك أثبت في الاذهان وأسرع الى اقناع الوجدان .

وأمثال القرآن قسمان: قسم ظاهر ، مصرح به بما مثّل الله به حال المنافقين بقوله : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حـــوله ذَهَبَ الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يُبصرون[2] ﴾ .

وقسم كامن ، مثل قوله تعالى : ﴿ بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ وهو كالمثل المتداول « من جهل شيئاً عاداه » وقوله تعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ وهو بمعنى المثل المتداول « اتق شر من أحسنت إليه » وكقوله تعالى: ﴿ أولم تُؤمن : قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ وهوكالمثل المعروف « ليس الخبر كالعيان » . وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ وهو كالمثل المعروف« خير الأمور أوساطها» وقوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ وهو كالمثل المعروف « كما تدين تُدان » .

وفي القرآن ألفاظ تجري مجرى المثل ، مثل قوله تعالى : ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلاّ بأهله ﴾ ﴿ ما على الرسول إلاّ

---

(١) من مراجع هذا البحث كتاب (من بلاغة للقرآن) للدكتور احمد البدوي .

(٢) هذه الآية شبهت حيرة المنافقين واضطراب امرهم بالذي يسير في الليل وقد اوقد ناراً تضيء طريقه فعرف الى اين يسير ، ثم شمل المكان ظلام دامس فاصبح لا يدري فيه السائر اين يضع قدمه .

البلاغ ﴾ ﴿هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان﴾ ﴿قل كلٌّ يعمل على شاكلته﴾ ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ ﴿لا يستوي الخبيث والطيب﴾ ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ ﴿الطيّبون للطيبات﴾ ﴿ذلك بما قدّمت يداك﴾ ﴿أليس الصبح بقريب﴾ ﴿كل حِزْبٍ بما لديهم فرحون﴾ ﴿لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها﴾ .

تكرار معاني القرآن

وناحية أخيرة يختص بها أسلوب القرآن هي التكرار في بعض آياته بعبارات مختلفة ولكن أصل المعنى واحد ، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها ، أو في بعض عباراته لبيان النعمة ، وترديد المنة والتذكير بالمنعم واقتضاء شكره .

فترديد الكلام حول معنى واحد في آيات مختلفة تتشابه لفظاً ومعنى ، فصاحة وبلاغة ، سرّ من أسرار القرآن ، وضرب من ضروب القدرة الكلامية اختصّ بها القرآن حيث تنبل الأغراض وتبلغ المقاصد التي سيق لها الكلام قمم الرفعة والسمو ، الأمر الذي لمثله يستطاب التكرار .

وحكمة ذلك أن القرآن تحدى ببلاغته وهديه العرب وغيرهم ، ولهذا كرّر بعض معاني آياته في موضع على طريقة الأطناب ، وفي آخر على طريقة الإيجاز ليتجلى إعجازه ، وتظهر فصاحته ، ورصانة لفظه ، وليعلم أنه ليس بكلام البشر . فالشاعر أو الكاتب إذا كرّر قولاً لا يكون كلامه الثاني بدرجة الأول في الفصاحة بل تظهر عليه بوادر الصنعة والتكلف والتفكك .

والتكرار أيضاً من أفضل سبل الإقناع وأقوى الوسائل لتركيز الرأي والعقيدة في النفس البشرية ، ولهذا نرى في عصرنا الحاضر أصحاب الدعايات يعمدون إلى التكرار في دعاياتهم مع التنوع في عباراتها للوصول إلى هدفهم .

من وجوه اعجاز القرآن

وللقرآن وجوه كثيرة من الاعجاز تشهد أنه وحيٌ إلهي ، منها :

فصاحة القرآن في كل المواضع

« إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه من ذكر قصص ، ومواعظ ، وحكم وأحكام ، ووعد ووعيد ، وأخلاق كريمة ، وغير ذلك .

وإننا نجد أن كلام البليغ والشاعر المفلق يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور ، فمن الشعراء من يجوّد في المدح دون الهجو ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجوّد في بعض النواحي من وصف الروض أو الخمر أو الغزل أو الحكم أو غير ذلك . ولذلك ضُرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام ، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ، وبان الإختلاف على شعره .

ومتى تأملت نظم القرآن وجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه لا تفاوت فيها ولا انحطاط عن المنزلة العليا من البلاغة [1] » .

وناحية أخرى جديرة بالاعتبار وهي أن تخيّر الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة . فمن المعترف به أن فصاحة العرب كان أكثرها في وصف الأطلال والحنين إلى الأحبة والابل والصيد والغزل والمدح والفخر والهجاء . والبلاغة في وصف هذه الأشياء المحسوسة متسعة جداً لأن طبائع أكثر الناس تكون مائلة إليها ، كما أن كثيراً من الشعراء عالجوا هذه النواحي فعلى هذا يكون المتأخر المتبع لأقوال الشعراء الذين سبقوه تحصل له ملكة في البلاغة في هذه الميادين بعد الممارسة . وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم رأيناه لم يتعرض لهذه الأشياء البتة ، فكان من الطبيعي أن تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت عليها العرب . ولكن القرآن تعرّض

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني باختصار ص ٣٩ – ٤٠ .

لنواحٍ أخرى لم تكن معهودة عند العرب كالتحدث عن الله وعظمته ، ووصف قدرته ، والدعوة إلى عبادته ، وتنزيهه عما لا يليق بـه ، ووصف ما أعده من النعيم للذين يطيعونه، والعذاب لمن يعصونه. وكذلك يقص القرآن أنباء الرسل مع قومهم ، وما تحتويه من العبر وأنواع العبادات ، والحث على مكارم الأخلاق ، وتحريم القبائح ، وأسس التشريع في المال ، والحكم والأسرة وغير ذلك . وأمثال هذه الأمور تستعصي على البليغ فلا يستطيع التعبير عنها ببلاغته المعهودة .

وإذا تمعنا في آيات القرآن الكريم نراه عالج جميع هذه الأمور في نهاية الفصاحة ، واستخدم لذلك ضروب التأكيد ، وأنواع التشبيه والتمثيل ، وأصناف الإستعارة ، وغير ذلك من فنون البلاغة التي بهرت قراء العربية في جميع العصور .

وفرة بلاغة القرآن

ووجه آخر من وجوه إعجاز القرآن هو أنه « ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب في البلاغة والتشابة في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر . وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ... وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً في الفصاحة »[1] .

فمن أين لأمي كالنبي عليه السلام ، أو متعلم مهما أوتي من العلم أن يؤلف ستة آلاف آية ــ عدد آيات القرآن على التقريب ــ بهذه الفصاحة والاتساق ؟ إن في ذلك لآية على أنه من عند الله .

سلامة القرآن من التناقض والخطأ

وشيء آخر هو أن القرآن على ضخامته يخلو من التعارض والتناقض والخطأ والاختلاف خلافاً لجميع كلام البشر ، فاننا نجد كبار العلماء في كـل عصر يصنفون ثم يطبعون وينشرون مؤلفاتهم ثم يظهر لهم أو لغيرهم كثير مـن

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني ص ٣٩ .

التعارض والإختلاف والأغلاط اللفظية والمعنوية ، أو تكون مؤلفاتهم أفضل الكتب وأحكمها في عصر مؤلفيها وبعد عصرهم بعدة عصور ، ثم ترتقي العلوم وتتغير أصول العمران فيظهر الإختلاف والخطأ في كثير مما فيها وهذا أمر مشهور عند العلماء .

وقد ظهر القرآن على لسان أميّ لم يتعلم القراءة والكتابة ، فكيف يمر عليه أربعة عشر قرناً تتغيّر فيه العقلية البشرية ولا يظهر فيه إختلاف ؟ بل نرى الأصول التي أتى بها القرآن والتي سيأتي تفصيلها في هذا الكتاب تتناسب مع كل زمان ومكان .

غزارة معاني القرآن

ومن خصائص اعجاز القرآن : « اننا نرى أسلوب القرآن من اللين ... والمُرونة في التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة ، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه ... وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلاّ الفطرة ، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم ، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضُروب من التأويل وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مُغيبة ... وان ما عُهِد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه »[1] .

هذا « وان فيه من المعاني الكثيرة والأغراض الوافرة مما لو كان في كلام الناس لظهر عليه صبغ النفس الانسانية لا محالة بأوضح معانيه وأظهر ألوانه وبصفات كثيرة من أحوال النفس »[2] .

وليس شيء في أسلوب القرآن في بعض مواضعه مما يدخله في شبه من كلام ، أو يرده الى طبع معروف من طباع البلغاء ، وإلى هذه الحكمة يشير الله تعالى : ﴿ أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ النساء : ٨٢ .

---

(١) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) اعجاز القرآن للرافعي ص ٢٧٣ .

اشتماله على أنباءٍ غيبيَّة

ومن الدلائل على إعجازه وكونه وحياً إلهياً إشتماله على أنباء غيبية صدقتها الحوادث ، وهذه النبوءات تشتمل على تأكيدات الله بأنه سينصر المسلمين على أعدائهم .

ومما يدهش العقل ولا يمكن تعليله إلاّ بأنه وحي إلهي وهو مجيء بعض هذه التأكيدات على حالة يخيل للناظر فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها ، من ذلك تبشير المؤمنين بأنهم سيخولون خلافة الله في الأرض :

﴿ وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم[1] في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمَكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ النور : ٥٥ .

نزلت هذه الآية حين كان المسلمون بعد هجرتهم الى المدينة ، يبيتون ويصبحون في سلاحهم قائلين : هل يأتي علينا زمن نؤدي فيه شعائرنا آمنين مطمئنين على حياتنا ؟ ولم يلبث أن جاء ذلك الزمن وتحقق مؤدى هذه الآية فآلت الى الأمة الإسلامية خلافة الله في الأرض .

ومما ينتظم في هذا الباب ما جاء في القرآن : ﴿ يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، ان الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ المائدة : ٦٧ .

وكان بعض أصحاب النبي عليه السلام قد تطوعوا لحراسته من الكفار ، فلما نزلت هذه الآية أخرج النبي رأسه من حجرته وقال لحراسه : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس ، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أنها وحي إلهي ، وإلاّ فمن يستطيع أن يؤكد أن رجلاً يتصدى لأمة برمتها يطعن في ديانتها ويحقّر آلهتها ويَسْلَم بنفسه رغم أنه كان هدفاً لأذى المشركين .

ومن الآيات التي وردت في الدلالة على أنباء غيبية وتحققت بعد زمن طويل من نزول القرآن : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ الأنعام : ٦٥

---

(١) ليستخلفنهم : اي يجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم .

والمعنى : ان الله وحده هو الذي يقدر على أن يرسل عليكم عذاباً يأتيكم من أعلاكم أو من أسفلكم أو يجعل بعضكم لبعض عدواً وتكونوا طوائف وأحزاباً مختلفة الأهواء متعادية يعذب بعضكم بعضاً .

وقد قال عبد الله بن مسعود أحد أصحاب الرسول في كلامه عن هذه الآية « إنها نبأ غيبي عمن يأتي بعد » . وقد ظهر مصداق هذه الآية في الحربين الأخيرتين .

فهذا الاخبار بالغيب دليل واضح على صدق نبوة محمد ﷺ وكون القرآن من عند الله ، إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه .

القصص في القرآن

ومن الأنباء الغيبية التي أتى بها القرآن الأخبار عن قصص الأولين من الأنبياء بأبلغ كلام وبتناسق لا يعرف له مثيل ، وهذا وجه نورده من باب اعجاز القرآن ، لأن محمداً عليه السلام لم يكن كاتباً ولا قارئاً ولا عُرِف عنه أنه جلس الى أحبار اليهود ورهبان النصارى ، ورغم ذلك جاءت قصص الأنبياء في القرآن كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى دليلاً على أنه وحيٌ يوحى . والقرآن ينص على هذا الغرض في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها . جاء في أول سورة يوسف : ﴿ نحن نقصّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ، وجاء في سورة هود بعد قصة نوح : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ ٤٩ .

ومِمّا يشهد للقرآن أنه وحي إلهي أن قصصه تخالف ما ورد في الكتب المقدسة السابقة وتسمو عليها ، فإذا نظرنا الى التوراة نراها تلصق ببعض الأنبياء أفعالاً قبيحة لا يستسيغ العقل السليم صدورها من رسل أرسلهم الله لهداية الخلق ، بينما القرآن وصف الأنبياء والرسل بالكمال وأحاسن الأعمال ما هو قدوة صالحة تزيد قارئها إيماناً وهدى .

فالقصص في القرآن لم يقصد بها تاريخ الرسول ولا تاريخ قومه وإنما المقصود بها ما في هذه القصص من دروس وعبر فيها هدى وعظة لكل داع إلى الحق ولكل مدعو إليه ، وقد شهد بذلك الدكتور فيليب حتي في كتابه (تاريخ

العرب) فقال : « ويقصد القرآن من عرض هذه القصص التوسل إلى عبرة أخلاقية ، وما المقصد الأسنى مجرد سرد حكاية ، بل البلوغ بالقارىء والسامع معاً إلى مغزى سام أو عظة أدبية مثلى كأن يعلن للناس أن الله في القديم كان يجازي المستقيم على استقامته ويعاقب الشرير على شره »[1] .

روح القرآن

ونجد في القرآن دليلاً على إعجازه وهو روحانيته التي جاء ذكرها حين خاطب الله رسوله محمداً عليه السلام بقوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ الشورى : ٥٢ .

فالله سبحانه جعل القرآن روحاً لأنه يحيي به نفوس الخلق فله فضل الأرواح في الأجساد ، وجعله نوراً يضيء ضياء الشمس في الآفاق .

ألا ترى كيف فعل القرآن بأولئك العرب الذين كانوا بالأمس مشتتين لا تجمعهم رابطة سياسية أو قومية ، أو دينية بل تتحكم فيهم كثير من العادات السيئة ثم ينقلب حالهم بعد مجيء القرآن إلى أمة موحدة قوية تنشر الفضل والفضيلة والكمال في أرجاء العالم المضطرب ، أي حجة أكبر من هذه على أن القرآن وحي إلهي، وانه روح من عند الله .

هذه الروحانية اشتملت على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية ، وقوانين الفضائل والآداب ، وقواعد التشريع السياسي والمدني والإجتماعي ، وغيرها من الأصول التي أتى بها القرآن وسبق بها كل الأوضاع البشرية التي من نوعها والتي يؤلف مجموعها الصرح الأدبي الضخم لهذه المدنية الحديثة .

أقول هذا الكلام لا من باب الإدعاء المجرد عن الدليل ولكني أقوله وأستدل على ذلك بالشواهد القرآنية في الأبحاث المختلفة التي عالجناها في هذا الكتاب .

ولا شك في أن هذا الوجه من أبرز وجوه إعجاز القرآن ، فإن علوم العقائد الإلهية والآداب والتشريع الديني والمدني هي أعلى العلوم وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون . فكيف يستطيع

---

(١) تاريخ العرب ج ١ . ص ١٧٢ من الترجمة العربية ط ٢ .

رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلدة علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكمالاً ، يؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها ، لأنه لم يوح إليه بالقرآن إلاّ بعد أن بلغ الأربعين من عمره .

ولهذه الحكمة يأمر الله رسوله محمداً عليه السلام بمخاطبة العرب المتشككين برسالته : ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ يونس : ١٦ .

والوجه الأخير الذي سنذكره من وجوه إعجاز القرآن ، إشتماله على كثير من المعجزات العلمية التي لم تكن في عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين في طبيعة الكون .

الفصل الثالث

معجزات القرآن العلمية

وحدة الكون وسر الحياة ـ نشأة الكون ـ تمدد الكون وسعته ـ تحركات الشمس والقمر والكرة الأرضية ـ نقص الأوكسجين في الارتفاعات ـ تقسيم الذرة ـ الزوجية في كل شيء ـ السحب الركامية وخصائصها ـ اهتزاز الأرض بسبب المطر ـ توازن العناصر الكونية ـ الأمواج الداخلية والسطحية ـ عالم الحيوان والطير شبيه بعالم الإنسان ـ تنبؤات عن وسائل النقل ـ مراحل نمو الجنين ـ اغشية الجنين ـ مصدر تكون الانسان ـ كيفية تكون الذكر والأنثى ـ الحيوان المنوي للانسان يشبه العلق ـ اختلاف بصمات الانسان .

ليست مهمة القرآن أن يتحدث الى عقول الناس عن مشكلات الكون وحقائق الوجود العلمية ، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للناس في حياتهم الدينية والدنيوية . ولكن مع ذلك لم تخل آياته من التعبيرات الدقيقة والاشارات الخفية الى حقائق كثيرة في المسائل الطبيعية والطبية والجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحياً من عند الله .

ومن الثابت تاريخياً أن محمداً ﷺ فضلاً عن كونه أمياً قد نشأ في مكة حيث لم تكن علوم ولا معارف ولا مدارس تقرأ فيها العلوم الكونية ، كما أن محمداً كان بعيداً عن ذلك المحيط العلمي الذي كان موجوداً في الشام والاسكندرية وأثينا ورومية ، ومع ذلك فإن النظريات العلمية التي أشار إليها القرآن لم تكن معلومة في عصره ـ أي في القرن السابع الميلادي ـ وإنما عرفت حديثاً .

وهذه الحقائق العلمية التي ذكرها القرآن سنعرض بعضها في هذا البحث ونترك أمرها للقارىء ليحكم بعقله بعيداً عن هوى النفس ، ليرى هل يعقل أن تكون هذه الآيات القرآنية من كلام محمد كما يفترون أم هي وحي إلهي أنزله الله عليه .

وحدة الكون وسر الحياة

قال الله تعالى : ﴿ أوَلم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً[1] ففتقناهما[2] وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ الأنبياء : ٣٠ .

هذه الآية تخبرنا أن السموات والأرض كانتا شيئاً واحداً ثم انفصلتا .

هذه معجزة من معجزات القرآن يؤيدها العلم الحديث الذي قرّر أن الكون كان شيئاً واحداً من غاز ثم انقسم الى سدائم ، وعالمنا الشمسي كان نتيجة تلك الانقسامات . ومما يؤيد هذا القول أن العلماء استدلوا على أن في الشمس ٦٧ عنصراً من عناصر الأرض ، البالغة نحواً من ٩٢ عنصراً ، وسيزيد المستدل عليه من العناصر في الشمس إذا ما ذللت الصعوبات التي تقوم في هذا الشأن . والعناصر الشهيرة في الشمس شهيرة بيننا نحن معشر أهل الأرض وهي : الهيدروجين والهليوم والكربون والآزوت والأوكسجين والفسفور والحديد الخ . إستدل العلماء على كل ذلك بالتحليل الطيفي ، وهو الذي يستدل به الكيماويون اليوم في معاملهم على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر يكشفون عن نوعها ومقدارها .

والشمس نجم يتمثل فيه سائر النجوم ، والنجوم هي الكون ، وهذا يعني أن العناصر التي بُني منها الكون على اختلافها عناصر واحدة .

ومن ناحية أخرى لاحظ العلماء أن النيازك والصخور والأتربة القمرية التي حصل عليها العلماء من الفضاء الخارجي تحتوي من العناصر ما هو شائع في الأرض .

أما الشطر الثاني من الآية : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ فهو من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرها . فمعظم العمليات الكيماوية اللازمة للحياة والنمو تحتاج إلى الماء ، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات .

والماء يغطي نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض وله درجة ذوبان مرتفعة ،

---

(١) الرتق : الضم والالتحام .

(٢) الفتق : الفصل بين الشيئين .

ويبقى سائلاً فترة طويلة من الزمن ، وله حرارة تصعيد بالغة الإرتفاع . وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت ويصونها من التقلبات العنيفة ، ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحية الأرض للحياة إلى حدّ كبير .

وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون قد صممه بما يحقق صالح مخلوقاته . فالماء هو المادة الوحيدة التي تقل كثافتها ويزيد حجمها عندما تتجمد، ولهذه الخاصية أهميتها الكبيرة بالنسبة لحياة الأحياء المائية إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد بدلاً من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار ، ويكوّن الثلج طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمد . والماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة ، وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها ، فما أعجب حكمة القرآن الذي يبيّن بكلمات قليلة العدّ سرّ الحياة على هذه الأرض .

هذه الآية من أقوى الدلائل على صدق نبوة محمد . فالقرآن استهل هذه الحقائق عن وحدة الكون وسرّ الحياة بمخاطبة الذين يكفرون بوجود الله بهذه الدلائل العلمية الدامغة التي تدل على وجوده والتي لم يدرك العرب في الماضي أسرارها بل أدركها العلم اليوم بعد جهود استغرقت أجيالاً في مجالات هذا الكون . هذه الحقائق هي أكبر حافز للإيمان بوجود الله وقدرته وسرّ صنعه ، وهذا ما هدفت إليه الآية القرآنية التي نتحدث عنها حين قالت أخيراً : ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ ، أي ألا يكفي ذلك دليلاً على الإيمان .

نشأة الكون

قال الله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً[1] ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي [2] من فوقها وبارك

---

(١) انداداً : شركاء واشباهاً .

(٢) رواسي : جبال ثوابت .

فيها وقدّر فيها أقواتها[1] في أربعة أيام سواء للسائلين[2] . ثم استوى إلى السماء[3] وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً . قالتا : أتينا طائعين ﴾ فصلت : ٩ — ١١

فالقرآن يصرح أن السماء كانت في بدء خلق الكون دخاناً . والعلماء اليوم لهم تفسيرات شتى في بدء تكوّن هذا الكون ، فالعالم الفلكي سير جيمس جينز يقول : « الراجح أن مادة الكون بدأت غازاً منتشراً خلال الفضاء بانتظام وان السدائم[4] خلقت من تكاثف هذا الغاز[5] » .

ويقول الدكتور جامو Dr' George Gamow [6]: « ان الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعاً منتظماً ... إنه غاز يبلغ من الكثافة ودرجة الحرارة حداً لا يمكن تصوره ، وفي هذا الغاز حدثت عمليات التحول النووي في مختلف العناصر ، وتحت تأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينبسط ويتمدد وأخذت كثافة المادة ودرجة حرارتها تهبطان في بطء ، وفي مرحلة معينة من مراحل التمدد تكثف الغاز المنتشر الى سحب مفردة غير منتظمة في شكلها ولا متساوية في أحجامها مكونة نجوماً مفردة ... »

فالقرآن صوّر مصدر خلق هذا الكون (بالدخان) ، وهو الشيء الذي يفهمه العرب من الأشياء الملموسة .

والعلماء اليوم يصوّرون منشأ هذا الكون (بالغاز) المنتشر في الفضاء .

أيكون في قدرة أمي — منذ أربعة عشر قرناً — أن يدرك هذا في وقت كان الناس لا يعرفون شيئاً عن هذا الكون وخفاياه ؟

تمدّد الكون وسعته

قال الله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد[7] وإنّا لموسعون[8] ﴾ الذاريات : ٢٧ .

---

(١) وقدر فيها اقواتها : قدر فيها ارزاق اهلها .

(٢) سواء للسائلين : اي لأجل الطالبين لها المحتاجين اليها . (٣) استوى الى السماء : قصد ايجادها .

(٤) السدائم : جمع سديم وهي السحابة ، وتطلق في الاصطلاح الفلكي على مجموعة هائلة من النجوم .

(٥) نقلا عن كتاب « النجوم في مسالكها » .

(٦) استاذ الطبيعة النظرية بجامعة واشنطن ، وقد نقلنا عنه ذلك من كتاب « الشمس » .

(٧) بأيد : أي بقدرتنا .

(٨) موسعون : إما مشتقة من فعل اوسع (اللازم) بمعنى جعل الشيء واسعاً ، واما من اوسع (المتعدية) بمعنى التوسيع والزيادة في الشيء .

هل هذه الآية تشرح وتصف سعة هذا الكون او هي تتوافق مع نظرية تمدد الكون ؟

فمن الناحية الأولى نرى اينشتين يتخيل سعة هذا الكون بأنه يتسع لبلايين من السدم وكل سديم منها يحتوي على مئات الملايين من النجوم الملتهبة[1] .

أما نظرية تمدد الكون ، فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركات السدم الخارجية ، حركات نظامية ، واستدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو « الجزر الكونية » تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية بل انها تتباعد عن بعضها البعض ، وعلى هذا الأساس فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ولكن الأجسام المادية فيه تحافظ على أحجامها .

وقد تقدم عدد من العلماء الكونيين بنظريات تشرح لغز الكون المتمدد ، منهم الدكتور هابل Habble رائد الباحثين في السدم ، فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد وهي : أنها أميل الى الادبار عنا منها الى الاقبال ، كما لاحظ أن سرعة الادبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونيـــة[2] .

تحركات الشمس والقمر والارض

﴿ والشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدّرناه منازل حتى عَاد كالعرجون[3] القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تُدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلكٍ يسبحون ﴾ يس : ٣٨ ــ ٤٠ .

يصرح القرآن بأن الشمس تجري باتجاه معيّن وهذا ما يطابق العلم فالشمس تتحرك مع مجموعتها في اتجاه كوكب نيِّر من مجموعة كوكبة الجاثي .

ولننتقل الى الشطر الثاني من الآية التي تصرح : ﴿ وكلٌ في فلك يسبحون ﴾ فالمجموعة الشمسية تخضع لقوة جاذبية الشمس التي تجعلها تدور حولهـــا في مدارات أو مسارات بيضاوية الشكل ، ودوران الأرض أشار إليه القرآن :

---

(١) عن كتاب (العالم واينشتين) .

(٢) نقلا عن كتاب (الشمس) تأليف الدكتور جامو .

(٣) العرجون : عود العنقود الذي عليه الرطب .

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ فدوران الأرض حول نفسها هو الذي يسبب الليل والنهار بانتظام .

السحب الركامية وخصائصها :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي[1] سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً[2] فَتَرى الوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنَا[4] بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ﴾ النور : ٤٣ .

تسبق هذه الآية ركب العلم ، فإنها تتناول مراحل تكوين السُّحب الركامية وخصائصها وما عرف علمياً في العهد الأخير من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة عدة خلايا أو وحدات من السحب التي تثيرها تيارات الهواء الصاعدة فتتحد مكونة السحب الركامية الممطرة ، وسميت هذه السحب بالركامية لتراكمها في طبقات بعضها فوق بعض ، والرياح الصاعدة من الأرض تحمل شحنة كهربائية موجبة وباتحادها مع الشحنة الكهربائية الموجودة في الفضاء يتكون مجال كهربائي يسبب تحويل البخار إلى قطرات دقيقة من الماء تكبر شيئاً فشيئاً إلى أن تسقط مطراً ، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُزْجي سحاباً﴾ أي أن الله يسوق السحاب برفق بواسطة الرياح ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ أي يجمع بعض السحاب إلى بعض إلى أن يصير سحباً ركامية ﴿ فَتَرى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فترى المطر يخرج من خلال هذه السحب .

ومن مظاهر السحب الركامية أنها تنمو في الاتجاه الرأسي وقد تصل إلى علو كبير جدًّا ، وتظهر لمن ينظر إليها من بعد كالجبال الشامخة ، ولا يعرف

---

(١) يزجي : يسوق برفق وسهولة .
(٢) ركاماً : متراكماً بعضه فوق بعض .
(٣) الودق : المطر .
(٤) سنا : ضوء البرق .

التشابه بين السحب والجبال إلّا من يركب طائرة تعلو به فوق السحاب فيراها من فوقه كأنها الجبال ، وهذا ما وصفه القرآن للسحب الركامية بقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ وإذا علمنا أن الطائرة لم تكن في عصر نزول القرآن فإن في وصف السحب الركامية بالجبال لهو إعجاز علمي للقرآن .

هذا وإن القرآن الكريم ذكر أن السحب الركامية تجود بالبَرَد ﴿ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ وهذه حقيقة علمية أخرى يعلنها القرآن ، وقصة نشوء البرد هو أنه بعد أن تتكون نقط المطر تعمل تيارات الهواء الصاعد على حملها إلى مناطق التجمد في ارتفاعات شاهقة تنخفض فيها درجة الحرارة إلى ٤٠ أو ٥٠ تحت الصفر ، وتلك مرحلة تتحول فيها نقط المطر إلى ثلج كما تجمع حولها أغشية من بلورات الثلج التي تحولت إلى جليد ، وهذه المكونات الثلجية يجتمع بعضها ببعض عن طريق التصادم فتنمو ويزداد حجمها بحيث لا يقوى الهواء على حملها فتسقط إلى الأرض على شكل البَرَد .

وهناك حقيقة علمية أخرى ذكرتها الآية وهي أن السحب الركامية هي وحدها التي يمكن أن يتولد منها البرق كما قال تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ والبرق ما هو إلّا شرارة كهربائية هائلة ، ولكن ما مصدر هذه الشرارات الكهربائية الهائلة ؟ إن مصدرها هو شحنات الكهرباء في نقط الماء التي داخل السحب وكذلك الهواء الذي من حولها ، وكذلك فإن في نمو البرد داخل السحب يصحبه حتماً انفصال شحنات كهربائية عظمى ، وتنشأ عن هذه الشحنات ضغوط كهربائية لا تزال تتراكم وتزداد حتى لا يقوى الهواء على عزلها فيتم التفريغ الكهربائي بين الشحنات المختلفة في السحابة نفسها ، أو بينها وبين سحابة أخرى قريبة أو حتى بين السحابة والأرض ، ومن أظهر أضرار البرق الإصابة بالعمى المؤقت ولعل الطيارين هم أكثر الناس تعرضاً لذلك وخصوصاً عند تحليقهم داخل السحب الركامية .

وليس من اللازم أن يتساقط البَرد والمطر بمجرد تكونه ، إذ ربما يحول تيار الهواء الصاعد دون نزوله في مكان معين حتى إذا ما ضعف هذا التيار هوى

المطر أو البرد على هيئة زخات وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

نقص الاوكسجين في الارتفاعات

قال الله تعالى : ﴿ فمن يُرِدِ الله أن يَهديَهُ يَشْرح صدره للاسلام ومن يُرد أن يُضِلّه يجعل صَدْره ضيّقاً حرجاً[1] كأنمـا يصّعدُ في السماء ﴾ الانعام : ١٢٥

فمنذ ارتياد الطبقات الجوية العليا بفضل الطيران والبالونات استطعنا ان ندرك ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص اوكسجين الهواء في تلك الطبقات اذ يشعر الصاعد في هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق . والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الضيق وقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية العليا . فضلاً عن ان الآية لم تعبر عن لفظ الصعود (في الجبال) بل عبرت عن الصعود (في السماء) ونضيف ان بلاد العرب ذات سطح منبسط وجبالها قليلة الارتفاع لا يأخذ الساكن فيها فكرة عن تسلق الجبال العالية وما يشعر المتسلق فيها من الضيق . وهنا نسجل اتفاقاً رائعاً للآية القرآنية مع الواقع العلمي .

تقسيم الذرّة

قال الله تعالى : ﴿ وما يَعزُبُ[2] عن ربك مِنْ مِثْقَالِ ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر مِنْ ذلك ولا اكبر الا في كتابٍ مبين ﴾ يونس : ٦١

ان اصغر جزء يمكن ان يوجد في عنصر ما يسمّى الذرّة . وقد ظل الاعتقاد السائد الى القرن التاسع عشر ان الذرة غير قابلة للتجزئة ، وخلال عشرات السنين الماضية حوّل كثير من رجال الطبيعة اهتمامهم الى مشكلة تقسيم الذرة التي لا تتجزأ فوفقوا اخيراً الى تجزئتها ووجدوها تحتوي على الدقائق الآتية :

(١) البروتون (٢) النيوترون (٣) الالكترون .

فكلمة (اصغر) من الذرة في الآية القرآنية تصريح جلي بامكان تجزئتها .

---

(١) حرجاً : شديد الضيق .

(٢) ما يعزب عن ربك : لا يغيب ولا يخفى عن علم الله .

وفي قوله تعالى ﴿ولا في السماء﴾ بيان بأن خواص الذرات التي في الأرض هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب ، اي انها محتوية على الاجزاء التي ذكرناها .

الزوجيّة في كل شيء

من المعروف قديماً ان الزوجية هي اساس في كيان المملكة الحيوانية والنباتية يقول تعالى في النبات : ﴿او لم يروا الى الأرض كم انبتنا فيها من كل زَوْجٍ كريم[1]﴾ الشعراء : ٧ . ويقول تعالى في الانسان والحيوان : ﴿فاطر[2] السموات والأرض جعل لكم من انفسكم ازواجاً ومن الانعام ازواجا﴾ الشورى : ١١ .

ولكن القرآن لا يقتصر على هذا بل يطلق اسم الزوجية على كل شيء .

قال الله تعالى : ﴿ومن كلّ شيء خلقنا زوجين﴾ الذاريات : ٤٩ .

وهذا ما نحب ان نعالجه في هذا المقام :

لا نقول ان الكهرباء — التي اكتشفت بعد مجيء القرآن بقرون كثيرة — تحتوي على سالب وموجب وباتحادهما يتولد التيار الكهربائي ؛ ولكن ننتقل الى الذرة اصغر جزء في عنصر ما ، فقد اكتشف العلماء بأنها تحوي قلباً صغيراً يسمى (النواة الذرية) يحيط بها عدد من الجسيمات الخفيفة جداً تسمى (الالكترونات) وهذه تحمل شحنة كهربائية سالبة ، اما النوى فتحمل شحنة كهربائية موجبة .

ولكن هناك ابعد من هذا فقد استنتج رجال الطبيعة من تجارب أجروها في معاملهم : ان النواة الذرية نفسها مؤلفة من اجزاء اصغر ، فوجدوا وحدتين اساسيتين من وحدات البناء في نواة الذرة : احداهما نواة ذرة الهيدروجين . وقد اطلق عليها رجال الطبيعة اسماً خاصاً هو « البروتون » ، يقابله وحدة البناء الثانية التي اكتشفها في عام ١٩٣٢ العالم الطبيعي الانجليزي السير جيمس تشادويك وتسمى : (النيوترون) .

---

(١) الكريم : يطلق الكريم من كل شيء على احسنه وعلى كل ما يرضي ويحمد في بابه .
(٢) فاطر : خالق .

اهتزاز الأرض بسبب المطر

قال الله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة[1] فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت[2] وَرَبت[3] وانبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

يصرح القرآن بأن الأرض تهتز ويزيد حجمها إذا نزل المطر عليها ، وهذه حقيقة علمية يؤيد بها العلم القرآن . فقد دلت البحوث في الأرض ان لها مساماً يتخللها الهواء . وان نزول الماء على الأرض يدفع الهواء ويحل محله ، وعند امتلاء مسام الأرض بالماء تتحرك جزئيات الطين بقوة دفع الماء في المسام . وعلوم الكيمياء اثبتت ان الطين يتمدد بالماء وينكمش بالجفاف ، فالأرض عندما ينزل عليها الماء تتحرك وتزداد في الحجم وقد امكن قياس حركة الأرض اذا ما اصابها الماء كما امكن معرفة الزيادة في حجمها .

توازن العناصر الكونيّة

قال الله تعالى : ﴿ وان من شيء الاّ عندنا خزائنُهُ وما نُنزّله إلاّ بِقَدَرٍ معلُوم ﴾ الحجر : ٢١ . وقال تعالى : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ الرعد : ٨

نعم ، كل شيء في هذه الدنيا جعله الله بمقدار . ان نسبة الأوكسجين تحدّ عادة في الهواء بنسبة ٢١ بالمئة ، فلو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ بالمئة مثلاً فماذا يحدث ؟ ان جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة ان اول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد ان تلهب الغابة .

والاوكسجين يمتصه كل كائن حيواني بينما يلفظ ثاني اوكسيد الكربون الذي يبني النبات تكوينه منه . فلو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية او النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الاوكسجين او كل ثاني اوكسيد الكربون وحينئذ يذوي النبات ويموت الحيوان .

ثم ان إشعاعات الشمس هي بمقدار فلو اعطت الشمس نصف اشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات الحية ولو انها زادته بمقدار النصف لأصبحت رماداً.

---

(١) هامدة : ميتة يابسة .

(٢) الاهتزاز : الحركة .

(٣) ربت : زادت في الحجم .

وضياء الشمس هو بمقدار ، فقد تبين ان له صلة وثيقة بنمو النباتات وتزهيرها اذ ان التزهير يتطلب قدراً معيناً من الاضاءة لا بد من توافره .

ان القول بأن ذلك كله نتيجة المصادفة هو قول يتحدى العلوم الرياضية ، بل كل ذلك من صنع ارادة الله التي احكمت خلق كل شيء .

وجاء في القرآن عن توازن عناصر النبات : ﴿ والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ الحجر : ١٩ .

الشاهد في هذه الآية هو كلمة (موزون)، فان علماء الكون الاخصائيين في علوم الكيمياء والنبات اثبتوا ان العناصر التي يتكوّن منها النبات مؤلفة من مقادير معينة من كل نوع من انواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها الا بأدق الموازين ، وكذلك تختلف نسبة بعضها الى بعض في كل نبات ، وهذه مسألة لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر .

الأمواجُ الدّاخليّةُ والسَطحيّة

قال الله تعالى : ﴿ او كظُلمات في بحر لجيّ يغشاه موج مِن فوقه موج من فوقه سحاب ظُلُمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها . ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ النور : ٤٠ .

ففي هذه الآية اشارة الى الأمواج الداخلية والسطحية . « فأضخم امواج المحيط واشدها رعباً هي امواج غير منظورة تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في اعماق البحر .. وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة ان سفن البعثات الى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى « بالماء الميت » والذي عرف الآن انه امواج داخلية . وفي اوائل عام ١٩٠٠ لفت الانظار كثير من مساحي البحار الاسكندنافيين الى وجود امواج تحت سطح الماء .. والآن بالرغم من ان الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً اسفل السطح فان حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد اصبح امراً معروفاً جداً فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة كما تعمل شقيقاتها السطحية على قذف السفن . ويظهر ان هذه الامواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج وبتيارات اخرى قوية في بحر عميق ...[1] فالآية

---

(١) عن كتاب « البحر المحيط بنا » : تأليف راشل ل . كارسون .

القرآنية تقول : (يغشاه موج من فوقه موج) اشارة الى الامواج الداخلية والسطحية ويؤيد هذا ما وصفه القرآن للبحر بأنه (لجي) اي كثير الماء عميقه ، وفي هذا اشارة الى المحيطات وليس الى الشواطىء ، والجدير بالذكر ان هذه المواضع يقل فيها وهج الشمس فما بالك باجتماع السحاب الذي تكثر فيه الظلمة ويصبح الواقع (اذا اخرج يده لم يكد يراها) .

فهذه الآية لا علاقة لها بالوسط الجغرافي للبيئة التي نزل فيها القرآن فلو افترضنا ان محمداً ﷺ رأى في شبابه منظر البحر فلن يعدو رؤية شواطىء البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط وهي لا ينطبق عليها ما وصفه القرآن . كل ذلك يعطينا دليلاً واضحاً على ان القرآن وحي إلهي.

عالم الحيوان والطير شبيهٌ بعالم الانسان

قال الله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم ﴾ الانعام : ٣٨ .

وصف الله في هذه الآية جماعة الحيوان والطير بالأمم ، وانها تشبهنا بعض الشبه ، أي أن لها عقلاً تدبر به امورها .

هذه حقيقة علمية اعترف بها العلم حديثاً ، فقد دل على أن جماعات الحيوان يربط آحادها رباط اجتماعي وثيق العرى ، وأن منها ما تعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل والنحل وغيرها ، وأن لكل جماعة منها لغة يتفاهم آحادها بها . بينما كان العلماء الأقدمون لا يعترفون للحيوان والطير بعقل ولا بذكاء ، فكانوا يحسبونها مجرد آلات حية تحس وتتألم ولكن لا تحمل عقلاً ، وكل ما يشاهد منها من آثار التفكير والتدبير يعتبرونه من ثمرات الالهام والغـــريزة .

بقي هذا الاعتقاد الى عصور متأخرة ، فكان الفيلسوف « ديكارت » يرى أن الحيوان كالآلة المعقدة المجردة من الحياة العقلية ، فهو لا يفكر كما يفهم الناس بل يعبر في سلوكه عن الغرائز .

وقد اشتهر عنه هذا التعريف وتناقله الباحثون ، ولم يعترف للحيوان بعقل وتفكير نسبيين إلاّ في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، من ذلك ما أعلنـــه

« دارون » ان التفكير موجود في الحيوان ولكنه بدرجة أقل من الإنسان .

ان هذه الحقيقة التي أعلنهـــا القرآن هي ولا شك احدى معجزاتـــه فقد قرّر حقيقة أقرّ بها العلم بعد أن استبحرت الدراسات في الحيوان والطير وقضى العلماء أعمارهم في ملاحظتها ودراستها .

تنبؤات عن وسائل النقل

وفي القرآن تنبؤات عن ما سيحدث من وسائل النقل الكثيرة، فمنذ اربعة عشر قرناً يقول القرآن :

﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾

فجملة (ويخلق ما لا تعلمون) معطوفة على الإبل التي جعلها الله أداة للركوب أي ان الله سيجعل وسائل للركوب غير التي كانت في عصر نزول القرآن . وها هو الإنسان يتوصل الى اختراع السيارات والقطارات والطائرات مما هدى الله الإنسان لاكتشافه .

ومنذ أربعة عشر قرناً عندما كانت السفن صغيرة او بحجم متوسط إذ القرآن يشبهها بالجبال ﴿ وله الجوار[1] المنشآت في البحر كالأعلام[2] ﴾ وهذا وصف دقيق للبواخر الحديثة الضخمة التي توصل الانسان الى صنعها .

مَراحِلُ نموّ الجَنين

قال الله تعالى : ﴿ ولقد خَلَقْنا الانسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طين . ثُمّ جَعَلْناه نُطْفَةً في قَرارٍ مَكين . ثم خلقنا النُطفة عَلَقَةً ، فخلقنا العَلَقَةَ مُضغة ، فخلقنا المضْغة عِظاماً ، فكَسَوْنا العِظَام لحماً ، ثم أنشأناه خَلْقاً آخر ، فتبارك[3] الله أحسَنُ الخالقين ﴾ المؤمنون : ١٢ ــ ١٤ .

إذا أمعنا النظر في هذه الآيات وجدنا انها دلت بوضوح على ما دل العلم عليه بعد ذلك من أن الانسان خلق من طين، فان النطفة في كل من الذكر

---

(١) الجوار : السفن .

(٢) الأعلام : الجبال الشاهقة .

(٣) تبارك الله : أي تعالى الله ، وقيل : البقاء والدوام لله .

والانثى التي يتكون منها الجنين هي وليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الانسان وأصل هذه التغذية ومنشؤها التراب .

والمراد بالنطفة في الآية هي مجموعة الخلايا الحية التي تصدر من الرجل وتعوم في السائل الموجود داخل رحم المرأة ثم تتسابق لتنال خلية الأنثى الواحدة . وأحد هذه الحيوانات المنوية الذي يصل أولاً يخرق بويضة الأنثى ويدخل فيها ويمتزج بها وهذه أول عملية تكوين الجنين .

ثم يخبر الله تعالى بأنه يصير علقة وهي مجموعة الخلايا التي تنقسم إليهـا البويضة بعد تلقيحها وقد نتأت على سطحها نتوءات تصلها بحائط الرحم . هذا وقد سميت علقة لأنها تعلق بجدار الرحم .

على أن الجنين يصير بعد ذلك مستديراً بغير انتظام ومكوراً ، ويبقى كذلك بضعة أسابيع وقد سماه الله : (مضغة) لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم المضوغة ، وهي في الاصطلاح الطبي عبارة عن نمو العلقة وتنوّع خلاياها وتميّز بعض أجزائها عن البعض الآخر ، وهنا يبدأ طور التكوين وتظهر آثار العظام في المضغة. وبعد أن تتكوّن العظام يبدأ اللحم في التكوّن بظهور العضلات وذلك بتنوع الخلايا التي تحيط بالعظام ، وبينما تظهر العظام والعضلات تتكوّن بقية أعضاء الجسم .

وفي قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ معجزة دقيقة من معجزات القرآن فقد ثبت ان الجنين في بداية الشهر الثاني بعيد الشبه بالإنسان فهو اقرب في شكله الى ضفدعة في دور التكوين ، وفي خلال الشهر الثاني تطرأ على الجنين تغيرات تشريحية تنقله من طبقة الحيوانات المائية الى الصورة الإنسانية ، فهذا التحول هو انشاؤه خلقاً آخر .

ومن هذا كله يتبين لنا بوضوح أن أطوار الجنين المذكورة في القرآن هي نفس الحقائق التي نقب عنها العلم الحديث حتى اكتشفها ، أيكون ذلك في مقدور أمي في جزيرة العرب منذ أربعة عشر قرناً ان يأتي بها من عنده ؟ إلا أن تكون وحياً أوحاه الله إليه .

أغشية الجنين

قال الله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ الزمر : ٦ .

« ففي هذه الآية معجزة علمية للقرآن فقد اخبر ان الجنين له ثلاثة اغشية سماها ظلمات وهي الآن يطلق عليها : الغشاء المنباري ، والخوربون ، والغشاء اللفائفي ، والجدير بالذكر ان هذه الاغشية لا تظهر الا بالتشريح الدقيق وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة » .

مصدر تكوّن الانسان

قال الله تعالى : ﴿ وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾ الاعراف : ١٧٢ .

هذه الآية تنص على ان الله اخذ ذرية بني آدم من ظهورهم . والمعروف ان الخصية موضوعة في الجزء الاسفل من الجذع لا في الظهر ، ولكن الله تعالى يتكلم عن خلق الانسان وذريته ونشأته، ولذا هو يتكلم عن علم Embryologie او « علم الاجنة »، ويتكلم عن الجزء الذي يخصص للنطفة في جسم الجنين ، هذا الجزء في الظهر عند اسفل الكليتين تماماً، ومن هنا تنمو الاعضاء التي تكوّن الخصيتين ، وتبقى في الظهر تحت الكليتين حتى الاشهر الأخيرة من حياة الجنين في بطن امه ، ثم تنحدر الى اسفل ، وعند الولادة تكون في مركزها الطبيعي فالآية الكريمة تشير والحالة هذه الى النقطة الاصلية في جسم الجنين التي تؤخذ منها النطفة وهذه هي الظهر بلا شك ولما كان علم تشريح الجنين لم يتقدم الا في المائة سنة الاخيرة ، فان هذه الآية تعد في حكم المعجزات [١] .

كيفيّة تكوّن الذكر والأنثى

قال الله تعالى: ﴿ أيحسب الانسان أن يُترك سُدى [٢] . ألم يك نطفة من منيّ يُمنى ثم كان علَقَةً فَخَلَقَ فَسوّى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ القيامة : ٣٧ ــ ٣٩ .

---

(١) عن كتاب « الاسلام والطب الحديث » ص ٨١ . (٢) سدى : مهمل بدون تكليف و شرع .

يقرر القرآن في بأن جنس المولود سواء اكان ذكراً ام انثى مصدره من ماء الرجل وحده وهذه حقيقة علمية يؤيد بها العلم القرآن واليك البيـــان :

ان من المعتاد ان يفرز مبيضا الانثى بويضة واحدة كل شهر ويفرز السائل المنوي عند معظم الرجال كميات هائلة تبلغ ملايين الخلايا المنوية كل مرة وأحد هذه الخلايا المنوية إذا استطاع الوصول الى بويضة الأنثى فانه يندمج فيها ويكوّنان معاً خلية كاملة، ثم تنقسم هذه الخلية تباعاً حتى تصبح ملايين الخلايا وهذه هي الخطوات الاولى لتكوين الطفل .

والسائل المنوي الذي يصدر من الرجل يحمل صبغيات انثوية وذكرية معاً فاذا كان الحيوان المنوي الواحد الذي يخصب البويضة يحوي صبغات انثويه كان الجنين انثى واذا كان يحوي صبغات ذكرية كان الجنين ذكراً .

وهكذا تظهر حكمة القرآن عندما قال : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ والضمير في لفظ (منه) راجع الى السائل المنوي الذي يصدر من الرجل والذي عبر عنه القرآن بقوله ﴿ ألم يك نطفة من منيّ يُمنى ﴾ .

الحيوان المنوي للانسان يُشبهُ العلق

قال الله تعالى : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلَق ، خَلَقَ الانسان من عَلَق ﴾

أثبت الطب أن منيّ الانسان هو سائل يحوي حيوانات صغيرة لا تـــرى بالعين المجردة ، وترى بالمكرسكوب ، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل يشبه دودة العلق في شكلها ورسمهـــا . فيقول الله سبحانه : (خلق الانسان من علق) أي أنه خلقه من هذه الحيوانات التي تشبه العلق شكلاً وليقرّبها الى عقول البشر بهذا التشبيه .

وهذه الآية معجزة بليغة من معجزات القرآن لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين ، الى أن اكتُشف المكرسكوب وعُرف كيف يتكون الانسان من هذه الحيوانات .

اختلاف بصمات الانسان

قال الله تعالى : ﴿ لا أُقسمُ بيوم ِ القيامة .ولا أُقسِمُ بالنفس اللوّامة[1]

---

(١) النفس اللوامة : الضمير الحي الذي يؤنب صاحبه .

أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه . بلى قادرين على ان نسوّي بنانه ﴾ القيامة

معنى هذه الآيات : ايظن الانسان اننا لن نجمع عظامه بل نحن قادرون على ان نرتب اصابعه يوم القيامة ونرجعها الى ما كانت عليه في الدنيا . هنا المعجزة وبيت القصيد فلماذا اختار الله سبحانه بنان الانسان ولم يختر عضواً آخر من اعضاء الجسم الكثيرة ؟

السبب أن أعضاء الجسم كالعين والانف والاذن وغيرها تتشابه بين انسان وآخر ، ولكن الاصابع لها ميزات خاصة فهي لا تتشابه ولا تتقارب ، وهذه المميزات لم تعرف لأول مرة إلاّ في القرن الماضي أي بعد نزول القرآن باثني عشر قرناً ونصف القرن تقريباً . ففي سنة ١٨٨٤ م ، استعملت رسمياً في انكلترا طريقة الاستعراف والتعريف بواسطة بصمات الاصابع إذ أن بشرة الاصابع لدى الناس جميعاً مغطاة بخطوط على ثلاثة أنواع : اقواس، او عراو، او دوامات بمعنى دوائر متحدة المركز. وكذلك يوجد نوع رابع يشمل جميع الاشكال التي لم توصف في الثلاثة السالفة الذكر وتسمى المركبات . وهذه الخطوط لا تتغير مدى الحياة وتتميز بين شخص وآخر .

* * *

هذه بعض معجزات القرآن العلمية سردناها في هذا المجال ونسرد الباقي في بحث (صحة الأبدان) في هذا الكتاب . وبعده ننتقل الى معجزات القرآن في النواحي الاجتماعية وتعاليمه في هذا الصدد وصلاحيتها لكل مجتمع وهي ناحية ستظهر بوادرها قريباً عندما يولي العلم وجهه اليها . وان العلم اليوم يعترف بقصوره في نواحي العلوم الاجتماعية كما اعترف بذلك الدكتور جون كوينسي ستيوارت[1] حين قال: (بينما سجلت العلوم الطبيعية انتصارات سحرية نجد العلوم الاجتماعية – على النقيض – ما زالت على جانب كبير من القصور والتخلف المؤسف ، فلدى الطبيعة وعلم الحياة والهندسة والطب سلسلة فخمة متزايدة من حلقات النجاح نستطيع استعراضها، أما السياسة النظرية والاقتصاد وفن الدولة والتخطيط الاجتماعي فتبدو كمجموعة ضئيلة من المبادىء المحددة المقبولة . وقد اعترف أئمة الدراسات الاجتماعية بهذا التناقض بصراحة) .

---

(١) من كتاب « العلم يزحف » تأليف جيمس ستوكلي الأستاذ المساعد لعلم الطبيعة بجامعة برينستون ،

الفصل الرابع

الإيمان بالله
والدلائل العلمية على وجود الله

البرهان على وجود الله – هذا الكون آية على وجود الله – الليل والنهار والشمس والقمر آيات على وجود الله – وجود التصميم في الطبيعة – الخلايا الحية آية على وجود الله – خلق النبات آية على وجود الله – وحدات الوراثة آية على وجود الله – خلق الانسان على آية وجود الله – خلق الذكر بجانب الأنثى آية على وجود الله – توالد الانسان والحيوان آية على وجود الله – الايمان بالله فطرة في النفس الانسانية – العلم يدعو الى الايمان – مناقشة الماديين .

الايمان بوجود الله فطرة في النفس الانسانية ، وهو أمر ضروري يحصل للانسان كثمرة من ثمرات مواهبه العقلية * .

فمن الأمور المتفق عليها أن كل شيء له علة توجده ، أو صانع يصنعه ، فإذا نظر الانسان الى الكون واستعرض ما فيه من الكائنات ، حصل له علم ضروري بأن هذه الكائنات لم توجد صدفة بل لا بد لها من موجد أوجدها .

البرهان على وجود الله

« اعتقاد الافراد والنوع الانساني بأسره في الخالق اعتقاداً اضطرارياً قد نشأ قبل حدوث البراهين الدالة على وجوده ، ومهما صعد الانسان بذاكرته في تاريخ طفولته فلا يستطيع أن يحدّد الساعة التي حدثت فيها عقيدته بالخالق ،

(*) من مراجع هذا البحث كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) تأليف جون كلوفر مونسما ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان. وكتاب (الانسان لا يقوم وحده) تأليف ا . كريسي موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة الأستاذ محمد صالح الفلكي الذي أطلق على الترجمة اسم (العلم يدعو الى الايمان) .

تلك العقيدة التي نشأت صامتة وصار لها أكبر الأثر في حياته .

فقد حدثت هذه العقيدة في أنفسنا ككل المدركات الرئيسية على غير علم منا . ولا شك انها تحت تأثير أغاني الأمومة والدروس التهذيبية الأولى قد نمت تدريجياً وزادت نمواً في ادوار الحياة ، سواء بالدروس والبحث ، أو بالتغييرات التي تحدثها الأحوال على أرق عواطفنا ... وكل ما يحدث في طفولة الانسان يحدث نظيره في طفولة الامم ... فالتاريخ يرينا الناس حاملين عقيدة فطرية على وجود قدرة خالقة وحافظة للعالم وحاكمة بين الناس بالعدل ، تكافىء على الحسنة والسيئة سواء في هذه الدنيا أو في الحياة المستقبلة »[1] ...

تطور الانسان القديم في مجال الاعتقاد بالله وانتابته الشكوك في الخالق ، فأرسل الله أنبياءه تباعاً لإرشاد الناس الى الطريق القويم وأيدهم بالمعجزات ، وهي الأفعال التي فوق مقدور البشر ليستجيب الناس لهم ويصدقوهم بأنهم مرسلون من عند الله ، فيهتدوا بعد الضلال الذي لازمهم .

اما العقل البشري اليوم فلم تعد المعجزات تؤثر فيه ذلك التأثير الكلي كما كان بالأمس ، بل اصبح العقل والاقتناع هما السبيل الأول للفكر الانساني المعاصر ، ولهذا كان على (الدين) أن يبرز ادلة جديدة على وجود الخالق .

وقد كان من المطاعن على الاسلام ما ادعاه الأب تيري الذي قال : « حرم النبي محمد صراحة اي استخدام للعقل في المشكلة الدينية لأن وجود الله لا يمكن البرهنة عليه والاجتهاد فيه ، وانطلاق العقل ليس من التوجيهات الاساسية في القرآن »[2] وهذا القول كما سيتبين لنا — فيما بعد — لا يمت الى الحقيقة بصلة .

ومن المدهش ان الاسلام انفرد بين الاديان باستخدامه العقل في الشؤون الدينية وخصوصاً في الدلالة على الخالق ، والآيات القرآنية التي دعت الى الايمان بالله ارتكزت على العقل والفطرة الانسانية وجعلتهما سبيل المؤمنين في تدعيم ايمانهم .

وها نحن سنعرض هذه الادلة ونترك للقارىء ان يحكم بنفسه على مدى

---

(١) نقلا عن دائرة معارف وجدي التي نقلت هذا القول عن كتاب « التذكرة في تاريخ البرهان على وجود الخالق » تأليف بوشيت .

(٢) عن محاضرات في « الفلسفة الاسلامية والثقافة الفرنسية » .

قوتها ، وكيف راعى الاسلام تطور العقل البشري الذي توصل الى الكشف عن كثير من اسرار هذا الكون الذي يشهد بأن هناك خالقاً حكيماً أبدع كل شيء على هذه الصورة وهذه السنن البالغة نهاية الدقة والنظام .

هَذَا الكَونُ آيَةٌ عَلَى وُجُودِ اللّه

من أعظم الدلائل على وجود الله : خلقُ هذا الكون، فالأرض التي نعيش عليها والمجموعة الهائلة من النجوم التي تتراءى لنا تبهر النظر عند التأمل فيها ، فتقف النفس أمامها حائرة تسودها الرهبة ويسيطر عليها الاعجاب ، فتزداد ايماناً بعظمة الخالق .

والقرآن الكريم كثرت فيه الآيات التي تدعو الانسان بأن يوجّه نظره الى خلق هذا الكون — من سمائه وأرضه — وتدعوه الى التفكر في أسراره ليدعم ايمانه ويطرد الشك من نفسه قال الله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تُغني الآياتُ والنّذُرُ عن قومٍ لا يُؤمنون ﴾ يونس : ١٠١ . وقال سبحانه : ﴿ أوَلم ينظروا في ملكوتِ السموات والأرض وما خلَقَ اللهُ من شيء وَأنْ عسى أن يكونَ قد اقتربَ أجلُهُم فبأيّ حديث بعده يُؤمنون ﴾ الاعراف : ١٨٥ .

فالقرآن يصرّح بأن الالحاد اذا استمر بعد النظر في هذا الكون وما فيه من حكم واسرار تدل على التصميم وعلى وجود خالق له ، فليست هناك أدلة أقوى من هذه ، كما أنه لن يؤثر في الملحدين أي دليل آخر .

فالمؤمنون هم الذين يستدلون بخلق هذا الكون على وجود الله ، جاء في القرآن : ﴿ خلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ العنكبوت : ٤٤ وجاء أيضاً : ﴿ إنّ في السموات والأرض لآياتٍ[1] للمؤمنين ﴾ الجاثية : ٣ .

ولكن ما هذا الكون ؟ يقول علماء الفلك: ان الأرض ليست إلاّ فرداً من

---

(١) الآيات جمع آية وهي العلامة الظاهرة ، وهي في هذه الآية بمعنى الدليل على وجود الله ، فقد يكون في الشيء جملة آيات من نواح مختلفة ، فمن جهة انه أثر يدل على مؤثر فيه ، ومن ناحية تسويته واتقانه يدل على علم صاحبه وحكمته .

أفراد الاسرة الشمسية ، والاسرة الشمسية ليست إلا فرداً من أفراد المجموعة المجرية ، والمجموعة المجرية ليست إلا فرداً من أفراد مجموعة المدن النجومية التي في الفضاء . ثم ان هناك أيضاً نيازك وشهباً وأقماراً ومذنبات .

ثم ما هو عدد النجوم في مجرتنا وهي ما يطلق عليها « درب التبانة » وهي التي تنتسب شمسنا وكواكبها إليها ؟

فإذا نظرنا إليها بالعين المجردة فان العدد الكلي لهذه النجوم — سواء منها النجوم التي تظهر في نصف الكرة الشمالي أو ما يظهر في النصف الجنوبي — لا يزيد على ستة آلاف .

ولكن إذا نظرنا إليها خلال المناظير القوية فان الموقف يتغير تغيراً تاماً ، فالعالم الفلكي كابتين يقدّر عددها بـ ٤٠,٠٠٠ مليون نجم[١] وترتقي في تقدير شايبلي[٢] إلى ١٠٠,٠٠٠ مليون نجم ، وقُدّر عدد المجرات بما يزيد على ١٠٠ مليون مجرة كل مجرة تحتوي على ملايين النجوم المشتعلة .

وما هي أحجام هذه النجوم بالنسبة للشمس ؟

فالشمس نجم كسائر ما نرى في السماء من نجوم وهي ان تراءت لنا نجماً عظيماً فما ذلك إلا لقربها منا ، وهي تمثل نجماً متوسطاً ، فأصغر النجوم التي اكتشفت للآن نجم (فان مانن) إن زاد قدره عن الأرض فلا يزيد الا قليلاً ، فمليون من مثل هذا النجم يمكن ان يزج به في الشمس ويبقى محل لغيره ، وهناك نجوم كمنكب الجوزاء هي من العظم بحيث يمكن ان يزج فيها بملايين كثيرة من نجوم كالشمس في الحجم وزيادة .

ثم ما هي ابعاد هذه النجوم عنا ؟

ان المجموعة الشمسية التي تنتسب إليها الأرض تكاد تكون منعزلة انعزالاً تاماً في الفضاء بالنسبة لما تبعد عنها النجوم الأخرى ، وإليك البيان : الشمس تبعد عنا أقل من ٩٣ مليون ميل أي أبعد ٤٠٠ مرة تقريباً من القمر ، أما إذا احتجنا ان نقيس ابعاد النجوم الأخرى فلا يكفي الألف مليون بل لا بد من مليون المليون ، ولهذا اتخذ علماء الفلك من سرعة الضوء وحدة للقياس وقدّرها

---

(١) عن كتاب « الشمس » تأليف جورج جامو الأستاذ بجامعة واشنطن.

(٢) من علماء مرصد هارفرد .

العلماء بـ ١٨٦,٠٠٠ ميلاً في الثانية . فأبعد الكواكب السيارة وهو (بلوتو) الذي ينتسب للمجموعة الشمسية يستغرق الضوء المنبعث منه إلينا ما بين أربع ساعات وخمس مع ان الضوء الآتي من أقرب النجوم يستغرق بين أربع سنوات وخمس ، وأقصى ما توصلت إليه المراصد وآلات التصوير الحساسة رؤية مجموعات من النجوم تبعد عنا بمدى ألفي مليون سنة ضوئية .

ومما يلفت النظر انه قد تبين ان مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزي ، ولقد وُجد أيضاً ان المجاميع النجمية الأخرى في حالة دوران مشابهة[١] .

ان هذه البلايين من النجوم الموزعة توزيعاً منتظماً في هذا الكون وتحركاتها وفق قانون معلوم بحيث لا تصطدم ببعضها لبرهان على وجود الله لا يقف أمامه برهان ، وهذا ما استدل به القرآن :

﴿ فلا أُقسِمُ[٢] بمواقعِ[٣] النجوم . وإنّهُ لقَسَمٌ لو تعلمون عظيم ﴾ الواقعة : ٧٥ .

وان في قوله تعالى : ﴿ لو تعلمون عظيم ﴾ لشاهد على أن القرآن وحي إلهي ، فهذا التعبير لم يدرك سره إلا علماء الفلك حديثاً وذلك بعد اختراع المناظير الضخمة التي أرتهم من عجائب الكون ما كان خافياً .

يقول اينشتين : « ان ديني يشتمل على الاعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحددة والتي تكشف في سرها عن بعض التفصيلات القليلة التي تستطيع عقولنا المتواضعة ادراكها وهذا الايمان القلبي العميق والاعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع ادراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمني فكرتي عن الإله »[٤] .

ويقول الدكتور ماريت ستانلي كونجدن[٥] : « ان جميع ما في الكون يشهد

---

(١) عن كتاب « الشمس » للدكتور جورج جامو .

(٢) لا أقسم بمواقع النجوم : لا ، زائدة للتوكيد ، والمعنى أقسم بمواقع النجوم ، وقد أقسم الله في القرآن بكثير من مخلوقاته دلاله على أهمية الشيء المقسم به والتي تدل على وجوده سبحانه .

(٣) مواقع : جاء في تفسير الألوسي نقلا عن قتادة ان المواقع مقصود بها منازل ومجاري النجوم .

(٤) عن كتاب « العالم واينشتين » تأليف لنكولن بارنت ترجمة محمد عاطف البرقوقي ص ١١٦ .

(٥) عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية .

على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته ، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتّى باستخدام الطريقة الاستدلالية فاننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته »[1] .

ألا يحق لنا أمام هذا الكون وما تكشف لنا من حقائقه أن نؤمن ايماناً عن عقل واقتناع بخالقه ، ونردد ما جاء في القرآن في تقرير هذه الحقيقة : ﴿ ان في خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب.[2] الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خَلْقِ السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١.

الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ آياتٌ على وُجُودِ اللّهِ

جاء في القرآن : ﴿ومن آياته الليلُ والنهار والشمسُ والقمرُ ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خَلَقَهُنّ إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ فصّلت : ٣٧ .

فاختلاف الليل والنهار هو من تأثير دوران الأرض حول نفسها ،وهذا الدوران من الآيات الباهرة التي تدل على وجود الله ، وذلك لما يتراءى للناظر من الدقة في دورانها بحيث لا تخطىء ثانية من الثواني. إن ساعة من معدن تزن جرامات معدودة تدور فتخطىء في اليوم بضع ثوان ومع ذلك نقول عنها ما أضبطها، فما أمر ساعة وهي هذه الكرة الأرضية جرمها ملايين ملايين الملايين من الاطنان تدور فلا تخطىء في اليوم ثوان ولا أعشار ثوان ولكن بضعة اجزاء من الف من الثانية وتخطئها لأسباب معلومة محسوبة فما هي بأخطاء .

ودوران الأرض له تأثير عظيم على الحياة على سطح هذه الارض ، فلولا هذا الدوران المنتظم لفرغت البحار والمحيطات من مائها ، ولو دارت الأرض اسرع مما تدور لتناثرت المنازل وتفكك ما على الأرض ، ولو دارت الأرض أبطأ مما تدور لهلك من عليها من حرّ ومن برد[3] .

والقرآن الكريم أشار الى دوران الأرض بهذه الآية الكريمة ونبه الانظار الى

---

(١) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٢٢ .
(٢) الألباب : العقول .
(٣) رجعنا في هذا الفصل الى كتاب « مع الله في السماء » للدكتور احمد زكي .

دقة دورانها ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب صُنع الله الذي اتقن كل شيء ﴾ النمل : ٨٨ .

صوّر الله في هذه الآية حركة الأرض ودورانها بمرور الجبال التي هي أبرز ما على الأرض وهذا يستتبع دوران الكرة الأرضية لأن الجبال ملتصقة فيها .

والشمس هي الآية الكبرى على وجود الله والتي سخرها الله لحياة جميع الكائنات الأرضية ، فمن اين تأتي بوقودها؟ إن كانت تنفق من مختزن في باطنها إذن لانخفضت درجة حرارة الشمس عاماً بعد عام ، ومعنى هذا ان عمر الشمس لن يمتد كثيراً ، ولكن اذا نظرنا الى الماضي البعيد رأينا الشمس أعطت الأرض من الحرارة بمقدار لا يزيد ولا ينقص في الحدود التي يعيش فيها النبات والحيوان والانسان . لا بد اذن من شيء يعطي للشمس من الحرارة ما تفقد منها ويستمر في امدادها بمقدار معين لا يزيد فيحرق ولا ينقص فيجمد .

والقمر الذي سَخّره الله لنا لحساب الزمن وجعله منيراً في الليل وما يستتبع هذا من فائدة للكائنات الحية ، ألا يدل هذا على وجود القصد ووجود ارادة إلهية من وراء خلقه !

وجودُ التصميم في الطبيعة

هذه السماء وما تحتويه من بلايين النجوم المشتعلة والكواكب السيارة التي يحفظها قانون الجاذبية من ان تتصادم او يرتطم بعضها بكوكبنا الأرضي الذي نعيش عليه فتنسفه ، وهذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها وما فيها من نبات وحيوان وسهول وجبال وبحار كل ذلك يسير على سنن ونواميس خاصة في نهاية الحكمة وفي سبيل منفعة الإنسان إن ذلك من البراهين القوية على وجود قدرة إلهية حكيمة وعلى بطلان مزاعم الماديين بأن الكون وُجِد اتفاقاً وصدفة.

يقول العلامة ا . كريسي موريسون : « ان استعراض عجائب الطبيعة ليدل دلالة قاطعة على ان هناك تصميماً وقصداً في كل شيء ، وان ثمة برنامجاً ينفذ بحذافيره طبقاً لمشيئة الخالق جل وعزّ »[1] ويقول : « ان حجم الكرة الارضية ، وبعدها عن الشمس ، ودرجة حرارة الشمس واشعتها الباعثة

---

(١) نقلا عن كتاب « الانسان لا يقوم وحده » ص ١٨٦ من الترجمة العربية .

للحياة ، وسمك قشرة الأرض وكمية الماء ، ومقدار ثاني اوكسيد الكربون ، وحجم النتروجين ، وظهور الانسان وبقاءه على قيد الحياة كل اولاء تدل على خروج النظام من الفوضى وعلى التصميم والقصد ... »[1]

ان هذا التصميم والقصد هو الذي لفت القرآن اليه الانظار في آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى : ﴿ ان في خَلْقِ السّموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفُلك التي تجري في البحر بما ينفعُ الناسَ، وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كُلّ دابّة وتَصريف الرياح والسحاب المسَخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ البقرة : ١٦٤.

فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار وبالتالي فإن دوران الأرض له تأثير على تحركات الرياح ، والرياح تنقل بخار الماء من المحيطات الى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن ان يتكاثف ويتحول الى مطر ، والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض جرداء خالية من كل اثر للحياة . هذا مع العلم ما وضعه الله في التربة من العناصر التي يمتصها النبات ويتمثلها ويحولها الى انواع مختلفة من الغذاء يفتقر اليها الحيوان .

هذه حقائق علمية عن سرّ الحياة على هذه الأرض فصلته الآية القرآنية وبينت وجود التصميم في الطبيعة والعلاقة المنتظمة بين عناصرها كافة وهي دلائل واضحة على وجوده سبحانه وتعالى عن طريق العقل كما هو مطلوب في آخر الآية : ﴿ ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وجاء في القرآن في وَصف قدرته سبحانه وتعالى :

﴿ وهو الذي مدّ الأرض وَجعَلَ فيها رواسي وانهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشي الليل النهار إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ الرعد : ٣.

فالرواسي في هذه الآية هي الجبال التي يحسبها الجاهل فضلة في الارض لا حاجة اليها ولكنها ذات فائدة عظيمة اذ ينزل عليها الثلج فيبقى في ثناياها حافظاً لشراب الناس يذوب بالتدريج فتسيل منه الانهار، ومن الماء تخرج اصناف متنوعة من الثمرات وهذه الثمرات تتوقف حياتها على اختلاف الليل

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٣ .

والنهار بهذا الطول المعروف الآن ، فلو كان نهارنا وليلنا أطول مما هما الآن عشر مرات لأحرقت شمس الصيف نباتاتنا نهاراً، ولتجمد ليلاً كل نبت في الأرض .

هذه هي الحقائق التي ذكرتهـــا الآية القرآنية والتي تبين وجود التصميم في الطبيعة ووجود ارادة حكيمة وهي إرادة الله سبحانه وتعالى .

ومن الدلائل على وجود الله في القرآن : ﴿ ومن آياته يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً وَيُنَزّلُ مِنَ السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ الروم : ٢٤ .

ما هي العلاقة التي تربط بين البرق ونزول المطر الى الارض واحيائها ؟ وهل حياة الأرض ترتكز على الماء فقط ؟ لا .. فهناك عنصر أساسي لنمو النباتات وهو غاز النتروجين الذي بدونه في شكل ما لا يمكن ان ينمو اي نبات من النباتات الغذائية . وهناك وسيلتان يدخل بهما النتروجين في التربة الزراعيّة : احداهما عن طريق عواصف الرعد ، فكلما أومض برق وحّد بين قدر قليل من الأوكسجين والنتروجين فيسقطهما المطر الى الارض كنتروجين مركب[1] . والثانية عن طريق نشاط جراثيم (بكتريا) معينة تسكن في جذور النباتات البقلية ، وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله الى نتروجين مركب ، وحين يتحلل النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض .

فذكر البرق في الآية القرآنية السابقة والتعقيب على ذكره بنزول المطر واحياء الأرض هي حقائق علميّة أشار اليها القرآن قبل اربعة عشر قرناً ، وهي آية كبرى على وجود التصميم في الطبيعة الذي هو من صنع الله تعالى .

الخلايا الحيّة آية على وجود الله

جاء في القرآن الكريم : ﴿ إنّ الله فالقُ الحبّ والنوى يُخرج الحيّ من الميت ومُخرج الميّت من الحي ذلِكمُ الله فأنّى تؤفكون[2] ﴾ الانعام : ٩٥.

---

(١) يقدر أحد خبراء الصواعق الدكتور كارل ماكرون إنتاج الصواعق من النتروجين بـ ١٠٠ مليون طن في السنة أي ما يوازي عشرة أضعاف ما تنتجه معامل الإسمدة في العالم.

(٢) تؤفكون : تصرفون عن عبادته.

وجاء ايضاً : ﴿ ان الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ﴾ .

اذا كان لكل مادة وحدة اساسية هي وحدة تركيبها ، فالكائنات الحية — من ابسط انواعها الى اعقد مخلوقاتها — تتكوّن من وحدات اساسية هي الخلايا .

فالخلية هي الوحدة المتناهية في الصغر الّتي تحتوي على مادة الحياة ، وبها القدرة على توزيع هذه الحياة على كل كائن حي كبيراً كان أو صغيراً . وتؤدي كل خلية وظائفها الحيوية العديدة بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها اقصى ما وصل اليه الانسان من مهارة في صناعة الساعات الدقيقة ، وهي الّتي يطلق عليها اسم (البروتوبلازم) . يقول الدكتور وليم سيفرتيز في تعريفها : « ان المادة الحية المعروفة باسم « البروتوبلازم » هي خليط معقد جداً من الماء والأملاح والسكريات والدهون والبروتينات . وفي هذه المادة الحية غير المتجانسة تحدث تلك العمليات الّتي تؤلف في مجموعها الحياة .

وتتألف كل النباتات والحيوانات من « البروتوبلازم » . و « بروتوبلازم » النباتات والحيوانات واحد تقريباً ولكنه ليس نفس الشيء تماماً . وهذه الفروق اساسية وحيوية ، والا لما نمت بيضة الضفدعة فصارت ضفدعة ، ولما نمت بذرة البلوط فاستحالت شجرة بلوط . وهذه الفروق كبيرة ولكنها مخفية عنا فمن ابرز الحقائق في علم الحياة ان كل انواع « البروتوبلازم » مهما كان مصدرها خافية تبدو متشابهة الى حد كبير وتشبه بياض البيضة وفيه نقط دقيقة منتشرة »[١] .

ويقول الدكتور رسل تشارلز ارتست[٢] : « انني اعتقد ان كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها ، وان ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق ولذلك فإنني أومن بوجود الله ايماناً راسخاً » .

---

(١) عن كتاب « العلم يزحف » تأليف جيمس ستوكلي ترجمة الدكتور محمد الشحات .

(٢) استاذ في جامعة فرانكفورت بألمانيا وعضو الأكاديمية العلمية باندیانا نقلا عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٧٩ من الترجمة العربية .

خلق النبات آية على وجود الله

من الأدلة على وجود الله ما تنبت الأرض من النبات والحبوب والفواكه، قال تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً[1] نخرج منه حباً متراكباً[2] ومن النخل من طلعها[3] قنوان[4] دانية وجنات[5] من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه[6] ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ الانعام : ٩٩.

تأمل قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ﴾ أي ان الله يخرج الحبّ من النبات الأخضر وهذا ما أدركه العلم من ان النبات ينتج المواد الغذائية بواسطة خلايا الورقة الخضراء ، إن احسن معمل لدى الانسان لا يقارن بنشاط ذلك المعمل الموجود في خلية الورقة الخضراء فتأمل سر تعبير القرآن الدقيق .

ويبين القرآن اختلاف النبات في الطعم رغم اتحاد التربة والماء : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان[7] وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ الرعد : ٤ .

ويلفت القرآن النظر الى اختلاف لون ما تنبت الأرض : ﴿ ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه ﴾ الزمر : ٢١ .

ويجعل القرآن من انقسام أعضاء النبات الى تذكير وتأنيث من الآيات الدالة على وجود الله ، فبعض النباتات تلقح نفسها بنفسها ، وبعضها يأتيها اللقاح بواسطة الهواء والحشرات من نبتة اخرى ، ولهذا يقول تعالى ·

---

(١) خضراً : نباتاً اخضر .

(٢) حباً متراكباً : حباً يركب بعضه بعضاً كما في سنابل القمح .

(٣) طلعها : كيزانها .

(٤) قنوان : عراجين .

(٥) جنات : حدائق .

(٦) ينعه : نضجه .

(٧) صنوان : هي النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها .

﴿ أوَ لم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها مِن كُل زَوْجٍ كريم إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين ﴾ الشعراء : ٧ ، ٨ .

يتساءل الدكتور لسترجون زمرمان[١] عن كيفية نمو النبات فيقول :

« لا يكفي أن يكون هنالك ضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينمو النبات ، ان هنالك قوة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي الى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقدة والتي تعمل معاً في توافق عجيب . والبذرة التي بدأت من اتحاد خليتين مجهريتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات ، تكوّن فرداً جديداً يشق طريقه في الحياة ويكون مشابهاً للنبات الذي انتجه بحيث لا تنتج حبة القمح الا قمحاً ولا بذرة البلوط إلا شجرة البلوط . ورغم ما بين أنواع النبات من تشابه تجد لكل صفاته وخواصه المميزة ... »

« وبينما تختلف النباتات الراقية اختلافات فردية بعضها عن بعض ، نجد لها بعض الصفات العامة التي تشترك فيها جميعاً ، فكلها مثلاً تقوم بعملية التمثيل الضوئي الذي يُنتج فيه النبات المواد الغذائية من ثاني اوكسيد الكربون والماء في وجود الضوء ، وهنالك التشابه في تركيب البذور والسيقان والأوراق والازهار وما يؤديه كل منها من الوظائف المتماثلة في النباتات المختلفة . وهنالك الاستجابة الموحدة للمؤثرات الخارجية ، فكلها تنتحي نحو الضوء وتموت عندما تحرم من الضوء أو الأوكسجين ، الى غير ذلك من الصفات العديدة التي تشترك فيها جميع النباتات .

فمن الذي قدّر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكم في وراثة الصفات وفي نمو النبات ؟ وسوف يقودنا هذا السؤال الى سؤال آخر أشد تعقيداً وأكبر عمقاً، وهو : من أين جاءت النباتات الأولى ؟ أو بعبارة اخرى كيف خلق النبات الأول ؟

ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة ، ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع ، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهياً تفرضه عقولنا علينا[٢] .

---

(١) استاذ الزراعة والرياضيات بكلية جوشن ، وعضو الجمعية العلمية لدراسة التربة بأمريكا .

(٢) من كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ١٢٤ – ١٢٦ .

وحدات الوراثة آية على وجود الله

من المعلوم انه لكي تتكوّن حياة جديدة لانسان ما ، لا بد من اندماج خليتين متميزتين : احداهما من الذكر والأخرى من الأنثى ، وهذه الناحية وجّه الله الانظار اليها بقوله : ﴿ قُتِل الانسان ما اكفره . من اي شيء خلَقه . من نُطْفة خلَقَهُ فقدّره ﴾ عبس : ١٧ — ١٩ .

يقول العلامة ا : كريسي موريسون عن وحدات الوراثه Cenes الموجودة في نواة خلية كل ذكر وانثى مستدلاً بذلك على وجود الله : « وتبلغ « الجنات » وحدات الوراثة من الدقة انها — وهي المسئولة عن المخلوقات البشرية جميعاً التي على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها — لو جُمعت كلها ووضعت في مكان واحد ، لكان حجمها أقل من حجم « الكستبان » و « الكستبان » الذي يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم ومع ذلك فان هذه الحقيقة التي لاجدال فيها ... فهي التي تحبس كل الصفات المتوارثة العادية لجمع من الاسلاف وتحتفظ بنفسية كل فرد منهم في تلك المساحة الضئيلة ..[1] »

وان مسألة توارث الصفات اللونية والجنسية لهي من الأمور التي استدل بها القرآن على وجود الله ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلْقُ السماوات والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانِكم إن في ذلك لآياتٍ للعالمين ﴾ الروم : ٢٢ .

خلق الأنسان آية على وجود الله

ومن الدلائل على وجود الله خلق الانسان . قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلَقكم من تُراب ثم إذا أنتم بَشَرٌ تنتشرون ﴾ الروم : ٢٠ . وقال أيضاً :

﴿ وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ المؤمنون : ٧٨ .

ما الدلائل على وجود الله في الأنفس فهي أكثر من أن تحصى ، وكلما اتسع نطاق العلم تضافرت الأدلة على أن لهذا الانسان البديع الصنع إلهاً حكيماً .

---

(١) عن كتاب « الانسان لا يقوم وحده » ص ١٣٧ من الترجمة العربية .

أي ناحية من نواحي الانسان ليست مثار دهشة وعجب ؟

أليست أطواره في الرحم آية من آيات الله ؟

أليس نظام طعامه وشرابه وتحليل الطعام الى عناصر مختلفة بموازين يذهب كل عنصر الى حيث يؤدي وظيفته عدا العنصر الذي لا يفيد فيطرد الى الخارج ، أليس هذا كله آية من آياته ؟.

أليس نظام توزيع الدم من مكانه الرئيسي وهو القلب الى جميع انحاء الجسم بواسطة الشرايين التي لا يحصي عددها الا الله ، ثم عودته الى القلب بواسطة الأوردة ، ومرور الهواء الجديد الذي جلبه التنفس ليصلح الدم بعد الفساد فيفيد منه الجسم ، أليس ذلك آية من آياته ؟ دع سمع الانسان وبصره ونطقه واحساسه ، بل دع ما يعرض له من تذكر ونسيان وحزن وسرور وعلم وجهل ومحبة وبغض فانها آيات كبرى على وجود الله الخالق .

خلق الذكر بجانب الانثى آية على وجود الله

ومن الدلائل على وجود الله خلق الانثى بجانب الذكر ، قال الله تعالى : ﴿ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفُسِكم ازواجاً لتسكنوا اليها وجَعَلَ بينكم مودّةً ورحمة إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ الروم : ٢١ .

فوجود الانثى بجانب الذكر لأجل التناسل ، ودوام بقاء الحياة للنوع الانساني من البراهين القوية على وجود الله وعلى وجود القصد في هذا الكون ، وهذا يدحض الزعم القائل بقيام الكون على المادة دون سواها .

وقد كتب الاستاذ « مومنيه » بحثاً في مجلة « الكوسموس » الفرنسية أثبت فيه وجود الخالق فقال : « اذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل ان الكون خلق اتفاقاً بلا فاعل مريد مختار ، وان الاتفاقات المتكررة توصلت الى تكوين رجل ، فهل يعقل ان الاتفاقات والمصادفات تكوّن كائناً آخر مماثلاً له تماماً في الشكل الظاهري ومبايناً له في التركيب الداخلي وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وادامة النسل فيها ؟ ألا يدل هذا وحده على ان في الوجود خالقاً مريداً مختاراً أبدع الكائنات ، ونوّع بينها ، وغرز في كل نوع غرائز ، ومتعه بمواهب يقوم بها امره ويرتقي عليها نوعه ؟[١] » .

---

(١) نقلا عن دائرة معارف وجدي (مادة اله) .

توالد الانسان والحيوان آية على وجود الله

ومن الدلائل على وجود الله ذلك التوالد المستمر في الانسان والحيوان ، جاء في القرآن : ﴿ والله جَعَلَ لكم من أنفُسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وَحفدَةً ورزقكم من الطيّبات أفبالباطل يُؤمنون وبِنعْمة الله يكفرون﴾ النحل : ٧٢ .

ويلفت القرآن النظر الى توالد الابل : ﴿ أفلا ينظرون الى الأبل كيف خُلِقَت ﴾ الغاشية : ١٧ .

يقول العلامة ا . كريسي موريسون : « ان الحياة ترغم على التناسل ، لكي يبقى النوع ، وهو دافع بلغ من القوة ان كل مخلوق يبذل أقصى تضحية في سبيل هذا الغرض ... وهذه القوة الإلزامية لا توجد حيث لا توجد الحياة . فمن أين تنشأ هذه الدوافع القاهرة ؟ ولماذا ، بعد أن نشأت ، تستمر ملايين السنين ؟ انه قانون الطبيعة الحية ... الذي يأتي من ارادة الخالق »(١) .

وقد ضرب العالم « بالي » مثلاً من تأثره في ذلك بساعة يد ، ولفت النظر بأن مثل هذه الأداة تثبت لأكثر الناس شكاً ان هناك عملية ذهنية طبقت على الميكانيكا ، ثم قال : اننا لو فرضنا ان هذه الساعة قد مُنِحت القدرة على ايجاد ساعات أخرى فان ذلك لا يكون معجزة تفوق معجزة توالد الانسان والحيوان.

خلق الحيوان والزواحف والطير آية على وجود الله

ومن الدلائل على وجود الله خلق الحيوان والزواحف . قال تعالى :

﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ النور : ٤٥ .

والطير من الدلائل على وجود الله . قال تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مُسَخّرات في جوّ السماء ما يُمسكهنّ الاّ الله(٢) ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ النحل : ٧٩ .

---

(١) نقلا عن كتاب « الانسان لا يقوم وحده » ص ١٤٦ .

(٢) تأمل كيف خلق الله الطير على ذلك النحو الخاص ، له جناحان ، ومقدمة هي رأسه ، ومؤخرة هي ذنبه ، وبذلك الشكل الذي خلقه الله عليه استطاع ان يطير في الجو ، وقد أضاف الله الامساك اليه وحده « ما يمسكهن إلا الله » لأنه هو الذي أعد الطيور بذلك الشكل كي تستقر في الجو .

والدلائل على وجود الله في الحيوانات والطير لا تحصى ، ويحتاج تفصيلها الى عدة مجلدات ، وقد تكفل بذلك علم الحيوان . وقد قرأنا بحثاً للفيلسوف نيوتن يستدل فيه على وجود الخالق يقول فيه : «كيف تكونت أجسام الحيوانات بهذه الصناعة البديعة ؟ ولأي المقاصد وضعت أجزاؤها المختلفة ؟ هل يعقل أن تصنع العين الباصرة بدون علم بأصول الأبصار ونواميسه، والاذن بدون إلمام بقوانين الصوت ؟ كيف يحدث ان حركات الحيوانات تتجدد بارادتها ؟ ومن أين جاء هذا الالهام الفطري في نفوس الحيوانات ؟ » الى ان قال : « وهـــذه الكائنات كلها في قيامها على أبدع الأشكال وأكملها ألا تدل على وجود إله منزه عن الجسمانية حي حكيم موجود في كل مكان يرى حقيقة كل شيء ويدركه ؟ ».

الايمان بالله فطرة في النفس الانسانية

ان الدراسات الدينية الحديثة كشفت عن أمور كثيرة جديرة بامعان النظر وهي : أن التدين صفة عامة لجميع البشر قديمهم وحديثهم ، فلم يعثر على أمة لا دين لها .

وقد ذهب الكثير من العلماء الى أن فكرة الله أو الدين على العموم انما هي فكرة فطرية وجدت في عقل الانسان ، ولكن أوجدها فينا موجد أعلى وهو الله سبحانه .

وأبرز العلماء الذين اعتنقوا الفكرة الفطرية هو العلامة الاسكتلندي اندريه لنج ، وتتلخص آراؤه فيما يلي :

أولاً : كل انسان يحمل في نفسه « فكرة العلية » وإن هذه الفكرة كافية لتكوين العقيدة: ان ثمة آلهة صانعـــة وخالقة للكون، وان كل انسان لديه فكرة عن صنع الأشياء ، انه يعتقد في وجود صانع يفعلها ولا يستطيع هو أن يفعلها .

ثانياً : اننا نجد لدى القدماء والمتوحشين الاعتقاد في أب ، في سيد ، في خالق .

ثالثاً : وجد العنصر الديني عند البدائيين في حالة من الطهر والنقاء الكاملين ، ثم تلا هذا ظهور العنصر الأسطوري .

غير أن نظرية « لنج » هذه بقيت في مجموعها غير مسلم بها حتى ظهور المنهج التاريخي في علم الاجناس ، وقد وافق هذا المنهج على كثير من النتائج التي انتهى إليها « لنج » ، وأهم الأبحاث التي تثبت فكرة « لنج » هي أبحاث

الاستاذ ليوبولد فون شرودر الاستاذ بجامعة فيينا عن الهنود الأوروبيين . وقد توصل هذا الباحث إلى وجود فكرة الإله الأسمى عند الآريين ، واعتبر أساس الدين عندهم ثلاثة أصول : عبادة الطبيعة ، وعبادة الموتى ، والاعتقاد في إله أعلى خيّر وخالق ، ولكنه لم يبين أي هؤلاء الثلاثة أقدم في الوجود . وقد ذكر في أحد المواضيع أن الأمر يحتاج إلى مزيد بحث » .

وفي ذلك الوقت نشر الدكتور كروبر أبحاثاً متعددة عن هنود كاليفورنيا ، أثبت فيها ان تلك القبائل هي أقدم القبائل في أمريكا الشمالية ويبدو بوضوح من دراسته انه عثر على إله خير سام . بل إنه جزم بأن هؤلاء الهنود عرفوا الخالق بواسطة موجود سام ، بيده كل القوى وتنسب إليه كل القدر » .

وقد اثبت شمت ـ عالم الأجناس ـ أن أقزام افريقيا وهم أقدم الاجناس البشرية يؤمنون بوجود إله سام ؛ كما توصل إلى وجود فكرة الوحدانية عند معظم القبائل الزنجية وعند كثير من القبائل الاسترالية الجنوبية الشرقية والقبائل الهندية الأميركية الشمالية . أما عند غير تلك القبائل فقد ظهر إله سام موحد ، ثم تقدمت تلك القبائل وانتقلت الى أطوار أخرى من الثقافة فساد الفكر الديني تعقد وتشابك أنتج فكرة تعدد الإله الواحد . وقد أنتج أيضاً فكرة موجودات عليا بجانب هذا الموجود الواحد الأسمى ... »[١] .

وقد ادعى « رينان Renan » ان الساميين موحدون بطبعهم، وقد اقام « رينان » نظريته هذه من دراسته للآلهة التي عبدها الساميون ، ومن وجود اصل كلمة « ايل » في لهجاتهم ، فادعى ان الشعوب السامية كانت تتعبد لاله واحد هو « ايل » الذي تحرف اسمه بين هذه اللهجات فصار « يهو » و « يهوه » و « الوهيم Elohim » عند العبرانيين و « اللات » و « الله » و « اله » عند العرب والأصل عند الجميع هو الاله « ايل »[٢] .

ويقول الدكتور بول كليرانس ايوسولد استاذ الطبيعة الحيوية :

ولا شك أن اتجاه الإنسان وتطلعه الى البحث عن عقل أكبر من عقله

---

(١) اقتبسنا هذه النصوص من كتاب « نشأة الدين » تأليف الأستاذ علي سامي النشار ابتداء من صفحة ١٨١ .

(٢) E. Renan, Histoire General et Systeme Compare des Langues Semitques, Paris 1855 Vol 1.

وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع لكي يستعين به على تفسير هذا الكون يعد في ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم ، هي قوة الله وتدبيره .

وقد لا يستطيع الإنسان أن يسلم بوجود الخالق تسليماً تاماً على أساس الأدلة العلمية المادية وحدها . ولكننا نصل الى الإيمان الكامل بالله عندما نمزج بين الأدلة العلمية والأدلة الروحية ، أي عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المتسع الى أقصى حدود الاتساع ، المعقد إلى أقصى حدود التعقيد مع إحساسنا الداخلي والاستجابة الى نداء العاطفة والروح الذي ينبعث من أعماق نفوسنا . ولو ذهبنا نحصي الأسباب والدوافع الداخلية التي تدعو ملايين الأذكياء من البشر الى الإيمان بالله لوجدناها متنوعة لا يحصيها حصر ولا عد ، ولكنها قوية في دلالتها على وجوده تعالى ، مؤدية الى الإيمان به »[1] .

ان من الآيات التي تبهر الالباب في الاسلام انه سبق العلم في هذه الناحية بنحو ثلاثة عشر قرناً . فقد قرّر القرآن هذه الحقيقة بقوله :

﴿ فأقِم وَجْهكَ للدّين حَنيفاً فِطْرةَ الله التي فَطَرَ الناس عليها لا تبديل لِخَلْقِ الله ذلك الدين القيّم ولكِنّ اكثر الناس لايعلمون . مُنيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾ الروم : ٣٠ — ٣١ .

فالقرآن يقرر بأن الدين فطرة في الانسان فَطَرَ الله الناس عليها ، وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون ، وانه واحد لا شريك له ، فإذا انفرد المرء بنفسه حكم بأنه مخلوق لإله قادر حكيم خَلَقَه وأنعم عليه .

لاحظ قوله تعالى ﴿ حنيفاً ﴾[2] اي موحداً لله ، ثم انظر كيف ختم الله الآية بقوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ ، وهذا القول حق ، فانه لايعلم

---

(١) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٨ .

(٢) حنيفاً جمعها حنفاء ، وقد كانوا طرازاً من النساك انصرفوا الى التعبد للإله الواحد إله ابراهيم وإسماعيل (بلوغ الأرب ٢٤٧/٢) . ويقول أهل الأخبار : ان العرب جميعهم كانوا في ماضيهم القديم على ملة ابراهيم من التوحيد الى أن اغواهم الشيطان بأن هيأ لهم عمرو بن لحي فأضلهم عن التوحيد وزين لهم عبادة الأصنام ، وهي عبادة تلقاها من البلقاء فوزع الأصنام في القبائل ، خص كل قبيلة بعبادة صنم ، فالعرب منذ ايامه على هذه الضلالة لم يشذ عنها سوى القليل منهم وهم الحنفاء . (تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ج ٥) .

ان الدين فطرة في النفس إلا أفراد ممن وقفوا أنفسهم على الأبحاث العلمية في نشأة الدين وأثره في النفس . لاجرم ان هذا الأمر معجزة علمية للقرآن وقد زاد النبي هذا المعنى تأكيداً فيما يرويه عن ربه : (كلُ عبادي خلِقت حُنفاء فاجتالتهم[1] الشياطين عن دينهم وأمروهم أن يشركوا بي غيري) .

ويقول النبي في هذا المعنى أيضاً : (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) أي كل مولود يولد على ما قرره الاسلام من التوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الاشراك وانما البيئة والعائلة – وفيها الأبوان – هما اللتـــان تحوّلان فطرته عن الحقيقة التي انطبعت عليها نفسه .

والدعاء الذي يدعو به الانسان خالقه – عند اشتداد المحن – يظهر بأن الدين فطري في الانسان . يقول الاستاذ ا . كريسي موريسون : « ان كون الانسان في كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن قد شعر بحافز يحفزه الى ان يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم يدل على ان الدين فطري فيه . ويجب أن يقرّ العلم بذلك »[2] .

والقرآن أعلن هذه الحقيقة في كثير من آياته مثل قوله تعـــالى :

﴿ واذا مسّ الناس ضُرٌّ دَعَوا ربهم منيبين اليه ﴾ الروم : ٣٣ .

﴿ واذا غشيهم موج كالظُلل دَعَوا الله مخلصين له الدين ﴾ لقمان : ٣٢ .

فالنفس تدرك وجود الله بفطرتها وترجع اليه في الشدائد تستمد منه العون وتطلب منه النجدة .

مما تقدم يتبين لنا ان الدراسات الدينية الحديثة أثبتت ما قرّره القرآن من أن وجود الله فطرة في النفس الإنسانية ، واذا نظرنا الى الزمن الذي نزل فيه القرآن رأينا الناس في ذلك الوقت لا يعرفون شيئاً من أسرار الفطرة الدينية ، ألا يدل ذلك على ان القرآن من عند الله وعلى صدق نبوّة محمد ﷺ ؟

---

(١) اجتالتهم : أدارتهم .

(٢) عن كتاب « الإنسان لا يقوم وحده » ص ٢٩٠ من الترجمة العربية .

العلم يدعو للإيمان

يظن بعض الناس الذين لم يدركوا من العلم إلاّ قليلاً ان الكفر من ضروريات العلم وان اكثر الناس علماً هم أشدهم الحاداً .

والحقيقة ان العلم لا يؤدي بصاحبه إلى الالحاد في أي عهد من العهود ، فإن العالِم المنقب عن الحقائق يجد نفسه في هذا الوجود في عالم لا حدّ له ، يسود مجموعه نظام محكم لا تشوبه شائبة من الفوضى ، لا يلبث بعد تأمله أن يخرّ ساجداً للقدرة الالهية التي أوجدت هذا الكون العظيم .

فقد نشر الدكتور « دينرت » الالماني بحثاً حلل فيه الآراء الفلسفية لأكابر العلماء الذين اناروا العقول في القرون الأربعة الاخيرة ، وتوخى أن يدقق في تعرف عقائدهم فتبين له من دراسة ٢٩٠ منهم أن :

٢٨ منهم لم يصلوا الى عقيدة ما ،

٢٤٢ أعلنوا على رؤوس الأشهاد الايمان بالله .

و ٢٠ فقط تبين انهم غير مبالين بالوجهة الدينية أو ملاحدة .

فإذا اعتبرنا غير المبالين كلهم من الملاحدة ، وجدنا ان ٩٢ في المئة من كبار العلماء يعتقدون بوجود الله تعالى . فهذه النسبة الكبيرة تدل دلالة صريحة على ان التناقض بين الإيمان والعلم الذي يزعم الماديون أنه وصف مميز للعلماء ليس له أصل ، وتشير أيضاً الى أن الايمان والعلم يتكاملان ولا يتنافيان .

قال الدكتور « ليون ووتي » الذي أخذنا عنه هذا الاحصاء : ان العلامة الكبير باستور وهو أكبر عقل ظهر في القرن الماضي كتب يقول : « الإيمان لايمنع أي ارتقاء كان، لأن كل ترق يبين ويسجل الاتساق البادي في مخلوقات الله ، ولو كنت علمت أكثر مما أعلم اليوم ، لكان ايماني بالله أشد وأعمق مما هو عليه الآن » ثم عقب هذا بقوله : « ان العلم الصحيح لا يمكن أن يكون مادياً ، ولكنه على خلاف ذلك يؤدي الى زيادة العلم بالله ، لأنه يدل بواسطة تحليل الكون على مهارة وتبصّر ، وكمال عقل الحكمة التي خلقت النواميس المدبّرة للوجود ، كمالاً لا حدّ له » .

أما الدكتور « وتز » الكيميائي وعضو اكاديمية العلوم وعميد كلية الطب

الباريزية فقد كتب يقول : « اذا أحسستُ في حِينٍ من الأحيان أن عقيدتي بالله قد تزعزعت وجهت وجهي الى اكاديمية العلوم لتثبيتها » .

وقال الفلكي الكبير « فاي » العضو بأكاديمية العلوم في مؤلفه « أصل العوالم » : « من الخطأ القول بأن العلم يُفضي بصاحبه الى نكران وجود الله » .

وقال الجيولوجي الذائع الصيت : « أدمون هربرت » المدرس بجامعة السوربون « العلم لا يمكن أن يؤدي الى الكفر ، ولا الى المادية ، ولا يفضي الى التشكيك » .

وقال العلامة المؤرخ الطبيعي « فابر » : « كل عهد له أهواء جنونية. فاني اعتبر الكفر بالله من الاهواء الجنونية وهومرض العهد الحالي ، وأيسر عندي أن ينزعوا جلدي من أن ينزعوا مني العقيدة بالله » .

هذه آراء بعض أقطاب العلم الطبيعي اخترناها من كثير مما ذكره (ليون ووتي)[1] .

وقد سُئِلَ الدكتور «أندروكونواي ايفي[2]» من أحد رجال الأعمال هذا السؤال : « سمعت ان معظم المشتغلين بالعلوم ملحدون . فهل هذا صحيح ؟ » فأجابه قائلاً :

« إنني لا أعتقد أن هذا القول صحيح . بل إنني — على نقيض ذلك — وجدت في قراءتي ومناقشاتي أن معظم من اشتغلوا في ميدان العلوم من العباقرة لم يكونوا ملحدين ، ولكن الناس أساءوا نقل أحاديثهم أو اساءوا فهمهم » ثم استطرد قائلاً : « إن الالحاد ، أو الالحاد المادي ، يتعارض مع الطريقة التي يتبعها رجل العلوم في تفكيره وعمله وحياته . فهو يتبع المبدأ الذي يقول بأنه لايمكن ان توجد آلة دون صانع . وهويستخدم العقل على أساس الحقائق المعروفة ويدخل إلى معمله يحدوه الأمل ويمتلىء قلبه بالإيمان ، ومعظم رجال العلوم يقومون بأعمالهم حباً في المعرفة وفي الناس وفي الله »[3] .

---

(١) ترجم هذه النصوص الأستاذ محمد فريد وجدي ونشرها في مجلة الأزهر مجلد ١٩ .

(٢) من العلماء الطبيعيين ذوي الشهرة العالمية ، يشغل حالياً وظيفة استاذ قسم الفسيولوجيا ورئيس قسم العلوم الكلينكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو .

(٣) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ١٥٢ من الترجمة العربية .

ونقل عن الدكتور البرت ماكوب ونشستر[1] قوله :

« ... ان اشتغالي بالعلوم قد دعم ايماني بالله حتى صار أشد قوة وأمتن أساساً مما كان عليه من قبل . ليس من شك أن العلوم تزيد الانسان تبصراً بقدرة الله وجلاله ، وكلما اكتشف الانسان جديداً في دائرة بحثه ودراسته ازداد ايماناً بالله »[2] .

ونقل عن اللورد كيلفن[3] قوله : « إذا فكرت تفكيراً عميقاً فإن العلوم سوف تضطرك الى الاعتقاد في وجود الله »[4] .

ويقول العالم المشهور اينشتين : « إن الايمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية »[5] .

ونختم هذه الأقوال بما قاله الفيلسوف الانجليزي « فرانسس بيكون » :

« ان قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان من الإلحاد . أما التعمق في الفلسفة فيرده إلى الدين » .

فنرى من أقوال هؤلاء العلماء أن العلوم هي سبب إيمانهم بالله تعالى .

ومما يسجّل للقرآن أنه سبق أن قرّر هذه الحقيقة منذ ثلاثة عشر قرناً ، فقد حصر خشية الله على وجهها الأكمل في العلماء . قال الله تعالى :

﴿ انّما يخشى اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ فاطر : ٢٨ .

لأن العلماء بما أُوتوا من صفات النظر العميق والتحقيق الدقيق يقفون على اسرار الابداع الالهي في الوجود ونواحي الاعجاز فيه مما لا يظهر لغيرهم .

كما أنّ القرآن اعتدّ بشهادة العلماء ، قال الله تعالى :

﴿ شَهِدَ الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقِسْطِ ﴾ آل عمران

فجعل الله شهادة العلماء بوجوده ووحدانيته في درجة شهادة الملائكة وهم من لا يتطرق اليهم الشك ، وفي هذا ما فيه من الاعتداد بآراء أهل العلم .

فالعلم أقام – في كتاب الكون – البرهان على وجود الله ، والقرآن سبق الى الأدلة التي جاء بها العلم ، فاتحد البرهانان على وجود الله برهان القرآن الكريم ، وبرهان كتاب الكون .

---

(١) استاذ الأحياء بجامعة بايلور وعميد أكاديمية العلوم بفلوريدا سابقاً .

(٢) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ١٠٦ .

(٣) من علماء الطبيعة البارزين في العالم .

(٤) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٢٣ .

(٥) عن كتاب « العالم واينشتين » .

مُناقشة الماديّين

الماديون لا يعتقدون بأن للوجود خالقاً بل يقولون بأن كل ما في الوجود أزلي صادر عن المادة ، والنواميس الطبيعية نشأت على سبيل الصدف والاتفاق وبلغت ما بلغته من الكمال والاتقان عن طريق التطورات المتعاقبة ، وقد سرت تعاليم الماديين الى بعض الناس فألحدوا فتصدى كثير من العلماء للرد على هؤلاء وبيان فساد مزاعمهم ، وإليك بعضاً من أقوالهم :

بُطلان نظريّة المصادفة

يقول الدكتور ايرفنج وليام[1] : « إنني اعتقد في وجوده سبحانه لأني لاأستطيع أن اتصور أن المصادفة وحدها تستطيع أن تفسر لنا ظهور الالكترونات والبروتونات الأولى ، أو الذرات الأولى ، أو الأحماض الأمينية الأولى ، أو البروتوبلازم الأول ، أو البذرة الأولى ، أو العقل الأول . انني اعتقد في وجود الله ، لأن وجوده القدسي هو التفسير المنطقي الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التي نشاهدها »[2] .

ويقول الدكتور واين اولت[3] : « اما النظريات التي ترمي الى تفسير الكو ن تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى الى محض المصادفة ، فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله بقصد اكمال الصورة والبعد بها عن التشويه ولكن حتى بغض النظر عن الاعتبارات الدينية عامة ، نجد أن فكرة وجود الله أقرب الى العقل والمنطق من فكرة الصدفة ولا شك بل ان ذلك النظام البديع الذي يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء »[4] .

ويتساءل العلامة ا . كريسي موريسون[5] عن سر الحياة وهل هي من صنع

---

(١) استاذ العلوم الطبيعية في جامعة ميشيجان ، وأخصائي في وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري .

(٢) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٥٦ .

(٣) عضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية .

(٤) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٥) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك .

المادة : « إن المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أي اتفاق في الظروف الكيماوية والطبيعية قد تخلقه المصادفة يمكنها ان تأتي بالحياة الى الوجود[1] ، ويقول : « فالحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور ، وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنع الله ، ويبهرنا جماله ، وان كانت أعيننا لا تزال فوقها غشاوة »[2] .

فنظرية المصادفة لا تقوم على أي دليل علمي مقبول ، ولا يقبلها أي عقل سليم ، ولهذا نرى القرآن يخاطب هؤلاء المتشككين بأسلوب اقناعي يبيّن فيه ان الكون لا بد له من مسبّب وهو الله سبحانه

﴿ أفي الله شك فاطر السمٰوات والأرض ﴾ ابراهيم : ١٠ .

أي أفي وجود الله وألوهيته وحده شك ؟ وهو خالق السماوات والأرض .

ويلفت القرآن النظر الى الحكمة المتمثلة في خلق المخلوقات والتي تدل على خالق في نهاية العلم والحكمة : ﴿ صُنع الله الذي اتقن كُلّ شيء ﴾ ، وجاء في القرآن في وصف الله ﴿ الذي أحْسَنَ كُلّ شيء خلَقه ﴾ السجدة : ٧

فالمصَادفة لا تخلق وجوداً فيه علم وحكمة واتقان صنع .

للكون بداية

ويرد الدكتور «ادوارد لوثركيسل[3]» على الماديين الذين قالوا بأزلية الكون فيقول : « فالعلوم تثبت بكلّ وضوح ان هذا الكون لا يمكن ان يكون أزلياً ، فهنالك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الاجسام الباردة الى الأجسام الحارة . ومعنى ذلك ان الكون يتجه الى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الاجسام ، وينضب فيها معين الطاقة . ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية ، أو طبيعية ، ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون . ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيماوية والطبيعية

---

(١) عن كتاب « الإنسان لا يقوم بحده » ص ٩٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٨ .

(٣) استاذ علم الأحياء ، ورئيس قسم بجامعة سان فرانسيسكو

تسير في طريقها ، فإننا نستطيع ان نستنتج أن هذا الكون لا يمكن ان يكون أزلياً ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمنٍ بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود . وهكذا توصلت العلوم — دون قصد — إلى أن لهذا الكون بداية . وهي بذلك تثبت وجود الله ، لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولا بُد له من مبدىء ، أو من محرّك أول ، أو من خالق ، وهو الإله »[1] .

وإذا نظرنا الى القرآن الكريم نراه يصرّح بأن للكون بداية ، وأن ذلك من صُنع الله كما في قوله تعالى :

﴿ أوَلم يروا كيف يُبدىء الله الخلْق ثم يُعيده ﴾ العنكبوت : ١٩ .

ويصرّح القرآن بأن الكون صائر إلى نهاية ، وهو يوم القيامة ، وفيه تنعدم الطاقة ويخبو نور الشمس : ﴿ إذا الشمس كوّرت[2] واذا النجوم انكدرت ﴾ التكوير : ١ ، ٢ . وبعد ذلك يعيد الله الخلق بصورة اخرى .

التطوّرُ مِن آياتِ ٱللَّهِ

يقول الدكتور جورج ايرل دافيز[3] : « إن التطور الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون ، هو ذاته شاهد على وجود الله فمن جزئيات بسيطة ليس لها صورة معينة وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة لها صور معينة وأعمار محدّدة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشري عن الإحاطة بمدى إبداعها . وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون بل كل ما دون الذرّة — مما لا يدركه حسّ ولا يتصوّر صغره عقل — قوانينها وسننها وما ينبغي لها أن تقوم به او تخضع له »[4] .

هذه أدلة كافية ، ولكن هنالك ما هو أشد اعجازاً وأكثر دلالة على وجود الله ، فمن تلك الجزيئات البسيطة لم تنشأ النجوم والكواكب فحسب بل نشأت كذلك أنواع متطورة من الأحياء بل كائنات تستطيع ان تفكر وتبتكر وتصنع اشياء جميلة ، بل هي تبحث عن أسرار الحياة والوجود . ان كل ذرّة

---

(١) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٢٩ .

(٢) كورت : ذهب ضوؤها .

(٣) أخصائي في الإشعاع الشمسي والبصريات الهندسية والطبيعية .

(٤) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٤٣ .

من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله ، وانها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها .

ويقول الدكتور « ادوارد لوثركيل » :

« والانتخاب الطبيعي هو أحد العوامل الميكانيكية للتطور ، كما أن التطور هو أحد عوامل عملية الخلق ، فالتطور إذن ليس إلا احد السنن الكونية أو القوانين الطبيعية وهو كسائر القوانين العلمية الاخرى يقوم بدور ثانوي ، لأنه هو ذاته يحتاج الى من يبدعه . ولا شك في أنه من خلق الله وصنعه . والكائنات التي تنشأ بطريق عملية الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله ايضاً كما خلق القوانين التي تخضع لها ، فالانتخاب الطبيعي ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاً ، وكل ما يفعله هو انه إحدى الطرق التي تسلكها بعض الكائنات في سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة والتكاثر بين الأنواع المختلفة. أما الأنواع ذاتها التي يتم فيها هذا الانتقاء فإنها تنشأ عن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها ، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهم الماديون أو يريدوننا أن نعتقد »[1] .

أما نظرية التطور فان القرآن يصرح بأنها من خلق الله سبحانه :

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

والانتخاب الطبيعي يحصل وفق قوانين ونواميس وضعها الله لهذه الحياة ، قال تعالى : ﴿ فأمّا الزّبَدُ فيذْهَبُ جُفاءً وأمّا ما ينفعُ النّاس فيمكث في الأرض ﴾[2] الرعد : ١٧ .

(١) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ٣١ .

(٢) هذه الآية تتمة ما وصفه الله للوديان التي تحمل مياه السيول يعلوها الزبد الذي يذهب هدراً في جانبي الوادي لا ينتفع به أما الماء فتشربه الأرض ويخرج الله به جيد الزرع ، وهو مثل ضربه الله للحق امام الباطل ، وكيف أنه لا يصمد أمامه ، ولا يبقى إلا الأصلح.

الفصل الخامس

وحدانية الله

عقائد العرب قبل الإسلام — الإسلام دعا الى توحيد الله— روح التوحيد في الاسلام — براهين عقلية على وحدانية الله — وحدة الأنظمة الكونية تدل على وحدانية الله — مهاجمة الاسلام للاشراك — عبادة الشخصية الإنسانية — عبادة الأصنام — عبادة الأهواء — عبادة الأسلاف — عبادة المظاهر الطبيعية — الشفاعة — بعض صفات الله في القرآن — دحض شبهات عن صفات الله .

عقائد العرب قبل الاسلام

كانت عبادة الاصنام منتشرة انتشاراً واسعاً قبل الاسلام في جزيرة العرب قال ابن الكلبي : «كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه . فاذا اراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله ان يتمسح به ، واذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله ان يتمسح به ايضاً » [1] ، وفي طليعة الاصنام التي ذكرها المؤرخون والتي جاء ذكرها في القرآن هي : سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر ، ود ، مناة ، اللات ، العزّى ، وغيرها ،

وقد كان من العرب من يعبد الاجرام السماوية ولا سيما الشمس والقمر ، وكانوا يسمون الشمس « الإلاهة »، وكان بعض العرب يعبد الملائكة ، والجن.

واما عبادة الاسلاف فقد كان لها حظ ايضاً عند العرب ، فما امر به الرسول محمد العرب من تسوية القبور ، ونهيه عن اتخاذها مساجد ومواضع للصلاة دليل على انهم كانوا يعبدون ارواح هذه القبور. هذا وقد كان من العرب قبل الاسلام من كان يدين بعبادة الأرواح ويؤمن بأثرها كما ان للإخباريين قصصاً عنها وعن

(١) كتاب الأصنام ص ٣٣ ط ٢ .

استقلالها وانفصالها عن الجسد بعد الموت واتصالها بالقبر ورفرفتها فوقه إذا كان صاحبها رجلاً مقتولاً ولم يؤخذ بثأره .

وللأرواح – في رأيهم – قدرة على الظهور للإنسان بأشكال مختلفة ، وقد تحل في بعض الحيوانات ، ومن هنا ظهرت عقيدة التشاؤم والتفاؤن والخوف من بعض الحيوانات .

والطوطمية[1] كان لها حظ عند العرب في الجاهلية ، فمن أسماء الحيوانات التي تسمت بها البطون والعشائر : كلب ، وذئب ، ودب ، ونسر ، وثعلب ، وهر ، وبطة ، وثور ... يضاف الى ذلك اسماء اشجار ونباتات أخرى .

وهناك طائفة من العرب انكروا الخالق وهم : الدهريون وقد اشار اليهم القرآن :

﴿ وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يُهلكنا إلاّ الدهر ﴾ .

وهناك جماعة من العرب لم تكن من اليهود ولا النصارى ، وانما اعتقدت بوجود إلّه واحد عبدته ، وقد ذكر المفسرون واهل الأخبار اسماء جماعة من هؤلاء غير ان ما ذكروه عنهم غامض لا يشرح عقائدهم ، ولا يوضّح رأيهم في الدين ، وقد عُرِف هؤلاء : بالحنفاء ، ونُعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ، ويفهم من بعض الروايات ان منهم من قرأ الكتب السماوية وفهمها ، وانهم كانوا يتأملون في هذا الكون ، وانهم تجنبوا الخمرة والاعمال المنكرة ، ونصحوا الناس بالابتعاد عن الاصنام .

ومن الديانات المعروفة قبل الاسلام في جزيرة العرب : المجوسية ، والصابئة ، واليهودية ، والمسيحية . والمجوسية كما ذكرها الاخباريون هي : عبادة النار ، وقد تسرّبت هذه العبادة من الفرس . أما الصابئة فهم صنفان : صابئة حنفاء ، وصابئة مشركون ، والمشركون منهم : هم عبدة الكواكب ، وقيل : انما دعوا صابئة لخروجهم على دين قومهم ، ومحاولتهم اخذ ما يروقهم من كلّ دين .

---

(١) الطوطمية : تعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرهم مقدسة ، ولذلك لا يجوز صيدها او ذبحها او أكلها وتشمل (الطوطمية) النباتات كذلك فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسها قطعها . ويؤلف المعتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بين افرادها وبين (الطوطم) الذي هو حاميها والمدافع عنها .

وقد كان من أهل مكة كما يتبيّن من القرآن الكريم ومن الشعر المنسوب الى الجاهليين من يعتقد بوجود إلّه واحد خلق السموات والأرض ، ولكن كانوا على الرغم من ذلك مشركين يعتقدون بأن الله هو الذي شاء فجعلهم مشركين ، وان عبادتهم للأصنام وسيلة لتقربهم الى الله وهذا ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا الى الله زُلفى[١] ﴾ .

فالتوحيد عند الجاهليين خالطه الاشراك ، فجعلوا مع الله شركاء ، وتقربوا الى الاصنام ، وجعلوا لله بنين وبنات[٢] ، واعتقدوا بالقربات والشفاعات[٣] وهذا ما حاربه الاسلام بأن اجتث الوساطة وطهّر التوحيد من زوائد الشرك .

الاسلام دعا الى توحيد الله

جاء الاسلام فأبطل ما كان عليه العرب من عبادة غير الله ، وقرر التوحيد المطلق لله في الذات والصفات ، والتوجه له بالعبادة وحده ، جاء في القرآن ؛

﴿ والهكم إلّه واحد لا اله إلاّ هو الرحمٰن الرحيم ﴾ البقرة : ١٦٣ .

فالتوحيد هو القاعدة الأولى في الاسلام التي يجب أن يؤمن بها قلب المسلم ، وينطق بها لسانه بقوله : « أشهد أن لا اله الا الله » . فكلمة « الله » هو الاسم الذي يطلق على الخالق ، وكلمة « الإله » استعملت للدلالة على المعبود أياً كان ، فكلمة « لا اله » نفي لكل معبود في الوجود وإبطال لعبادته ، وكلمة « الا الله » اثبات لعبادة المعبود بحق وهو الله سبحانه .

فشهادة المؤمن : « لا الّه إلاّ اللَّه » هي اعترافه بلسانه مع اعتقاده بقلبه عن علم ويقين أن لامعبود الا الله ، والشهادة بهذا هي الشهادة بوجود الله وبوحدانيته.

روح التوحيد في الاسلام

قضت سُنّة الله في خلقه أن يكون للعقائد سلطان على الأعمال البدنية ، فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة أو صلاحها .

فالتوحيد في الاسلام الخالص من الشوائب ، الصادر من القلب تتبعه حتماً

---

(١) زلفى : قربى .

(٢) كان العرب في الجاهلية يعتبرون الملائكة بنات الله.

(٣) رجعنا في هذا البحث الى كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) للدكتور جواد علي — الجزء الخامس

جميع الفضائل المتعارف عليها ، فكلمة التوحيد ترسخ في قائلها : بأن لا معبود ، ولا محيي ، ولا مميت ، ولا رازق ولا نافع الا الله .

هذا ويستفيد المؤمن من عقيدة التوحيد : الاستقلال والحرية، فليس لأحد عليه سلطان . ويرى ان ما طرأ على الناس من مصيبة الخضوع للملوك والزعماء المستبدين ورجال الدين سببه جهلهم بالمؤثر الأعلى وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تريهم ان قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، ولهذا جاء في القرآن النهي عن دعاء غير الله : ﴿ ان الذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين ﴾ الاعراف : ١٩٤ .

ويأمر الله رسوله محمداً بأن يخاطب قومه بقوله : ﴿ قل أفرأيتم ما تَدْعُونَ مِن دُون الله ان أرادني الله بضُرّ هَلْ هُنّ كاشِفَاتُ ضُرّه او أرادني برحمة هَل هُنّ مُمسكات رَحمته قل حسبي اللهُ ﴾ الزمر : ٣٨ .

ويستفيد المؤمن أيضاً من التوحيد صفتي : الأنفة والعفة من اعتقاده ان لا رزاق الا الله : ﴿ الله يَبْسُطُ الرزق لمن يشاء من عِباده ويقدر له[1] ﴾ العنكبوت : ٦٢ .

كذلك يستفيد المؤمن من التوحيد : الشجاعة وعدم هيبة الموت ، لأن الذي يملكه هو الله وحده ، وبذلك ترتفع نفسه الى العزّة والاباء والاستشهاد في سبيل الحق ، يقول الله تعالى : ﴿ وما كان لِنَفْسٍ أنْ تموتَ إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ﴾ . آل عمران : ١٤٥ .

بَراهين عقليّة على وَحْدانيةِ الله

الاسلام دين منطق وعقل لا يأمر معتنقيه بعقيدة إلاّ بعد ان يعرض البراهين العقلية على صحتها ، ولا يهاجم اخرى إلاّ بعد ان يبين تفاهتها وبعدها عن الصواب .

فتعدد الآلهة مثلاً يجعل البشر عبيداً لآلهتهم ، ولذا كان يقع على كاهل الانسان من جراء تعدد الآلهة من الاعباء ما تنوء به استعداداته كتقديم الهدايا والنذور والقرابين والشعائر العملية التي ترضي الآلهة ، ولذا يخاطب القرآن

(١) ويقدر له : يضيق عليه .

المشركين على لسان يوسف قائلاً :

﴿ أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم ِ اللهُ الواحدُ القهّار . ما تعبدون من دونه إلاّ اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إنِ الحكمُ إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ اياه ﴾ يوسف : ٣٩ ، ٤٠ .

فالقرآن يستهل خطابه بتبيان الفرق العظيم بين عبادة إلّه واحد يخضع الجميع لحكمه وما يستدعي ذلك التوحيد من التخفيف عن كاهل الانسان من التضحيات المرهقة والشعائر الوهمية كما ان هذا التوحيد يوحّد بين البشرية ، ويقضي على كثير من اسباب الخلاف الذي نشأ بسبب اختلاف المعتقدات . ثم ينتقل القرآن الى محاجة المشركين قائلاً : كيف تعبدون آلهة هي من صنعكم اطلقتم عليها انتم وآباؤكم اسماء مختلفة ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ اي ما جعل الله فيها من حجة وبرهان عقلي يطمئن بها من يعبدها من دون الله .

والانسان بعد التمعن في اسرار الكون وما حواه من النظام ودقة الصنع ووحدة الهدف الذي يجمع بين اجزائه لا بد ان يؤمن بوحدانية الله وتظهر له روعة هذا النص القرآني الذي قرّر هذه الحقيقة :

﴿ ام اتخذوا آلهة مِنَ الأرض هم يُنشرون[1] . لو كان فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفسدتا ﴾ الانبياء : ٢١ ، ٢٢ .

ولقد أصاب الشيخ محمد عبده في كلامه حول هــذه الآية في افتراضه الذي يبين فيه تعدد الآلهة والنتيجة المترتبة عليه فقال : « لتخالفت (أي الآلهة) علومهم وارادتهم فتتضارب افعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل ان يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن وجود كل ممكن لا بد ان يتعلق به الايجاد حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم ان يكون للشيء وجودات متعددة وهو محال ، لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه — وهو الله — واحد في ذاته وصفاته لا شريك له في وجوده ولا في افعاله »[2] .

ولا يكتفي القرآن ببيان ان الفساد يعتري الكون من جراء تعدد الآلهة بل

---

(١) ينشرون : يبعثون الموتى ويخرجونهم من العدم الى الوجود.
(٢) رسالة التوحيد .

يصف بعض مظاهر هذا الفساد وصفاً يرتفع به الى اعلى مراتب الاقناع ، ويفحم المكابر بأدلة لا يمكن دحضها ، قال الله تعالى :

﴿ ما اتخذ الله من وَلَدٍ وما كان معه من إلٓه إذاً لذهب كُلُّ إلٓه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سُبحان الله عمّا يصفون ﴾ المؤمنون : ٩١ .

وحدة الانظمة الكونية تدل على وحدانية الله

ومن البراهين المدهشة التي تفرّد بها القرآن في الدلالة على وحدانية الله : تقريره وحدة الانظمة الكونيّة ، هذه الأنظمة التي تدل على موجدٍ واحد لها .

جاء في القرآن : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عمّا يقولون عُلوّاً كبيراً . تُسبّح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيءٍ الا يُسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ الاسراء : ٤٢ — ٤٤ .

والمعنى : قل لو كان مع الله آلهة كما يقول المشركون لطلب هؤلاء الآلهة طريقاً يصلون به الى الله صاحب الملك لينازعوه عليه ، تنزّه الله — جلّ وعلا — من أن يكون معه آلهة ، وكيف يكون له شريك ، والسموات والأرض ومن فيهما تشهد له بالوحدانية وتنزهه وتقدسه حمداً له ولكن لا نفقه هذا التسبيح ولا ندرك كنهه .

هذه الحقيقة اعلنها القرآن قبل اربعة عشر قرناً في وقت كان العلم لا يفقه شيئاً من اسرار الكون . لكن في هذا العصر توصّل العقل البشري الى ادراك بعض اسراره فعلموا ان هناك حركة دائمة لا تنقطع في ذرّات كل شيء: في الاجرام السماوية والمخلوقات الحية والمادة الصماء . فقد ثبت ان مادة اي عنصر من عناصر هذا الكون تتألف من ذرات وكل ذرة تتألف من عنصرين هما (النيوترون) و (البروتون) وهذان العنصران يطلق عليهما (نواة الذرة) يضاف اليهما عنصر ثالث هو (الالكترون) الذي يدور حول (نواة الذرة) في أفلاك وهذا الترتيب وما فيه من نظام يشبه النظام الشمسي اذ هو مجموعة شمسية مصغرة فنوٰاة الذرة تقابلها الشمس والالكترون الذي يدور حول نواة الذرة يقابله الكواكب السيارة دائرة في افلاكها حول الشمس «كذلك بيّنت الدراسات العلمية ان مجموعتنا النجمية تدور ببطء حول محورها المركزي ،

ولقد وُجد ايضاً أن المجاميع النجمية في حالة دوران متشابهة »[1] .

فالنتيجة التي نخرج منها بعد التمعن في اسرار الكون هي : ان الكون بوحدة انظمته يدل على وحدة الالوهية، وان هذه الحركة الدائمة في النجوم وذرات كل شيء لسنا نبالغ في القول بأنها مظهر من مظاهر تقديسها لله خالقها وهي المشار اليها في الآية ﴿ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

الاشراك بالله ومظاهره

الشرك هو اقتران عبادة الله بعبادة غيره من اصنام أو أشجار ، أو حيوان او قبور ، او اجرام سماوية ، او قوى طبيعية ، او اتخاذ البشر آلهة ، او الزعم أن لله سبحانه بنين وبنات .

وقد بيّن الاسلام فساد الاشراك وبطلانه بقوله : ﴿ ان الله لا يغفر أن يُشرك به ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يُشرِك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ النساء : ١١٦ .

وبما ان الشرك وليد الجهل والوهم فهو يجلب من المساوىء للمجتمع الانساني ما لا تجلبه عقيدة اخرى ، ونراه بجانب مناقضته للعقل والمنطق يجعل الأذهان طيّعة لقبول كل الاوهام والخرافات والاساطير التي تهدم كيانه وتضعفه وتقف حاجزاً دون رقيه وازدهاره .

وكثيراً ما خالط الشرك اسمى التعاليم الالهية المختلفة ، وحاد بها عن حقيقتها ، وذلك بسبب ما روّجه المبتدعون ، واخذ به العامة من القشور ، فشوّهوا بعملهم سمو الدين ، ومهدوا السبيل لدعاة الالحاد لمهاجمته .

مهاجمة الاسلام للاشراك

تصدى الاسلام لمحاربة الاشراك ، وكانت غايته من ذلك تحرير الانسان من الخضوع لأي مخلوق على هذه الأرض . « صنع الاسلام ذلك لأنه أراد للانسان هدفاً أسمى مما في عالمه ، اراد ان يكون خضوعه وان تكون طاعته لغير

---

(١) عن كتاب (الشمس) للدكتور جورج جامو .

من يجوز عليه التغير والفناء، والمتغير الفاني ليس إلاّ أشخاص هذا العالم الذي نعيش فيه . أراد له هذا لأن خضوع الإنسان للمتغير الذي يعتوره الفناء معناه التقلب في الانقياد على نحو يجعل الانسان مضطرباً في التوجيه في حياته، ومضطرباً في الغاية ، وأخيراً مضطرباً في دوافع العمل والسلوك ...

فمهاجمة الاسلام للشرك ... كانت لأجل أن يرفع الانسان من عبادة الشخص المحدد المتغير الفاني إلى ما وراء ذلك مما له الدوام والاستقرار ، وإذا كان له الدوام والاستقرار كان حتماً له الكمال ... وإذا كان دائم الكمال ، شَرّف الانسان بالخضوع له لأنه أعلى قيمة منه وبقيت كذلك وجهته في الحياة ثابتة لا تبدل فيها وهي وجهة الكمال المطلق ... »[1] ولهذا جاء في القرآن : ﴿ ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾ النحل ٦٠ .

وما كانت مهاجمة الاسلام للاشراك لتتم باقامة برهان عقلي على توحيد الله بل لا بــد من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية بالعبارات المختلفة . جاء في القرآن : ﴿ قل هو الله احد . الله الصمد[2] لم يَلدْ ولم يُولد . ولم يكن له كفواً أحد ﴾ الاخلاص .

وجاء في القرآن أيضاً ﴿ الذي له[3] مُلك السماوات والأرض ولَمْ يتّخذْ ولداً ولم يَكن لَهُ شريكٌ في المُلك وخلَقَ كل شيء فقدّره تقديرا . واتخذوا مِنْ دونه آلهة لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يَملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا ﴾ الفرقان : ٢ — ٤ .

اثبت الله في هذه الآيات بأن الكون هو ملكه وأنه لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في ملكه وخلق كل شيء على نواميس خاصة ، ثم استهجن الله عباده المشركين لآلهة مخلوقة لا تملك أي ضر ولا نفع بل الأهم من ذلك أنها لا تملك القدرة على إحياء أي ميت . فمعجزة الحياة وسلطان الموت هما اللغز الذي وقف الإنسان أمامه عاجزاً لا يجد له تفسيراً غير وجود قدرة عليا فوق قدرته .

وللاشراك بالله مظاهر شتى تعرّض لها القرآن بالنقد والذم وبيّن فسادها بأساليب علمية لا تقبل الجدل وسنتناولها بالتفصيل فيما يلي :

---

(١) نقلا عن بحث نشره الدكتور محمد البهي في مجلة الرسالة .
(٢) الصمد : هو الذي لا يأكل ولا يشرب والغني عن كل شيء .
(٣) له : المقصود به الله سبحانه .

عِبادةُ الشَّخصيَّة الأنسانيّة

ومن انواع الاشراك بالله : عبادة الشخصية الانسانية ، فكثيراً ما ألّه البشر بعض ابناء جنسهم اعتقاداً منهم بأنهم يتمتعون بميزات وخواص ينفردون بها عن سائر البشر .

وقد كان لهؤلاء البشر المتألهين عدة سبل للوصول الى غاياتهم منها : استغلال سذاجة الافراد ، والتدجيل عليهم ، واستعمال وسائل العنف والارهاب ، وتسخير أجهزة الإعلام في الدعاية لأشخاصهم فاستغلوا الجماعات البشرية اسوأ استغلال لمطامعهم وتنفيذ مآربهم ، وقادوهم الى الهلاك والخسران .

وقد لاقت الجماعات البشرية من شرور هؤلاء المتألهين ما يضيق بــه الصدر ، فكانت تتنفس الصعداء عقب كل ثورة اصلاحية ، وتكفر بهذا التأليه الذي خضعت له زمناً طويلاً . والأمثلة شاهدة على هذا عند كثير من الشعوب البدائية والشعوب المتحضرة ؛ فستالين الذي كان شبه اله في قومه ، كفر به الشعب الروسي بعد موته ، فمزقوا صوره ، وحطموا تماثيله ورفعوا الصيحات من كل جانب باستهجان عبادة الشخصية الانسانية .

ومن المبادىء العظيمة التي جاء بها القرآن: عبادة الله وحده، وعدم عبادة الشخصية الانسانية بأي صورة كانت ، انظر كيف يوجّه الاسلام الخطاب الى اليهود والنصارى واضعاً الأسس الراسخة التي يجب أن تلتقي حولها هذه الديانات الثلاث في سبيل اسعاد البشرية ورفع الظلم والاستغلال اللذين تؤدي اليهما عبادة الشخصية الانسانية : ﴿ قُل يا أهل الكتاب تعَالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نُشْرِك به شيئاً ولا يتخِذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ آل عمران : ٦٤ .

ولما كان بعض الانبياء والمصلحين قد اتخذهم قومهم بعد مماتهم آلهة اوانصاف آلهة بيّن القرآن بطلان هذا الشطط في المعتقد بقوله :

﴿ ما كان لبشرٍ ان يُؤتيَهُ الله الكتاب والحُكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي مِنْ دون الله ولكن كونوا ربانيّين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسون . ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ايأمركم

بالكفر بَعد إذ أنتم مسلمون ﴾ آل عمران ٧٩ ، ٨٠ .

والمعنى : ان الله لم يؤت لبشر العلم والحكمة والنبوة ليطلب هذا النبي من الناس ان يعبدوه من دون الله ، ولكن ليقول لهم : كونوا عابدين للرب بمقتضى ما علمكم من كتابه الالهي وما درستم فيه . ولا يمكن ان يأمركم الله بأن تجعلوا الملائكة والنبيين ارباباً من دون الله لأن ذلك كفر ليس من المعقول ان يأمركم به بعد ان اصبحتم مسلمين وجوهكم له وحده .

فعبادة المصلحين والانبياء أمر مشهور في كثير من الأمم ، فالمعلم (بوذا) مثلاً لم يدّع الألوهية في حياته ولكن كثيراً من اتباعه ألهوه بعد مماته ونصبوا التماثيل له . هذه النظرة الضالة الى المصلحين والانبياء عمل الاسلام على معالجتها والاحتياط لها خوفاً على اتباعه من تأليه صاحب الدعوة الاسلامية . فكان من صميم المعتقدات الاسلامية بأن محمداً بشر كسائر البشر ، وانه عبد الله ورسوله، فها هو رسول الاسلام يأمره الله ان يخاطب اتباعه قائلاً :

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلاّ ما شاء الله ولو كنت أعلمُ الغيب لاستكثَرت مِنَ الخير وما مسّني السوء إن أنا إلا نذيرٌ وبشير لقوم يؤمنون ﴾ الاعراف : ١٨٨ .

وجاء في القرآن في هذا المعنى ايضاً :

﴿ قل انما انا بشرٌ مثلكم يُوحى إليّ أنّما إلهكم إلهٌ واحد فمَنْ كان يرجو لقاء ربّه فلْيَعْمل عَملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربه احداً ﴾ الكهف.

فتأمل ما تحمل هذه الآية من التعاليم السامية التي فيها اسعاد للبشرية والتي أعرب القرآن عنها بكلمات قليلة العدّ تغني عن كثير ، فهي تلخص الفكرة الاسلامية القائمة على العمل الصالح وعبادة الله وحده .

عِبادة الأصنام والاوثان

ومن أنواع الاشراك بالله عبادة الاصنام والأوثان :

والصنم هو التمثال المصنوع من الخشب او الحجر أو المعدن ، وله شكل مخلوق حي كانسان او حيوان او طائر او مزيج من ذلك كله . اما الوثن فلا صورة له كالحجارة والنصب وما الى ذلك .

ويمثل الصنم – في نظر عبدة الأصنام – قوة عليا هي فوق الطبيعة ، وقد يعتقدون انها كامنة فيه . وللاصنام مدلولات واساطير عند عابديها فبعضها يمثل الحرب ، وآخر الخصب ، وثالث الشر ، وهكذا ..

ويتبين من روايات المؤرخين ان عبادة الأصنام كانت منتشرة انتشاراً واسعاً قبل الاسلام في جزيرة العرب ، فمن هذه الروايات ما جاء في اخبار فتح مكة: ان الرسول حينما دخل الكعبة رأى فيها صور الانبياء فأمر بها فمحيت ، ورأى فيها ستين وثلاث مئة صنم فأمر بها فكسرت[1] .

فعبادة الأصنام من الأمور المشينة التي طغت على الجنس البشري ردحاً طويلاً من الزمن ثم اندثرت تباعاً على ايدي رُسُل الديانات الكبرى: اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام .

ولكن ما هي العوامل والدوافع التي دفعت العرب الى عبادة أحجار ومعادن لا حياة فيها ولا نفع ولا ضر ؟

من تلك الدوافع ما ذكره القرآن عن لسان المشركين في تعليلهم لعبادة الأوثان : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقربونا الى الله زُلفى ﴾ الزمر : ٣ .

هذا هو التعليل الذي يحتج به بعض الوثنيين في الحاضر ، وحجتهم في ذلك ان وجود الصنم امام المتعبد يُساعد على تركيز الفكر والتعمق في التفكير للتقرب الى الله ، ولكن نلفت النظر الى ان السجود للصنم على انه رمز لله أو القول بأن الصنم يُقرب الى الله هو باطل منطقياً لأن وجود الصنم امام المتعبد في صلاته يصرف الفكر عن الله ، وان التقرب الى الله يحصل بالتوجه بالفكر رأساً اليه لا بواسطة جماد او صورة ، ولأنه ليس من الصعب توجيه الفكر رأساً الى الله بدون واسطة بل ذلك ادعى لطبيعة الانسان في رفع قيمته المعنوية وعدم جعل أحد قيماً عليه ، ثم ان الانسان كثيراً ما يلجأ الى الله في محن ومصائب لا تتوفر له فيها الواسطة . هذا مع العلم بأن هذه الواسطة لا تنفع ولا تضر .

عبادة الأهواء

ومن انواع الاشراك انقياد الانسان لهوى نفسه ، فلا يهوى شيئاً إلاّ اتبعه ،

---

(١) ابن الأثير (٢ – ١٠٥) .

وهذا ما ذكره القرآن : ﴿ ارأيت من اتخذ الهه هَوَاهُ افأنت تكون عليه وكيلا ﴾ الفرقان : ٤٣ .

ومن ابرز الأهواء التي ألهها الانسان وصيّر نفسه عبداً لها : المال والجاه والحب .

فالمال ذلك المعبود الطاغي الذي سيطر على عقول كثير من الناس ، وجعل حياتهم مسخرة لجمعه وطلب الرفاهية عن طريقه والاقتتال في سبيل جمعه ، فألهى الناس عن ربهم وصرفهم عن القيام بواجب الشكر له والتزام حدود أوامــــره .

والقرآن لم يغفل عن التحذير من سلطان المال وتأثيره على الجماعات فقال : ﴿ يا ايها الذين آمنوا لا تُلهكم اموالكم ولا أولادكم عن ذِكْرِ الله وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ .

فالمال يصبح عدواً للانسان عندما يسيطر على حواسه ، ويؤدي به الى ترك عبادة ربه ، والبذل في سبيل مرضاته ، لهذا حذّر انبياء الله الجماعات من طغيان المادة فقد قال السيد المسيح في وعظه هذه الجملة الرائعة : (لا تعبدوا ربين : الله والمال) .

عِبادة الأسلاف

لا نجد عقيدة شاعت في الامم قديماً وحديثاً كعقيدة عبادة الاسلاف ، فقد اسبغ الناس عليهم ما يسبغون عادة على الآلهة من نعوت وصفات .

وقد ادعى العالم (تايلور) : « ان عبادة الاجداد نشأت من الاعتقاد بالأرواح ، فالآباء والاجداد في القبائل البدائية كانوا رؤساء الاسر وبيدهم مقاليد الأمور لأنهم اخبر بشؤون الحياة ، فإذا ماتوا فإن أرواحهم ترفرف في سماء الاسرة لتقيها شر النوائب »[1] « ورد اذى الاعداء ... فتمجيد الأبطال والخوف منهم هو الذي حمل البشر على عبادة الاسلاف »[2] .

اي مفكر في حقيقة هذا المعتقد يجده غريباً بعيداً عن التصديق والاقناع ،

---

(١) (تاريخ الأديان وفلسفتها) للاستاذ طه الهاشمي ص ٦٨ .
(٢) (تاريخ العرب قبل الاسلام) – جواد علي – جـ ٥ ص ٣٤ .

فمن هم الاسلاف ؟ لنتفكر بأصلهم ومصيرهم ، انهم من البشر يأكلون ويشربون ويمرضون ثم يأتيهم الموت ، وبعده ينخر الدود اجسامهم ويحيلها الى البلى، ومن كان هذا اصله ومصيره فهل من العقل اللجوء اليه وطلب المعونة منه !

قد يقولون : ان ارواح اسلافهم التي انفصلت عن اجسادها بالموت هي التي تصاحبهم وتدافع عنهم ، فنرد عليهم : اين هذه الأرواح ؟ وما هي حقيقتها ؟ وكيف تدافع ؟ ان الارواح بانفصالها عن الجسد اصبحت اضعف واوهى من ان تؤثر فيما حولها ، ان مظهر الروح وطاقتها يتمثل في اتحادها بالجسم . والانسان الحي في ذروة قوته يعجز عن تحقيق كثير من شؤون الحياة ولا يملك التأثير في مظاهر الطبيعة التي يستمد منها حياته ولا يملك رد الموت إذا قرب منه فإذا كان هذا هو شأن الانسان في حياته فإنه بعد مماته كالعدم .

ان عبادة الاسلاف تشتمل على كثير من الخرافات والأساطير والقيام بشعائر وطقوس يمكن وصفها بالإجمال بأنها نوع من التخديرات التي خدّرت الشعوب ووقفت حائلاً دون تقدمها ورقيها « فمن آثار عبادة السلف عند العلماء حلق الرأس واحداث جروح في الجسد ، واحتفالات دفن الموتى ، ولبس المسوح والعناية بالقبور والصلاة عليها او إقامة شعائر دينية فوقها »[1] .

ومن روعة القرآن انه لم يغفل عن هذه الاباطيل التي طرأت على الجنس البشري ، فكانت تعاليمه تحض على تخليص الانسان منها . قال تعالى :

﴿ لا اله إلاّ هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ الدخان : ٨ .

تأمل كيف استهلت هذه الآية وصف قدرة الله في الاحياء وفي الاماتة بينما الاسلاف لا يملكون هذه الصفة بل هم اموات فما ابعد الميت عن نفع غيره . ثم تأمل كيف ان الآية اعلنت ان الله هو ربهم ورب آبائهم ، واذا كان الله رب الجميع فقد بطل الداعي الى عبادة الاسلاف .

عبادة المظاهر الطبيعية

الطبيعة بأسرارها وجمالها وعجائبها وما تؤديه من منفعة لبني الانسان هي الحافز الأول للبحث عن الله وعن غرس فكرة التدين في النفس الانسانية .

---

(١) Ency. Relig. 7 p 325 نقلا عن كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) للدكتور جواد علي .

والطبيعة بقسوتها وجبروتها كانت تلجىء الانسان للبحث عن الخلاص والنجاة كما انها كانت له حافزاً لتأليهها .

يقول العالم ماكس موللر : « ان مظاهر الطبيعة كانت اول ما استرعى انتباه الانسان الأول وأدهشته عندما نظر الى الكون ، ولشدة نفوذها وتأثيرها في نفسه نبهت فيه فكرة الدين فعبد الطبيعة »[1] .

وإذا كانت المظاهر الطبيعية في نظر كثير من الشعوب القديمة هي آلهة يجب الخضوع لها فإن بعض الشعوب عددت الآلهة وجعلتها خاصة بمظاهر الطبيعة « فبعضها جعل آلهة للسماء ، وآلهة للأرض وللهواء ، وآلهة اخرى للبحار »[2] وبعض الشعوب القديمة جعلت آلهة للسحاب ، واخرى للنار ، وثالثة للنور .

عالج القرآن عبادة المظاهر الطبيعية وبين تفاهتها وان المعبود بحق هو الله رب هذا الكون وما يحتويه من مظاهر طبيعية . جاء في القرآن :

﴿ إن الهكم لَوَاحِدٌ . رَبّ السموات والأرض وما بينهما ورَبّ المشارق ﴾ الصافات : ٥ .

ويصف القرآن وحدانية الله معدداً اعظم المظاهر الطبيعية التي خلقها :

﴿ إنّ رَبّكُمُ الله الذي خَلَقَ السَمَوات والأرض في سِتَّةِ أيَّام ثم استوى على العرش يُغشي الليل النهار يَطْلُبُه حَثيثاً والشمس والقمر والنجومَ مُسَخَّراتٍ بأمره ألاَ لَهُ الخلْقُ والأمر تَبَارَكَ اللهُ رب العالمين[3] ﴾ الاعراف : ٥٤ .

والمعنى : ان ربكم خالق السموات والأرض ، والمقصود بهما الكون جميعه ، فالسماوات هي جميع الاجرام السماوية من نجوم وكواكب . والأرض هي الكوكب الذي نعيش عليه . خلق الله ذلك في ستة ايام ثم استولى على السلطان الكامل فيها . وهو الذي يجعل الليل يغطي النهار بظلامه يطلبه دائماً بانتظام وبسرعته المعهودة ، والشمس والقمر والنجوم هي خاضعة لله تعالى مسيّرات بأمره ﴿ الا لَهُ الخلق والأمر ﴾ فهذا التعبير البليغ الموجز يستوعب جميع الاشياء التي تتعلق بصفات الله على غاية الاستقصاء .

---

(١) عن كتاب (تاريخ الأديان وفلسفتها) للاستاذ طه الهاشمي ص ٧٢ .
(٢) Ency Relig . 10, p. 114.
(٣) تبارك الله رب العالمين : أي تقدس وتنزه وتعاظم الله رب العالمين .

الشفاعة

وقد كان العرب قبل الاسلام يعتبرون الأصنام من جملة الشفعاء الذين تشفع لهم ، « وتكون الشفاعة بـ (وسيط) ، وتكون الشفاعة ايضاً بطرق متعددة إما بالصلاة ، وإما بالأدعية ، وإما التوجه الى القديسين والانبياء ، وبتقديم القرابين والنذور الى الهياكل والمعابد لتكون واسطة للآلهة وشفيعة لأصحابها لدى آلهتهم في استجابة مطالبهم »[1] .

اما القرآن فنراه يصرح : بأن الشفاعة هي من اختصاص الله وحده :

﴿ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ﴾ الزمر : ٤٤ ..

لأن الله يتفرّد بخلق الكون والتصرف فيه والشفاعة من بين ما يختص به .

ويؤكد القرآن بأن الشفاعة لا تكون لأحد من مخلوقات الله إلاّ بعد إذن منه : ﴿ وما من شفيع إلاّ من بعد إذنه ﴾ يونس : ٣ .

وجاء في القرآن بأن الانبياء يشفعون لمن يريد الله سبحانه له ذلك :

﴿ ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ الانبياء: ٢٨ .

ويعيب القرآن على المشركين اتكالهم على الشفاعة ، ويبين بطلان ذلك بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ يونس : ١٨ .

فالذي ذكره القرآن من اختصاص الله بالشفاعة وانه سبحانه يأذن بها لمن يريد ، ان ذلك لسبيل اصلاحي كبير يقطع الأمل الذي يتعلل به العصاة المتكلون على الشفاعة ، كما يحول بين كل مدّع من البشر بالصلاح والتقوى لاستغلال الناس بأنه شفيع لهم عند الله يجلب لهم المغفرة لأن إذن الله ـ كما صرّح القرآن ـ غير معروف لأحدٍ من الخلق ، وان المدار جميعه على اعمال الإنسان ونياته التي بموجبها يصبح من الناجين أو الهالكين في الآخرة .

* * *

فنظرية الاسلام تقرر توحيد الله توحيداً مطلقاً في ذاته وصفاته والتوجه اليه توجهاً كلياً يحرره من عبودية الافراد ويهبه الكرامة الانسانية الحقة ويقوي نفسه على مجابهة احداث الحياة ويجعله فرداً صالحاً في المجتمع الانساني .

---

(١) (تاريخ العرب قبل الإسلام) ـ للدكتور جواد علي ـ ج ٥ ص ٦٥ .

بعض صفات الله في القرآن

لا نرى ديناً يصف مقام الالوهية وما يليق بها من كمال ومعرفة كما يفعل الاسلام ، فالدارس للقرآن يستشعر من خلال آياته ــ في وصف الخالق ــ شعوراً مليئاً بالخشوع والانبهار لهذه الذات الالهية التي لا يحدها فكر ولا يحيط بها عقل .

والذي يجعل الانسان في منأى عن الاشراك بالله هو الاعتقاد برابطة وصلة تجمعه بهذه القدرة الالهية ، فأي حاجز وأي وسيلة بينه وبين الذات الالهية من الدواعي للاشراك به ، ولهذا نرى الاسلام يجعل بين الله والناس رابطة لا تلجئهم الى الاستعانة بغيره .

والى القارىء عرضاً مختصراً لهذه الصفات والروابط التي جعلها الله بينه وبين الناس :

قدرة الله تعالى

الكون وما يحتويه من كائنات حية وغير حية أثر من آثار قدرة الله ابدعها من العدم ، إنها قدرة شاملة في نواحي هذا الكون لا يعجزها شيء البتة ، هذا ما أعلنه القرآن :

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كُلّ شيء قدير﴾ الملك: ١ ﴿ ذلكَ بأنّ الله هُوَ الحق وأنّهُ يُحيي الموتى وأنّه على كل شيء قدير ﴾ الحج : ٦ .

انها قدرة تنتج ولكن انتاجها اعلى واسمى واكثر من مجموع انتاج البشر ، فالعقل البشري مجالاته في معرفة وصنع الاشياء محدودة بخلاف قدرة الله التي لا تقف عند حدّ . فالحشرة ، وهي من ابسط مخلوقات الله لا تستطيع البشرية بأجمعها خلقها . هذا هو الفرق الشاسع بين قدرة الانسان وقدرة الله اللامتناهية التي صورها القرآن بقوله : ﴿ يا أيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له . إن الذين تَدْعُون مِنْ دُون الله لَنْ يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ الحج : ٧٣ .

وآثار القدرة الالهية التي نشاهدها في هذا الكون تدل على طاقة لا تقف عند حد ، فمن المعلوم ان جميع ما على الأرض من طاقة مستمد من نور الشمس ،

والشمس نجم كسائر ما نرى في السماء من نجوم لا يحصى عددها الا الله ، فما هو مبلغ تلك الطاقة العظيمة التي تشعها انوار هذه النجوم في هذا الكون ؟

هذا هو مثل لقدرة الله نضعه للقارىء ليتخيل مبلغ عظمة قدرة الله التي صورها القرآن في هذه الآية الموجزة الرائعة : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾

وقدرة الله تتغلغل في صميم حياة الانسان ، فلا داعي للالتجاء الى غير الله للحصول على مرغوب واجتناب مكروه لأن ذلك لا يملكه غيره . جاء في القرآن:

﴿ وان يمسسك الله بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ له إلاَّ هو وإن يمسَسْك بخير فهو على كُلِّ شيء قدير . وَهُوَ القَاهِرُ فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ الانعام : ١٧ — ١٨ .

وقدرة الله سارية في خلق الذكور والاناث ، فلا داعي للالتجاء الى آلهة أو الارتماء في احضان الدجالين للحصول على ولد . جاء في القرآن في وصف قدرة الله :

﴿ يَهَبُ لمن يشاء إناثاً ويَهَبُ لمن يشاء الذكور ﴾

﴿ ويجعل من يشاء عقيماً ﴾ الشورى : ٥٠ .

وقدرة الله نافذة في اعزاز الأمم واذلالها ، قال الله تعالى :

﴿ قل اللهم مالِكَ الملك تُؤتي الملك مَنْ تشاء وتنزع الملك مِمَّن تشاء وتُعزّ من تشاء وتُذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كل شيء قدير ﴾ آل عمران : ٢٦ .

فكم من الأمم بلغت منزلة عالية من السلطان والنفوذ ثم استذلت ؛ وكم من الملوك والزعماء بلغوا ارفع منازل الجاه ثم وصلوا الى نهاية مؤلمة من قتل وسجن ونفي .

ان المؤثر والموجّه في مصائر الشعوب والافراد هو الله وحده فلا حاجة للالتجاء إلى غيره ، ولكن في سبيل الحصول على حياة أفضل يصرّح القرآن :

﴿ إنّ الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ الرعد : ١١ .

هذه الآية العظيمة تصرح بأن سُنّة الله جرت بأن لا يغير حال الأمم من شقاء الى سعادة إلاّ اذا غيّر الافراد والجماعات ما بأنفسهم فالأمة التي تصلح من امرها فإنها جديرة بأن يمدها الله بمعونته ، أما الأمة التي تستبيح

الظلم وتتحلل من الفضائل فانها تستحق ان تقع تحت ظل الاستعباد من الأمم المجـــاورة .

علم الله تعالى

ان الله عليم ، لم يسبق معرفته جهل ، ولا يعدو عليه نسيان ، وعلمه محيط بالأمس واليوم والغد والظاهر والباطن ، بالسماء والأرض ، بالدنيا والآخرة . وما هذا الكون وما فيه من والاتقان الا برهان على شمول علم الله وحكمته . فمن الحجج الرائعة في القرآن للدلالة على شمول علم الله هي : ان الله خالق كل شيء والذي يخلق المخلوقات كلها فبالأحرى ان يعلم اسرارها وخفاياها:

﴿ واسرّوا قولكم او اجهروا به إنّه عليمٌ بذات الصدور . ألا يَعْلَمُ من خَلَقَ وهو اللطيف الخبير ﴾ الملك : ١٣ ، ١٤ .

وإذا صرّح القرآن بأن الله يعلم سريرة الانسان وعلانيته فهو فوق ذلك يعلم كل شيء في الوجود تأمل هذه الآية التي تشعر فيها بجلال الربوبية :

﴿ الله يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أنثى وما تَغِيضُ الأرحام وما تَزْدَادُ وكلُّ شيء عِنْدَهُ بمقدار . عالمُ الغيب والشهادة الكبيرُ المتعَال . سَوَاءٌ منكم من أسرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ به وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارب بالنهار ﴾ الرعد : ٩ ، ١٠ .

فالآية تقول : ان الله يعلم ما تحمل كل انثى من جنين ويعلم أذكر هو او انثى ، وما تنقص الأرحام بالولادة ، وما تزداد بالحمل وقتاً بعد آخر ، وكل شيء عنده سبحانه بقدر وزمان معلوم . ويعلم الله ايضاً ما يغيب عن حِسّنا وما نشاهده ، وهو سبحانه العظيم الشأن يعلم كل ما في الوجود . ويعلم فوق ذلك ما نسر وما نعلن من افعال وأقوال ، ويعلم ما هو مستخف في ظلمة الليل وظاهر في وضح النهار .

ويعلم الله دقائق هذا الكون وخفاياه: ﴿ وعنده مفاتحُ الغيب[١] لا يعلمها الاّ هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تَسقُطُ من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس إلاّ في كتاب مبين ﴾ الانعام : ٥٩ .

---

(١) مفاتيح الغيب : معرفة الأمور التي تغيب عنا .

يتبين لنا من هذه النصوص القرآنية ان نظرية الاسلام في الله ليست مجرد نظرية فلسفية ميتافيزيقية كما يعتقد كثير من الغربيين الذين يعتقدون ان الله خلق العالم ثم عرج الى السماء ولا شأن له به ، بل يعتقد المسلمون ان الله يعمل في العالم دائماً فكل ما حدث وكل ما يتجدّد حدوثه من عمله المستمر .

ليس كمثل الله شيء

مخالفة الذات الالهية لغيرها من المحدثات ظاهرة ، والبداهة تقضي بأن مرتبة المخلوق دون مرتبة الخالق بكثير ، وأن الخالق كذلك لا يشبه شيئاً من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته ، فإذا قيل: ان الله يسمع فليس ذاك بأذن كآذاننا ، أو يرى فليس ذلك بعين كأعيننا ، فهو سبحانه غير مخلوقاته ، وشأن الألوهية أسمى مما تتصوره العقول القاصرة .

يقول الشيخ محمد عبده : « فالفكر في ذات الخالق هو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت عن انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية من جهة اخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعي الى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدي الى الخبط في الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره »[1] .

وهذا ما ذهب اليه الدكتور ماريت ستانلي كودج[2] :

« ومما لاشك فيه أننا نحتاج في محاولتنا لوصف الخالق ومعرفة صفاته الى مصطلحات ومعان تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك التي نستخدمها عندما نصف عالم الماديات .. وبخاصة بعد أن تبين لنا أن هذا الكون الذي نعيش فيه لايمكن أن يكون مادة صرفاً وإنما هومادة وروح ، أومادة وغير مادة ولا نستطيع أن نصف الاشياء غير المادية بالأوصاف المادية وحدها »[3] .

ولكن بعض الناس ضلوا واختلفوا في ذات الله ، فبعض الوثنيين يرى : أن الله أرواح تمثلها الاصنام والأوثان ، ويرى آخرون : أن الله حلّ في بعض أجساد أهل الأرض .

---

(١) « رسالة التوحيد » : ص ٦١ ص ١٠ .
(٢) عضو الجمعية الامريكية الطبيعية .
(٣) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ١٩ .

اما الإسلام فرد الأمر الى نصابه ، وأتى بالقول الفصل في حقيقة الله ، ودحض كل الشبهات والأباطيل التي رانت على العقول حول الاعتقاد في الله .

ونظرية الاسلام ترى : ان للكون خالقاً واحداً متصفاً بجميع صفات الكمال ، وتدعو بأن نجلّه عن التشبيه والتجسيد ، وعن كل صفات المخلوقين . وهذا ما نراه في هذه الآيات القرآنية التي وصفت الله بهذه الاوصاف :

﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار ﴾ الانعام : ١٠٣ . ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ الشورى : ١١ . ﴿ يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾ طه : ١١٠ . ﴿ سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ الزخرف : ٨٢ .

والرسول محمد ﷺ امر بالتفكر في مخلوقات الله، ونهى عن التفكير في ذات الله فقال : (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله) [١] وقال ايضاً : (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله) [٢] .

وهذا الذي قرره الاسلام من تنزيه لخالق الكون لم تصل اليه ارقى الفلسفات الاّ بعد الاسلام بقرون كثيرة ، فنشوؤه في جزيرة العرب في ذلك العهد دليل على ان القرآن وحي الهي .

حياة الله تعالى

الله مصدر الحياة وهو واهبها لكل حيّ ، فيتحتّم عقلاً ان يكون متصفاً بالحياة في اكمل صورها ، وحياة الله خالدة لا يلحقها فناء ولا نعاس ولا نوم جاء في القرآن :

﴿ الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم [٣] لا تأخذه سِنَةٌ [٤] ولا نوم ﴾ .

وجاء في القرآن وصف ما يلحق الكائنات الحية التي تعيش على الأرض والصفة الثابتة لله تعالى بأوجز عبارة وابلغها تشهد بمصدرها الالهي.

﴿ كلّ مَنْ عليها فانٍ ويبقى وجهُ ربّك ذو الجلال والإكرام ﴾ .

وحياة الله لا تحتاج الى طعام كالكائنات الحيّة . قال تعالى :

---

(١) رواه الطبراني .

(٢) رواه البيهقي .

(٣) القيوم : الدائم القيام على تدبير الكون وحفظه . (٤) سنة : نعاس .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ اتَّخِذُ وليّاً فاطِرِ السموات والأرض وهو يُطعِمُ ولا يُطْعَم قل اني أمرتُ ان اكونَ أوّل من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾ الانعام : ١٤ .

بهذه الآية قطع الاسلام السبيل على الكهنة الوثنيين الذين يأمرون اتباعهم بتقديم القرابين والذبائح للاله او الآلهة ، فلا قرابين ولا ذبائح تُقدّم للمعابد يستفيد منها الكهنة وحدهم لأن الله لا يأكل ، وبهذه الحقيقة الواضحة التي أعلنها القرآن حرّر الانسان من هذه الاباطيل التي انتشرت في كثير من الشعوب قديماً والتي لا يزال البعض يفعلها حتى الآن هادرين بذلك أموالهم وانتاجهم عبثاً ، فلا يخفى ان هذا التوضيح القرآني قد اقفل باباً كان يلجه الملحدون لاستغلال هذه الشعائر الدينية في سبيل مهاجمة الدين عموماً .

ويصرح القرآن بأن حياة الله منزهة عن الزوجة والولد وبهذا سدّ الاسلام منفذاً كبيراً تسرّب منه ادعياء الالوهية الى استغلال الشعوب حينما ادعوا انهم ابناء الآلهة يجب عبادتهم والخضوع لهم ، قال سبحانه :

﴿ بَديعُ السموات والأرض أنّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبة وخَلَقَ كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالِقُ كل شيء فاعبدوه ﴾ الانعام : ١٠١ ، ١٠٢ .

والمعنى : الله الذي انشأ السموات والارض كيف يكون له ولد مع انه لم تكن له زوجة ، وقد خلق كل شيء وهو عالم بكل شيء ، ذلكم الله ربكم ، لا إله غيره خالق كل شيء مما كان ومما سيكون ، فهو المستحق للعبادة فاعبدوه وحده .

سمعُ اللهِ وبَصَرُه

من الصفات التي يتصف بها الخالق السمع والبصر ، ولا يمكن تصور الذات الالهية دون سمع وبصر ، هذه الحقيقة ذكرها القرآن فيما جاء على لسان ابراهيم عندما دعا والده الى نبذ عبادة الأصنام بقوله : ﴿ يا ابتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يُغني عنك مِنَ الله شيئاً ﴾ مريم : ٤٢ . ومعنى هذا القول ان الإله المعبود يجب ان يكون سميعاً بصيراً وهذا ما قرره القرآن في آيات كثيرة من ذلك ان احدى النسوة وتدعى « خولة » جاءت الى

الرسول محمد تشكو اليه زوجها، فأنزل الله عليه هذه الآية : ﴿ قد سَمِعَ الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير ﴾ المجادلة : ١ .

كلام الله تعالى

الكلام من صفات الله ، ولكن هناك فرقاً بين هذه الصفة في الله والانسان فالكلام في الانسان يكون بالالفاظ ينطق بها او يكتبها على حين ان الله يعتبر متكلماً بما يُعرف بالوحي ثم يرسل بهذا الوحي إلى من يشاء من رسله بواسطة الملك جبريل ، وفي ذلك يقول سبحانه :

﴿ وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحياً او من وراء حجاب ، او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم ﴾ الشورى : ٥١ .

والكلام من (وراء حجاب) هو أن يسمع النبي كلام الله بدون أن يراه ، وقد خص الله بذلك من أراد رفع منزلته بتكليمه مثل موسى ومحمد عليهما السلام ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلَّم الله ﴾ البقرة : ٢٥٣ .

وكلام الله ليس له نهاية ولا عدّ : ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة اقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ لقمان : ٢٧ .

قِدَمُ الله تعالى وبقاؤه

قال الله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ الحديد : ٣ .

فالله هو (الأول) أي السابق في الوجود على جميع الموجودات وهو (الآخر) أي بعد كل شيء بلا نهاية (والظاهر) فوق كل شيء بقدرته وغلبته (والباطن) أي المحتجب عن أبصار الخلق والمطلع على ما بطن من الغيوب .

وقال الله تعالى : ﴿ ولا تَدْعُ مع الله الهاً آخر لا اله إلاّ هو ، كل شيء هالك الاّ وجهه ، له الحكم واليه تُرجعون ﴾ القصص : ٨٨ .

دحض شبهات عن صفات الله

ورد اسم الله تعالى في القرآن موصوفاً بصفات كثيرة ، وهي صفات كمال لله ، وقد أثار بعض الباحثين الشبهات على هذه الصفات منهم الدكتور (فيليب حتي) في كتابه (تاريخ العرب) اذ قال في معرض الحديث عن العقيدة الاسلامية : « ... وصفات الحب في الله تتضاءل أمام صفات القوة والجلال ، فهو الاله المهيمن العزيز الجبار »[1] .

للرد على هذا للزعم نقول : ان صفات القوة والجلال في القرآن قليلة جداً بالنسبة لصفات الرحمة والمودة . وصفات القوة والجلال لله هي من لوازم الالوهية لأنها تحذر الظالم من التمادي في غيّه، وليس من الضروري أن نتصور الله رفيقاً عطوفاً في جميع الأحيان ، فمن الجهل أن ننسى ان غضب الله على الأشقياء والظالمين من حتميات العدالة .

صفات القوة والقهر

واذا استعرضنا صفات القهر والقوة لله في القرآن نجدها لا تحمل معنى الظلم في أي وجه كما سيتبين لنا ، فمن صفات الله (الجبار) : وهو مقدّر الصلاح من قولهم : جبرت العظم الكسير فانجبر . وقيل : هو حامل العباد على ما يريد ، وقيل : الجبارمن لا يؤثر فيه قصد القاصدين ولا يناله كيد الكائدين ، والنخلة اذا اسرعت في النمو وفاتت الأيدي قيل نخلة جبارة فيقرب معنى الجبار من المتعالي . ومن صفات الله (المهيمن) : وهو المطلع والمسيطر على مخلوقاته . وصفة (العزيز): أي القوي الذي لا ينال ولا يغالب ولا يعجزه شيء ولا مثل له. وصفة (المتكبر): أي العظيم ذي الكبرياء والعظمة . وصفة (القهار): أي صاحب السلطان المسيطر على كل موجود . وصفة (العظيم) : اي الذي لا حدود لعظمته. وصفة (المنتقم): أي المعاقب لمن عصى وكفر . وصفة (مالك الملك) أي الذي له التصرف المطلق في ملكه .

---

(١) (تاريخ العرب) جـ ١ ص ١٧٧ ط ٢ .

صفات الود والرحمة

وأما صفات الود والرحمة لله فهي كثيرة في القرآن ، منها : صفة الرحمن أي المنعم بجلائل النعم ، وصفة (الرحيم) : أي الرفيق بخلقه . وصفة (السلام) : أي واهب السلام . وصفة (الغفّار) : أي كثير المغفرة . وصفة (الرزاق) : أي المتكفل بأرزاق العباد . وصفة (اللطيف) : أي الذي اجتمع رفقه ولطفه في فعله وتدبيره . وصفة (الشكور) أي الذي يثني على من أطاعه ، وصفة (الكريم) : أي الذي لا يبخل ولا يبالي كم أعطى . وصفة (المجيب) : أي الذي يقدر على تلبية كل من دعاه ولا يسأم من إلحاح الطالبين . وصفة (التواب) : أي الذي يهب أسباب التوبة ويقبلها . وصفة (الودود) : أي كثير الود لعباده يُدني من تقرب اليه .

وبعض الآيات القرآنية التي يوصَف الله فيها بالقوة تليها أو تسبقها مباشرة صفات الرحمة ، قال الله تعالى : ﴿ نبّىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .

ونجد في القرآن ان الله وصف نفسه بصفة الرحمة كما سنرى في هذه الآيات التالية التي تدحض كل شبهة تزعم ان صفات القوة والقهر تغلب صفات الحب ، قال الله تعالى : ﴿ ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ الانعام : ١٤٧ .

﴿ كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمة ﴾ الانعام : ٥٤ .

والمسلم عندما يقرأ أية سورة من القرآن يبدأ بقوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

انتفاء الظلم عن الله

وجاء في القرآن في وصف الله تعالى :

﴿ ولا يظلم ربك احداً ﴾ الكهف : ٤٩ .

﴿ وما الله يريد ظُلماً للعالمين ﴾ آل عمران : ١٠٨ .

﴿ ان الله لا يظلمُ مثقال ذرّة ﴾ النساء : ٤٠ .

وإذا انتفى الظلم عن صفات الله تبين لك بطلان شبهة الذين ادعوا أن

صفات الله تغلب عليها القوة والقهر والجبروت وظهر لنا جلياً ان صفات الله في القرآن ما هي إلاّ صفات كمال لله تغلب عليها صفات الود والرحمة.

شبهة مردودة

ومن الشبه الغريبة التي روجها دعاة الالحاد في البلاد العربية قولهم: «اذا كان الله موجوداً فكيف يسمح للانسان بأن يتخطى ملكوته، ويحاول الوصول الى القمر وغيره من الكواكب بالصواريخ ونحوها» ؟.

نقول لهؤلاء: من قال ان ملكوت الله هو في القمر او المريخ او الزهرة ؟ فملكوت الله في نظر القرآن هو جميع هذا الكون، قال تعالى:

﴿ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ ابراهيم: ٢.

ثم إن هناك آية قرآنية تدمغ ادعاءاتهم وتنطبق عليهم اشد الإنطباق، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَوا أَنَّ الله سَخَّرَ لكم ما في السموات وما في الأرض، وأسْبَغَ عليكم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وباطنة، وَمِنَ الناس مَنْ يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولا هُدى ولا كتاب منير ﴾ لقمان: ٢٠.

فهذه الآية نص صريح بأن الله سخر السموات بجميع كواكبها واجرامها والأرض التي نحن عليها لفائدة بني الانسان، فإذا توصل إليها الانسان واستخرج ما يحتاجه منها فهو في ذلك يسير وفق ما أراده الله له. وانظر الى تتمة الآية التي تحمل ابلغ رد موجز لهؤلاء الذين يروجون شبهاتهم على العوام، وهم لا يملكون أي حجة وأي دليل علمي يدعمون به حجتهم.

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدى ولا كتاب منير ﴾.

ما أشد انطباق هذا القول على هؤلاء الملحدين! وما أوهى شبهاتهم!.

الفصل السادس

الأيمان باليوم الآخر

الادلة على وجود اليوم الآخر – المذهب المادي وأثره في المجتمع – مناقشة الماديين – حقيقة الروح في القرآن – البعث – اهوال يوم القيامة – الحساب – نعيم الجنة الحسي – نعيم الجنة الروحي – الجزاء على العمل السيء .

الأدلة على وجود اليوم الآخر

تنقسم الأدلة على ثبوت اليوم الآخر الى قسمين : نقلية وعقلية ، فالنقلية هي اتفاق الاديان السماوية على وجود حياة بعد الموت يُحاسب فيها الانسان على عمله في الحياة الدنيا .

والأدلة العقلية اليك بيانها : في الناس قديماً وحديثاً ، في البدو والحضر ، وفي الاصقاع المختلفة ، وفي الانسان الجاهل والعالم شعور خفي يشبه الالهام بأن وراء هذه الحياة حياة أخرى تتحقق فيها العدالة التي فقدت في الدنيا ، وينال فيها الانسان جزاء أعماله ان خيراً فخير ، وان شرّاً فشرّ .

يقول نورمان فنسنت بيل :

« والواقع ان الشعور الغريزي بوجود عالم آخر بعد الموت هو من أقوى الأدلة على هذا الوجود . ان الله سبحانه اذا أراد ان يقنع البشر بأمر ما ، فإنه يغرس فكرة الاقتناع به في غرائزهم . وان الشوق الى خلود الحياة – ولو في عالم آخر – احساس شائع في نفوس البشر بحيث لا يمكن النظر اليه باستخفاف عام . وان ما نهفو اليه بقوة ، وما نحس به في أعماقنا لا بد ان يكون انعكاسياً لقاعدة أساسية في الوجود البشري .

ان مثل هذه الحقائق العظمى لا نؤمن بها عن طريق الدليل والاثبات

المادي ، وانما عن طريق العقيدة والالهام والمشاعر النفسية . وإن الالهام في ذاته عامل مهم في الفهم العلمي للحقيقة ، وإن العلماء ـ كما قال برجسون ـ عندما يصلون إلى نهاية علمية تحتاج إلى إثبات ، إذ هم في ومضة إلهام يصلون الى الحقيقة . ان الابحاث العلمية تؤيد ايماننا بوجود الالهام والعقيدة . وان آراء الماديين عن العالم في طريقها الى الزوال ... »[1] .

والله الذي خلق الانسان مستعداً لما لا يتناهى من الكمال بما وهبه من العقل الذي لا يقف عند حدّ في العلم ، وكشف اسرار الكائنات لا ينشئه هذه النشأة الرفيعة لتكون غايته كغاية سائر الحيوان الذي لم يعط استعداده ، بل تقضي حكمة الله في الإنسان ان يجعل له حياة بعد هذه الحياة يستثمر فيها أعماله ويوافي فيها كماله .

ولو ان الله اسدى إلى الانسان من المواهب ما أسدى ثم تركه بعد ذلك سدى لكان ذلك من العمل الجزاف الخالي الحكمة ، البعيد عن العدل .

المذهب المادي وآثره في المجتمع

يقول الماديون : لا حياة بعد هذه الحياة ، ويدّعون أن الفكر والشعور والعواطف نتيجة المادة وحدها ، فكما تفرز الكبد الصفراء وكما تفرز الكلية البول فإن الفكر والإرادة والعواطف هي من افراز المخ ، ويتوقف مقدارها ونوعها على مقدار المخ وعمله ، وكل شيء في الحياة مادة أو مظهر من مظاهرها ، ولا شيء يسمى الروح ، فلا معنى لخلودها وإنما هو من نسج الخيال .

اشتد دعاة المادية في القرن الماضي في نشر مذهبهم معتمدين على ما كشفته العلوم الطبيعية من خفايا القوى الكونية ذهاباً منهم إلى ان تجرد العقول من كل علاقة بما فوق الطبيعة يفضي إلى نضج القوى العقلية ، ويكون أثر ذلك على الاخلاق والمعاملات والعلاقات الاجتماعية رقياً لا تشوبه شائبة ، وكمالاً علمياً وعملياً يؤدي بالانسانية إلى عهدها الذهبي المنتظر دون ان ترتطم بمعطلات اعتقادية تحول بينها وبين الحقائق الكونية .

---

(١) نقلا عن مجلة المختار من ريدرز دايجست عدد نوفمبر ١٩٥٧ .

وقد بذل دعاة المادية جهد الجبابرة في نشر مبادئهم ، فأكثروا مـــن المحاضرات الفلسفية المؤيدة لمذهبهم ، وعمدوا الى طبع المؤلفات ـ التي تؤيد مزاعمهم ـ طبعات رخيصة لتنتشر بين طبقات الشعب ، وقد تم لهم بعض ما أرادوا من زعزعة عقائد المتدينين في شؤون ما فوق الطبيعة ، فكانت ثمرات هذه الجهود التي بذلها دعاة الماديين : تدهور الآداب العامة التي ندع وصفها للدكتور (ليون ووتي) الذي قال : « والمذهب المادي بنفثه في صدر الإنسان نظرياته التي تقرر له انه سيفنى بعد الموت ، يطلق فيه شهواته من قيودها ، ويوجد فيه نهماً حيوانياً لتوفيتها .

هذا المرض الاجتماعي الخطير المؤلف من الهستيريا وعدم الشعور يعمل على ايقاع الانسانية في انحلال لا علاج له .

والإنسان في هذا الحضيض من الانحلال ، يشعر بكدر عظيم ويتألم متمنياً أن تكون له حياة أفضل مما هو عليه ولكنه لا يجد العون الضروري لانقاذه مما وقع فيه ... فالعقلية التي تساورنا اليوم سم ناقع تجتاح إنسانيتنا ، وإن تسرب هذا السم القاتل يلوث كل ما بقي في نفوسنا من جليل ونبيل وعظيم ، والقوانين البشرية تعجز عن كبح أي جماح انساني ما دامت الاخلاق قد فقدت سلطانها على القلوب ، فنحن اذن نغرق في انحطاط ، فإذا لم نعمل على استرداد وجودنا فسنسير قدماً الى هلاكنا لأن الشر يستدعي العقاب »[1] .

ويصف الأديب الفرنسي (فيكتور هيجو) تأثير المذهب المادي في النفسية الإنسانية بقوله : « توجد كارثة في زماننا هذا ، وكنت اريد أن أقول : (شبه كارثة) ألا وهي : الميل الى حصر كل اعتبار في هذه الحياة وحدها . والحقيقة أنه بإقناع الانسان بأن هذه الحياة الأرضية المادية هي الغرض الأسمى من الوجود ، والنهاية التي ليس بعدها مرمى ، تتضخم جميع متاعب العيش ، وتعظم سائر تكاليفه ، وتصبح فكرة العدم غير ممكنة الإحتمال ، وينقلب الألم وهو ناموس الهي موصل الى الكمال ، ناموساً من اليأس موصلاً الى النار ، وقس على ذلك جميع الشؤون الاجتماعية ... فالذي يخفف الجهاد

---

(١) عن كتاب (الى الذين يأملون الى الأرواح المعطلة) . ترجمة الاستاذ محمد فريد وجدي في مجلة الأزهر . م ١٣ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

ويشرف العمل . والذي يجعل الشخص قوياً متسامحاً عاقلاً صبوراً شجاعاً جريئاً ، وفي الوقت نفسه متواضعاً وعظيماً جديراً بالحرية هو ما يتراءى له على الدوام من حياة أبدية أكمل يتألق نورها خلال غياهب هذه الحياة .. فواجبنا جميعاً أن نوجه الرؤوس نحو السماء ، وان نلفت جميع الأرواح الى حياة بعد هذه الحياة يتقرر فيها العدل ويجازى كل على ما كسبت يده »[1].

مُناقشة الماديّين

أما ان العالم مادة فقط فقول لا يستسيغه العقل ، فكيف تكون الأفكار والإرادة والعواطف نتيجة للمادة الكثيفة الجامدة ؟! وكيف يكون الفكر الذي يشعر بشخصيته نتيجة لمادة لا تشعر بشخصيتها ؟ بل كيف تكون المادة علة للفكر والعقل غير الماديين ؟ ان لم يكن ذلك فلا بد ان يكون هناك شيء وراء المادة ووراء الجسم وهو الروح .

يقول العلامة ا. كريسي موريسون في تقرير هذه الحقيقة :

« ان اية ذرة أو جزئية لم يكن لها فكر قط ، وأي اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأي أبداً . وأي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئاً تطيعه جزئيات المادة بدورها ، ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحي ؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزئيات ؟ أجل . ومـاذا أيضاً ؟ شيء غير ملموس ، أعلي كثيراً من المادة لدرجة انه يسيطر على كل شيء ومختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه .

« ان روح الإنسان هي سيدة مصيره » ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها . وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أي حيوان آخر ولا يحتاج إليه . فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأن فضلة لتكوينات المادة ، لا لشيء سوى انه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو انما يزعم زعماً لا يقوم عليه

---

(١) هذه الكلمات ألقاها فيكتور هيجو في الجمعية التشريعية التي عقدت في ١٥ يناير من سنة ١٨٥٠ في باريس ، وقد نقلها الدكتور « ووتي » في كتابه : « هل الإلحاد ممكن » وترجمها الأستاذ محمد فريد وجدي في مجلة الأزهر .

برهان . انه شيء موجود ، يظهر نفسه بأعماله وبتضحياته ، وبسيطرته على المادة وعلى الأخص بقدرته على رفع الانسان المادي من ضعف البشر وخطأهم الى الانسجام مع ارادة الله . هذه هي خلاصة القصد الرباني . وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الانسان للاتصال بأشياء أعلى من نفسه . وفيها كشف عن أساس حافزه الديني . هذا هو الدين ! »[١] .

وقد أثبت العلم الحديث ان المادة لا تنعدم ، فكل ذرة في هذا العالم لا تفنى ولكن تتحول ، فالشمعة تحترق ولكن الكيماوي يستطيع ان يثبت ان عناصرها لم تفن وانما تفرقت في الجو ، وهي موجودة في الهواء ولكن في وضع آخر . تغير شكلها ولكن لم يتغير جوهرها .

هذا ما قرره العلم الحديث ، وعلى ذلك فموت الأجسام ليس الا تغيراً لحالات الجسم ، وسيبقى الجسم في هذا العالم على أشكال اخرى .

واذا كان العالم مادة وروحاً معاً وكانت المادة لا تفنى فكيف تفنى الروح وهي أصلح من المادة للبقاء ؟ وتكوينها وصفاتها أنسب للدوام . ان الروح هي التي تمس المادة فتدب فيها الحياة . انها تحل في الجسم فيعقل ويفكر ، وتفارقه فيكون مادة جامدة كسائر المواد . لا ... ليس الهام الإنسان بالحياة الاخرى وهماً انما هو وحي صادق من طبيعته وشعور حي يتغلغل في غريزته[٢] .

حقيقة الروح في القرآن

مسألة الروح أعقد مسائل العلم والفلسفة منذ فكر الانسان في حقائق الاشياء ، ومن معجزات القرآن انه وضعها هذا الوضع الصحيح من الفلسفة والعلم . جاء في القرآن : ﴿ وَيسألونك عن الروح قل الروح من أمْرِ ربي[٣] وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ الإسراء : ٨٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلا ﴾ يذكرنا بقول العالم (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمي ومدرّس الفيزيولوجيا في جامعة الطب

---

(١) عن كتاب « الانسان لا يقوم وحده » ص ٢٠١ من الترجمة العربية .

(٢) اقتبسنا هذه الفكرة من بحث عن (اليوم الآخر) كتبه الدكتور احمد امين في كتابه (فيض الخاطر).

(٣) من امر ربي : من فعل ربي .

الفرنسية الذي ورد في مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية [1]) : « ولماذا لا نصرّح بصوت جهوري : أن هذا العلم الذي نفخر به إلى هذا الحد ليس في حقيقته إلاّ ادراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ، ولا تقع تحت حواسنا ، وان الطبيعة الحقيقية للنواميس التي تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن أن تلمّ بها عقولنا » الى ان قال : « فالأوْلى بالعالم الصحيح أن يكون متواضعاً وجريئاً في آن واحد ، متواضعاً لأن علومنا ضئيلة ، وجريئاً لأن مجال العوالم مفتوح امامه » .

البعث

اقتضت حكمة الله ان يجعل وراء هذه الدار داراً أخرى يرى فيها المرء جزاء أعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ ، وجاء القرآن الكريم لإقناع الناس بأن تلك الدار هي حق لينظروا اليها ويقصدوا بما يأتون او يتركون من عمل وجه الله وثوابه فيها .

وقد اهتمّ القرآن بشأن البعث والدار والآخرة اهتماماً عظيماً فقلما نجد سورة من سوره الا وتذكر البعث وتقرّر أمره على نحو ما ، وكثيراً ما نجد فيه سوراً تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه ما بين تذكير وبيان وضَرب للأمثال ونفي للشبه وغير ذلك .

وانما عُني القرآن بهذه العقيدة لأنها اصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح في العالم ، فلو أن الناس جميعاً قد استقرت فيهم هذه العقيدة وآمنوا بها ايماناً لا يخامره شك لاستقامت امورهم ، وكثُر فيهم الخير والاحسان ، وقلّ بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر في كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا ، وتخلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريهم الشك في البعث ودار الجزاء فلا يصدقون : انهم سيبعثون بعد الموت وانهم سيعرضون للحساب . وإنكار البعث أو الشك في أمره يرجع في ذهن المنكر أو الشاك الى أحد هذه الأمور :

أولاً : كونه أمراً لا تدعو اليه حاجة الناس وليس وراءه مصلحة ترجى .

ثانياً : استبعاده واستعظام امره ، فان الاحياء قد ألفوا ان يروا اجساد الأموات تتفرق وتتحلل وتفسد وتفنى في الأرض ، فلا تكاد عقولهم تسلم في

---

(١) هذا الكتاب تأليف « ماكسويل » النائب العام في (بوردو) بفرنسا .

سهولة أمر عودتها وصيرورتها جسماً حياً يسعى ويدرك .

ثالثاً : مخالفته لما ألف من السنن الطبيعية حيث لم يعهد الأحياء ان ميتاً بعث من رمسه وعادت اليه الحياة كرة أخرى .

وقد ردّ القرآن الكريم على منكري البعث فقال الله تعالى للذين يزعمون انه امرٌ لا تدعو اليه حاجة ولا تقضي به حكمة : ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عَمِلوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ النجم : ٣١ . وقال أيضاً : ﴿ أفحسبتم أنّما خلقناكم عبَثاً وانكم إلينا لا تُرجَعون ﴾ المؤمنون : ١١٥ .

وقال للذين يستبعدون البعث : ان الله لا يعجزه شيء ، وليس عليه شيء بمستبعد ، فهو القوي القادر الذي خلق الإنسان وأنشأه من العدم :

﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده وهو أهْوَنُ عليه ﴾ الروم : ٢٧ .

وقال أيضاً : ﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَه قال من يُحيي العِظام وهي رميم . قل يُحييها الذي أنشأها أوّلَ مرَّة وَهُوَ بكُلّ خَلْقٍ عليم . الذي جَعَلَ لكُم مِنَ الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تُوقِدون . أوَليس الذي خَلَقَ السماوات والأرض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّق العليم ﴾ يس : ٧٨ — ٨١ .

اما الذين حسبوا البعث مخالفاً للسنن المألوفة فالله سبحانه وجّه الخطاب إليهم بقوله : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في رَيْبٍ مِنَ البَعْث فإنّا خلقناكم من تُراب [(١)] ثم من نُطفة ثم من عَلَقة [(٢)] . ثم من مُضغة [(٣)] مخلّقة وغير مخلّقة [(٤)] لنبيّن لكم ونُقرّ في الأرحام ما نشاء الى أجل مُسمى [(٥)] ثم

---

(١) اما ان الله خلق الانسان من تراب فذلك ما يؤيده الواقع ويقره العلم فلو اخذت قطعة من جسم الانسان واجريت عليها عمليات التحليل لوجدتها تتركب من نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض . وتنتقل هذه العناصر من تربة الأرض الى جسم الانسان بما يتناوله المرء من المأكولات .

(٢) علقة : قيل بأنها مجموعة من الخلايا الحية تنقسم اليها البويضة بعد تلقيحها ، وقد سميت علقة لأنها تعلق بجدار الرحم .

(٣) مضغة : سمي الجنين في هذا الطور مضغة للشبه الكبير بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة .

(٤) مخلقة وغير مخلقة : اي قد تكون المضغة منتظمة الشكل وقد لا تكون ، وقد اثبت الطب هذا .

(٥) نقر في الأرحام ما نشاء الى اجل مسمى : اي ان الله يثبت الجنين في الرحم حسب مشيئته الى وقت معين وهو وقت الولادة .

نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشُدَّكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرد إلى أرذل العمر[1] لكي لا يعلم من بعد عِلْمٍ شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت وربَت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأنّ الله هو الحق وانه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وان الساعة آتية لاريب فيها[2] وان الله يبْعَثُ مَنْ في القبور ﴾ الحج : ٥ — ٧ .

في هذه الآيات دليلان على ثبوت البعث ، الأول : خلق الانسان ، وكيف نشأ من تراب ، ثم مراحل تطوره في الجنين الى ان يصبح انساناً كاملاً ، ثم ينتهي الى الموت .

والدليل الثاني : الأرض الهامدة الميتة التي انزل الله عليها الماء فدبت فيها الحياة وانبتت نباتاً حسناً .

وقال الله تعالى : ﴿ ونزّلنا من السماء ماء مُباركاً فأنبتنا به جنّات وحَبَّ الحصيد . والنخل باسقَاتٍ لها طَلْعٌ نضيد[3]. رِزْقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج ﴾ ق : ٩ — ١١ .

استدل الله بهذه الآيات على امكان البعث بالنبات والأشجار التي تنبت وتنمو حين ينزل المطر فيبلل الأرض فتتغذى بذلك النباتات كذلك يكون البعث وخروج الناس أحياء بعد موتهم حيث ترجع اليهم قوة النماء كما يحصل في النبات والأشجار .

أهوال يوم القيامة

عني القرآن بتصوير الهول يوم القيامة ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة بمن فيها ويسيطر على النفس الانسانية ويهزها من الفزع .

قال تعالى : ﴿ إذا الشمس كوّرت . واذا النجوم انكدرت . واذا الجبال سُيّرت . واذا العِشار[4] عُطّلت . واذا الوحوش حُشرت . واذا البحار

(١) ارذل العمر : الهرم والخرف .

(٢) وان الساعة آتية لاريب فيها : أي ان ساعة القيامة التي يبعث فيها الموتى آتية لا شك في حدوثها .

(٣) لها طلع نضيد : لها نتاج منظم على ترتيب بديع .

(٤) العشار : جمع عشراء ، وهي الناقة التي مضى على حملها عشرة اشهر ، وهي اكرم الأموال التي كانت عند العرب .

سُجّرت . واذا النفوس زُوّجت . واذا المؤودة سُئِلَت . بأيّ ذنب قُتلت . واذا الصّحُفُ نُشرت . واذا السماء كُشطت . واذا الجحيم سُعّرت . واذا الجنّة أُزلفت . علِمَت نفسٌ ما أحضرت ﴾ التكوير : ١ — ١٤ .

ففي هذه الآيات مشهد انقلاب تام لكل معهود مشاهد ، فالشمس قد ازيلت من مكانها ومحي ضوؤها ، فلا ضوء ولا شعاع ، والنجوم المنتظمة المنيرة قد تناثرت وخبا نورها ، والجبال الثابتة قلعت وتطايرت في الهواء ، والنوق الحبلى قد أرسلت واهملت ولم يُعنَ بشأنها لاشتداد الخطب ، والوحوش هالها الرعب فاجتمعت واختلط بعضها ببعض ، والبحار قد فاضت وصارت بحراً واحداً ، والأرواح المنفصلة عن اجسادها عادت اليها ، والبنت التي دُفنت بلا سبب ولا جريمة بُعثت لتُسأل وتُناقش في ذنبها الذي وئدت له ، والصحف المطوية التي فيها اعمال الانسان قد نُشِرت للحساب ، والسماء قد ازيلت فلم يبق لها نظام ثابت ، والجحيم قد أُمِدّت بالوقود وتأججت بالنيران ، والجنة قد هُيئت وأعدت للمتقين ، وفي هذا اليوم الذي ينقلب فيه كل شيء عن حاله تعلم كل نفس ما احضرت من اعمال سواء كان خيراً فتصير به الى الجنة او شراً فتصير به إلى النار .

ومرة تبرز مشاهد الطبيعة وحدها يحركها الهول ويرجّها ، قال تعالى :

﴿ اذا وَقَعَت الواقعة . ليس لِوَقعتها كاذبة . خافضة رافعة . اذا رُجّت الأرض رجّاً . وبُسّت الجبال بَسّاً . فكانت هباء منبثاً ﴾ الواقعة .

فالواقعة هي القيامة لا مجال لتكذيبها ، فهي ترفع بعض اقدار الناس وتخفض آخرين ، فهي ترج الأرض وتجعل الجبال فتيتاً يتطاير في الهواء كالهباء .

ونلمح الهول يغشى النفس الانسانية ، قال تعالى :

﴿ يا ايها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمّا ارضعت وتضع كل ذات حَمْلٍ حملها وترى الناس سُكارى وما هم بِسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ الحج : ١ ، ٢ .

فكل مرضعة يوم القيامة تذهل عن رضيعها وكل حامل تسقط جنينها للهول المروع الذي ينتابها ، والناس يبدون سكارى وما هم بسكارى حقيقة ولكن الهول جعلهم يبدون كذلك .

ثم نلمح الهول متجسماً في صورة أخرى :

﴿ فإذا جاءت الصَّاخَّة[1] يوم يَفِرّ المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته[2] وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه ﴾ عبس : ٣٣ ــ ٣٧ .

فالهول يوم القيامة يجعل الانسان يفر من ألصق الناس به ، فلكل نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به .

الحساب في الآخرة

ينظر الانسان ما حوله فيرى الخير والشر يصطرعان ، ويشهد معركة الرذيلة والفضيلة ، وكثيراً ما ينتصر الشر على الخير ، وتعلو الرذيلة على الفضيلة ، والفرد ــ في عمره المحدود ــ لا يرى عواقب الخير والشر .

والانسان يعز عليه ان لا ينال الخير أجره ، وان لا يلقى الشر جزاءه ، والاعتقاد بوجود اله عادل يستتبع حتماً جزاء على الخير والشر ، فإن لم يتم العدل في عالم الأرض فلا بد ان يتم هناك في عالم آخر .

والقرآن كثرت فيه الآيات التي تقرر : ان الانسان محاسب على اعماله .

فبعض هذه الآيات عنيت بتصوير مواقف الحساب مع اهوال يوم القيامة

قال تعالى : ﴿ يسأل أيّانَ يوم القيامة . فإذا بَرِقَ البصر . وخَسَفَ القمر . وجُمِعَ الشمسُ والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ ؟ كلا لا وزر[3] . الى ربك يومئذ المُستقر . يُنبأ الانسان يومئذ بما قَدَّم وأخّر . بل الإنسَان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره ﴾ القيامة : ٦ ــ ١٥ .

ففي هذه الآيات مشهد لهول القيامة مع موقف الحساب ، فالبصر يتحير ويدهش فلا يبصر من شدة الهول ، والقمر ينخسف ، والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق ، وقد انفرط نظام الكون . وفي وسط الذعر والانقلاب يتساءل الانسان المذعور المرعوب : اين المفر ؟ ولا ملجأ هناك ، فالمرجع إلى الله حيث

---

(١) الصاخة : الصيحة الشديدة التي تصم الآذان يوم القيامة .

(٢) صاحبته : زوجته .

(٣) لا وزر : لا ملجأ .

﴿ يـُنبأ الانسان يومئذ بما قدّم وأخـّر ﴾ من اعمال ، فلا تقبل منه الاعذار ، فهو على نفسه بصير .

ونرى القرآن يعرض موقف الحساب في صورة اخرى :

﴿ إذا زُلزلت الأرض زِلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها[1] . وقال الانسان مالها . يومئذ تـُحدّث أخبارها . بأنّ ربك أوحى لها . يومئذ يَصْدُرُ الناس أشتاتاً[2] ليُروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرّة[3] خيراً يره . ومن يَعْمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ الزلزلة .

فالأرض تهتز وترتجف يوم القيامة ، وتخرج ما في جوفها من الدفائن من كنوز وموتى ، ويبهت الانسان ويروّع لهذا المشهد الذي لم يألفه فيتساءل : ما لها تضطرب وتخرج ما فيها من دفائن ؟ فيأتيه الجواب من الأرض وكأنها انقلبت شخصية حية تـُسأل فتجيب : بأن الأمر الالهي صدر اليها بأن تكون خراباً ، أي ان حالها وما يقع فيها من الانقلاب غير المعهود يـُعلـّم السائل ويجيبه بما حدث لها ، ويومئذ ينصرف الناس متفرقين يبعثّرهم الهول (ليروا اعمالهم) فالخير يجازون عليه مهما صغر ، والشر يلقى جزاءه مهما قلّ .

وفي بعض الآيات نرى القرآن يقتصر في عرض مواقف الحساب بدون أن يقرنها بأهوال يوم القيامة :

﴿ حتى اذا جاء أحدهم الموت قال : رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ[4] الى يوم يـُبعثون . فإذا نُفِـــخَ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثـَقـُلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خـَفـّت موازينه فأولئك الذين خـَسِروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ المؤمنون : ٩٩ ــ ١٠٣ .

---

(١) اثقالها : ما في جوفها من أموات .
(٢) يصدر الناس اشتاتا : يخرجون متفرقين .
(٣) الذرة : هي ما يمثل الضآلة والصغر وخفة الوزن ، وفي لسان العرب نص صريح على ان (الذرة ليس لها وزن) لفرط صغرها ووزنها .
(٤) برزخ : أي حاجز بينهم وبين الرجعة .

تبدأ هذه الآيات بمشهد الاحتضار واعلان التوبة لدى قدوم الموت وطلب الرجعة الى الدنيا لتدارك ما فات ، فإذا الرد على هذا التمني لا يوجه الى صاحبه بل يوجه الى الناس عامة : (كلا انها كلمة هو قائلها) فطلباته لا معنى لها ولا يجاب اليها ، وهو هناك حيث فارقته الروح ، وكيف يُرد هؤلاء الى الدنيا ومن امامهم حاجز يصدهم عن الرجوع وهو الموت يصيرون اليه فيبقون الى يوم البعث . فاذا أُعلن الناسُ بيوم البعث — وعبّر الله عن هذا الاعلان بالنفخ في البوق — هب الموتى من قبورهم يعروهم الخوف والدهشة بحيث يغفل كل انسان عن اقرب الناس اليه لاشتغال كل امرىء بنفسه . ثم يُعرض ميزان الحسنات والسيئات ، فإن ثقلت كفة الخير نجا ، وان ثقلت كفة الشر هلك .

والله يحاسب الانسان حتى على نياته : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض وان تُبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يُحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ البقرة : ٢٨٤ .

هذا بعض ما ورد من الآيات التي يبين الله فيها ان الانسان لم يترك سدى بل سيحاسب على كل ما يقترفه من السيئات . قال تعالى : ﴿ أفحَسِبْتُم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا تُرجعون ؟ ﴾ المؤمنون : ١١٥ .

اي هل تظنون اننا خلقناكم دون قصد وبغير حكمة ، فأنكرتم لذلك البعث والجزاء على الأعمال يوم القيامة ، كلا لم نخلقكم عبثاً بل خلقناكم لنمتحنكم فنثيب المحسن ونعاقب المسيء .

نعيم الجنة الحسي

أطلق الله على مكان النعيم الذي يقيم فيه المتقون أسماء شتى اكثرها وروداً في القرآن لفظ (الجنة) ومعناها في اللغة : البستان من النخل والشجر المتكاثف الظل بالتفاف اغصانه كأنها بتكاثف اشجارها والتفاف أغصانها تستر ما فيها ، لأن الجنة مشتقة من جنّ أي ستر الشيء عن الحاسة .

والاسماء الأخرى التي أطلقها القرآن هي : دار السلام ، دار الخلود ،

دار المقامة ، جنة المأوى ، جنات عدن[1] الحيوان[2] الفردوس[3] ، جنات النعيم ، المقام الأمين ....

فالجنة هي دار الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ودار الذين اتقوا ربهم ، ودار عباد الله المخلصين ، ودار الذين يخافون ربهم ، ودار الموفين بعهد الله اذا عاهدوا ، ودار المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ودار التائبين العابدين الحامدين السائحين الراكعين الساجدين لله الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر . وقد وصف الله الجنة لأصحاب هذه الصفات وما شابهها من الصفات التي يحبها حتى تطمئن قلوبهم وتقوى عزائمهم على فعل الطاعات .

وقد اختلف الباحثون في فهم النعيم الأخروي وادراك لذائذه : ففريق ذهب في كل هذه الملذات وأسباب النعيم مذهب الحقيقة ، وانها مادية جسمانية ، وهناك فريق وقف في الطرف الثاني ، فتغلبت عليه الرمزية والاشارات المجازية وهم طائفة من الصوفية والفلاسفة . واننا نذهب الى أن نعيم الجنة منه ما هو مادي حسي ، ومنه ما هو روحي معنوي ، هذا هو مفهوم القرآن الكريم ، وها نحن نعرض بعضاً من آي القرآن في وصف النعيم المادي ونتبعه بالنعيم الروحي .

أنهار الجنة

قال الله تعالى : ﴿ مَثَل الجنة التي وُعد المتقون فيها أنهار مِنْ ماء غير آسن[4] وانهار من لبن لم يتغيّر طعمه وانهار من خَمْرٍ لذّةٍ للشاربين وأنهار من عسل مُصفّى ولهم فيها مِنْ كُلٍّ الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾ محمد : ١٥

ففي هذه الآية وصفٌ لأنهار الجنة : أنهار من ماء ، وانهار من لبن ، وانهار من خمر ، وانهار من عسل ... كل شيء في الجنة بلا حساب ، لاينضب له معين ، فهي انهار تجري بأطايب الحياة التي يشتهيها الانسان ولا يجد

---

(١) جنات عدن : جنات الاقامة الدائمة .

(٢) الحيوان : دار الحياة .

(٣) الفردوس : البستان الذي حوى من ألوان الثمار والبهجة أبهاها وأجملها .

(٤) آسن : متغير الطعم والريح لطول مكثه . فالآية توجه الانظار الى ان الماء الراكد المتغير ماء ضار وقد قررت الآية ذلك قبل اكتشاف المناظير المكبرة بقرون عدة وهذه المناظير تبين ان الماء الراكد المتغير مستودع لملايين البكتيريا الضارة وغيرها من الطفيليات التي تصيب الناس والانعام بأمراض شتى .

منها الا القدر اليسير . وهذه الأنهار من نوع أجود ، ومن طعم ألذّ ، ومعها كل أنواع الفواكه ، وفوق هذا كله مغفرة من الله .

ويقول الله سبحانه : ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ المائدة : ١١٩ .

والمراد بالجنة التي تجري من تحتها الأنهار ، أي ان نخيلها وأشجارها تتخللها أنهار جارية . واروع البساتين منظراً ما كانت اشجارها مظللة والانهار من خلالها جارية .

أشجار الجنّة وثمارها

قال الله تعالى : ﴿ وبَشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هذا الذي رُزقنا من قبل، وأتُوا به مُتشابهاً ولهم فيها أزواجٌ مطهّرة وَهُمْ فيها خالدون ﴾ البقرة .

أمر رسول الله ان يخبر المؤمنين بخبر يسرهم، وهو ان الله اعدّ لهم جنات مثمرة تجري الانهار تحت أشجارها وقصورها ، كلما رزقهم الله في هذه الجنات رزقاً من ثمارها قالوا : هذا يشبه ما رزقنا من قبل في الدنيا ، لأن هذه الثمرات التي ينالونها تتشابه مع ثمار الدنيا في الصورة والجنس ولكنها تختلف في الطعم واللذة ، ولهم فيها ايضاً زوجات كاملات الطهارة ليس فيهن ما يعاب وهم سيحيون في هذه الجنات حياة ابدية خالدة .

ويقول الله تعالى في وصف الجنة : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذُلّلت قطوفها تذليلاً ﴾ الانسان : ١٤ . أي ان ظلال الجنة قريبة من الأبرار زيادة في نعيمهم ، أما ثمارها فقد سخرت لمتناولها وسَهُل أخذها .

طعام الجنّة وشرابها

قال الله تعالى في وصف النعيم الذي يخص به عباده المؤمنين : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون[1] . يطاف عليهم بصحاف من ذهب

(١) تحبرون : اي تسرون سروراً يظهر اثره في النضرة والحسن على وجوهكم .

وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أُورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ الزخرف : ٦٨ ـ ٧٣ .

فهؤلاء عباد الله الصالحون يناديهم الله يوم القيامة : بأن لا يخافوا من العذاب ولا يحزنوا على فراق الدنيا ، فقد هيأ لهم جنات النعيم هم وزوجاتهم جزاء أعمالهم ، ثم وصف الله ما يتمتعون به من النعيم ، فها هي صحاف الذهب فيها أطيب أنواع الطعام ، وها هي الأكواب تحتوي على ألذّ أصناف الشراب ، وفي الجنة أيضاً ما تشتهيه نفوسهم وتلذ اعينهم ، وهذا النعيم دائم لا يزول كنعيم الدنيا ، وبعد هذا أخبر الله ان لهم سائر أصناف الفاكهة التي يشتهونها .

ويقول الله تعالى في موضع آخر : ﴿ إلاّ عبادَ الله المخلصين . اولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مُكرمون . في جنات النعيم، على سُرُرٍ متقابلين . يُطاف عليهم بكأس[1] من معين[2] . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غَوْلٌ[3] ولا هم عنها يُنْزَفون[4] ﴾ الصافات : ٤٠ ـ ٤٧ .

فعباد الله المخلصون يوم القيامة لهم جنات يتمتعون فيها بكل ما لذّ وطاب ، فيتمتعون بلذيذ الفواكه ، وهي تقدم لهم وهم مكرمون كما تقدم للملوك وذوي اليسار في الدنيا وهم جالسون على سرر متقابلين ، وكما يتمتعون بطيب المأكل يتمتعون بلذيذ الشراب . فيؤتى لهم بصنوف الخمر التي تتميز بلونها الأبيض ، ولذة طعمها ، وهذه الخمر لا تؤثر في الجسم كما تؤثر خمر الدنيا ، فلا تصدع الرأس ، ولا تفسد العقل بالسكر .

ثياب الجنّة وحللها

قال الله تعالى : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيع أجْرَ من أحْسَنَ عملاً . اولئك لهم جنّات عَدْن تجري من تحتهم الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خُضْراً مّن سُندس[5] واستبرق[6] متكئين

---

(١) بكأس : اي بخمر .
(٢) من معين : اي ظاهر للعيون ، جار على وجه الأرض .
(٣) غول : الصداع الناشىء عن السكر
(٤) نزف : ذهب عقله ، سكر .
(٥) سندس : ما رق من الحرير .
(٦) استبرق : ما غلظ من الحرير .

فيها على الأرائك نِعمَ الثواب وحَسُنَت مرتفقاً ﴾ الكهف : ٣٠ ، ٣١ .
فهؤلاء المؤمنون يقيمون في جنات منعمين فيهـــا ابداً تنساب الانهار خلالها وهم على ابهى زينة يتحلون بالذهب ويلبسون الثياب الخضر من الحرير على اختلاف انواعه ، متكئين فيها على السرر بين الوسائد والستائر ، نعم الثواب الذي ينعمون به ، وحسنت الجنة دار مقام وراحة .

مساكن الجنة وغرفها

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ التوبة : ٧٢ .

والمراد من المساكن الطيبة هي التي يطيب لساكنيها المقام فيها لاحتوائها على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينة .

وقال الله تعالى في غرف الجنة : ﴿ لَكِنِ الذين اتقوا ربهم لهم غُرَفٌ من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وَعْدَ الله لا يخلف الله الميعــاد ﴾ الزمر : ٢٠ .

نساء وحور الجنّة

ذكر الله النساء في القرآن ليبين أن النساء والرجال سواء ، وان النساء ينعمن بما ينعم به الرجال في الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ ومن يعمل مـــن الصالحات من ذكر أو انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ﴾ النساء : ١٢٤.

والله سبحانه يخبر أن الرجال يصاحبون أزواجهم في الجنة : ﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴾ يس : ٥٦ . ويخاطب الله المتقين يوم القيامة : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون ﴾ الزخرف : ٧٠ .

وجاء في القرآن عما يخص الله به المتقين في الجنة :

﴿ كذلك وزوجناهم بحور عين[1] ﴾ الدخان : ٥٤ .

والحور جمع حوراء وهي الشابة الحسناء البيضاء الشديدة سواد العين .

---

(١) العين : جمع عيناء وهي عظيمة العينين .

وجاء في القرآن : ﴿ حُورٌ مقصورات في الخيام ﴾ الرحمن : ٧٢ .

ومعنى مقصورات : محبوسات ، والمراد بذلك انهن محبوسات على ازواجهن فلا يرين غيرهم ولا يطمحن الى سواهم .

ولنعرض للحور العين لنبين هل المراد بهن نساء هذه الدنيا أم غيرهن ، فقد جاء في القرآن في وصفهن : ﴿ إنّا أنشأناهن إنشاءً . فجعلناهن أبكاراً . عُرُباً[١] أتراباً[٢] ﴾ الواقعة : ٣٥ ـ ٣٧ .

يُروى أن عجوزاً أتت النبي عليه السلام فقالت : يا رسول الله : ادع الله ان يدخلني الجنة فقال : (يا أم فلان : ان الجنة لا يدخلها عجوز) فولّت تبكي . قال : (أخبروها انها لا تدخلها وهي عجوز)[٣] ان الله يقول: ﴿ انا انشأناهن انشاء فجعلناهن أبكاراً ﴾

وعلى ذلك يكون المقصود من الآية : ان النساء العجائز في هذه الدنيا ينشأن نشأة اخرى يوم القيامة ويصرن شابات .

* * *

هذا هو النعيم الحسي الذي ذكره القرآن ، وقد اتخذ بعض خصوم الإسلام من ذلك باباً للطعن في الدين الاسلامي زاعمين انه دين مادي بل شهواني ، وانه لم يتعرض للنعيم الروحي .

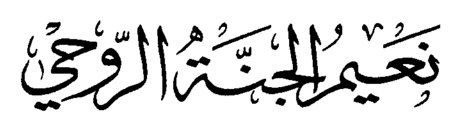
والحقيقة ان المسيحية أشارت الى النعيم الحسي ، فالأنبياء والقديسون تمثلوا النعيم المحسوس في رضوان الله ووصفوه على هذه الصفة[٤] .

على ان بعض الباحثين المسلمين ذهب الى أن النعيم الحسي المذكور في القرآن مقصود به التوصل الى النعيم الروحي ، وذلك لأنه من المتعذر ان ينقل الى غالبية البشر لذة روحية دون ان يلبسها تعابير حسية لعجز أفكارهم وضعف استعدادهم عن فهم تلك الملذات الأخروية وادراكها بالكنه والحقيقة .

---

(١) عرباً : المتحببات لأزواجهن بحسن الكلام ورقة الطبع وبشاشة الوجه .
(٢) اترابا : في سن واحدة .
(٣) رواه البيهقي وغيره .
(٤) راجع العهد القديم ما قاله اشعياء يوم الرضوان في الاصحاح الخامس والعشرين من سفره، وراجع العهد الجديد ما قاله يوحنا الالهي في الاصحاح الرابع من رؤياه .

ثم « إن محمداً صلى الله عليه وسلم كان ينقل الدين ، لا للعقول الراجحة الممتازة من المفكرين المثاليين الذين تصادف وجودهم فحسب ، وانما للعالم المتسع حوله ، المؤتزر بالمادية بكافة أنواعها ، وكان عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم . فالعربي الجائع ماذا عنده اجمل وأحلى واكثر توافقاً مع تفكيره من الجنة ، أكثر من أنهار تجري فيها المياه ويجري اللبن والعسل ، وهل يود أن يرى إلا الفاكهة والخضرة الدائمة والخصب المثمر ؟ إنه لا يستطيع أن يتصور نعمة لا تصحبها هذه الملذات المستمدة من الحواس »[١] .



نعيم الجنة الروحي

والنعيم في القرآن لا يقتصر على النعيم المادي بل ان هناك نعيماً روحياً صرح به وسنعرض لهذا النعيم من هذه الوجوه الآتيه :

نعيم الجنة لا يشبه نعيم الدنيا

يقول الشيخ محمد عبده في تفسير سورة الغاشية : « إن عالم الآخرة ليس فيه نمو ابدان، ولا تحلل مواد ، على نحو ما يكون للأحياء في هذه الحياة الدنيا بل ذلك عالم خلود وبقاء، واللذائذ فيه لذائذ سعادة ، والآلام فيه آلام شقاء ، فكل ما يقع في ذلك العالم فإنما بينه وبين ما يقع في عالمنا وجوه مشابهة لا وحدة مجانسة ، فما جاء في هذه السورة وغيرها من الأكواب الموضوعة ، والوسائد المصفوفة ، والبسط المبثوثة وغير ذلك مما نراه في بيوت أهل النعمة فإنما جاء به القرآن لتصوير النعمة والرفاهة واللذة والا فنعيم تلك الدار الآخرة مما لا يشبهه في هذه الدار نعيم » .

وما ذهب اليه الشيخ محمد عبده استمده من قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه : (قال عز وجل : اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٢] . وقال أبو هريرة الراوي لهذا الحديث : اقرأوا ان شئتم قوله تعالى : ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهم مِنْ قُرّةِ أعيُنٍ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ السجدة : ١٧ .

---

(١) عن كتاب (روح الاسلام) لسيد اميرعلي .
(٢) رواه البخاري ومسلم .

لقاء الله تعالى

ومن الدلائل على أن النعيم الأخروي ليس مادياً فحسب هو ما بينه الله من أن الغرض الأسمى من حياة الإنسان هو لقاؤه :

﴿ يا أيها الإنسان انك كادحٌ الى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ الانشقاق : ٦ .

أي ايها الإنسان انك عامل في هذه الحياة ومجد في عملك الى أن تنتهي حياتك وهناك لقاء الله .

ولقد استنكر الله الركون الى هذه الحياة والاطمئنان بها وعدم توقع حياة ارقى منها بقوله : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . اولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ يونس : ٧ ، ٨ .

وبيّن الله جزاء من لا يرجون لقاءه : ﴿ فَنَذَرُ الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾[1] يونس : ١١ .

ويرشد الله المؤمنين الى ان الطريق الى لقائه والقربى منه هو العمل الصالح وعدم الاشراك به سبحانه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشْرِك بعبادة ربه احداً ﴾ الكهف : ١١٠ .

هذه النصوص القرآنية التي ذكرناها تدل على ان لقاء الله هو الغاية التي يجب أن يسعى اليها الإنسان ، ولقاء الله نعيم روحي لا يدانيه نعيم .

رؤية الله تعالى

والقرآن ينص على أن هناك لذة روحية معنوية وراء الوصف الحسي الذي وصفه للجنة ، وهذه اللذة هي النظر الى وجه الله الكريم .

قال الله تعالى : ﴿ والله يدعو الى دار السلام[2] ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة[3] اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ يونس : ٢٥ ، ٢٦ .

---

(١) يعمهون : متحيرون ومترددون . (٢) دار السلام : الجنة .

(٣) لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة : لا يغشى وجوههم كآبة من غم وهوان .

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر الى وجه الله الكريم ، فقد جاء عن صهيب الصحابي أنه قال : قرأ رسول الله قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ ثم قال : (اذا دخل اهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ، نادى مناد : يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم تثقل موازيننا ، وتبيض وجوهنا ، وتدخلنا الجنة ، وتزحزحنا عن النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب اليهم من النظر اليه ، ولا أقر لأعينهم)[1] .

ورؤية الله أثبتها القرآن في هذه الآيات أيضاً: ﴿ كلاَّ بل تُحبون العاجلة[2] وتذرون الآخرة . وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ . الى ربها ناظرة ﴾ القيامة : ٢٠ـ٢٣.

فالله سبحانه يوم القيامة يرفع الحجاب بينه وبين عباده الصالحين فيرونه ، وهذه الرؤية هي لذة روحية لا تعدلها اية لذة من اللذات الحسية .

رضوانُ الله تعالى

ودليل آخر على ان نعيم الآخرة منه ما هو روحاني ، هو ما نص عليه القرآن: بأن رضوان الله هو من النعيم الذي يخص به المؤمنين ، وانه يمتاز عن النعيم الحسي قال تعالى :

﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنات عدن ورِضوان مِنَ الله اكبر ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ التوبة : ٧٢ .

ففي هذه الآية تقرير للنعيم الحسي ثم بيان ان رضوان الله اكبر من النعيم الحسي وقد وصفه الله بأنه فوز عظيم ، وهذه العبارة تشعرك بأن الغاية من النعيم وأسمى شيء فيه هو : نعيم روحي .

وأبلغ ما نرى في القرآن من لذة روحية هو ما ينادي الله به عباده المخلصين يوم الحساب بقوله : ﴿ يا أيتها النفسُ المطمئنة . ارجعي الى ربك راضية مرضيّة . فادخلي في عبادي . وادخلي جنّتي ﴾ الفجر : ٢٧ ـ ٣٠ .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) العاجلة : دار الدنيا .

فنداء الله للنفس المؤمنة المطمئنة الراضية بثواب الله المرضية منه بالدخول في زمرة عباده الصالحين هو سعادة روحية لا يعادلها أي نعيم .

ومما يندرج في هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّاً ﴾ مريم : ٩٦ .

ففي هذه الآية صورة لنعيم روحي قوامه الودّ السامي بين الرحمن وعباده المخلصين وهو في ذاته نعيم روحي لا يماثله نعيم مادي .

الجنّة دار السّلام

والدليل الآخر الذي سنذكره على وجود النعيم الروحي هو وصف الله للجنة بأنها : دار السلام ، وان أهلها في طمأنينة وسلام ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يخاطبونهم فيها بالسلام . قال الله تعالى في وصف الجنة التي وعدَ بها المتقين : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾ الانعام : ١٢٧ .

ويصف الله حياة السلام التي يعيشها المؤمنون في الجنة : ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دَعْواهم فيها سُبْحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أنِ الحمد لله رب العالمين ﴾ يونس : ٩ ، ١٠ . فكل ما في الجنة أمن واطمئنان وسلام .

ويذكر الله في موضع آخر تحية الملائكة للمؤمنين في الجنة بقوله : ﴿ جنّات عدْن يدخلونها ومن صَلَحَ من آبائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكةُ يدخلون عليهم من كُلّ باب . سَلامٌ عليكم بما صبرتم فنِعْمَ عُقْبى الدار ﴾ الرعد .

فيتبين لنا من مدلول هذه الآيات القرآنية : ان الحياة في الآخرة حياة أمن واستقرار روحي ونعيم تحسه النفس غير اللذة المادية .

هذا هو النعيم الروحي في القرآن ، وهو كاف لدحض كل المزاعم والاتهامات التي اتهموا بها الاسلام بأن نعيمه الأخروي مادي شهواني ، وانه خال من النعيم الروحـــي .

الجزاء على العمل السيئ

يقرر القرآن أن عقاب العاصي على ما يقترفه من آثام هو النار ، وقد أطلق القرآن على النار سبعة أسماء وهي : جهنم ، الهاوية ، الجحيم ، سعير ، سقر ، لظى ، الحطمة ، وأكثر الأسماء شيوعاً للنار في القرآن هي جهنم .

وصف الله جهنم في عشرات من الآيات ، وصف وقودها ونيرانها المتأججة ، ووصف طعامها وشرابها ، ووصف عذابها بما يدخل الرعب في قلوب المجرمين ، وبما يخيف كل متكبر جبار أثيم ليرتدع عما هو فيه .

وصف الله وقودها فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقُودُها الناس والحجارة عليها ملائكة غِلاظٌ شِدَادٌ ﴾ التحريم : ٦ .

هذه الآية تعطينا صورة عن جهنم التي توقد بالناس كما توقد بالحجارة ، ولكنها لا تقف عند هذا الحد بل فيها ملائكة أشداء يزيدون في عذاب الكافرين.

ووصف الله نيرانها المتأججة التي لا تشبع : ﴿ يومَ نقولُ لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد ﴾ ق : ٣٠ .

وهذه جهنم التي ترى المجرمين من بعيد فتتغيظ وتفور : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيراً ﴾ الفرقان : ١٢

وثياب الكفار وصفها القرآن بهذه الصورة : ﴿ .. فالذين كفروا قُطّعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رؤوسهم الحميم . يُصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع [١] من حديد . كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ الحج : ١٩ — ٢٢ .

فهذه ثياب من النار تقطع وتفصل للكفار ، ثم الماء الحار يصب فوق الرؤوس فيصهر ما في البطون والجلود ، ولتعذيبهم أيضاً سياط من حديد يضربون بها ، فيهمّون بالخروج من هذا العذاب فيُردّون اليه بعنف .

وهذا هو طعام جهنم : ﴿ ان شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمُهْلِ [٢]

---

(١) مقامع : واحدها مقمعة وهي السوط .

(٢) كالمهل كالنحاس المذاب .

يغلي في البطون. كغلي الحميم[1] . خذوه فاعتلوه[2] الى سوَآء[3] الجحيم. ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذُقْ إنّك أنتَ العزيز الكريم ﴾ الدخان : ٤٣ .

فشجر الزقوم المشهور بمرارته هو طعام الأثيم في جهنم ، وهذا الطعام ــ الذي يشبه عكر الزيت ــ يغلي في بطون الكفار ويكون كالماء الحار اذا اشتد غليانه ، وبعدها يقال لزبانية جهنم : ادفعوا هذا المجرم إلى وسط جهنم لينال قسطه من عذابها ، ثم صبوا فوق رأسه من الماء الساخن زيادة في العذاب ، وبعد ذلك يقال له : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) زيادة في النكاية والاستهزاء به .

ويقول سبحانه في وصف عذاب جهنم : ﴿ .. وخاب كل جبّار عنيد . من ورائه جهنم ويُسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يُسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ ابراهيم : ١٥ ــ ١٧ .

والمعنى : هلك كل متكبر مجانب للحق فعاقبته جهنم التي ليس له فيها شراب إلا القيح يتحساه جرعة بعد جرعة ، ولا يستطيع ان يزدرده من شدة كراهته ، وتحيط به أسباب هذا الموت من شدة هذا العذاب لكنه بالرغم من هذا لا يموت ليستريح من عذابه ، وله مع هذا عذاب آخر غليظ ولكن من نوع آخر .

شِدَّةُ عذابِ الآخِرَة

يصوّر الله عذاب الآخرة بصورة تقشعر منها الأبدان ، فهو عذاب لا تتحمله النفس ولا تطيقه ، فأحرى بالمؤمن ان يسعى الى اجتنابه باطاعة أوامر الله ، واجتناب سخطه ، هذا العذاب الذي يصوّره الله في هذه الآية والذي كشف العلم الحديث عن سر من أسرارها وهي قوله تعالى :

﴿ ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إنّ الله كان عزيزاً حكيما ﴾ النساء .

« هذه الآية تقول : ان النار كلما أكلت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ، والسبب في ذلك : ان أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية ، وأما الأنسجة

---

(١) الحميم : الماء المرتفع الحرارة .

(٢) اعتلوه : جروه بقهر .

(٣) سواء : وسط .

والعضلات والأعضاء الداخلية فالاحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب ان الحرق البسيط الذي لايتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً .

فالله تعالى يقول لنا: ان النار كلما اكلت الجلد الذي فيه الأعصاب نجدده كي يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الانسان . وكان الله عزيزاً حكيما »[1] .

هذا هو العذاب الذي يقاسيه الكافرون والذي يطلبون منه المخرج بأي ثمن قال تعالى : ﴿ ان الذين كفروا لو ان لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذاب أليم ﴾ المائدة : ٣٦ .

فالكافرون لو ان لهم ملك ما في الأرض كلها وضعفه ليفتدوا به أنفسهم من عقاب الله ما تقبل الله منهم ذلك فداء وعوضاً عن عذابهم وعقابهم .

هَل هُناكَ خلودٌ في النّار ؟

الخلود في النار موقوف على مشيئة الله ، وليس ضرورياً أن كل من يدخل النار يخلد فيها قال الله تعالى : ﴿ النار مثواكم خالدين فيها إلاّ ما شاء الله ﴾ الانعام : ١٢٨ .

ويقول سبحانه : ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض الاّ ما شاء ربك إن ربك فعّال لما يريد ﴾ هود : ١٠٦ ، ١٠٧ .

* * *

الناظر في وصف اليوم الآخر وما اكتنفه من اسرار ما وراء الطبيعة لايتصور ان يكون من عقل بشري ولا من عند محمد لانه عليه السلام مهما كان واسع الخيال لا يمكنه ان يأتي بهذه الأخبار المدعومة بالبراهين العقلية المقنعة والتي تستشعر منها بأنها ليست من كلام بشر بل هي وحي أنزله الله على محمد ﷺ ليظهر للناس بعض اسرار العالم الآخر للاستعداد له بالعمل الصالح.

---

(١) عن كتاب (الاسلام والطب الحديث) تأليف الدكتور عبد العزيز اسماعيل ص ٥٨ — ٥٩ .

الفصل السابع

الايمان بالملائكة

الغاية من الإيمان بالملائكة – حقيقة الملائكة – طبيعة الملائكة – اعمال الملائكة – الملائكة تشفع وتستغفر للمؤمنين – الملائكة تكتب اعمال الانسان .

الغاية من الأيمان بالملائكة

الايمان بالملائكة[1] يوجب الاعتقاد بأن للانسان حياة روحية ، وأنه يجب عليه تنشيط هذه الحياة والاستجابة لعوامل الخير التي أودعها الله فيه ، والغرض من ذلك التسامي بالانسان والترقي به إلى أعلى درجات الكمال ، ولهذا جعل الاسلام الايمان بالملائكة أصلاً من أصول الدين قال الله تعالى :

﴿ آمن الرسول بما أُنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ البقرة : ٢٨٥ .

حقيقة الملائكة

تعرّض القرآن لخلق الانسان فقال : انه من تراب ، والى خلق الجنّ فذكر أنه من نار ، ولم يتعرّض لخلق الملائكة غير أنه ورد عن الرسول انه قال : (خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجن من مارج من نار)[2] . وهذا يبين لنا أن الملائكة من عالم لطيف غيبي غير محسوس . والملائكة وإن كانوا غير مرئيين لنا لا ينفي العقل وجودهم[3] ، فالعلماء اليوم لا يدّعون ان الانسان قد احاط بكل شيء علماً ، ففي كل يوم يكشف لنا العلم عن كائنات حية لم نكن نعلمها من قبل ، فهل كانت قبل اكتشافها عدماً ثم وجدت يوم اكتشفها الانسان ؟.

---

(١) من مراجع هذا الفصل كتاب « الدين الاسلامي » لمولاي محمد علي.

(٢) رواه مسلم .

(٣) أثبت البحث العلمي ان العين البشرية لاتستطيع ان ترى إلا الاجسام التي تتحرك بسرعة أقل من =

طبيعة الملائكة وأعمالها

تختلف طبيعة الملائكة عن البشر في انها ليس لها قوة الاختيار ، وانها موكلة بصفة خاصة بالقوى الطبيعية ، وفي طبيعتها الطاعة وعدم العصيان . قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابــة والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ النحل : ٤٩ ، ٥٠ .

وأهم أعمال الملائكة وأبرزها هي : ابلاغ الوحي الالهي الى الرسل . جاء في القرآن : ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير ﴾ فاطر : ١ .

ففي هذه الآية يخبر الله أنه جعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغونهم رسالاته ، والأجنحة في العالم المادي تساعد على الطيران وكثرتها تومىء إلى السرعة ، وهي في عالم الأرواح ترشد الى القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله.

وجاء في القرآن : ﴿ ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنّه لا إله إلاّ أنا فاتقون ﴾ النحل : ٢ .

فالروح في هذه الآية هو الوحي الذي ينزله الله بواسطة ملائكته الى من يريد من عباده المصطفين ليحذر الناس من عصيانه ، وقد شبّهه الله بالروح لأنه يحيي النفوس ، وينهض بالأمم ، كما تحيي الروح الجسد .

وورد في القرآن : ان الملك الذي أتى الرسول محمداً ﷺ بالقرآن اسمه جبريل . قال الله تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله ﴾ البقرة : ٩٧ .

= سرعة النور ، وكل جسم يتحرك بسرعة النور (أي ١٨٦٠٠٠ ميلا في الثانية) أو اكثر يختفي عن الأنظار ولا يمكن للعين البشرية مراقبته بأي نوع من أنواع الأجهزة، وعلى هذا يمكن ان نستنتج ان الملائكة التي لا تراهم العين يمكن ان يكونوا من أجسام تتحرك بسرعة النور واكثر خلقهم الله في هذا الكون لأغراض سيأتي بيانها في هذا البحث . وقد اثبت القرآن سرعة احد الملائكة عندما اظهر استعداده لجلب عرش الملكة بلقيس من اليمن الى النبي سليمان في فلسطين قبل ان يحرك جفنه وقد نفذ ما قال : (أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) .

وسمي جبريل في القرآن ايضاً : بالروح الأمين ، وروح القدس . قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿ وإنه لتنزيل ربّ العالمين . نَزَلَ به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ الشعراء : ١٩٢ — ١٩٤ . وقال سبحانه : ﴿ قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ﴾ النحل : ١٠٢

ومن وظيفة الملائكة : تثبيت رسل الله ، وتأييدهم ، والتهوين عليهم في شدتهم ، فقد أيد الله عيسى بروح القدس وهو جبريل . قال تعالى :

﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس ﴾ البقرة : ٨٧ .

والملائكة تتنزل على المؤمنين لتواسيهم وتبشرهم : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم تُوعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ فصّلت : ٣٠، ٣١

فالله يقول : ان المؤمنين المستقيمين تتنزل عليهم الملائكة في الدنيا لتلهمهم الصواب والخير ، وعند الموت لتطمئنهم بأن لا يحزنوا على ما خلفوا وراءهم من اهل وولد وتبشرهم بالجنة التي وعدهم الله بها . وتقول لهم ايضاً : نحن نصراؤكم واحباؤكم في الحياة الدنيا نرعاكم فيها ، ونحن اصدقاؤكم واحباؤكم في الآخرة .

كما ان الله يمدّ المؤمنين بالملائكة عند قتالهم اعداءهم لينصرهم عليهم : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّي مُمدّكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله الاّ بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الاّ من عند الله ﴾ الأنفال : ٩ ، ١٠ .

والملائكة يتوفون المؤمنين ، ويقبضون ارواحهم عند الموت : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ النحل : ٣٢ . ويتوفون كذلك الظالمين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم ﴾ النحل : ٢٨ .

الملائكة تشفع وتستغفر للمؤمنين

ورد في القرآن الكريم ان الملائكة يشفعون للناس، وان شفاعتهم متوقفة على الله : ﴿ وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ النجم : ٢٦ .

وتستغفر الملائكة للمؤمنين وتدعو الله لهم ليهديهم الى طريق النجاة . جاء في القرآن : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وَسِعْتَ كُلَّ شيء رَحْمةً وَعِلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سَبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وَقِهِمُ السيئات ومن تقِ السيئات يومئذ فقد رَحِمْتَه وذلك هو الفوز العظيم ﴾ غافر : ٧ — ٩ .

وفي شفاعة الملائكة واستغفارهم للمؤمنين مع الدعاء لهم إيحاء لهم كي يسيروا في الطريق المؤدي الى رقيّهم الروحي ويهتدوا الى الصراط المستقيم الذي يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر الى نور العلم والهدى .

الملائكة تكتب أعمال الانسان

والقرآن يخبرنا أن الله وكّل بالانسان ملائكة يكتبون اعماله ليحاسب عليها : ﴿ وإنّ عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ الانفطار : ١٠ .

والمعنى : ان اعمالكم محصاة عليكم ، فقد وكل بكم ملائكة حفظة كراماً كاتبين يحصون كل ما تعملون من خير وشر .

ويقول سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . إذ يتلقّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الاّ لديه رقيبٌ عتيد ﴾ ق : ١٦ — ١٨ .

فالمتلقيان في هذا النص القرآني هما الملكان اللذان يسجلان عمل الانسان قاعدين عن يمينه وشماله فما يلفظ من قول او يعمل من عمل إلاّ ويراقبانه وكلٌ منهما « عتيد » أي مهيأ لكتابة الخير والشر .

وإذا علم الانسان ان هناك ملائكة تحصي عليه أعماله كان ذلك رادعاً له عن اقتراف السيئات .

* * *

هذا بعض ما ورد في القرآن عن عالم الملائكة وطبيعتهم ووظيفتهم والذي يعطينا صورة صادقة عن غاية الاسلام الرئيسية التي تهدف الى انتشال الانسان من ادران المادة الى السمو الروحي ، هذا السمو الذي يشهد بمصدره الالهي وبصدق ما جاء به محمد ﷺ عن ربه .

الفصل الثامن

الإيمان بكتب الله

وجوب الايمان بالكتب الالهية – القرآن مصدق لما سبقه من الكتب – القرآن هو الحقيقة التي ضل عنها الناس – نظرة القرآن للتوراة – نظرة القرآن للأناجيل .

وجوب الايمان بالكتب الالهية

الاعتقاد بالكتب الالهية ركن من أركان الإيمان ، وهي تحتوي ما بلّغه الله للأنبياء من الأوامر الى اممهم ، ولهذا يجب على المسلم ان يؤمن بالقرآن وبما سبقه من الكتب التي انزلت على رُسُل الأمم الماضية ، وقد ذكرت بعض الآيات القرآنية وجوب الإيمان بالكتب المنزلة على رُسُل الله ، منها قوله تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أُنزل اليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ البقرة : ٢٨٥ .

وذكر القرآن من هذه الكتب المنزلة : التوراة وهو كتاب موسى ، والانجيل وهو كتاب عيسى ، والزبور وهو كتاب داوود ، وصحف ابراهيم

القرآن مُصدّقٌ لما سبقه من الكتب الالهية

والعلاقة التي تربط الإسلام بالديانات السماوية في صورتها الأولى الحقيقية هي علاقة تصديق وتأييد كلي، وعلاقته بها في صورتها الحاضرة وما وصلت الينا هي علاقة تصديق لما بقي من اجزائها الاصلية التي فيها الخير للانسانية وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والاضافات الغريبة .

قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام : ﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مُصَدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عمّا جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً ﴾ المائدة : ٤٨ .

ومعنى الآية : أنزلنا اليك ايها الرسول الكتاب وهو القرآن مصدقاً لما تقدمه من الكتب الالهية كالتوراة والانجيل، ومهيمناً أي رقيباً عليها ، وشهيداً بما بيّنه من حقيقة أمرها ، فاحكم بين اليهود والنصارى بما أُنزل اليك من الأحكام ولا تتّبع أهواءهم فقد جعلنا لكل أمة شريعة أوجبنا عليهم إقامة احكامها .

وانما اختلفت شرائع الرسل في بعض الأحكام العملية والتفصيلات الجزئية بما يقتضيها صلاح نفوس الناس ، لأن الشرائع العملية وطرق تزكية النفس تختلف باختلاف احوال المجتمع واستعداد النفوس ، فبعض الشرائع خالف بعضها في عقود المعاملات ، وفي بعض المحرم زواجهن ، وفي طرق التوبة من الذنب الخ ..

ولكن الذي اتفقت فيه الاديان هو : توحيد الله ، والاخلاص له ، وامهات الاخلاق ، فهذه الأسس لا تختلف باختلاف الرسل والأمم .

القرآن هو الحقيقة التي ضلّ عنها الناس

طال الزمن على الكتب الإلهية السابقة ، وتناولتها الأيدي بالتبديل والتأويل، وبلغت الاختلافات الدينية مبلغاً كبيراً ، وكانت البشرية في خطر المروق من دين الله والاستسلام للوثنية والالحاد ، وأصبح العالم في حاجة الى وحي من الله يجنبه مواطن الضلال ، ويهديه الى سواء السبيل ، وكان اهل كل كتاب يكفّرون من عداهم . واختلفوا في معرفة الحقيقة الإلهية وكنه الدين ، فجاء القرآن يبين الحق من الباطل ، ويبين للناس ما أشكل عليهم . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام : ﴿ تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزيّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليّهم اليوم ولهم عذاب أليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ النحل : ٦٣ ، ٦٤ .

نظرة القرآن للتوراة

لفظ (توراة) من الألفاظ المعربة ومعنى : (تورا Torah) في العبرانية « الشريعة » وليس في القرآن تحديد لاسفار التوراة ، ولكن اقتران اسم موسى بها في بعض الموارد منه يشير الى ان المراد ما يقال له : « الأسفار الخمسة » التي نزلت على موسى على رأي قدماء العبرانيين وهي : التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية . ثم توسع العبرانيون في مدلول اللفظة فيما بعد فأطلقوها على جميع الأسفار التي يُقال لها : (العهد القديم) .

يشهد القرآن بأن الله انزل التوراة والانجيل قبل نزول القرآن لهداية الناس: ﴿ الله لا اله إلاّ هو الحيّ القيوم . نزّل عليك[1] الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل . مِنْ قَبْلُ هدى للناس ﴾ آل عمران : ٣ .

وقد تصدى القرآن لنقد التوراة ، واثبت ان اتباعها قد غيّروا وبدلوا في تعاليمها ، قال الله تعالى : ﴿ من الذين هادوا[2] يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾ النساء : ٤٦ .

والمعنى : إن من اليهود قوم يحرفون كلام التـــوراة . والتحريف على معان : إما بتأويل القول بحمله على غير معناه الذي وضع له ، واما باخفاء القول وكتمانه ، او الزيادة والنقص فيه . اوِ ما نسي من الأوامر والاحكام مما اوجبه طول الزمن والاضطهادات المستمرة لهم ، وهذا ما صرح به القرآن عن اليهود: ﴿ يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذُكّروا به ﴾ اي نسوا طائفة من اصل كتاب الله . وجاء في القرآن عنهم : ﴿ ألم تر الى الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون الى كتاب الله[3] ليحكم بينهم ﴾ آل عمران : ٢٣ . فما عند اليهود كما يصرح القرآن هو نصيب منـــه اي جزء منه وليس كل الكتاب .

ويبين القرآن ان اليهود قد اخفوا كثيراً من اصول دينهم :

---

(١) عليك : اي يا محمد .

(٢) الذين هادوا : اليهود .

(٣) كتاب الله : اي القرآن .

﴿ يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ المائدة : ١٥ .

والمسائل التي كانوا يخفونها مما انزل الله عليهم هي : صفات الرسول محمد ، والبشارات به ، حرفوها بالحمل على معان اخرى ، وكذلك الحساب والجزاء في الآخرة فانك لن تجد لها ذكراً في التوراة ، والدين من أهم دعائمه الاعتقاد بالحساب والجزاء في الآخرة .

نظرة القرآن للاناجيل

كثرت الأناجيل كثرة عظيمة بعد المسيح ، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية ، ثم أرادت الكنيسة في أوائل القرن الرابع الميلادي ان تختار الأناجيل المعتبرة فاختارت الأناجيل الأربعة : انجيل متى ، وانجيل مرقس ، وانجيل لوقا ، وانجيل يوحنا .

والقرآن لا يقر بعض ما في هذه الأناجيل ، ولا يعترف بأنها من عند الله ، وذلك بما صرح به من ان الله نزّل على رسوله عيسى عليه السلام انجيلاً — بصيغة المفرد — وهو غير الاناجيل التي كتبت بعده . قال الله تعالى في معرض كلامه عن اليهود :

﴿ وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مُصدّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ﴾ المائدة : ٤٦ .

ومن جهة اخرى أعلن القرآن أن النصارى نسوا طائفة من أصل كتاب الله. قال الله تعالى : ﴿ ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مِمّا ذُكّروا به فأغرينا بينهم العَدَاوةَ والبَغْضَاءَ الى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ المائدة : ١٤ .

ويؤيد ما ذهبنا اليه ذلك النقد الشديد الذي وجهه القرآن الى العقيدة المسيحية الحاضرة في قوله تعالى: ﴿ لقد كَفَرَ الذين قالوا: إنّ الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح : يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يُشرك بالله فقد حرّم اللهُ عليه الجنّة ومأواه النّار وما للظالمين من انصار . لقد كَفَرَ الذين قالوا: إنّ اللهَ ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إلهٌ واحد وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ المائدة : ٧٢ ، ٧٣ .

الفصل التاسع

الأيمان بالرسل

الحكمة من بعثة الرسل – و جوب الايمان بالرسل – عصمة الرسل – لكل أمة رسول – محمد رسول الى الناس كافة – محمد خاتم الرسل .

الحكمة من بعثة الرسل

الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة ان يعتقد أن الله أرسل رسلاً من البشر مبشرين بثوابه ، ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته، وتبيين لسلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه في فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفي نقائص فعال ينهاهم عنها . وان يعتقد وجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم ، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه .. وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه[1] .

وقد بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين : ﴿كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾ البقرة ٢١٣ .

فهؤلاء النبيون يبشرون الناس بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة اذا اتبعوا

ملاحظة : تكلمنا باسهاب عن النبوة في كتابنا : (مع الانبياء في القرآن) فليرجع اليه من يريد الاستزادة .

(١) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ٩٧ ، ٩٨ ط ١٠ .

هدى الله ، وينذرونهم بالخسران في الدنيـــا والعذاب في الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم وأعرضوا عن أوامر الله .

وُجوبُ الأيمان بالرسُـل

والقرآن يدعو إلى الايمان بالرسل جميعاً . قال الله تعالى :

﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزِل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم لا نُفرّق بين أحَدٍ منهم ونحن له مُسلمون ﴾ البقرة : ١٣٦ .

وصرح القرآن بأن من يؤمن ببعض المرسلين ويكفر ببعض لا يقبل الله منه ذلك : ﴿ إنّ الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يُفرّقوا بين الله ورسله ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . اولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ النساء : ١٥٠ ، ١٥١

فالاسلام بنصوص هذه الآيات وضع أساساً للتعارف والاخاء والوحدة بين شعوب الأرض لأن الناس متى آمنوا بجميع المرسلين سهل تفاهمهم على ما يبقى بينهم من الخلاف .

ان هذه الميزة للاسلام اختص بها وجعلت التوفيق بينه وبين غيره من الأديان سهلاً ممكناً عندما أوجب على متبعيه الإيمان بأنبيائهم جميعاً واحترامهم.

ان أهل كل دين يجدون احترام رسلهم في القرآن بينما يجدون انتقاص رسلهم واديانهم في الديانات الأخرى .

وقد حاول الكثيرون منذ زمن ليس بالبعيد التوفيق بين الاسلام والمسيحية واليهودية فباؤوا بالفشل ، وعلة فشلهم في محاولتهم انهم فسروا بعض العبارات الواردة في الأديان تفسيراً ظنوه يزيل النواتيء المانعة للاتحاد ، بينما تعتبر هذه العبارات في نظر أصحاب الأديان جوهرية وأساساً للدين عندهم ، فعوضاً عن أن يوحدوا بين الأديان أقاموا بتفاسيرهم ديناً آخر وصاروا خصوماً للأديان التي حاولوا التوفيق بينها .

فالناقد البصير يرى ان مذهب الاسلام في توحيد الأديان حول رسالة محمد هو خير المذاهب ، لأنه بعد ان قرّر ان الاديان كلها وحي إلهي عاد فقرر ان

طول الزمن أدى إلى انحراف الناس عن حقيقة تلك الأديان ، وبعد هذا أخذ الاسلام يدعو الناس كافة إلى العمل بالقرآن الذي يجمع جميع فضائل الكتب الإلهية السابقة ويزيد عليها ما اقتضاه تطور الأمم وحاجاتها .

عصمة الرسل

والرسل الذين أرسلهم الله ليحرروا الناس من استرقاق هوى النفس وينهوهم عن ارتكاب المعاصي يجب ان يكونوا متحلين بأخلاق كريمة فلو ساءت اخلاقهم لكانوا قدوة سوء ، ولكانت تعاليم الله عبثاً وضلالاً ، ولهذا نوّه القرآن بفضل الرسل . بعد ان عدد قسماً منهم : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فِعْلَ الخيرات وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ الأنبياء : ٧٣ .

ووصفهم الله بقوله : ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ الانعام : ٨٩ ، ٩٠ .

ونفى القرآن الخيانة عنهم ﴿ وما كان لنبي أن يَغُلّ ﴾ آل عمران : ١٦١ .

وبيّن القرآن بأن لكل رسول ميزاته الخاصة ، وهم جميعاً على خلق عظيم ، جاء في القرآن عن ابراهيم : (انه كان صدّيقاً) وعن موسى : (انه كان مخلصاً) وعن إسماعيل : (إنّه كان صادق الوعد) وعن نوح وهود وصالح ولوط ، كل واحد منهم وصف بأنه : (رسول أمين) وعن عيسى أنه : (وجيهاً في الدنيا والآخرة) . وعن يحيى انه : (كان تقياً) .

لكلّ أمةٍ رسول

اقتضت سنة الله في البشرية ان يرسل الى كل امة رسولاً من انفسهم يسلك بهم الطريق الذي يؤدي بهم الى ما فيه اسعادهم وخيرهم . قال الله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل امة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ النحل : ٣٦ . وقال سبحانه : ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ فاطر : ٢٤ .

وقد ذكر القرآن خمسة وعشرين رسولاً ، الا انه صرح بأن هناك رُسُلاً غيرهم قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورُسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ النساء : ١٦٤ .

محمد رسول الى الناس كافة

ورسالة محمد عليه السلام موجهة الى الناس كافة بخلاف من سبقه من الرسل الذين ارسلوا الى اممهم خاصة . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام :

﴿ وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ سبأ : ٢٨ . ويدعو الله رسوله محمداً الى إعلان هذه الحقيقة الى الناس عامة :

﴿ قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله الا هو ﴾ الاعراف : ١٥٨ .

محمد خاتم الرسل

ورسالة محمد جُعلت خاتمة لجميع الرسالات وناسخة لما تقدم منها ، قال الله تعالى : ﴿ ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين[١] ﴾

« ختمت هذه الآية عهد النبوات ، وحكمت بأن لا نبي بعد محمد مع انه قد مضى على الخليقة قبل محمد آلاف كثيرة من السنين والأنبياء يتعاقبون فيها نبياً بعد نبي ، وكانت في كتب هؤلاء الأنبياء بشارات بأنه سيأتي أنبياء من بعدهم ، وكل هذا كان يدعو محمداً عليه السلام ان يحجم عن قطع عهد النبوة لو كان القرآن من عند نفسه لأنه يخالف سنّة الخليقة وما جرى عليه الانبياء فلو كان القرآن من عند نفسه لأتى ببشارة من البشارات كما فعل الأنبياء من قبله ترويجاً لأمره بين الناس لا سيما وان للناس شغفاً بالبشارات وميلاً الى تصديق من يذهب هذا المذهب . وقد مضى على هذه الآية اربعة عشر قرناً تقريباً وهذه المدة الطويلة تكفي لظهور كثير من الأنبياء بعد محمد يتوالى ظهورهم ويعاصر الكثير منهم البعض فما بالهم انقطعوا في هذه المدة الطويلة ؟

وإذا كانت هنالك طوائف من اتباع الأديان الاخرى لا تعترف بأن محمداً هو النبي الذي بشر به الأنبياء السابقون ولا تزال تنتظر نبياً فان فيما مضى من هذه المدة الطويلة ما يكفي لقطع املها في ذلك ويدعوها الى الصواب لتؤمن برسالة محمد .

ولا شك ان مثل هذا الحكم لا يمكن ان يحكم به بشر وانما هو حكم الله ومعجزة من معجزات القرآن التي تدل على انه وحي إلهي[١] » .

---

(١) نقلا باختصار عن مقالة عنوانها « معجزة مجهولة عن معجزات النبي عليه السلام » نشرها الشيخ عبد المتعال الصعيدي في مجلة الأزهر م ١٩ ص ١٣٥ .

الفصل العاشر

القدر

القدر في القرآن – اختيار الانسان – الهداية والاضلال – مشيئة الانسان ضمن مشيئة الله – اجل الانسان ورزقه محددان – روح الايمان بالقدر .

من المطاعن التي وجهها أعداء الإسلام اليه ان الايمان بالقدر هو من أهم اسباب ضعف المسلمين وتخلفهم عن الغربيين في العلوم والفنون والحكم، لأن عقيدة القدر في عرفهم تعطل المدارك والقوى وتميل بمعتقدها الى الكسل انتظاراً لما يأتيه من الغيب .

والحق أن الرسول محمداً ﷺ عندما سُئِل عن الايمان ذكر من جملة أركانه : (وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله) . والمعنى : ان كلاً من الخير والشر يجري في الكون بمقادير وموازين وسنن وأسباب اقتضتها حكمة الله ، وان الله لم يخلق شيئاً إلا بارادته ، وان جميع ما في الكون موافق لما سبق في علمه .

واذا رجعنا الى القرآن نراه لم يذكر القدر على انه من أسس الدين مثل الاعتقاد بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وانما جاء الكلام عن القدر على انه نظام سماوي كسائر القوانين السماوية الأخرى ، ولم يتعرض القرآن لوجوب الايمان به .

القدر في القرآن

واذا نظرنا الى معنى لفظة القدر[1] التي جاءت في القرآن في مواضع متعددة رأينا : القدر (بفتح الدال وسكونها) والمقدار والتقدير وردت بمعنى : جعل الشيء بمقياس مخصوص أو وزن محدود أو وجه معين يجري على سنّة معلومة . قال الله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ﴾ المؤمنون: ١٨ . أي بمقدار معين . وقال الله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل انثى ومـا تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ الرعد : ٨ . أي ان لكل شيء من مخلوقات الله سنناً ونواميس ومقادير منتظمة كسننه في حمل الاناث وعقمها وزيادة الذرية ونقصها . والانسان جزء من الوجود وينطبق عليه النظام الذي اقتضته حكمة الله وتقديره . قال الله تعالى : ﴿ من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره ﴾ عبس : ١٨ ، ١٩ . وجاء في القرآن عن الزمن : ﴿ والله يقدّر الليل والنهار ﴾ المزمّل ٢٠ . وجاء في التعميم : ﴿ وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾ الفرقان : ٢ .

فيتبين لنا من هذه الشواهد كلها ان عقيدة القدر في القرآن هي التي تعلم المؤمنين أن لهذا الكون نظاماً محكماً ، وسنناً مطردة ارتبطت فيها الأسباب بالمسببات وان ليس في خلق الله خلل ولا مصادفات ، ومن فائدة هذا الاعتقاد ان أهله يكونون أجدر الناس بالبحث في نظام الكائنات وتعرف سنن الله في المخلوقات ، وطلب الأشياء من أسبابها والجري اليها في سننها .

اختيار الانسان

بعد ذلك نلقي نظرة الى القرآن في مسألة اختيار الانسان لنرى مبلغ ضعف التهمة التي يرمون بها الاسلام وهو بريء منها . ويتجلى لنا ذلك في كلام الله سبحانه عن المشركين حين احتجوا بأن أعمالهم السيئة انما كانت بارادة الله ومشيئته ، فقد رد الله سبحانه عليهم : ﴿ سيقول الذين اشركوا : لو شاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا

---

(١) من مراجع هذا الفصل مقالة للشيخ رشيد رضا في مجلة (المنار) ومقالة للشيخ محمد عبده في مجلة (العروة الوثقى) .

بأسنا، قل: هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، ان تتّبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون. قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ الأنعام: ١٤٨، ١٤٩.

والمعنى : سيقول المشركون لو شاء الله ما أشركوا ، اي انه تعالى شاء ان يشركوا ، وقد رد الله تعالى شبهتهم بحجتين : الأولى — ان الله عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم . ولو ان اعمالهم السيئة كانت بمشيئة الله لما عاقبهم عليها . وان الاعتذار بالمشيئة نوع من الكذب على الله . والثانية — ان الله تعالى لم يقل مثل هذا القول على لسان واحد من رسله ، وطالب المشركين بدليل علمي على زعمهم : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) . ثم اثبت الله دحض زعمهم بقوله : (فلو شاء لهداكم اجمعين) .

وواضح من هذا انه لو شاء الله ان يكون الناس على طريق واحد لكان هذا الطريق هو طريق الهداية ، ولكن الناس غير مجبرين على سلوك طريق بعينه ، فقد توضحت مشيئة الله في ارسال رسله ليبينوا للناس الحق من الباطل ، وترك للانسان تفضيل احد الطريقين على الآخر وسلوك السبيل الذي يختاره ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفورا ﴾ الانسان : ٣ . وقوله تعالى: ﴿ وقل الحقّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾.

فمشيئة الله تتجلى في ارسال الرسل لهداية الناس وتعليمهم سبيل الرشاد والتحذير من سبل الضلال ، ومشيئة الانسان تتوضح في اختياره لأحد السبيلين.

والقرآن في كثير من آياته يثبت الاختيار للانسان وانه مسؤول عن اعماله ، وان الفساد الذي يشكو منه في نظمه الاجتماعية ، وضروب الشر الشائعة في شؤونه المعيشية كل ذلك نتائج لمقدمات وضعها بنفسه . قال الله تعالى :

﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ الروم : ٥١ .

ويقول سبحانه : ﴿ وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ الشورى : ٣٠ . ويقول ايضاً : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلاّم للعبيد ﴾ فصلت : ٤٦ .

والقرآن يدعو إلى الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله في إحداث الانقلابات الاصلاحية التي ترفع الجماعات إلى حياة أفضل ، قال سبحانه :

﴿ ان الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ الرعد : ١١ .

هذا ما ذكره القرآن وهو صريح على ان ارادة الانسان وعمله هما مصدرا مثوبته أو عقابه، وهذا لا يتفق مع ما يقوله اعداء الاسلام من أنه دين تواكل يمنع اهله من الترقي في حياتهم الدنيوية .

الهداية والاضلال

الهداية والاضلال هما بيد الله، لكن هذا الأمر الذي قرره الاسلام اتخذه البعض حجة على أن الانسان مجبر مثل قوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام : ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ الزمر : ١٩

﴿ انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ القصص : ٥٦ .

فالهداية والاضلال اللذان بيد الله عللهما القرآن بأنهما على سابقة استحقاق للعباد ، وبين أسبابهما مثل قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ المائدة : ٥١ . ﴿ ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ الزمر : ٣ . ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ الصف : ٥ . ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ غافر : ٣٥ . ﴿ وما يضل به الا الفاسقين ﴾ البقرة : ٢٦ . ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ ابراهيم : ٢٧ .

فأصحاب هذه الصفات الذميمة لا يستحقون الهداية ورحمة الله .

أما الذين يستحقون الهداية فأمثال أصحاب هذه الصفات : ﴿ ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه ﴾ التغابن: ١١ . ﴿ قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب ﴾ الرعد: ٢٧ . ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ المائدة: ١٦

مشيئة الانسان ضمن مشيئة الله

والاسلام يثبت الاختيار والكسب للناس ولكن الناس يفعلون بارادتهم واختيارهم ما يريد الله أن يفعلوه : ﴿ إن هو إلاّ ذكر للعالمين . لمن شاء منكم ان يستقيم . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ التكوير: ٢٧ — ٢٩ .

فالله سبحانه يخبر ان الناس يفعلون بإرادتهم واختيارهم ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ ولكن يفعلون ما يشاء الله: ﴿ وما تشاؤون الا أن يشاء الله ﴾ .

وعلى هذا المعنى وردت بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى : ﴿ وربك

يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخيرة ﴾ القصص : ٦٨ . ﴿ قل لن يصيبنا إلاّ ماكتب الله لنا ﴾ التوبة : ٥١ . ﴿ وان يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده ﴾ الانعام.

« والواقع ان هذه الآيات وما جرى مجراها تصور حقيقة علمية قررتها كثرة فلاسفة الغرب وعلمائه واطلقوا عليها مذهب الجبرية ، ونسبوا الجبر فيها الى سنة الكون ومجموع الحياة فيه بدل ان ينسبوها الى الله وعلمه وقدرته ... وهذه الجبرية العلمية تذهب الى أن مالنا من اختيار في الحياة إنما هو اختيار نسبي ضئيل القدر ، وان القول بهذا الاختيار النسبي يرجع الى ضرورات الحياة الإجتماعية من ناحية عملية اكثر مما يرجع الى حقيقة علمية أو فلسفية ، فلو لم يتقرر مذهب الاختيار لتعذر على الجماعة أن تجد اساساً تقيم عليه تشريعها وحدودها وتنظم بذلك حياتها ... »(1) .

الأجل والرزق محدّدان

وما جاء في القرآن من ناحية اجل الانسان فيتبين لنا من ذلك قوله تعالى :

﴿ وما كان لنفس ان تموت الا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ﴾ آل عمران : ١٤٥ .

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ النساء : ٧٨ .

﴿ وما يُعمّر من مُعَمّرٍ ولا يُنقص من عمره إلا في كتاب ﴾ فاطر : ١١ .

فهذه الآيات أصدق وصف لواقع هذه الحياة ، فإن أمامنا كل يوم دليلاً على أن الأجل قدَرٌ لا مفر منه . فمن الناس من يأتيه الموت فجأة ولا يعرف أحد له مرضاً ، حتى ان طائفة من الاطباء يقولون : ان الانسان يولد وفي تكوينه جرثومة انتهاء حياته .

وإذا كان أجل الإنسان مقدراً فكذلك رزقه مقدّر أيضاً :

﴿ إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ آل عمران : ٣٧ .

هذا الذي تعرض له القرآن في مسألة القدر والاختيار والرزق والاجل ، أما من يحاول « البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وارادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار ، فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سرّ القدر الذي نُهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما

(1) (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٣٣ ط ٣ .

لا تكاد تصل العقول اليه »[1] .

روح الايمان بالقدر

الايمان بالقدر يسوق معتقده دائماً الى السعي والعمل ، فيرى منفعته في السعي قائلاً : ان لم يثمر احدهما فسيثمر الآخر ، ومؤملاً خيراً من أسرار التمدر ، لأن المقدّر غير معلوم ولا أمارة له غير أفعاله وأعماله .

ومن حكمه السامية ان الله دعا الانفس البشرية للايمان بالقدر ليكون مخففاً لجزعها إذا نزلت بها النوائب ومثبتاً لها عند ملاقاة المصائب وتجشم المصاعب ، فإذا هاجم اليأس قلب امرىء من مطلب يطلبه ، أو قامت العقبات دون رغبة يرغبها ، قام الايمان بالقدر والاعتماد على الله لنجدته ، فهو يفتح له الأبواب المغلقة ويذلل له المصاعب، فيأخذ العدة من حيث أمره الله باتخاذها.

كما انه عند التوفيق في أعماله ، وما يطرأ عليه من مفاجآت سارة لا ينسى ان يزينها بالتواضع ، ولا يفقد رشده من شدة الفرح ، وإلى هذا يشير القرآن :

﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها[2] إنّ ذلك على الله يسير . لكي لا تأسَوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾

فالله يخبر بأن ما يصيب الأرض والأنفس من مصائب مكتوبة في اللوح مثبتة في علم الله ، ثم يطلب من الإنسان ألا يهلكه الحزن اذا أصابه شر لأن هذا مقدر له في كتاب ولم يكن هناك بدّ من ان يختاره ، واذا قدّر له خير ، عليه ان يذكر أن هذه النعمة ثابتة في كتاب ولم يكن هناك بدّ من حصولها ولم يكن هناك بدّ من اختيارها فيجب أن لا يطغيه الفرح وأن لا تبطره النعمة .

والاعتقاد بالقدر تتبعه صفات الشجاعة والبسالة والجود والسخاء فالذي يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأمور بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته وملته ، وكيف يخشى الفقر حين ينفق من ماله في تعزيز الحق وفعل الخير حسب الأوامر الإلهية .

---

(١) (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده ص ٧٢ ط ١٠ .
(٢) نبرأها : نخلقها .

الحياة الروحية في الإسلام

هناك شبهات وجهها خصوم الاسلام اليه منها : «أن الاسلام تنقصه الناحية الروحية ، وأنه دين مادي»[1] . ومنها : «أن الاسلام نظام شرعي أكثر منه نظاماً اخلاقياً روحياً[2] .

والحق انه ليس هناك شبهة أبعد في الخطأ من هذين الزعمين ، فالاسلام قد اشتمل على مبادىء روحية لا يوجد لها نظير في سموها وسرعة استجابة النفس لها في اي دين من الأديان ، وهذا ما سنعالجه في البحوث الآتية وهي :

صلة الانسان بالدنيا ـ وصلة الانسان بالله ـ والاخلاق ـ والعبادات .

الانسان يتكوّن من روح ومادة

يتكون الانسان من عنصرين : عنصر مادي ينمو ويتحرك ، وآخر بريء من المادة له تلك المظاهر الخاصة من تفكير وعلم وإرادة ، وحب وبغض ، وخلق كريم أو ذميم .

لكلٍ من هذين العنصرين رغائب يتوق صاحبها إلى تحصيلها في أقصى حدودها ، فللجسم رغائب من الطعام والشراب والجنس وغير ذلك ، وللروح مدارج في الترقي يمكن أن تنال منها حظوظاً متفاوتة حسب سعيها ومجاهدتها .

اتصلت الروح بالبدن ، وفي هذا الاتصال ألوان من البلاء ، فصار كثير من الناس عبيداً لشهواتهم ، وانحطت بشريتهم الى درجة الحيوانية المحضة لايرغبون من الحياة الا ألوان الطعام والشراب وسائر انواع الشهوات ، بل ربما

(1) The Prospect of Islam, by Laurence E. Browne, «London 1944», Page, 111, 116.
(2) Islam and Christianity, by Lootfy Levonidn, «London 1940», Page. 71, 74.

نقلا عن كتاب (التبشير والاستعمار) تأليف : الدكتور عمر فروخ والدكتور مصطفى خالدي ص ٣٨ .

انحدروا الى ما وراء الحيوانية المعتادة بما وهبوا من التفكير .

لهذا جاء القرآن بتشريع روحي قوامه الايمان بالله والتحقق بمعرفته معرفة يقينية لا يأتيها الشك ، تسمو بالمرء ، وتجعله فرداً صالحاً في المجتمع الانساني ، وتنقذه من الأزمات النفسانية التي تجتاحه من جراء جهله سر هذا الكون .

ثم دعا القرآن الانسان ان يجاهد نفسه ويروضها على فعل الخير ، وان يصفي قلبه وينقيه من أدران الشهوة والهوى والبغض والحسد وسائر أمراضه لتجتمع النفوس على المحبة والإخاء والسلام .

العالم بحاجة الى ثقافة الروح

والعالم اليوم بحاجة الى ثقافة روحية ، هذا العالم المادي الذي كان تحت تأثير اعتقاد جازم بأنه بتقدمه المادي المطرد قد بلغ مرتبة الكمال ، ولكن أحداث الثلاثين عاماً الأخيرة قد بدلت هذا الاعتقاد .

فالرقي المادي الذي وصلنا اليه في هذا القرن لم يؤت ثمرته الفعلية من اسعاد الناس بل على العكس جلب التعاسة والخراب الناجمين عن الحروب المتلاحقة ، فلا زال القوي يفترس الضعيف ، ولا زال الاستعمار ينشب مخالبه في صدور الدول الضعيفة ، ولا زالت الاجناس يكره بعضها البعض ، وهذا كله يدلنا على إفلاس الحضارة المادية الحالية من القيم الروحية .

لهذا نرى طاغور الشاعر الهندي ينتقد هذه المدنية الحاضرة التي قامت على العلم والمادة دون ان تهتم بالقيم الروحية فيقول هذه الكلمات التي أملاها على احد تلامذته قبل وفاته بساعات : « ... فالاصلاح العلمي والاجتماعي والاقتصادي قد يهذب من احكام الطبيعة وقد يلطفها ويصقلها ولكنه لن يجعل من الانسان الا حيواناً ممتازاً ، ولن يرسم للفرد كوحدة مستقلة سبيلاً واضحاً الى الكمال الروحي المنشود اذ الكمال الروحي لا يتقيد في عرفي بالتقدم المادي وانما هو جوهر أبدي كامن في نفوسنا سواء أكنا متأخرين في الرقي المادي أم متقدمين . والواجب أن نبحث في ارواحنا ما استطعنا عن هذا الجوهر الابدي ، أن نبحث عن مظاهره فينا ، وعن قواه المشتركة بيننا وبين الآخرين وعلى قدر احساسنا بهذه القوى يكون اتجاهنا نحو الكمال .

ولقد ادرك الكثيرون من قبلنا هذه الحقيقة فكانوا أمثلة حية من الكمال

الروحي دون ان تكون لهم حضارة كحضارتنا وعلوم كعلومنا ورقي مـادي كرقينا لقد تعهدوا بالملاحظة والتربية قواهم الابدية فازدهرت وآتت أبرك الثمرات . ولكن ما تلك القوى الأبدية ؟.. هي الطيبة والمحبة والإيثار والتضحية وكل ما يجعلنا نحس اننا في غير حاجة الى الأنظمة والقوانين كي نقرّ السلام في قلوبنا والعدل والإخاء بيننا وبين الناس .

وأعجب ما أعجب له ان حضارتنا تعتمد على إصلاح الأنظمة والقوانين لترقيتنا ثم لا تقرن هذا الإصلاح بالدعوة الحارة البعيدة عن التعصب لمذهب او عقيدة ، إلى تلك القوى الروحية كمجموعة عناصر مشتركة أبدية يجب ان ننتفع بها كما ننتفع بالفحم والحديد والبخار والكهرباء ...

... وعندي انه يجب ان تدرس للصبيان فوائد المحبة بجانب فوائد الكهرباء ومنافع الطيبة والرحمة بجانب منافع الفحم والحديد . اي يجب ان نقرن في نفوسهم العواطف الأبدية بالمعارف وتطبيقاتها العملية ، والا جاءت هذه المعارف وتطبيقاتها بعكس الغرض المنشود منها فاكتسحت العواطف وردت الانسان إلى وحشيته الأولى »[1] .

وهذا ما ذهب اليه أيضاً العالم الشهير اندرو كونواي ايفي[2] في قوله :

« ان النواحي الروحانية والاخلاقية من حياة الإنسان وما ينبغي ان يفعله أهمية بالغة بالنسبة لسلامة الانسان ورفاهيته، وهي أهمية تفوق أهمية معرفته وسيطرته على الطبيعة غير الانسانية . فإحاطتنا بالعلوم الطبيعية تزيد من فهمنا للعالم الذي نعيش فيه، ومن وسائلنا في تحسين الانتاج وتوزيع الضروريات ووسائل الاستمتاع بالحياة وتقلل من الآلام وتطيل الحياة، ومع ذلك فإن المشكلة العظمى في العالم في الوقت الحاضر تعد مشكلة أخلاقية ودينية ، فهي تـدور حول معرفة كيف نستخدم الطاقة الذرية لتحقيق صالح البشر ورفاهيتهم، لا لكي ننزل بهم الدمار . ولعل أعظم ما صادف الناس والمجتمعات من مشكلات في الحياة كانت من النوع الخلقي ، وكانت تدور حول معرفة

---

(١) نقلا عن كتاب (على أبواب الابدية) تأليف الباحث الفرنسي « جورج مجلوار» .

(٢) عالم طبيعي شهير يشغل حالياً منصب استاذ الفسيولوجيا ورئيس قسم العلوم الكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو ، وقد نقلنا هذا القول عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » .

كيف نتخذ القرارات الصائبة . » .

جَمعيّة التسلح الخلقي : وقد قامت اليوم بعض الجمعيات في سويسرا وغيرها لهذا الغرض . منها جمعية التسلح الخلقي التي أنشأها الدكتور (فرانك بكمان) وقد قصد بها إلى تغيير المجتمع بتغيير أفراده ، ووسيلته ان يتسلح كل فرد بمبادىء يأخذ نفسه بها في غير تساهل ، ومن هذه المبادىء : الاتجاه الى الله والاصغاء إلى اوامره وطاعته ، وأن يحاسب المرء نفسه كلما أذنب مصمماً على أن يتجنب الرذائل ، وان يتعاون الافراد على تحقيق هذه المبادىء كي تسود في المجتمع . فالانقسام من علامات عصرنا ... والاتحاد مطلبنا العاجل ، والانقسام نتيجة التكبر والحقد والشهوة والطمع ، وهو من صنع المادية وهو العلامة التي تميز بضاعتها » .

والقرآن أتي بأسس روحية تكفل الاستقرار والسلام والاخاء لسكان الأرض ، وهي ويالالأسف لا تزال مجهولة لكثير من الشعوب ومفكري الانسانية الذين يبحثون عن خير الوسائل لنشر السلام والمحبة في عالمنا المضطرب هذا ما دعانا الى كتابة البحوث التي ستأتي فيما بعد لنبرهن على ان الاسلام هو دين الانسانية في المستقبل العاجل .

نظام الروحية عند اكثر الاديان

ما هو نظام الروحية في الاسلام ؟ هذه مسألة لا بد لفهمها وادراك معناها من أن نكون على خبرة تامة بين مفهومها في الاسلام ومفهومها في الاديـــان والنظم الفلسفية الاخرى .

فالفكرة التي ما زالت مسيطرة في ميدان الديانات والفلسفة ان الروح والجسد يتعارضان في مصالحهما ، فمن المتعذر اذن رقيهما وازدهارهما جنباً الى جنب ، فالجسد والعالم المادي سجن للروح ، والعلائق الدنيوية والانغماس في لذائذها ورغباتها هي الاصفاد والأغلال التي تقيد بها الروح البشرية .

كانت نتيجة هذه الفكرة : التفريق بين الطرق الروحية والمادية . فالذين آثروا المادة يئسوا من أول خطواتهم من مسايرة الروح فانغمسوا في عبودية المادة كل الانغماس وابتعدوا عن الروحانية كل الابتعاد ، والذين آثروا الروحانية قصدوا لرقي ارواحهم طرقاً ومناهج تبعدهم عن الشؤون الدنيوية وذلك انه من

المستحيل في نظرهم ان يوجد لارتقاء الروح طريق يمر بين الحياة الدنيا وشؤونها . ولهذا نراهم في سبيل ترقية الروح قد اهملوا امر الجسد ، ومن أجل ذلك تراهم قد اخترعوا رياضات بدنية شاقة قضت على رغبات النفس مثل البراهمة والبوذيين في الهند وغيرهم ، فمنهم من يقللون طعامهم وشرابهم الى أن يصيروا اكالهيا كل العظمية هزالاً ونحولاً ، ومنهم من يضيفون الى هذه إثقال أجسادهم بالسلاسل الحديدية ، بل منهم فئة يجلسون وينامون على أسنّة مشرعة من المسامير .

واذا نظرنا الى المسيحية رأيناها ديانة زهد وتخلص من علاقات الدنيـــا واعتداد بالروح دون الجسد .

الفصل الحادي عشر

صلة الانسان بالدنيا في الإسلام

التوسط بين مطالب الروح والجسد – تفضيل الآخرة على الدنيا – التحذير من الاغترار في متع الحياة – الدنيا امتحان للبشر – ذم الترف – القرآن يخفف من شرور المال .

التوسّط بين مطالب الروح والجسد

يمتاز الاسلام عن غيره من الأديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد فهو لا يأمر المسلم أن يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع وفي حدها المعتدل ، حتى اننا نلاحظ أن أكثر الآيات القرآنية تحض على طلب المنزلتين الروحة والمادية معاً . جاء في القرآن : ﴿ وابْتغ فيما آتاك اللهُ الدّارَ الآخرة ولا تَنْسَ نصيبكَ مِنَ الدُنيا وأحْسِن كما أحْسَنَ اللهُ إليْكَ ﴾ القصص : ٧٧ .

وأباح الإسلام لمتبعيه التجمل بأنواع الزينة والتمتع بالمشتهيات المشروعة على شرط الاعتدال . قال الله تعالى : ﴿ يا بني آدم خُذُوا زينتَكم عِنْدَ كلّ مسجد وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا إنهُ لا يُحبُ المسرفين . قُل مَنْ حرّم زينة الله التي أخرَجَ لعباده والطيّبات مِنَ الرزق ، قُلْ هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالِصَةً يَوم القيامة كذلك نُفصّل الآياتِ لِقَوْمٍ يَعلمون ﴾ الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

وأرشد الله المؤمنين على ما يجب أن يكون عليه دعاؤهم من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة :

﴿ فَمِنَ النَّاس مَنْ يَقولُ رَبَّنَا آتنا في الدُنيا وما لَهُ في الآخرة من خلاق[1] . ومِنْهُم مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتنا في الدّنيَا حَسَنَةً وفي الآخرة حَسَنَةً وَقِنَا عذاب النار . أولئك لهم نَصيبٌ مِمّا كسبوا والله سَريعُ الحِسَابِ ﴾ البقرة : ٢٠٠ — ٢٠٢ .

ويقول سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أَحَلّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبُ المعتدين . وكلوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ المائدة : ٨٧ ، ٨٨ .

مما يلفت النظر في هذا النص القرآني أنّ الله سمى حرمان النفس مما احله الله اعتداء ، اي خروجاً عن طريق العدل بين الطبيعتين الروحية والمادية .

وغاية ما نراه في الاعتناء بالناحية الجسدية تصريح القرآن بأن الله خلق الأرض ليسخرها الانسان في منافعه . قال الله تعالى ممتناً على عباده :

﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ البقرة : ٢٩ .

﴿ وسَخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ الجاثية : ١٣ .

هاتان الآيتـــان تشيران الى مدى سلطان الانسان على العوالم المادية ، ومثل هذا القول من المعجزات الفلسفية للقرآن لم يقل به احد قبل القرن التاسع عشر من الناحية العلمية فقد اعتُبر الكون يومئذ مجهولاً مزعجاً ، واليوم بعد ان سخر الانسان العالم لمنافعه نستطيع ان نقول : ان الاسلام كشف عنه قبل ان تظهر بوادره ، وقبل ان يطمئن الانسان على وجوده في الأرض .

وعلى هذا البيان يقول الرسول محمد عليه السلام : (لا رهبانية في الاسلام) لأن الرهبانية تجعل الصالحين من عباد الله لا يهتمون الا بنجاتهم فينزوون الى الصوامع وينتقل زمام امر العالم الى من لا همّ لهم إلاّ الافساد في الأرض .

اما نظرة القرآن للرهبانية الموجودة عند النصارى فقد قال الله عنهـــا : ﴿ وَرَهْبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رِضْوَانِ الله فما رَعَوْها حَقّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا مِنهُم أجْرهم وكثيرٌ منهم فاسقون ﴾ الحديد : ٢٧ .

---

(١) الخلاق : الحظ والنصيب .

والمعنى : ان الرهبانية قد ابتدعها النصارى فألزمهم الله بها وذلك ان العبادات والنذور يوجبها الله على المرء حين يُلزم بها نفسه . وما اوجبها الله عليهم إلاّ ليبتغوا بذلك رضوانه . فالرهبانية بمعناها المجرد هي رهبة الله وخشيته وهذا امر مرغوب ، لكن بعض الرهبان اساءوا في ذلك (فما رعوها حق رعايتها) . اما الذين ترهبوا ايماناً واحتساباً فلهم اجرهم عند ربهم ، واما الذين اساءوا وما رَعَوا حق الرهبانية فهم الخارجون عن طاعة الله .

والحق ان ما ذهب اليه الاسلام من الجمع بين الروح والمادة هو ما تقبله الفطرة الانسانية ، فالله لم يخلق للانسان شهواته وقواه الطبيعية عبثاً او لاخمادها بالرياضة النفسية ولكنه خلق الانسان على هذه الصورة من تنوّع الغرائز ليتمكن من السيطرة عليها وتوجيهها الى المثل العليا .

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالية امر تستدعيه حياة المجتمع ، ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة غير الاسلام .

تفضيل الآخرة على الدنيا

والاسلام لم يقم على هذا الطريق الوسط بين الروح والجسد ذهاباً منه الى أنهما سواء في الدرجة ، لا ، ولكن الحكمة الالهية اقتضت ان يكون الاسلام مبنياً على قواعد العلم ونواميس الطبيعة . وقد قرّر العلم أن العقل السليم لا يكون الا في الجسم السليم ، وأن السموّ الروحي لا يحصل من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات في دائرة الاعتدال . ولكن بالرغم من هذا يقرر القرآن ان الحياة الأخرى خير من الحياة الدنيا ، وأن الكمال الروحي هو الغاية التي يجب أن يتجه اليها كل مسلم ، ولهذا يحذّر الله من يركن الى الحياة الدنيا بدون ان يستعدّ بالعمل الصالح للآخرة :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيد الحياةَ الدنيا وَزِينتها نوفّ اليهم أعْمَالَهُم فيها وهُمْ فيها لا يُبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الاّ النار وَحَبِطَ[1] ما صَنَعوا فيها وبَاطلٌ ما كانوا يعملون ﴾ هود : ١٥ ، ١٦ .

---

(١) حبط : ذهب سدى .

ويصف الله قول عباده المقرّبين بقوله : ﴿ وَقِيل للذين اتّقوا ماذا أَنْزَلَ ربكم قالوا خَيْراً ، للذين أَحْسنوا في هذه الدنيا حَسَنَة وَلَدارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ المتقين ﴾ النحل : ٣٠ .

وورد في القرآن تفضيل الآخرة على الحياة الدنيا في مواضع متفرّقة ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الحياةُ الدّنيا إلاّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وإنّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحيوانُ[1]. لو كانوا يعلمون ﴾ العنكبوت : ٦٤ . ويقول الله تعالى : ﴿ تُرِيدونَ عَرَضَ الدنيا والله يُرِيدُ الآخرةَ ﴾ الأنفال : ٦٧ . ويقول الله سبحانه : ﴿ بل تُؤْثِرون الحياةَ الدُنيا . والآخرة خيرٌ وأبقى ﴾ الأعلى : ١٦ ، ١٧ .

فالاعتقاد بحياة أخرى ، أفضل من الحياة الدنيا ، وهو الذي يدخل العزاء للنفوس المعذّبة التي أصابتها مصائب الحياة ، كما ان هذا الاعتقاد يمدّ المؤمنين بقوة روحيّة تجعلهم لا يبالون بما يصادفون من خيبة أمل أو فشل ذريع .

التحذيرُ مِنَ الاغترار في متع الحيَاة

وصف القرآن الدنيا وذمّها ونهى عن الاغترار بها . قال الله تعالى :

﴿ إعلموا أنّما الحيَاةُ الدُنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بينكم وَتَكَاثُرٌ في الأموالِ وَالأولادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفّارَ نباتُهُ ثُمّ يهيجُ فَتَرَاهُ مُصفرّاً ثم يَكونُ حُطاماً وفي الآخرةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوان وَمَا الحياةُ الدُنيا إلاّ متاعُ[2] الغُرور ﴾ الحديد : ٢٠ .

وصف الله هذه الحياة بأنها لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد ليقول بعد ذلك : ان كل ما تعجبون به إنما هو في حقيقته متاع زائل يشبه ذلك المطر الذي يعجب الزارعين بما يخرجه من الزرع ثم لا يلبث ان تكون نهايته الخراب والهلاك .

ويصف القرآن الحياة الدنيا على هذه الصورة : ﴿ واضْرب لهم مَثَلَ

---

(١) الحيوان : اي الحياة التي لا فناء بعدها .

(٢) متاع : ما ينتفع به انتفاعاً قليلا غير باق .

الحياة الدنيا كَمَاءٍ أنزلناهُ مِنَ السَّماء فاختَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فأصْبَحَ هَشيماً تذروه الرِّيَاحُ وكانَ اللهُ على كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِرا . المالُ والبنونَ زينةُ الحيَاةِ الدُّنيا وَالباقياتُ الصالحات خَيْرٌ عِنْدَ ربك ثواباً وخيرٌ أملا ﴾ الكهف : ٤٥ ، ٤٦ .

شبّه الله الدنيا في نضرتها ثم صيرورتها الى الزوال بحال نبات نما واخضر ثم صار هشيماً متفتتاً تنثره الرياح ، لهذا لا يجوز ان يغتر اهلها بالأموال والبنين اللذين هما زينة الحياة الدنيا الفانية ، فالأعمال الصالحة خير عند الله وينال صاحبها ثواباً اوفى .

ويخاطب الله الناس كافة : ﴿ يا أيها الناس إنَّ وَعْدَ الله حق فلا تَغُرَّنكم الحيَاةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكم بالله الغرور ﴾ فاطر : ٥ .

والمعنى : ان وعد الله بالبعث والجزاء على اعمالكم حق يوم القيامة فلا يلهيكم التمتع بالدنيا عن تدارك ما ينفعكم يوم القيامة ولا يخدعنكم الشيطان فيمنيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعصية .

الدُّنيا امتحانٌ للبشر

والقرآن اعتبر الحياة الدنيا موضعاً لامتحان الناس ، وانها وسيلة للفوز بالسعادة في الحياة الاخرى ، فكل شعبة من شعب الحياة من البيت والسوق والمعمل والحانوت مجلس النواب الخ ... كل ذلك تجارب مختلفة لامتحان الناس ، قال الله تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون . ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ العنكبوت : ٢ — ٣ .

والمعنى هل توهم الناس أنه يكفيهم أن يقولوا آمنّا ليعتبروا من شيعة الحق دون أن يُمتحنوا فيظهر انهم صادقون أو كاذبون ؟ ولقد اختبر الله الأمم السابقة بالتكاليف والمحن ليتميز الصادقون من الكاذبين .

فليس مناط النجاة في الاسلام مجرّد الانتساب اليه بل أن تظهر آثار تعاليمه على المنتسب اليه في أحرج ساعات الضيق وفي اوقات رفاهية النفس .

فالخير والشر هما اختبار وامتحان لجوهره ولهذا يقول الله تعالى :

﴿ ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم ﴾ محمد : ٣١ . ويقول الله تعالى أيضاً : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا تُرجعون ﴾ الانبياء : ٣٥ . ويقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً ﴾ الملك : ١ ، ٢ .

هذه النظرة للحياة هي اكبر حافز للأفراد للرقي الأدبي ، واكبر حافز للجهاد النفسي لمغالبة الشرور التي تميل اليها النفس ، وهي تغاير بعض نظريات الأديان التي تعتبر اتباعها أن الله يحابيهم فيعفيهم من جهاد النفس .

ذمُّ الترف [٧]

المبادىء الروحية تستلزم التضحية بكثير من رغبات الجسد وملذاته وهذه لا تصدر من نفس مترفة مدللة ، لأن الترف أضعف ارادتها وجعلها شديدة الحرص على استمرار ما هي فيه فلا تتطلّع إلى آفاق جديدة من التعاليم الصالحة والى ما يرقي الأمة ويدفعها نحو التقدم والازدهار ، ولهذا وصف الله المترفين في القرآن بأنهم أعداء كل اصلاح ، وأنهم خصوم الحق يقفون ضده في كل زمان فلا يستجيبون لرسل الله الذين يرسلهم للاصلاح ، قال الله تعالى :

﴿ وما ارسلنا في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا بما أُرسلتم به كافرون . وقالوا نحن اكثر اموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ سبأ : ٣٤ ـــ ٣٥ .

ووصفهم الله بالجمود وتقليد الآباء ، فلا يلتفتون الى اية دعوة جديدة إصلاحية . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه السلام : ﴿ وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها انّا وجدنا آباءنا على أُمّة [١] وانا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انّا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الزخرف : ٢٣ ، ٢٤ .

والمترفون هم اشد الناس استعداداً للانزلاق في هاوية المنكرات لأن اشباع بطونهم وارضاء ملذاتهم ، وملء جيوبهم هي الهدف الذي لأجله يحيون .

---

(١) الأمة : الطريقة .

ويرى « مونتسكيو » الكاتب الفرنسي الشهير : ان الترف مجلبة لفساد الجمهورية بنوعيها ، فهو في الديمقراطية يصرف الناس عن حب الوطن . وفي الارستقراطية يجعل النبلاء يجرون وراء اطماعهم الشخصية فيعم البلاء .

والقرآن الكريم يرى : ان الترف مهلك للأمة جميعاً ، فيجب محاربة طبقة المترفين الفاسدين والزامهم بالوقوف على الحدود المشروعة ، لأن الهلاك لا يصيب المترف وحده بل يصيب الجماعة التي تسمح بقيام طبقة المترفين فيها ، قال الله تعالى : ﴿ واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميراً ﴾ الإسراء : ١٦ .

والمعنى : اذا قرب تعلّق ارادتنا بإهلاك أية قرية استئصالاً لما ظهر فيها من المعاصي والآثام لم نعاجلها بالعقوبة بل نأمر مترفيها ، بالطاعة ، فإذا تمردوا استحقوا العذاب لارتكابهم الإثم والفواحش .

كما ان الترف في كل أمة يسبّب الفقر والحرمان لعدد كبير من أبنائها ، فالنقص الذي تشعر به الأمة في الطعام والحاجات الضرورية هو بسبب ترف المترفين ، وهذا مما يفجّر البغضاء والحقد بين الفقراء والأغنياء المترفين فيؤدي ذلك الى صراع بينهما ربما يؤدي ذلك الى تدمير المجتمع ، لهذا وصف الله المترفين بصفتي الظلم والإجرام لما يسببونه من اخطار لمجتمعهم :

﴿ واتبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ هود : ١١٦ .

القرآن يخفّفُ من شرُور المَال

الصراع على المال بلغ أشدّه في هذا العصر ، فقد صرف الناس عن ربّهم وعن الأخذ بالقيم الأخلاقية ، وأدى إلى إثارة أغلب المشاكل الخطيرة التي يعانيها العالم اليوم ، ولهذا توجّهت تعاليم القرآن الى التخفيف من شرور المال وبيان اضراره وتحذير الناس من الانقياد الكلي للمال كي لا يفتنهم عن دينهم ويلهيهم عن ذكر الله قال سبحانه في وصف المؤمنين :

﴿ رجَالٌ لا تلهيهم تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وإقَامِ الصَّلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوب وَالأبصار ﴾ النور : ٣٧ .

فهؤلاء المؤمنون لا تشغلهم الدنيا بما فيها من بيع وشراء عن تذكر الله ، فهم يقيمون الصلاة ويؤدون الزكاة خائفين من يوم القيامة الذي لا تستقر فيه القلوب والابصار من القلق والهم وترقب المصير .

وينبّه الله المؤمنين بأن رضاه ورحمته خير من جمع المال :

﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ الزخرف : ٣٢ .

ثم أظهر القرآن حقيقة المال وما ينتج عنه من شرور، وذلك من الوجوه الآتيـــة :

الغنى ليس من مظاهر رضوان الله

نفى القرآن ان تكون كثرة المال دليلاً على رضى الله واثبت ان الايمان والعمل الصالح هما اللذان يقربان الى الله : ﴿ وقالوا : نَحْنُ أَكثرُ أموالاً وأولاداً وَمَا نحنُ بمعذّبين . قُل إنّ ربّي يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يشاء ويَقْدِر[1] ولكنّ أكثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمون . وَمَا أموالُكُم ولا أولادكُم بالتي تُقرّبكم عِنْدنا زُلفى[2] إلاّ مَنْ آمن وعَمِلَ صالحاً فأولئك لهم جزَاءُ الضّعْفِ بما عَمِلوا ﴾ سبأ : ٣٥ ـ ٣٧ .

المال فتنة ومتاع زائل

والمال هو اختبار للبشر في حياتهم الدنيوية فهو وسيلة الى الخير والشر ، فعلى البشر ان يسلكوا به طريق الخير للفوز بمرضاة الله . قال الله تعالى :

﴿ واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة[3] وان الله عنده أجر عظيم ﴾ الانفال : ٢٨ .

ويبين القرآن ان المال بعض متاع الدنيا الذي ينتهي معها إلى الفناء على حين يخلد الحق والخير ، ويجزي الله بحسن المثوبة المتمسكين بهما في الآخرة . قال الله تعالى :

---

(١) يقدر : يقتّر ويضيق في الرزق .

(٢) زلفى : قربى .

(٣) فتنة : محنة وبلاء .

﴿ زُيِّنَ للنّاس حُبُّ الشَّهَوات مِنَ النِّساء والبنين والقَنَاطير المُقَنْطَرَة مِنَ الذهبِ والفضة وَالخَيْلِ المُسوَّمة[1] والأنعام والحَرْث[2] ، ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآب[3] . قل أؤنبئكم بخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم للذين اتقوا عِنْدَ ربّهم جنّاتٌ تجري مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مُطهّرة[4] ورِضْوانٌ من الله ، واللهُ بَصيرٌ بالعِبَاد ﴾ آل عمران : ١٤ ، ١٥ .

ذمّ طغيان المال

ويصوّر القرآن النفس الانسانية بالطغيان والخروج عن الحد متى أحسّت من نفسها القدرة وقبضت على ناصية الثروة . قال الله تعالى : ﴿ كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى . إنّ الى ربك الرجعى ﴾ العلق : ٦ — ٨ .

أي ان الانسان يتجاوز حدود العقل والعدل ويطغى اذا رأى نفسه قد اغتنى . ثم أراد الله أن يرد تلك النفوس عن طغيانها ويخفف من جبروتها فأخذ يذكّر الانسان بضعفه وحاجته ليعلم انه واهم في طغيانه : (انّ الى ربّك الرجعى) أي ان المرجع الى الله وحده دون غيره .

ويبيّن الله ان كثرة الرزق تحمل الناس على البغي والطغيان لذلك فهو يرزقهم حسب مشيئته وهو أعلم بحالهم : ﴿ ولو بَسَطَ الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن يُنزّل بقَدَرٍ ما يشاء إنّهُ بعباده خبير بصير ﴾ الشورى :٢٧

النهي عن الفرح بالمال

والقرآن نهى الانسان عن الفرح الذي يؤدي به الى البطر حين تصيبه النعم والخيرات، وحثه على الإستعاضة عن ذلك بشكر الله ، لأن الفرح على هذا الوصف يؤذي الفقراء والمحرومين ويؤدي بالانسان إلى الإستهتار بالنعمة

---

(١) الخيل المسومة : الخيل المعلمة بعلامات خاصة لتجميلها .
(٢) الحرث : الزرع .
(٣) المآب : المرجع .
(٤) ازواج مطهرة : زوجات الجنة المطهرات من كل رجس او اذى يكون في نساء الدنيا .

وترك الحيطة لصروف الزمان ، كما انه يؤدي أيضاً الى الخيلاء والعجب ، ولهذا كان الفرح مكروهاً من الله : ﴿ إنّ الله لا يحب الفرحين ﴾ القصص : ٧٦ .

فالانسان يجدر به أن لا يفرح بالمال ولا بمتع هذه الدنيا الزائلة ، ولكن يجب عليه أن يكون له هدف اسمى من ذلك هو الفرح بفضل الله ورحمته ، هذا ما دعا اليه القرآن :

﴿ قُلْ بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون ﴾ يونس : ٥٨ .

النَهي عَن البُخل

نهى القرآن عن البخل لأنه يقضي على المودة بين الناس ، فالبخيل يبغض التعاون ولا تسمح نفسه ببذل شيء من ماله لمساعدة الضعفاء والفقراء فتمتلىء قلوب هؤلاء حقداً عليه ، فالبخل اذا فشا في امة كانت نتيجته انهيار روح التعاون بين أفراد المجتمع ، ولهذا نفّر الله من البخل بقوله :

﴿ ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شَرٌّ لهم سيُطَوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ آل عمران : ١٨٠ .

كما وعد الله الذين يتخلّصون من هذه الرذيلة بالفلاح .

﴿ ومن يُوق شُح[1] نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ الحشر : ٩ .

والبخيل على شدّة تعلّقه بالمال يبقى معوزاً ، لأن جمع المال مع عدم الانتفاع به ضرب من الفقر أشد وقعاً من فقر المعدمين ، ويؤتي صاحبه الذل والاحتقار من الناس . ولهذا يقول تعالى : ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء ﴾ محمد : ٣٨ .

فيا من تطلبون سكينة النفس وسعادتها حذار من البخل، ولكن لا تتهوروا في الرذيلة المعاكسة ، وهي التبذير وكونوا كما قال تعالى : في وصف المؤمنين الكاملين : ﴿ والذين اذا انفقوا لم يُسرفوا ولم يَقْتُرُوا وكان بين ذلك قواماً[2] ﴾ الفرقان : ٦٧ .

---

(١) الشح : البخل والحرص .
(٢) قواماً : وسطاً .

الفصل الثاني عشر

صلة الانسان بالله في الاسلام وأثرها في الطب النفساني

الغاية من صلة الانسان بالله – الايمان بالله – ذكر الله – الحب بين الله والناس – خشية الله – الاستغفار – التوبة – ابتغاء رحمة الله – العبادة – الشكر لله – التوكل على الله – الاخلاص لله – الدعاء .

الغاية من صلة الانسان بالله

الصلة الرئيسية بين الانسان والله في نظر القرآن تقوم على الايمان به ومحبته وشكره على ما أنعم من نعم لا تحصى .

ولكن بجانب هذا يهدف القرآن من الصلة بين الإنسان وخالقه الى غايات ثلاث أيضاً وهي : تربية الضمير الانساني ، والحصول على السعادة النفسية ، وشفاء أمراض النفس ، وهو ما يعرف بالطب النفساني .

تربية الضمير : فالضمير هو الوازع النفسي القوي الذي يكون للانسان بمثابة مرشد لسلوكه في الحياة يبصّره بعواقب فعاله .

واذا كان هذا الضمير يضعف أحياناً ، فإنه كذلك ينمو ويشحذ بالتربية الفردية والاجتماعية ويختلف باختلاف الأفراد والشعوب قوة وضعفاً ، وان أكبر مقومات الضمير هو الاعتقاد بإله قادر يحاسب على الكبائر والصغائر ويطلع على ما تكنه السرائر ، وقد صدق أحد الفلاسفة في وصف الضمير : « ان ضميراً بلا عقيدة بالله كمحكمة بغير قاض » .

وقد أشار القرآن الكريم الى الضمير في قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ﴾ ق : ١٦ .

هذه الوسوسة هي صوت الضمير التي لا تخفى على الله .

السعادة النفسية : أما السعادة النفسية فهي أيضاً الثمرة من الاتصال بين الانسان وخالقه في نظر القرآن . والانسان اليوم تعمى عليه الطريق التي توصله الى هذه السعادة فيظن أنها في ارضاء شهواته ما وسعه امكانه . ولكن السعادة الحقيقية ليست في اشباع هذه الشهوات لأنها جميعها فانية . فالثروة تضيع ، والصحة تضمحل ، والمتاع البيتي والزوجي والابوي لا بقاء له . ثم ان الكوارث المادية قد تقع فتكدر صفو حياتنا ولكن يجب أن لا تهدم هذه الكوارث سعادتنا النفسية .

وان العامل الأول لسعادتنا النفسية هو ذلك الاتصال بالله ، وانه معنا على الدوام ، وأننا لسنا وحيدين أمام كوارث هذه الحياة ، فهو يؤيدنا بمعونته وبرحمتـــه .

الطب النفساني : أما شفاء أمراض النفس وهو ما يعرف (بالطب النفساني) فقد اكتشف العلماء ان الهم والقلق والحزن والكبت لها تأثير على الوظائف العضوية ، وقد درست هذه الناحية في الجامعات في الغرب وفتحت لذلك عيادات الطب النفساني . يقول الدكتور (بول أرنست ادولف[1]) : « لقد أيقنت أن العلاج الحقيقي لا بد ان يشمل الروح والجسم معاً في وقت واحد، وادركت ان من واجبي ان اطبق معلوماتي الطبية والجراحية الى جانب ايماني بالله وعلمي به ، ولقد أقمت كلتا الناحيتين على أساس قويم . بهذه الطريقة وحدها استطعت ان اقدم لمرضاي العلاج الكامل الذي يحتاجون اليه . ولقد وجدت بعد تدبر عميق ان معلوماتي الطبية وعقيدتي في الله هما الأساس الذي ينبغي ان تقوم عليه الفلسفة الطبية الحديثة ...

ولقد وجدت في اثناء ممارستي للطب أن تسلحي بالنواحي الروحية الى جانب إلمامي بالمادة العلمية يمكنني من معالجة جميع الأمراض علاجاً يتسم بالبركة الحقيقية ، أما اذا أبعد الإنسان ربه عن هذا المحيط فإن محاولاته

---

(١) استاذ مساعد في التشريح بجامعة (سانت جونس) وعضو جمعية الجراحين الامريكيين .

لا تكون الا نصف العلاج بل قد لا تبلغ هذا القدر .

فما هي الأسباب الرئيسية لما نسميه الأمراض العصبية ؟ ان من الأسباب الرئيسية لهذه الأمراض الشعور بالإثم او الخطيئة والحقد والخوف والقلق والكبت والتردد والشك والغيرة والأثرة والسأم . ومما يؤسف له أن كثيراً ممن يشتغلون بالعلاج النفسي قد ينجحون في تقصي أسباب الاضطراب النفسي الذي يسبب المرض ، ولكنهم يفشلون في معالجة هذه الاضطرابات لأنهم لا يلجأون في علاجها الى بث الإيمان بالله في نفوس هؤلاء المرضى .

ونحب فوق ذلك ان نتساءل عن هذه الاضطرابات الانفعالية والعوامل التي تسبب تلك الأمراض ، انها هي ذاتها الاضطرابات التي جاءت الأديان لكي تعمل على تحريرنا منها . فلقد أدرك الله بقدرته وحكمته حاجاتنا النفسية ودبر لها العلاج الكامل[1] .

والجدير بالذكر ان القرآن عالج أمراض النفس بما قال الله تعالى :

﴿ ونُنزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ الاسراء : ٨٢ .

وفيما يلي سنعرض بعض ما جاء في القرآن في تقرير هذه الصلة .

الإيمان بالله
وأثره في سلوك الإنسان

الإيمان بالله هو عماد الحياة الروحية ، ومنبع كل طمأنينة نفسية ، ومصدر كل سعادة ، ولا يتأتى هذا الايمان من الاعتقاد بأن هنالك إلهاً يسيطر على هذا العالم فقط ولكن بمعرفة قدسية الله وعظمته في نفس الإنسان وظهور آثار هذا الإيمان بالأعمال التي تصدر عنه .

فالايمان بالله يطلق النفس من قيودها المادية ، فتتعالى على الشهوات ولا تبالي بالمنافع والمضار الخاصة ، فيسعى الانسان لنفسه ولأمته وللناس جميعاً ضمن قوانين الحق العامة وسنن الخير الشاملة .

---

(١) عن كتاب « الله يتجلى في عصر العلم » ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

فكلّ ما في الانسان من خير ونبل وتضحية وايثار وإنكار للذات مستمد من ايمانه بالله ، هذه حقيقة ثابتة مستمد تأييدها من التجربة الانسانية العامة ، ففي كل دولة وفي كل عصر أناس تفجّرت مشاعرهم النبيلة من ايمانهم بالله ، فأوقفوا حياتهم لصالح الانسانية وسعادتها ، هذه هي حقيقة الايمان التي دعا اليها القرآن فلذلك لا نرى آية في القرآن ذكر الله فيها (الذين آمنوا) إلا أضاف اليهم (وعملوا الصالحات) إشارة منه سبحانه وتعالى إلى ان الإيمان يجب أن يكون مقروناً بالعمل الصالح ، فهو مظهره وثمرته .

والايمان بالله والعمل الصالح يترتب عليهما مرضاة الله ومكافأته في الدار الآخرة قال تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خَيْرُ البَرِيّة ﴾ البيّنة : ٧.

﴿ وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنّات ﴾ البقرة : ٢٥ .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عملا ﴾ الكهف : ٣٠ .

والايمان يحول بين المرء واقتراف المعاصي ، لأن الانسان فيما يفعل وفيما يصدر عنه خاضع لسلطان عقيدته ، وميسّر بأمرها ، ولهذا يقول الرسول عليه السلام : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن[1]) لأن الايمان الكامل يأبى على المؤمن أن يفعل ما ينافيه أو يترك ما يقتضيه .

والايمان بالله ينير لنا ظلمات هذه الحياة ، ففي ساعة اليأس يتذكر المؤمن أن هناك ملاذاً يلجأ إليه ، وان ربه قادر على معونته، فليس هناك ما يدعوه الى اليأس والجزع ، فتطمئن نفسه ، وتصغر أمامها الأهوال وتهون المصائب .

والله يخبر المؤمنين بأن يد المعونة والتأييد ممدودة لهم :

﴿ ومن يُؤْمن بالله يَهْدِ قلبه ﴾ التغابن : ١١ .

ويقول ايضاً : ﴿ وإن الله لهادِ الذين آمنوا الى صِرَاطٍ مستقيم ﴾ الحج : ٥٤

ويقول : ﴿ الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ﴾ البقرة : ٢٥٧

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

كما ان الايمان المصحوب بالعمل الصالح وسيلة الى النعيم الدنيوي يخص الله المتصف بهما : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حَيَاةً طيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون ﴾ النحل : ٩٧

فالانسان في هذه الحياة وسط تيار جارف من الآلام والمصاعب ، فمن لم يؤمن بالله ويتخذه ملجأ ومعزياً في المصائب ومساعداً في المتاعب كان أشقى الناس في حياته ، بخلاف المؤمن الذي يحيا حياة طيبة بالايمان كما صرح بذلك القــرآن .

ذكر الله

وأثره في النفس الانسانية

من أهداف الحياة الروحية بث الطمأنينة في النفس الانسانية ، ونبذ الهم والقلق اللذين هما أعدى أعدائها ، وذكر الله هو وسيلة فعالة للوصول الى هذه الطمأنينة واليك البيان :

ان انشغال الفكر بالهموم المادية او المعنوية ، وتشتت العقل تحت تأثير القلق على المستقبل وتجاه مختلف احداث الحياة ، كل هذه الوساوس والأفكار تعصف بالانسان وتجعله عاجزاً عن القيام بواجباته .

وقد يخيل الى البعض ان الاسترسال في الهم والقلق حالة نفسية لا علاقة لها بالبدن ، ولكن التجارب العلمية أثبتت ان الاستغراق في الهم والتمادي في القلق حالات فزيولوجية سرعان ما تضعف الجسم وتصيبه بشتى الأمراض .

ومصدر الهم والقلق هو استشعار الانسان بضعفه أمام احداث الحياة ولكن الايمان القوي بالله الذي له التصرف في هذا الكون والاعتماد عليه يلقي في نفس الانسان طمأنينة وقوة تتضاءل امامهما هموم الحياة بحيث يراها شيئاً تافهاً .

وقد اعترف بهذه الحقيقة الدكتور (بريل) اذ قال : « ان المرء المتدين حقاً لا يعاني قط مرضاً نفسياً » .. ويقول (ديل كارنيجي) : « ان أطباء النفس يدركون ان الايمان القوي والاستمساك بالدين كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبي ، وأن يشفيا هذه الأمراض » .

وذكر الله هو أثر من آثار الايمان بالله ، وهو غذاء روحي يمد النفس الانسانيه بما تحتاجه من سكينة واطمئنان وهذا ما صرح به القرآن : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ الرعد : ٢٨

وذكر الله هو مظهر لمعرفة الانسان ربه والثناء عليه ، ولهذا يصرح القرآن بأن ذكر الله وسيلة للتقرب منه سبحانه وتعالى ، وان الذاكرين مجزيون بمحبته ورحمته ، وحسبنا هذه الآيات القرآنية في فضائل الذكر :

﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ البقرة : ١٥٢ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبّحوه بُكْرةً وأصيلاً [١] . هو الذي يُصلّي عليكم [٢] وملائكتُهُ ليُخرجكُم مِنَ الظُّلُمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ الأحزاب : ٤١ ــ ٤٣ .

﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ الأحزاب : ٣٥ .

واذا بيّن القرآن فضائل ذكر الله نراه في موضع آخر يُعلن بأن الاعراض عنه يضل الانسان ويؤدي الى شقائه قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو لَهُ قرين . وإنّهم لَيَصُدُّونهم عَن السبيل ويَحسبون انهم مهتدون ﴾ الزخرف : ٣٦، ٣٧.

والمعنى : من يعرض عن ذكر الله او هديه يسلّط الله عليه شيطاناً يلازمه ويغويه ويزين له فعل المعاصي .

وجاء في القرآن في التحذير من الاعراض عن ذكر الله : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنْفُسَهُم أولئك هُمُ الفاسقون ﴾ الحشر : ١٩ .

وذكر الله له أثر كبير في تربية النفس ، فالذي يذكر ربه ويتصور عظمته يخشع قلبه ويلين ، فلا يصدر عنه من الأفعال إلا كل خير ، لأنه يعلم ان الله مطّلع عليه بينما الذين يعرضون عن تذكر خالقهم وينزلقون في غمرة هذه الحياة يكون ذلك داعياً لقسوة قلوبهم التي ينتج عنها الشر ، ولذلك حذّر الله من الوصول الى هذه الحالة المقيتة :

(١) بكرة وأصيلا : أول النهار وآخره .

(٢) هو الذي يصلي عليكم : الصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار ومن المؤمنين دعاء .

﴿ أَلَمْ يأنِ [1] للذين آمنوا أنْ تَخْشَعَ قلوبهم لذِكْر الله وما نَزَلَ مِنَ الحق ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب مِنْ قَبْلُ فطال عليهم الأمد [2] فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ الحديد : ١٦ .

ولشدة عناية الاسلام بذكر الله جعل الصلاة التي يتقرّب بها الانسان الى ربه مشتملة على أنواع كثيرة من ذكر الله وجعلها خمساً في اليوم والليلة ، وطالب الزيادة على ذلك في الليل، وهو ما يطلق عليه اسم التهجد ، لأن الليل تصفو فيه النفوس وتكون أقدر على المناجاة بروحية لا يعكر صفوها أي معكر ، وهذا ما أمر به الله تعالى بقوله :

﴿ أقِمِ الصَّلاة لِدلُوك الشمس [3] الى غَسَقِ الليل [4] وقرآن الفجر إن قُرآن الفجر كان مشهوداً . ومن الليل فَتَهَجَّد به [5] نَافلةً [6] لَكَ عَسَى أنْ يَبْعَثَكَ ربك مقاماً محموداً . وقل رب أدخلني مُدخل صِدْقٍ وأخرجني مُخرج صِدْق واجعل لي من لَدُنْكَ سُلطاناً نصيراً ﴾ الاسراء : ٧٨–٨٠ .

أي طمأنينة تشعر بها عند قراءتك هذه الآيات ! وأي فيض من احساس سام يغمر نفسك فينشلك من وهدة هذه الحياة المادية الى حياة أخرى تستشعر حلاوتها ! انه القرآن ، ذلك الكتاب الروحي الذي يمسح ما في نفسك من الهم والحـــزن .

الحُبّ بَينَ النَاسِ وَالله

من المطاعن التي وُجهت الى الاسلام انه دين جاف يخلو من الحب بين الله والناس . جاء في كتاب « فلسفة الدين » الذي ألفه بالانجليزية (ادوار روس) : « ان كلمة الاسلام معناها الاذعان لارادة الله ، وأخلق بذلك ان يفضي الى

---

(١) ألم يأن : ألم يأت الوقت .

(٢) امد : الأجل الطويل .

(٣) دلوك الشمس : ميلها للغروب .

(٤) غسق الليل : وقت الظلمة في أول الليل .

(٥) ومن الليل فتهجد به : اي استيقظ بعض الليل للصلاة وقراءة القرآن .

(٦) نافلة : عبادة زائدة على الصلوات المفروضة .

اعتبار الله قضاء متحكماً غير مفهوم ، من العبث التمرد عليه ، وليس من صفاته القداسة ولا الحب ، ومع ذلك فقد ظهر مسلمون لا يرتاحون الى هذا الدين الجاف ، وان في ظهور الفرق الصوفية التي انتشرت في الاسلام لشهادة بوجود الشوق الى اتصال يكون أوثق بإله حي يفيض بالحب »[1] .

والغريب ان سوء النية والجهل هما شعار هذا الكاتب، وليس أسهل من الرد عليه في أمر هو أجهل الناس فيه لأن الحب بين الله والناس كثير التكرار في القرآن ، فقد جاء في أساليب شتى اثباتاً ونفياً ، وهو يقسم الى قسمين : حب الانسان لله ، وحب الله للإنسان[2] .

حب الإنسان لله : المؤمن الحق هو الذي أدرك جمال الله وجلاله ، واستشعر لطفه واحسانه وعلم عِلْمَ اليقين انه هو المنعم عليه . ثم تأثر بهذا الادراك فأحبه ، فأصبح قلبه مشغولاً به وعمله موجهاً إليه ، ولذته وارتياحه في طاعته وعدم مخالفة أمره ، يتحمل في ذلك ما يتحمل راضياً مغتبطاً ، قرير العين مطمئن القلب .

فحب الانسان لله هو الايمان الحق ، وليس هو مجرد المعرفة واذعان النفس . بل الايمان الحق هو ايمان المحب لله الذي يؤثره على النفس ، وتبدو آثار حبه اياه في جميع أقواله وأفعاله . اما الايمان التقليدي الذي لا يعدو الاذعان النفسي ولا تَظهر آثاره في مظهر من المظاهر العملية الايجابية ، فليس هو الايمان الذي يريده الله من عباده ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ اليكم مِنَ الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ التوبة : ٢٤.

جمع الله في هذه الآية جميع رغائب الانسان وحاجاته ووضعها في كفة ، ووضع في الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيلة ، فالنفس التي تتحرر من تلك الرغائب جميعها وتؤثر عليها الله ورسوله هي النفس التي يتطلبها الاسلام .

---

(١) صفحة ١٢٤ من الكتاب المذكور .

(٢) من مراجع هذا الفصل بحث كتبه الشيخ محمد محمد المدني وعنوانه « الحب بين العباد والرب » في المجلد التاسع من مجلة الأزهر صفحة ٤٠٧ .

ويصف الله صفات المؤمنين الصادقين الذين أحبهم كما أحبوه فيقول مخاطباً المؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يَرْتَدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ المائدة : ٥٤ .

وحبّ الله هو علامة المؤمنين الحقيقية الذين تذوقوا حلاوتها فما رغبوا عنها بديلاً ، ولهذا يقول الرسول عليه السلام : (ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الايمان : ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره ان يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار)[١] .

« فحبّ الله من اهم القواعد في بناء الاخلاق ، وهو يحوّلنا الى ارواح لطيفة لا يصدر عنها شرّ ولا عدوان ، وقد يصل بنا الى حب كل شيء في الوجود حين نتمثل العالم كله من صنع المحبوب ، وهذا بالطبع لا يتيسر إلا حين يغلب علينا الصفاء فننسى البغض والحقد والانتقام والحسد وسائر الدسائس الصغيرة التي تفسد جمال الحياة وتصيّر الاحياء اشقياء»[٢] .

حب الله للإنسان : وأما حب الله للانسان فلم يمنحه القرآن الا لذوي الاعمال العظيمة التي تشمل الخير للانسان وللمجتمع الانساني ولم ينفه الله الا عن ذوي الصفات السيئة الموغلة في السوء التي من شأنها ان تشيع الضرر والفساد.

والآيات القرآنية التي اثبتت حبّ الله لعباده، تصف هؤلاء العباد المحبوبين بأوصاف هي امهات الاخلاق ومنابع الفضائل النفسية :

﴿ وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط[٣] إن الله يحب المقسطين ﴾ المائدة .

﴿ بلى من أَوْفَى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ آل عمران : ٧٦ .

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ﴾ آل عمران : ١٥٩ .

﴿ فاعفُ عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين ﴾ المائدة : ١٣ .

﴿ وما ضَعُفُوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ آل عمران : ١٤٦ .

﴿ ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ البقرة : ٢٢٢ .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) (التصوف الاسلامي) للدكتور زكي مبارك ص ١٦١ جـ ٢ ط ١ .

(٣) القسط : العدل .

ونفى الله حبه عن الذين يتصفون بصفات هي مصدر شقاء للجنس البشري كقوله تعالى في الآيات التالية :

﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين ﴾ القصص : ٧٧ .

﴿ واما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لا يحب الظالمين ﴾ آل عمران : ٥٧ .

﴿ وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا انه لا يحب المسرفين ﴾ الاعراف ٣١ .

﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله انه لا يحب الكافرين ﴾ الروم : ٤٥ .

﴿ لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين ﴾ النحل : ٢٣ .

﴿ ان الله لا يحب من كان مختالاً فخورًا ﴾ النساء : ٣٦ .

﴿ وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانْبِذْ اليهم على سَوَاء [1] ان الله لا يحب الخائنين ﴾ الأنفال : ٥٨ .

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾ البقرة : ١٩٠ .

فمحبة الله لانسان ما هي مصدر سعادته ، لأنها تتبعها ولاية الله له ونصرته ودفاعه عنه وبالعكس ، فإن بغض الله لانسان سبب في شقائه ، هذا ما بيّنه الرسول عليه السلام بقوله : (اذا احب الله عبداً نادى جبريل فيقول إني أحب فلاناً فأحبّه . فيحبه جبريل ، فينادي جبريل في أهل السماء : ان الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبّه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض . واذا ابغض عبداً دعا جبريل فيقول : اني ابغض فلاناً فابغضه ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء ، ان الله يبغض فلاناً فابغضوه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض) [2] .

---

(١) فانبذ اليهم على سواء : فاترك عهدهم واطرحه وعاملهم بمثل ما عاملوك فيه .

(٢) رواه مسلم .

خشية الله
وأثرها في مجابهة الشر

ان ما يعانيه العالم اليوم من تدهور في الاخلاق وانكباب على الرذائل وانتشار الاجرام هو بسبب غفلة الانسان عن خالقه وعن استحضار عظمته التي تجعل في القلب رهبة تحول بينه وبين الميل الى الشر .

فخشية الله من الدعائم التي قامت عليها الحياة الروحية لأنها تسمو بالانسان الى كل خير ، لذلك جاءت الأديان تسعى لغرس هذه النزعة في نفوس الأفراد مبينة ما يؤدي اليه غضب الله من العقاب الدنيوي والاخروي .

ولولا خشية الله لاسترسل الانسان في شروره ، وانكب على شهواته ، غير مقيم لمصلحة الغير أي اعتبار ، ولما نفعت في ذلك كل القوانين التي شرعت للمحافظة على الانسان من عدوان الغير ، وهذا ما يعاني منه عالمنا الحاضر .

والاسلام بجانب ما شرعه من العقوبات والزواجر التي تردع الانسان عن اقتراف الشر لم يهمل تذكيره بخشية الله والخوف من عقابه لأن ذلك أدعى إلى طاعته سبحانه وتعالى وسلوك الطريق المؤدي الى رضائه والفوز بنعيمه ، والآيات القرآنية الآتية شاهدة على ذلك :

﴿ ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ النور : ٥٢ .

﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ الملك : ١٢ .

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ البينة : ٨ .

وخشية الله تهب الشجاعة الأدبية للانسان وهي من محاسن الصفات التي يتحلى بها وقوامها : أن يبدي الإنسان رأيه وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به أو تقولوا عليه ، ولو جر عليه غضب الحاكم ، ويرفض العمل بما لا يراه صواباً ولو لم يقع رفضه موقعاً حسناً عند الناس ، والله سبحانه يرشد المؤمنين إلى التحلي بهذه الصفة بقوله :

﴿ فلا تخافوهم وخافونِ ان كنتم مؤمنين ﴾ آل عمران : ١٧٥ .

﴿ أتخشونهم فالله أحَقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ التوبة : ١٣ .

ويذكر الله صفات المؤمنين بقوله :

﴿ يُجاهدون في سبيل الله ولا يَخافون لَوْمَةَ لائم ﴾ المائدة : ٥٤ .

والتاريخ مملوء بسير الأبطال الذين ضحوا بكل نفيس في سبيل قول الحق ونصرته ، وصبروا على الآلام حباً للحق لأنهم احبوه أكثر مما احبوا انفسهم ومنهم الانبياء ونوابغ العلماء ، ولهذا نرى القرآن يتحدث عن الانبياء : ﴿ الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً الا الله ﴾ الأحزاب .

الرجاء مع الخشية : والقرآن يقرن خشية الله بالرجاء « لأن المذنب الذي لا يرجو ربه في قبول المتاب ينقلب الى قوة يائسة خطرة لا يرجى لها صلاح ولا ينتظر منها نفع ، وانقطاع الصلة بين المرء وربه هو أقصى غايات الفساد . وتخويف المرء من ربه له حدود ولا ينبغي أن يصل الخوف الى اليأس ، فإن التربية التي تقوم على الخوف المطلق تربية فاسدة لأنها تطمس أصول النور في القلب وتمنع عناصر الخير من النهوض ... »[1] ففي كل انسان عواطف وميول للعمل الصالح تشجعها المكافأة الحسنة والوعد الصادق بنيل فضل الله . ومما جاء في القرآن في هذا الصدد قوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ الاعراف : ٥٦ .

ووصف الله المؤمنين الصادقين : ﴿ تَتَجَافى جُنُوبهم عن المضاجع[2] يَدْعُونَ ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ السجدة : ١٦ .

ووصف الله بعض انبيائه : ﴿ إنّهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغَباً وَرَهَباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ الأنبياء : ٩٠ .

ان خشية الله المقرونة بالرجاء لهي أقوى المؤثرات في أعمال الانسان فهي التي تربي الضمير الانساني وتجعله فرداً صالحاً في المجموعة الانسانية .

---

(١) (التصوف الاسلامي) للدكتور زكي مبارك ص ١٥٣ ج ٢ ط ١ .

(٢) تتجافى جنوبهم عن المضاجع : تبتعد جنوبهم عن فرشهم .

الاستغفار
وأثره في علاج النفس

المؤمن المراقب لله في كافة أعماله تقل اخطاؤه لا محالة ، ولكن قد تزل قدمه فيأتي بعمل لا ينبغي صدوره عنه فيذكر الله فيرى مبلغ خطيئته فيقلع عنها نادماً مستغفراً .

فالمؤمن قد يخطىء لكن عليه اذا أخطأ أن يثوب الى رشده، واذا زلقت قدمه فكبا أن ينهض من كبوته ، وان يزيح ما علق به من اثم ، ثم يستأنف طريقه الى غايته المنشودة ، لهذا يلتمس الله للمخطىء عذراً على خطيئته ويحرضه على طلب المغفرة المؤدي الى محاسبة النفس ومراقبة الله التي تحيي موات الضمير .

وكفارة الخطيئة في الإسلام لا تحتاج إلى اعتراف لرجال الدين ، كما ان الخطيئة لا تبقى معلقة على رأس الفرد لا مخلص منها ولا فرار .

فباستطاعة أي انسان في الإسلام أن يتوجه الى ربه مباشرة ، نادماً طالباً المغفرة ليفتح الله بابه ويمنحه رحمته وعفوه . قال الله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر[1] الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ النساء: ١١٠ .

ويذكر الله صفات المؤمنين الذين يستحقون مغفرته بقوله :

﴿ والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَنْ يَغفرُ الذنوبَ الاّ الله ولم يُصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مَغفرةٌ من ربهم ﴾ آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦ .

والمغفرة يمنحها الله لكل من تاب وأناب اليه مهما اقترف من آثام :

﴿ قُل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا مِنْ رَحْمَةِ الله إن الله يَغفرُ الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ الزمر : ٥٣ .

وقد قيل انه ما في القرآن اعظم فرجاً لنفسية المؤمن من هذه الآية لأنها تفتح باب الرجاء على مصراعيه .

والاسلام يجعل فرصة التطهر والتخلص من الآثام ممزوجة بالتزوّد من

---

(١) استغفار الله : هو طلب غفران الذنوب من الله .

الخير ، فيجعل عمـــل الخير تكفيراً للاثم ، وفي ذلك ما فيه من الحث على عمل الخير ، قال الله تعالى :

﴿ إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ هود : ١١٤ .

ويقول الله تعالى ان الحسنات تؤدي الى المغفرة :

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾ التوبة : ١٠٢ .

ويقول الرسول ﷺ في هذا المعنى : (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)[١] .

فإيمان الانسان بأن الله يغفر الذنوب جميعاً .. وانه اذا استغفره غفر له .. من ضمن وسائل العلاج النفسي المستحدثة التي لم يستعن بها الطب إلا في العصر الحديث .

فقد قرر علماء النفس – وعلى رأسهم (فرويد) مؤسس مدرسة التحليل النفسي أن كافة الأمراض النفسية ترجع الى الكبت الذي يسبب عقداً نفسية لاشفاء منها الا بما يسمونه التحليل النفسي الذي يتم بأن يجلس الانسان في عيادة الطبيب النفساني ويعترف أمامه بأخطائه ... وهذا الاعتراف يقول عنه الاطباء انه صفة منطقية نفسية سلوكية تكشف عن أخطاء المريض فيراها ويشعر بها ، فتحدث مهادنة بين النفس والضمير ... فيسامح الضمير ... واذا ما تسامح الضمير واستشعر الانسان العفو منه والصفاء بينه وبين النفس ... زالت العقدة النفسية . هذا ، والعقد النفسية ليست وهماً ... فكثيراً ما تسبب هذه العقد الصداع واضطرابات القلب وأمراض الضغط العالي وغيرها من الامراض ... واذا كان علاجها هو الاعتراف بالخطأ أمام الطبيب ليتسامح الضمير ... فأي فرق بين الاعتراف أمام الله وأمام الطبيب ، وأي فرق بين غفران الله وتسامح الضمير »[٢]

ونظرية الاعتراف بالذنب أمام الله هي نظرية قرآنية لها آثارها المفيدة في النفس الانسانية .

فالقرآن ذكر مثالاً عن الاعتراف بالظلم بما صدر عن النبي (ذي النون[٣]) وكان فائدة هذا الاعتراف النجاة من الحزن والكرب وهو في جوف الحوت :

---

(١) رواه احمد والترمذي .

(٢) نقلا عن كتاب « الاسلام والعلم الحديث » تأليف عبد الرزاق نوفل ص ١٤٢ .

(٣) ذي النون : هو يونس .

﴿ وذا النون اذ ذَهَبَ مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا اله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك نُنجي المؤمنين ﴾ الانبياء : ٨٧ ، ٨٨ .

انظر الى قوله تعالى : ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو ايحاء قوي للمؤمنين للأخذ بهذا الهدي الذي فيه النجاة لهم مما يشعرون به من الحرج والضيق من جراء تبكيت الضمير عند اقتراف الظلم والذنوب . هذا ما يحمله هذا الاعتّراف من النفحات الالهية التي ترفع عن الانسان الكوارث والآفات الطارئة .

كما أن القرآن ضرب مثلاً آخر عن الاعتراف بالذنب بما صدر عن آدم وحواء عند مخالفتهما أمر الله بما جعله الله أمثولة للمؤمنين اذ قالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرين ﴾ الأعراف :٢٣

فائدة الاستغفار : والقرآن يجعل الاستغفار من الذنب والاقلاع عنه وسيلة لنيل رحمة الله ، ونيل الخيرات والعطايا في الحياة الدنيا قال الله تعالى :

﴿ وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يُمتّعكم متَاعاً حَسَناً الى أجَلٍ مُسمّى ويُؤتِ كُلّ ذي فَضْلٍ فَضْلَه ﴾ هود : ٣ .

ففي هذه الآية دلالة على ان المقبل على عبادة الله يبقى في الدنيا منتظم الحال مرفه البال .

ويقول سبحانه فيما جاء عن لسان نبيه هود : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ﴾ هود : ٥٢

ويقول سبحانه فيما جاء على لسان نبيه نوح : ﴿ استغفروا ربكم انه كان غفّاراً . يُرسل السماء عليكم مدراراً . ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ نوح : ١٠ ـ ١٢ .

ويخاطب الله نبيه محمداً ﷺ : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ الانفال : ٣٣ .

كان بعض صحابة الرسول عليه السلام يقول بعد وفاته : كان لنا امانان ذهب أحدهما وهو وجود الرسول بيننا وبقي الاستغفار معنا فان ذهب هلكنا .

التوبة إلى الله

وآثرها في تقويم الاخلاق

قد يضل ضال في فهم النصوص السالفة في الاستغفار فيخيّل اليه ان المغفرة متيسرة للانسان الخاطىء بلا نظام مهما فسق واقترف من الآثام ، كلا ليس الأمر كما حسب ، وليست المسألة كلمات ترددها الشفاه بلا ندم على ما سبق وبلا ارتداع عما يسوء ، وبلا عزم أكيد على الاستقامة . فانه يشترط لنيل مغفرة الله : التوبة من المعاصي ، والتوبة في حقيقة اللغة هي الرجوع ، واذا اضيفت التوبة الى الانسان اريد بها رجوعه عن الزلات والندم على فعلها .

يقول صاحب قوت القلوب : « ومن شرط التوبة انه ينبغي للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصي ، ثم بنفسه التي كان يعصي الله تعالى لها ، فلا ينيلها الا ما لا بد منه ، ثم الاعتزام على ان لا يعود في معصية أبداً ، ويلقي عن الناس مؤونته ، ويدع كل ما يضطره الى جريرة »[1] .

والتوبة اولاها القرآن عناية فائقة ، ورددها في كثير من الآيات منها قوله تعالى : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم ﴾ المائدة : ٣٩ . وقوله سبحانه : ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفوررحيم ﴾الانعام : ٥٤ .

والقرآن كثيراً ما قرن الاستغفار بالتوبة كما في قوله تعالى : ﴿ وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ﴾ لأن الداعي الى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار ، وهذا يدل على انه لا سبيل الى طلب المغفرة من الله إلاّ باظهار التوبة ، لأن المذنب معرض عن طريق الحق ، وما لم يرجع عن آثامه لا يمكنه طلب الغفران فثبت ان الاستغفار مطلوب بالذات وان التوبة تابعة له لأنها من متممات الاستغفار .

والتوبة التي يطلبها القرآن يجب ان تكون عقب ارتكاب المعصية والاصابة بالمرض ، فلا يترك المذنب المرض يتفاقم ويستعصي على العلاج قال تعالى :

---

(١) القوت جـ ٢ ص ٦٩ .

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾ النساء : ١٧ .

اشترط الله في قبول التوبة أمرين : ان يعمل السوء بجهالة ومعناه باندفاع وطغيان وشهوة ، وان تجيء التوبة عقبه في وقت قريب منه . اما اذا تعود الانسان على السوء واطمأن اليه وظل على هذه الحالة حتى اقتراب اجله فإن الله لا يقبل توبته . كما جاء عقب الآية السابقة :

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال : اني تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار اولئك اعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾ النساء : ١٨ .

والقرآن يقرن العمل الصالح مع التوبة لنيل مغفرة الله قال الله تعالى :

﴿ واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ طه : ٨٢ .

ويقول سبحانه : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما ﴾ الفرقان : ٧٠ .

فالتوبة إذن هي من أهم الدعائم الخلقية ، فكل تأخير فيها هو انحلال في الشخصية الانسانية ، وكل اسراع وصدق فيها هو اصلاح للنفس وسبب قوي للقضاء على الشر .

وقد عقد الكاتب الهولاندي (فرانز ستال) مقارنة بين مبادىء الاسلام الخلقية وبين ما تدعو اليه حركة التسلح الخلقي في « المجلة الاسلامية » التي تصدرها بالانجليزية الجمعية الاسلامية في (ووكنج) بانجلتره، ومما قاله : « ان التوبة في الاسلام هي وسيلة تغيير الأفراد انفسهم وهي سلاح خلقي عظيم ، ففيها الندم والتغير والتحول » . واستعرض هذا الكاتب معنى التوبة وأهميتها عند نفر من المسلمين مثل الحسن البصري والمحاسبي والحلاج والغزالي ، وقارن بينها وبين ما يقوله الدكتور (فرانك بكمان) مؤسس (جمعية التسلح الخلقي) مبيناً أسبقية الاسلام في هذا المضمار .

ابتغاء رحمة الله
وأثرها في القضاء على التشاؤم

لا شيء يضر بالشخصية الإنسانية مثل التشاؤم ، فهو من أخطر الأمراض التي تصيب النفس وتعصف بها وتقعدها عن العمل ، وكثيراً ما يجرها الى الهلاك ويجعلها ترتمي في الاخطار لأن الحياة تصبح في نظرها جحيماً لا يطاق .

لنفترض أن هناك رجلاً متشائماً نظر إلى هذا الكون فوجده مليئاً بالتعاسة والشقاء ، وبالضعف والمرض ، وبالخطايا والآثام ، وبالأحزان والآلام ، وليس فيه أمن وسلام ، ولم يكن عنده أمل في المستقبل ولا ثقة به ، واستسلم لهذه الاتجاهات التشاؤمية وترك السعي في الحياة ، وأخيراً اعتزم الخلاص منها فقتل نفسه ، هل يجني من ذلك إلا الخسران ؟.

إن هناك مصائب وكوارث تنصب على النفس فتجعلها تنظر الى الحياة نظرة شؤم ، ولكن النفس المؤمنة بالله المترقبة لرحمته لا يغادرها الأمل من تلك الرحمة الالهية ، وبهذا الايمان والأمل تعالج مشاكلها مستعينة بالحكمة والصبر مترقبة انفراج الازمة التي تتخبط فيها ، ولهذا دعا القرآن الناس جميعاً إلى طلب رحمة الله ، وان تكون مقصدهم في هذه الحياة قال الله تعالى :

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ يونس .

وقال سبحانه : ﴿ ورحمة ربك خيرٌ مِمّا يجمعون ﴾ الزخرف : ٣٢ .

إن ما دعا إليه القرآن من شأنه ان يكون شفاء لقلوب الملايين المحرومين من متع هذه الحياة ، فإن ابتغاء رحمة الله إذا سيطرت على تفكيرهم تجعلهم لا ينظرون نظرة رغبة واشتهاء الى من يفوقونهم ثراء وجاهاً لأن مقصدهم في الحياة يعلو على هذه المظاهر الخلابة الزائلة .

والقرآن ينوه بهذا المقصد فيعلق نيل رحمته الى أصحاب الصفات العظيمة الذين ادوا واجبهم نحو الله ونحو بني جنسهم قال تعالى: ﴿ إنّ رَحْمة الله قريب من المحسنين ﴾ الاعراف : ٥٦ . وقال سبحانه : ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ﴾ آل عمران : ١٥٧ .

وقال في موضع آخر : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الاعراف : ١٥٦ . وقال سبحانه عن بعض أنبيائه : ﴿ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ الانبياء : ٨٦ .

والذين يكون سعيهم على الدوام نيل رحمة الله لا توهن نفوسهم أية خيبة أمل ، أو أية معصية تداهمهم ، فهناك قوة روحية تدخل الى نفوسهم العزاء مما يقاسونه من آلام ومتاعب ، وبعكس ذلك الذين يغفلون عن هذا المقصد أو يقنطون من رحمة الله فإنهم أحرى أن تلتبس عليهم سبل النجاة فيقعوا في مواطن الخطر وما أصدق ما وصف به القرآن هذه الحالة :

﴿ ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون ﴾ الحجر : ٥٦ .

فيا أيتها النفوس المعذبة المتشائمة التي تتلاطم بك أمواج هذه الحياة يممي وجهك نحو ربك، واطلبي رحمته ليوصلك الى شاطىء الأمان، فإن رحمة الله لا يعجزها شيء في الوجود ، وهي قريبة منكم اذا سألتم الله ان يمنحكم اياها، وفعلتم ما تستحقون عليه نيلها .

عبادة الله
وأثرها في تحرير الإنسان من الطغيان

هناك سؤال يتبادر الى الانسان في ساعة صفاء ذهنه وفي حالة التفكر في نفسه : لماذا خلقت ؟ وما هي الغاية من خلقي ؟.

هذا السؤال كان مدار البحث والتفكير عند الفلاسفة ولم يهتدوا الى رأي ثابت في حل اسراره .

وقد كان الفيلسوف الالماني «كانت» يرى ان اعظم مسائل الفلسفة وأجلّها شأناً ثلاث مسائل وهي : اولاً ، ما الذي نستطيع معرفته ؟ وثانياً ، ما الذي يجب ان نعمله ؟ وثالثاً ، ما الذي نرتجيه ونعلق آمالنا عليه ؟

والقرآن يجيب على هذه المسائل ويوضح أن الغاية من خلق الله للانسان هي : عبادة الله ، قال تعالى :

﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ ليعبدون ﴾ الذاريات : ٥٦ .

فعبادة الله هي أقصى غاية الخضوع والتذلل له مع طاعته ، وهذا يقتضي عدم الخضوع لأي كائن على هذه الأرض لأنهم كلهم مربوبون لله ، وهذا ماصرح به القرآن : ﴿ إِنِ الحكمُ إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ اياه ﴾ يوسف : ٤٠. ﴿ ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ الأنعام : ١٠٢ .

وعلى هذا فلا يجوز لكائن ان يعلو في الأرض ويتكبر ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد كما فعل الملوك والكهنة قديماً ، والذين يخضعون لأمثال هؤلاء الطغاة انما يشركون بالله ، ويساهمون في نشر الفساد والشر والطغيان .

فالاسلام حين امر بعبادة الله فانما يرمي من ذلك أن يحرر الانسان من العبودية التي لازمته السنين الطوال من ملوك الأرض وزعمائها الطاغين ورؤساء الدين المتألهين، وان ينزع من ذهنه ذلك الوهم بأنهم من عنصر افضل ، وان بيدهم النفع والضرّ ، ولهذا يقول الله تعالى :

﴿ قل اتعبدون مِن دُون الله ما لا يَملِكُ لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ المائدة : ٧٦ . ويقول سبحانه :

﴿ ان الذين تَعبُدون مِنْ دُونِ الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق ﴾ العنكبوت : ١٧ .

ولهذا ارسل الله الرسل – في كافة العصور – للناس ، ليدعوهم الى عبادته الله وحده وعدم خضوعهم لسواه . قال الله تعالى :

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ النحل : ٣٦ . والطاغوت هو كل معبود دون الله .

وإن الشقاء الذي أصاب الناس مردّه عدم فهمهم هذه الحقيقة لذا نراهم ألهوا بعض أفراد جنسهم الذين علوا في الأرض واستذلوا البشر وساقوهم الى التناحر ، وجعلوا الانسانية شيعاً يحارب بعضها بعضاً ، ولهذا يدعو الله الناس جميعاً – بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم – إلى التوجه الى عبادته وحده:

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين مِنْ قَبلكم لعلكم تتقون . الذي جَعَلَ لكم الارض فِراشاً والسماء بِناءً وأنْزَلَ مِنَ السَماء

ماءً فأخرَجَ به مِنَ الثمرات رِزْقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا[1] وانتم تعلمون ﴾ البقرة : ٢١ ، ٢٢ .

والمعنى : ان الله هو الذي خصكم بهذه الآيات الكونية العظيمة والدلائل النيرة من خلق السماء والأرض الشاهدة بوحدانيته ، فاخضعوا له ولا تتخذوا له شركاء في العبادة .

مستلزمات العبادة : ولكن هل العبادة يقتصر معناها على الخضوع لله؟ كلا ! فقد ذكر القرآن ان لها مستلزمات اخرى وهي : الشكر لله ، التوكل على الله ، الاخلاص لله ، دعاء الله . وقد بين القرآن ان هذه الأمور التي يجب أن يقوم بها الانسان هي من العبادة ، واليك عرضاً وتحليلاً لكلٍّ منها على ضوء ما جاء في القرآن من الدعوة اليها :

الشكر لله
وأثره في سعادة الأمم

عرّف العلماء الشكر لله بأنه : **ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة .**

فالشاكر من يكون لسانه مشتغلاً بالثناء على ربه معترفاً له بنعمه ، ويكون قلبه مملوءاً محبة لله على هذه النعم ، وشهوداً بأنها منه فضل واحسان ، وتكون جوارحه مشتغلة بطاعة الله استسلاماً له وانقياداً .

لهذا كان الشكر من مظاهر العبادة التي دعا اليها القرآن ، قال الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيِّبات ما رزقناكم واشكروا لله إنْ كنتم إيَّاه تعبدون ﴾ البقرة : ١٧٢ .

« وكلمة الشكر من الكلم الجوامع التي تنتظم كل خير وتشمل كل ما يصلح به قلب الإنسان ولسانه وجوارحه . فالذي لا يحب الله ولا يشهد قلبه بأن ما فيه من النعم إنما هو من الله فضلاً واحساناً ليس بشاكر . والذي

(١) انداداً : شركاء .

لا يثني على ربه ولا يحمده بلسانه ويخوض في الباطل ويشتغل لسانه بلغو القول ولهو الحديث ليس بشاكر ، والذي يعطيه الله من العلم شيئاً ولا يعمل به ولا يعلمه الناس ليس بشاكر ، والذي يعطيه من المـــال ما يستعين به على طاعته بصرفه في وجوه الخير والبر ويبخل به او يصرفه في معاصي الله ليس بشاكر »[1] .

لهذا دعا الله الى التخلق بالشكر في كثير من الآيات مثل قوله :

﴿ بل الله فاعبُد وكن من الشاكرين ﴾ الزمر : ٦٦ .

ومدح الله نبيه ابراهيم لقيامه بواجب الشكر : ﴿ ان ابراهيم كان أُمّة[2] قانتاً لله حنيفاً ولم يَكُ مِنَ المشركين . شاكراً لأنعمه ، اجتباه وهداه الى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ النحل : ١٢٠ — ١٢٢ .

كما تفضّل الله بعدم عذاب الشاكرين : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إنْ شكرتم وآمنتم ﴾ النساء : ١٤٧ .

ووعد الله الشاكرين بأن يزيد لهم النعم في الدنيـــا ويحفظها لهم : ﴿ وإذْ تَأذّنَ رَبُّكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد ﴾ ابراهيم .

الشكر على نعم الله : وشكر الخالق واجب على الانسان فإن لم يفعل كان بذلك مقترفاً أشنع انواع الجحود والنكران . الا ترى اننا ننكر على الشخص الذي لا يُسدي الشكر لمن احسن اليه من البشر فما بالك بمن لا يسدي الشكر لخالقه مصدر كل النعم ، ولا يمكن أن نكون مقربين إلى الله من غير شكره ، وهذا ما أمر به الله في آيات متعددة قال تعالى :

﴿ والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون ﴾ النحل : ٧٨ .

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجّرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم أفلا يشكرون ﴾ يس : ٣٣ — ٣٥ .

---

(١) نقلا عن مقال للشيخ محمد مصطفى المراغي في مجلة الأزهر م ١٣ ص ٥٣ .

(٢) امة : اماماً يقتدى به .

﴿ الله الذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ الجاثية : ١٢ .

﴿ قُل أرأيتم إنْ جَعَلَ اللهُ عليكم الليل سرمدا [١] الى يوم القيامة مَن إله غَيْرُ الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سَرْمَداً الى يومِ القيامة من اله غَيْرُ الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومِنْ رَحمته جَعلَ لَكُمُ الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا مِنْ فَضْله ولعلكم تشكرون ﴾ القصص : ٧١ – ٧٣ .

ولكن الناس امام هذه النعم وغيرها قليلاً ما يشكرون ، قال سبحانه : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم لا يشكرون ﴾ يونس : ٦٠ .

ومنفعة الشكر لا تعود على الله فانه لا ينتفع بشكر الشاكرين ، ولا يتضرر بكفر الكافرين ، وانما منفعة الشكر تعود على الشاكر ، فهو يطهر النفوس ، ويقربها من الله ، ويوجه ارادتها الى الوجهة الصالحة في انفاق النعم في وجوهها المشروعة ، ولهذا يقول سبحانه :

﴿ ومَن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ لقمان .

اما كفران النعم فيعرّضها للزوال لأنها تجعل المرء غير مبال بها ، ويبددها بدون منفعة ، ويتلف ما أنعم الله به عليه من نعم الصحة والعافية ، ويسير على غير المنهج الذي رسمه له الخالق فيؤدي به الى غضب الله والبعد عن رحمته .

والقرآن يخبر بأن خراب الأمم كان سببه كفران النعم وعدم الشكر لله ، قال سبحانه : ﴿ وضَرَبَ الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ النحل : ١١٢ .

وذكر القرآن قصة قوم سبأ وما حلّ بهم لكفرهم نِعَم ربهم :

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آيــة جنتان عن يمين وشمال كــلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل

---

(١) سرمداً : دائماً متصلا لا ينقطع .

العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط[١] واثل[٢] وشيء من سدر[٣] قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور ﴾ سبأ : ١٥ — ١٧ .

فالشكر من دعائم سعادة الأمم ، والتنكب عنه لا يجلب غير الدمار والخراب . حبذا لو فهمت الشعوب الشكر وعملت به لتحصل على السعادة التي تنشدها وهي عنه غافلة .

التوكل على الله

وأثره في بث السكينة في النفس

أفلحت المدنية في تيسير العيش والترفيه عن الناس . ولكنها فشلت في بث السكينة في النفس ، فلا يزال القلق والخوف بشتى صوره : الخوف على مستقبلها الإقتصادي والاجتماعي ، والخوف من الفشل ، والخوف على الصحة ، وغير ذلك ، تفعل فعلها السيء في النفس الانسانية .

وقد أظهر علم الطب النفساني الجديد أن سلسلة طويلة من الامراض من البرد العادي الى النقرس يمكن في كثير من الأحوال ردها الى متاعب نفسية لابدنية ، وليس سوء الصحة الذي يعتري كثيراً من الناس إلاّ ستاراً لمخاوف عميقة القرار .

وإن في الاسلام عاملاً نفسانياً للقضاء على الخوف ، وهو ما أمر به من التوكل على الله وتفويض الأمر اليه وعبادته . قال الله تعالى :

﴿ واليه يُرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ﴾ هود : ١٢٣ .

والتوكل أثر من آثار الايمان ، فالذي يؤمن بأن الله بيده تصاريف الحياة ، وبيده النفع والضر ، يترك الأمر اليه ويرضى بمشيئته ، فلا يفزعه المستقبل وما يخبئه له من مفاجئات ، ويستعيض عن الخوف بسكينة واطمئنان إلى عدل الله ورحمته ، ولهذا يقرّ الاسلام بأن الايمان يجب ان يصاحبه التوكل :

---

(١) اكل خمط : مأكول مر بشع .

(٢) أثل : شجر يشبه الطرفاء لا ثمر له .

(٣) سدر : شجر النبق ، وهو لا ينتفع بثمره .

﴿ وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين ﴾ المائدة : ٢٣ .

﴿ الله لا إله لا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ التغابن : ١٣ .

والاسلام يحمل البشرى للمتوكلين ويعدهم الفضل من الله ونيل بركاته ، انظر الى هذه الآية الكريمة التي تمسح مـــا في نفوس المؤمنين من الخوف ، وتمدّهم بقوّة روحية يستطيعون بها التغلب على خوفهم وقلقهم :

﴿ فما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ الشورى : ٣٦ .

ويَعدُ الله بالمعونة والتأييد من يتوكل عليه : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه[1] ﴾ الطلاق : ٣ .

وهناك فئات من الناس في حاجة الى التوكل أكثر من حاجة غيرهم اليه ، وهم المصلحون الذين يجتازون دائماً الطريق المملوء بالأشواك ، ويكونون عرضة للأذى والتعب المضني ، هؤلاء يعلمهم الله أن يفوضوا أمرهم اليه حتى لا يثبط الفشل هممهم ويأمرهم ان يقتدوا بنبيّه شعيب الذي قال :

﴿ إن اريدُ الاّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أُنيب ﴾ هود : ٨٨ .

ولكن هناك شبهة يمكن ان تتبادر الى الاذهان وهي أن التوكل يضعف الهمّة للعمل ويؤدي الى الكسل ، هذه الشبهة دحضها القرآن في هذه الآية :

﴿ وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله، ان الله يحب المتوكلين ﴾ آل عمران : ١٥٩ .

هذه الآية تدلّ على أن التوكل على الله يجب أن تسبقه المشاورة مع أهـــل الرأي في الطريق الذي يجب سلوكه ، ثم العزم الصادق في السير على الطريق الذي استقرت المشاورة عليه ، وبعد ذلك يأتي التوكل على الله لنيل النجاح .

فالتوكل على الله في الاسلام هو زاد روحي للتغلب على الخوف والقلق ، وهو الذي يعطي المؤمن بسمة امام احلك الساعات التي تمر به ويهبه سكينة النفس التي حرم منها كثير من سكان هذه الأرض .

---

(١) حسبه : أي كافيه مما اهمه واحزنه .

الإخلاص لله

يسمو بأعمال الانسان

الاخلاص لله هو أن يأتي الانسان بأعمال نقية ، لا يشوبها رياء ، قياماً بالواجب ، سواء في العبادات او في سائر الأعمال ، قاصداً بذلك وجه الله ورضاه .

فالإخلاص من الصفات الروحية التي تسمو بالمرء الى منزلة رفيعة من الخلق الانساني . فأهواء النفس والرياء والغايات الشخصية ، يحاربها الاسلام ليحل محلها الإخلاص لله .

ولهذا اولاه الاسلام اهتماماً خاصاً وقرنه بالعبادة . قال الله تعالى :

﴿ وما أُمِروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ البينة : ٥ .

وقال سبحانه : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ الزمر : ٢ .

ويقول الرسول ﷺ : (أول مَن يُسأل يوم القيامة ثلاثة : رجل آتاه الله العلم فيقول الله له : ما صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يا رب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت ان يقال فلان عالم ، ألا فقد قيل ذلك . ورجل آتاه الله مالاً فيقول الله له : لقد أنعمت عليك فماذا صنعت ؟ فيقول : يا رب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت ان يقال فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك ، والثالث رجل جاهد في سبيل الله فقتل ، فيقول الله له : لقد جاهدت ليقال فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك ، ثم قال الرسول لأبي هريرة : يا أبا هريرة أولئك أول خلق تسعر بهم جهنم يوم القيامة)[1] .

ولما كانت الاعمال الخالصة لله وحده لا بد لها من سابق نية وعزم نجد الاسلام يهتم بالنية هذه ويجعلها محوراً تدور عليه اعمال المؤمن . قال الرسول ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدُنيا يُصيبها أو

---

(١) رواه اهل السنن .

امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه)[1] .

فالنية الطيبة هي عنصر من عناصر التربية الخلقية التي تجعل الانسان عضواً ممتازاً في المجموعة الانسانية ، وقد جعلها الاسلام الأصل في قبول الاعمال عند الله خالصة له، وله بذلك السبق بأن اعلنها قبل ان يعلنها (عمانويل كانت) « فيلسوف الأخلاق الالماني » إذ قال : « ان حسن النية هو الكل في الكل في الاخلاق » .

فالخير في الاسلام ليس خيراً الا اذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله ، والعمل الطيب ليس طيباً الا اذا استنار بأوامره ، ولا شك ان هذا مذهب جليل في تقدير الرجال والأعمال يصحح الأوضاع ويسمو بالمجتمع الى مستوى رفيع من الكمال إذ يجعل الأقوال والاعمال منوطة بغاية واحدة ومثل أعلى هو الله ، فلا يحب المؤمن ولا يبغض ولا يفعل ولا يترك الا لله ، والله لا يأمر الا بما كان خيراً للشخص وللمجموعة الانسانية .

الدُّعاء ومزاياه الرُّوحيَّة

الدعاء من مستلزمات العبادة اذ هو الصلة التي تربط بين الانسان وخالقه .

والدعاء فطري في الانسان فهو يشعر بحنين الى الله يفزع اليه عند الشدائد، ويتضرع اليه في كشف السوء عنه ، فهو ضعيف أمام أحداث الحياة لا يجد سنداً لضعفه غير الدعاء ، لذلك امر الله المؤمنين بالدعاء بقوله :

﴿ وقال رَبُّكُمُ ادعوني استجب لكم إنّ الذين يستكبرون عَنْ عبادتي سيدخلون جهنم دَاخرين ﴾ غافر : ٦٠ . ففي هذه الآية وصف الله الدعاء بأنه عبادة يستحق من يستكبر عنها غضب الله .

الدعاء علاج نفسي : والدعاء علاج نفسي لكثير من أمراض النفس ، فالانسان بطبيعته محتاج في حل مشكلاته لأن يفضي بدخيلة نفسه الى صديق حميم يخفف عنه بعض ما يشعر به من الهم والحزن ، وقد أجمع الاطبـــاء

(١) رواه البخاري ومسلم .

النفسيون على ان علاج التوتر العصبي والآلام النفسية إنما يتوقف إلى حد كبير على الافضاء بسبب التوتر ومنشأ القلق الى صديق مخلص ، لأن كتمانه مما يزيد في المرض .

فإذا أفضى الإنسان المحزون إلى ربه ما يعانيه، وطلب منه ما يبتغيه فإنه يشعر بطمأنينة ونفحة روحية تنشله مما هو فيه من الهم والضيق ، وذلك لأن الايمان يقتضي الاعتقاد التام بأن الله قريب منه مجيب دعوته كما أخبر بذلك القرآن : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قَريبٌ[1] أُجيبُ دَعْوةَ الداعِ اذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يَرْشُدُون ﴾ البقرة : ١٨٦ .

الدعاء في السراء والضراء : والدعاء الذي يطلبه الاسلام هو ان يكون في السراء كما يكون في الضراء، لأن ذلك أدعى للإنسان أن يكون على الدوام متذكراً ربه ، مستجيباً لأوامره ، محققاً معنى العبودية له ، فإن الإنسان بطبيعته يلجأ الى ربه عند الشدة ولكن ما ان يكشف الله عنه ما به من ضر حتى ينسى الله ويغتر بقوته فيؤدي به الى الاعراض عن أوامر الله والافساد في الأرض . وقد وصف الله هذه الحالات التي تنتاب كثيراً من الناس ليحذر المؤمنين من الوقوع في الجحود والنكران له . قال سبحانه : ﴿ وإذا انعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ فصلت : ٥١ .

وقال ايضاً: ﴿ واذا مَسَّ الانسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه[2] أو قاعداً أو قائماً فلَمّا كشفنا عنه ضُرَّهُ مرّ كأن لم يَدْعُنا الى ضُرّ مسّه، كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ يونس : ١٢ .

وقال سبحانه ممتناً على بعض خلقه الذين يتعرضون لخطر الغرق ثم ينجيهم من فضله : ﴿ هو الذي يُسيّركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهم بِريحٍ طيّبة وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصِفٌ وجاءَهُمُ الموجُ مِنْ كل مكان وظنوا أنهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكوننّ مِنَ الشاكرين . فلما أنجاهم اذا هم يَبْغُون في الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس انما بَغْيُكُم على أنفسكم ﴾ يونس : ٢٢ ــ ٢٣ .

---

(١) قيل في سبب نزول هذه الآية : ان اعرابياً جاء الى الرسول يقول : أقريب ربنا فنناجيه ام بعيد فنناديه، فسكت عنه الرسول فأنزل الله عليه هذه الآية .

(٢) دعانا لجنبه : استغاث بنا مضطجعاً لجنبه .

لهذا يجمل بالانسان أن لا يعصي الله بعد ان انقذه من الهلاك ، بل ينبغي أن يجعل من ذلك الخطر الذي وقع فيه حافزاً دائماً لعبادة الله وطاعته .

الدعاء للسمو الروحي : وقد شرع الاسلام الدعاء أيضاً للسمو الروحي والترفع عن شهوات الجسد الضارة والعروج به في معارج الكمالات ، بجانب ما يطلبه الداعي من فضل الله وتيسير اموره وكشف الضر عنه ، ولهذا يعلم الله المؤمنين كيف يدعونه بما ذكره على لسان أنبيائه والصالحين :

﴿ رب اجعلني مُقيمَ الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبّل دُعاء ﴾ ابراهيم : ٤٠

﴿ رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي ﴾ الأحقاف : ١٥ .

﴿ ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لَدُنك رَحْمَةً إنّك أنْتَ الوهّاب ﴾ آل عمران : ٨ .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصْراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ البقرة : ٢٨٦ .

﴿ ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونَنّ من الخاسرين ﴾ الاعراف : ٢٣ .

﴿ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴾ المؤمنون : ٩٤ .

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ يونس : ٨٥ .

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشداً ﴾ الكهف : ١٠ .

﴿ رب اشرح لي صدري . ويسّر لي امري ﴾ طه : ٢٥ ، ٢٦ .

﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ البقرة : ٢٠١ .

هذه بعض الأدعية قصّها الله علينا لندعو بها وبمثلها في فترات الزمن القاسية طلباً للترقي الروحي .

فضل الدعاء : تضافرت الأدلة على فضل الدعاء ، وتأييداً لذلك ننقل ما جاء في مجلة المختار من ريدرز دايجست تحت عنوان : (ألا تؤمن بالصلاة والدعاء) . « .. وكان أحد العلماء النفسانيين يتكلم في « معجزات » الحرب

التي كثرت الكتابة عنها ، فصور الأمر على النحو الآتي، قال : « يمكن ان نشبه رحمة الله بمولد كهربائي وفي وسعنا أن نستمد قوة من هذا المولد إذا وصلنا انفسنا به بدعاء الله ، أو نستطيع أن نثبت أنه لا أثر له في حياتنا بأن نرفض ان نصل انفسنا به بالدعاء فنحن وما نختار » .

« ... واليوم تتدفق الأدلة ، التي لا تنقض من كل ناحية ، على فضل الدعاء فقد حدث أنه لما اضطر الماجور (الن لندبرج) وهو يقود احدى القلاع الطائرة الى النزول في البحر في طريقه الى استراليا ، أن ساد الإعتقاد بأنه هو والتسعة الذين معه قد فقدوا .

وفي هذا يقول (الماجور لندبرج) : « تمكنا من الخروج على طوقين من المطاط وكدنا لا نفعل ، ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء ، وكان رجال الطائرة كلهم قلقين الاالشاويش (البرت هرناندز) المدفعي الخلفي ، وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهال ، وسرعان ما راعنا بقوله : أنه يعرف ان الله قد استمع اليه وأنه سيساعدنا » .

وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة ، وقد تشققت شفاههم وورمت ألسنتهم فعجزوا عن مجاراة هرناندز في التهليل والتسبيح، ولكنهم كانوا يدعون الله مع ذلك وبعد ثلاثة ايام ، وقبل دخول الليل لمحوا معالم جزيرة صغيرة ، وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجري لهم في خلد ، فأقبلت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الاجساد ، واتضح ان منقذيهم من أهل استراليا الأصليين وهم صيادون سود الأجسام منفوشو الرؤوس ، وقد جاءوا من داخل البلاد على مسافات مئات الأميال ، وقالوا للندبرج انهم كانوا يهمّـون في اليوم السابق بالرجوع بصيدهم الى محلتهم ، ولكنهم أحسوا بدافع غريـب الى تغيير اتجاههم فجاءوا بزوارقهم الى هذا الشاطىء المرجاني المهجور الذي لا قيمة له، وهناك لمحوا لندبرج وزملاءه ...[1] .

هذه هي فائدة الدعاء الذي فيه الفرج للنفوس التي اشرفت على الهلاك والذي يمحو الخوف ويهب الطمأنينة للنفس ، وما أصدق ما قاله (كاريل) : « ان الصلاة والدعاء وهما أعمق موارد قوتنا وكمالنا ، قد اهمل صلاحهما اهمالاً شائناً » .

---

(١) نقلا عن مجلة المختار اكتوبر ١٩٤٤ .

الفصل الثالث عشر

الأخلاق في الإسلام

الفضائل : وتشمل : الاستقامة وإصلاح النفس وتزكيتها — الاحسان — التقوى — الصبر — العفو — الصدق ومظاهره — الإصلاح بين الناس — التعاون — الإيثار — الكلام الحسن — معاشرة الأخيار — الاستئذان والتحية .

الرذائل : وتشمل : الانقياد لهوى النفس — الكبرياء — الخمر والقمار — الزنا — الكذب ومظاهره — احتقار الغير — الظن السيء — التجسس — الغيبة — الغضب — الحسد — اللغو — الشراهة .

الغاية من الاخلاق

يبحث علم الاخلاق[1] عن معنى الخير والشر ، ويبين ما ينبغي ان تكون عليه معاملة الناس مع بعضهم بعضاً ، ويشرح الغاية التي ينبغي ان يقصدوا اليها في أعمالهم وينير السبيل لعمل ما ينبغي .

ولا شك ان الأخلاق هي الدعامة الأولى حفظ كيان الأمم ، ولهذا نرى الباحثين والفلاسفة قد اتفقت كلمتهم على ضرورتها للفرد لصالح نفسه ، وللمجتمع في جملته ، فكما ان الفرد يضيره ويفسد من أعماله ان يكون كاذباً مرائياً حسوداً شريراً ماكراً ، كذلك تفسد المجتمعات بشيوع هذه الصفات في آحادها .

لهذا أول ما توجهت اليه عناية الفلاسفة والمشرعين — العاملين على انهاض

(١) من مراجع هذا البحث كتاب « الأخلاق » للدكتور أحمد أمين وكتاب « الحياة الروحية » لعبد الله اباحي .

الجماعات البشرية ـ الدعوة الى الاخلاق الفاضلة لأنها الدعامة الأولى في بناء كل مجتمع سليم ولم يبالغ (شاتوبريان) حين قال : « الأخلاق أساس كل مجتمـــع » .

من أجل ذلك كانت رسالة الانبياء الحث على الاخلاق الفاضلة ، وجاء القرآن مشدداً على الاستمساك بها ، لأنها هي التي تحقق الفوز بالنعيم الاخروي.

تهجم على الإسلام : والغريب ان بعض أعداء الاسلام ارادوا أن يطعنوه في الصميم فشوهوا الحقائق تشويهاً مريعاً كما جاء في كتاب « البحث عن الدين الحقيقي » وهو محاضرات في التعليم الديني تأليف المنسنيور (كولي) إذ نعت الاسلام بأقبح الصفات وزعم انه خال من الأخلاق .

ان بطلان ذلك الطعن وسخافته لتظهر واضحة جلية بعد الاطلاع على الاخلاق في القرآن، ان كل آية من آياته في الدعوة الى الاخلاق ردّ قاطع على هذا الافتراء .

ولكن قبل ان نستعرض مبادىء القرآن الاخلاقية نقدم لأمثال هؤلاء المتهجمين على الاسلام ما قاله الدكتور (جوستاف لوبون) : « ان اصول الاخلاق في القرآن عالية علو ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها »[1] .

ان شهادة الدكتور (جوستاف لوبون) في أخلاق القرآن لها قيمتها العلمية إذ لم يمله عليه حب لمبدأ أو كره لآخر بل شهادة للحق وأداء للرسالة العلمية التي يخدمها ، ان قوله صدر بعد ان اطلع على القرآن الاطلاع الوافي وخبر ما فيه من الأخلاق . ولا يخفى ان الدكتور جوستاف لوبون درس الأديان وانه حجة في علم الاجتماع فشهادته لها قيمتها في هذا المجال .

وها نحن نقدم للقراء مبادىء القرآن الاخلاقية ، نبدأ فيها بعرض الفضائل التي حث عليها القرآن ، ثم نستعرض الرذائل التي نهى عنها ، وليست غايتنا الا خدمة الحقيقة خدمة مجردة عن العاطفة ، وارشاد اخواننا في الانسانية الى التعاليم الصالحة التي تسعدهم في حياتهم .

وان الفضائل التي امر بها القرآن هي الفضائل الانسانية الحقة التي اجمع

---

(١) (حضارة العرب) نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ٤٥٤ .

الفلاسفة ودعاة الاصلاح في العالم على المناداة بها ، والتي لو عمل بها الناس لحصلوا على اعظم الخير لعالمهم المضطرب .

والرذائل التي نهى عنها القرآن هي سبب الخصام والعداوة بين الناس ، وهي التي لا يشك في ضررها أي مخلص يبتغي الخير للانسانية .

الاستقامة واصلاح النفس وتزكيتها

يتنازع الانسان في هذه الحياة عاملا الخير والشر ، وكثيراً ما ينساق الى أحدهما بدافع داخلي أو مؤثر خارجي .

والدين من أهم أهدافه وقاية الانسان من نزعات الشر ببيان ضرره والتحذير منه ودعوة الذين تورطوا فيه الى الاستقامة تبعاً لما رسمه الله لعباده ، فالاستقامة هي أقوى سبب للرقي الأدبي وما سيطرت هذه الرغبة في قوم إلاّ صلح حالهم واستقر السلام فيما بينهم .

والانسان اذا لم تصاحبه الرغبة في الاستقامة ضعف اقباله على الخير ، واصبح هدفاً سهلاً للتورط في الآثام ، لهذا نرى الاسلام اولى الاستقامة اهتماماً خاصاً ، ودعا اليها بأسلوب شائق يستهوي الأنفس ويؤثر في اعمق اعماقها بما وعد المستقيمين من الاجر العظيم وحسن المثوبة في الدنيا والآخرة . قال سبحانه :

﴿ إنّ الذين قالوا رَبُّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم تُوعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون نُزُلاً من غفور رحيم ﴾ فصلت : ٣٠ ـ ٣١

ويطمئنهم الله بقوله : ﴿ إنّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الاحقاف : ١٣ . أي لا خوف عليهم من عذاب يوم القيامة ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم .

وجاء رجل الى الرسول ﷺ فقال : أوصني يا رسول الله فأجابه الرسول بهذه الكلمة الموجزة الوافية : (قل آمنت بالله ثم استقم)[1] .

---

(١) رواه البخاري .

إصلاح النفس : ومما يتوافق مع معنى الاستقامة اصلاح النفس ، لأن التمادي في الشرّ يجر الى اوخم العواقب على النفس الانسانية وعلى المجتمع ولهذا وعد الله الذين يصلحون انفسهم ، بالغفران والرضى ، قال سبحانه :

﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنّ الله يتوب عليه ، إنّ الله غفور رحيم ﴾ المائدة : ٣٩

ويخاطب الله الناس جميعاً داعياً لهم لاصلاح انفسهم :

﴿ يا بني آدم إمّا يأتينكم رُسُلٌ منكم يقصّون عليكم آيــاتي ، فن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الأعراف : ٣٥ .

تزكية النفس : ومما ينسجم مع الاستقامة ما عبّر عنه القرآن أيضاً بتزكية النفس ، ومعناها : الطهر من الادناس ، والسموّ عن النقائص ، ووضع النفس حيث يطيب موضعها ، ويرتفع قدرها ، لتأخذ عند الله حظها من الرضوان ، وبين الناس نصيبها من الكرامة . ولقد حث القرآن على تزكية النفس هذه ووعد بالفلاح من أخذ بها ، فقال سبحانه : ﴿ قد افلح من تزكى ﴾ الأعلى ١٤

وقال سبحانه في النفس الانسانية :

﴿ قد افلح من زكاها وقد خاب من دسّاها ﴾[1] الشمس : ٩ ، ١٠ .

وبيّن سبحانه ان تزكية النفس لا يعود نفعها إلاّ على صاحبها، فلهذا يجب الحرص عليها : ﴿ ومن تزكّى فإنما يتزكى لنفسه والى الله المصير ﴾ فاطر : ١٨

إن الاستقامة واصلاح النفس وتزكيتها صفات تفتح باب الأمل للذين تورّطوا في الإثم لتغيير حياتهم الى حياة افضل ، وتبعد عنهم اليأس من اصلاح انفسهم ، لأن اليأس إذا تمكن من نفوسهم جعلهم عنصر شر لا يمكن اصلاحه .

ان هذه التعاليم تلخص كل مكتشفات علم النفس الحديثة التي تقول : إنه لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجحة او الخلق القويم عن طريق التأمل الباطني الصرف بل عن طريق تدريب النفس ، اي تهذيبها وحكمها والسيطرة عليهــا .

---

(١) دساها : اي دنسها وهبط بها الى الحيوانية .

الأحسان

عُرف الإحسان بمعنى الإنعام والتفضّل ، إلا ان معناه يتسع لأكثر من ذلك ، فإذا رجعنا الى معاجم اللغة رأينا معنى أحسن : فَعَلَ الحسن ، ضد ضد أساء ؛ والحسنة : هي الفعل الحسن .

والأفعال الحسنة تشمل كل خير ، وكل معاملة ترقي وترفع من شأن الانسانية وتهذب نفسية المرء وتقربه من خالقه ، وعلى هذا المعنى جاءت وصايا القرآن في الدعوة إلى الاحسان والترغيب في إتيانه .

وان تعاليم القرآن في الاحسان تشهد بأنه كتاب روحي يرتقي الى أعظم مراقي السمو ، ويعلو على أي مذهب أخلاقي أو ديني ، فقد عالج الاحسان بما يؤثر في الشخصية الانسانية من ناحية دوافع العمل ، وشرح صفات المحسنين ، وعيّن فئات من الناس هم أحق بالاحسان من غيرهم، ودعا الى الاحسان الذي يحقق للانسانية المثل العليا التي لا زال يدعو اليها الفلاسفة ودعاة الاصلاح في العالم .

منزلة الإحسان في الإسلام : بيّن القرآن أن الاحسان يجب أن يكون الواجب الطبيعي للانسان ، وأن الله كما أحسن اليه بنعمه عليه ان يحسن بهذه النعم الى الخلق ، قال الله تعالى :

﴿ وأحْسِنْ كما أحْسَنَ الله اليك ﴾ . القصص : ٧٧

وبيّن القرآن ان الاحسان تعود منفعته الى المحسن . قال الله تعالى :

﴿ إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ الإسراء : ٧ .

وهذا حق ، فإن المحسنين يشعرون بطمأنينة لا يشعر بها غيرهم ، ويكفي ما يقابلون به من الذين يحسنون اليهم من الود والمحبة والتقدير مما يدخل السعادة الى نفوسهم ، بينما الإساءة تجعل صاحبها منبوذاً محتقراً لا يهنأ له عيش ولا يقرّ له قرار ، لهذا أمر الله بالاحسان وألح عليه بقوله : ﴿ انّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ النحل : ٩٠

كما ان القرآن رفع منزلة الاحسان وقرنه بالاخلاص لله ووصفهما بأنهما أرفع ما يتحلى به الانسان المتديّن . قال الله تعالى :

﴿ ومن أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ النساء : ١٢٥ .

والمعنى : ليس أحد أحسن ديناً ممن أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له لا تعرف لها رباً ولا معبوداً سواه (وهو محسن) أي عامل للحسنات تارك للسيئات .

ويبيّن الله ما يترتب على الاحسان : ﴿ ومن يُسلِم وجهه الى الله وهو مُحسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ لقمان : ٢٢ . أي فقد تعلق بأوثق الأسباب التي توصل الى رضوان الله .

ورغّب الله في الاتيان بالحسنات بقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ الانعام : ١٦٠ .

ووعد الله المحسن بحسن المثوبة والأمان يوم القيامة : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزعٍ يومئذ آمنون ﴾ النمل : ٨٩ .

من صفات المحسنين : فمن صفات المحسنين في القرآن قيامهم اكثر الليل للصلاة ، وأنهم في أواخر الليل يطلبون المغفرة من ربهم ، ومن صفاتهم انهم يجعلون في مالهم نصيباً للسائل والمحروم يسد به حاجته . قال الله تعالى :

﴿ إنّ المتقين في جنّات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالاسحار[1] هُمْ يستغفرون . وفي أموالهم حَقٌ للسائل والمحروم ﴾ الذاريات : ١٥ ــ ١٩ .

والجهاد في سبيل الله ، بالنفس او بالمال ، هو من الاحسان . قال الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ﴾ العنكبوت : ٦٩ .

واتباع ما جاء به الرسول محمد ﷺ هو من الاحسان قال تعالى : ﴿ والذي جاء بالصِّدقِ وصدّق به اولئك هم المتقون . لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾ الزمر : ٣٣ ، ٣٤ . ومعنى : (والذي جاء بالصدق) هو محمد ﷺ (وصدّق به) هم اتباعه الذين صدّقوا برسالته وساروا على هديه .

---

(١) السحر : قبيل الصبح .

والعفو من الاحسان . قال الله تعالى : ﴿ فاعف عنهم واصفح إنّ الله يحب المحسنين ﴾ المائدة : ١٣ .

والصبر هو ايضاً من الاحسان ، قال الله تعالى : ﴿ واصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ هود : ١١٥ .

انظر كيف رغب القرآن بالاحسان في تذييل الآيات التي ذكرناها ووعد المحسنين بأرفع ما تصبو اليه النفس ، وذلك لأن المحسنين ذوو احساس مرهف وضمير حي فربما يصيبهم الجحود من قومهم أو يجور عليهم الزمان ، هنا تسرع وصايا القرآن لمواساتهم وتخفيف ما بهم وتبشرهم برضوان الله ، فتمد المحسنين بقوة روحية تثبت اقدامهم وتطمئن قلوبهم .

كما ان الاحسان يحتاج الى تضحية ومجاهدة للنفس من المحسن وعدم الانقياد للنفس الأمارة بالسوء ، لهذا رغب الله في الاحسان ببيان فضله وثوابه للتأثير على النفس الانسانية لاستساغة الاحسان وجعله من طبيعتها .

أحق الناس بالإحسان : جعل القرآن فئات من الناس أحق بالاحسان اليهم من غيرهم، وأولهم : الوالدان لما لهما من الفضل العظيم ، ولم يكتف القرآن بالدعوة الى الاحسان اليهما بل حدّد كيفية معاملتهما بما يكشف لنا اروع مثل في السمو الخلقي ، قال الله تعالى: ﴿ وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ اياه وبالوالدين إحسانا إمّا يَبْلُغَنّ عندك الكِبَرَ أحدهما او كلاهما فلا تَقُلْ لهما افٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . واخفض لهما جناح الذُلِّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربّياني صغيراً ﴾ الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

أول ما يطالعنا من هذا النص القرآني ان الله قرن الاحسان للوالدين بعبادته ، ثم فصّل ما يجب من الاحسان اليهما وخصوصاً عندما يصل الوالدان الى حال الضعف او العجز في آخر العمر ، وأمر بأن يتبع معهما أموراً خمسة هي غاية ما يصدر عن الانسان من المعاملة الحسنة :

أولاً : ألاّ يتأفف من شيء يراه منهما .

ثانياً : الا ينغص عليهما بكلام يزجرهما به .

ثالثاً : ان يقول لهما قولاً حسناً طيباً مقروناً بالاحترام .

رابعاً : ان يتواضع لهما تواضعاً مقروناً بالرحمة ، وقد مثّل كيفية هذا التواضع بحال الطائر اذا أراد ضم فرخه اليه فانه يخفض له جناحه بحنو .

خامساً : ان يدعو الله أن يرحمهما ، عرفاناً بالجميل .

ويخص القرآن بعض الناس ايضاً بالاحسان لما بينهم وبين المحسن من رابطة القربى والجوار ، أو لفئات من الناس فقدوا المعين والنصير فكان الواجب المبادرة إلى الإحسان لهم ، قال تعالى :

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصّاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيْمانكم ﴾ النساء : ٣٦ .

جمعت هذه الآية من أنواع الاحسان ما لو عمل به الناس لساد الخير فيهم ، من ذلك : عبادة الله وحده ، والاحسان الى (الوالدين) و (ذي القربى) من أخ وعم وخال وأولاد هؤلاء وسائر الأقربين وبذلك تصلح الأمة لأنها تتكون من مجموعة أسر . ثم أمر الله بالإحسان الى (اليتامى) لأنهم فقدوا المعين وهو الأب وقلما تستطيع الأم لوحدها ان تقوم بتربيتهم واعالتهم . واذا أهمل اليتيم اصبح وجوده ضاراً على الأمة لجهله وفساد أخلاقه . وكذلك أمر الله بالاحسان الى (الجار ذي القربى) أي القريب الجوار ، وكذلك (الجار الجنب) أي البعيد الجوار ، وبذلك تتوثق المحبة بين أهل الحي الواحد فيتعاونون على الخير . ثم أوصى الله بالاحسان الى (الصاحب بالجنب) وهو الرفيق في سفر أو مدرسة او صناعة أو عمل ، والإحسان اليه يؤدي الى صداقة متينة تنتج أبرك الثمرات . ثم أوصى الله بالاحسان الى ابن السبيل وهو المسافر الذي فقد ماله في الطريق قبل ان يبلغ بلده وكذلك (وما ملكت أيمانكم) اي الى ما في ملك الانسان من الرقيق ويشمل هذا : تحريرهم وعتقهم وحسن معاملتهم .

اي خير عميم يغمر الناس اذا سيطرت عليهم صفة الاحسان انهم أحرى بأن يحققوا المدينة الفاضلة التي تخيلها الفلاسفة والتي طبقها الاسلام في أول عهده .

التقوى

التقوى[1] هي فضيلة أراد بها القرآن إحكام ما بين الانسان والخلق، وإحكام ما بين الانسان وخالقه ، ولذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها في أكثر آيات القرآن الأخلاقية والاجتماعية ، والمراد بها ان يتقي الانسان ما يغضب ربه وما فيه ضرر لنفسه أو إضرار لغيره .

فالتقوى في أصل معناها جعل النفس في وقاية ، ولا تجعل النفس في وقاية الا بالنسبة لما يخاف ، فخوف الله أصلها ، والخوف يستدعي العلم بالمخوف ، ومن هنا كان الذي يعلم الله هو الذي يخشاه وكان الذي يخشاه هو الذي يتقيه .

فالمتقون هو الذين يقون انفسهم عذاب الله وسخطه في الدنيا والآخرة وذلك بالوقوف عند حدوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وهو لا يأمر إلاّ بما فيه خير للانسانية ولا ينهى إلاّ عما يضرها .

عني القرآن بالتقوى عناية كبرى ، وأكثر من الأمر وتوجيه النفوس اليها، وكانت له في ذلك أساليب مختلفة .

أمر بتقوى الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمون ﴾ آل عمران : ١٠٢ . وذلك يكون بالتوجه الى الله وحده في العبادة واجتناب ما يأباه من الشرك والخروج عن شرائعه وأحكامه العادلة .

ووصف القرآن التقوى بأنها صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذي ، والابتعاد عن كل ما يحول بين الانسان والغايات النبيلة التي بها كماله في جسمه وروحه ، ولهذا وصف الله المتقين بأنهم الذين تحلوا بالفضائل الانسانية الحقة :

﴿ لَيْسَ البِرَّ أن تُولّوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ، ولكن البِرَّ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب[2] والنبيين وآتى المال على حُبِّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب[3]

---

(١) من مراجع هذا الفصل بحث كتبه الشيخ محمود شلتوت في مجلة الأزهر .

(٢) الكتاب : الكتب المنزلة على الرسل .

(٣) الرقاب : عتق الأرقاء .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء[1] والضراء[2] وحين البأس[3] ، أولئك الذين صدَقوا وأولئك هم المتقون ﴾ البقرة : ١٧٧ . فالمتصفون بهذه الصفات السامية هم الذين وصفهم الله بصفة التقوى .

ولا تقتصر التقوى في القرآن على هذه الصفات ، بل يضاف اليها الصفات التاليـــة :

فالعدل من التقوى ، قال الله تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ المائدة : ٨ .

والعفو من التقوى أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ وان تعفوا أقرب للتقوى ﴾ البقرة : ٢٣٧ .

والاستقامة مع الاعداء هي من التقوى : ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين ﴾ التوبة : ٧ .

ثمرات التقوى : وذكر القرآن أن التقوى تجعل الانسان في أمن من الخوف والحزن يوم القيامة ، والنصر والتوفيق في هذه الحياة :

﴿ ألاَ إنّ أولياء الله[4] لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البُشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ يونس : ٦٣ ، ٦٤ .

ومن ثمراتها الثواب العظيم والنعيم في الآخرة : ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ آل عمران : ١٥ .

ومن ثمراتها أيضاً ، نيل رحمة الله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الأعراف : ١٥٦

ويذكرها القرآن في معرض تفريج الازمات وحل المشكلات : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ الطلاق : ٢ ، ٣ .

﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمْرِه يُسراً ﴾ الطلاق : ٤ .

وفي معرض النصر والتأييد : ﴿ ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ،

---

(١) البأساء : الفقر والشدة .
(٢) الضراء : المرض .
(٣) البأس : الحرب الشديدة .
(٤) أولياء الله : المؤمنون المتقون الناصرون لدين الله .

والعاقبة للمتقين ﴾[1] الاعراف : ١٢٨ .

وفي معرض تنوير البصيرة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فُرقاناً ﴾ الانفال : ٢٩ .

فالفرقان ما يفرق به بين شيئين ملتبسين أو أشياء مشتبهة ، فثمرة التقوى هي نور البصيرة الذي يفرق بين الحق والباطل، واختيار طريق النجاة .

هذه هي التقوى وهذه صفات المتقين وثمراتها في الأفراد والجماعات ، ولهذا ليس بمستغرب ان يوليها القرآن عناية فائقة ويدعو اليها كما جاء في هذه الآية البليغة التي تدل على عمق الروحية الاسلامية :

﴿ وتزوّدوا فان خير الزاد التقوى ﴾ البقرة : ١٩٧ .

ولو ان العالم عرف التقوى وقام بواجبها لانطفأت ثورة الشر وساد السلام في ربوعه .

الصّبر

الصبر من الفضائل الخلقية ، وهو النفحة الروحية التي يعتصم بها المؤمن فتخفف من بأسائه وتدخل الى قلبه السكينة والاطمئنان، وتكون بلسماً لجراحاته التي يتألم منها . « فالصابر يتلقى المكاره بالقبول ويراها من عند الله ، وعند التأمل نرى العناية الإلهية تسوق الينا الشدائد لحكمة عالية ، والجاهل هو الذي يضجر ويحزن ويكتئب ، اما العاقل فيتلمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد »[2] .

ولولا الصبر لانهارت نفس الانسان من البلايا التي تنزل عليه ، ولأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة ، وأصبح في حالة يكفر فيها بالقيم الأخلاقية فضلاً عن انه يصبح عنصر شر لا نفع منه .

ونستطيع ان نصف الصبر بحقّ انه الفاصل بين الحياة الروحية والمادية ، ولهذا عني القرآن بالصبر ومدحه ورفع منزلته وأثنى على المتحلين به ثناء

---

(١) والعاقبة للمتقين : والخاتمة الطيبة للذين يتقون الله .

(٢) (التصوف الإسلامي) للدكتور زكي مبارك جـ ٢ ص ١٤٩ .

لا مزيد عليه ، وذكره حوالي سبعين مرة ، ولم تذكر فضيلة أخرى بهذا المقدار ، وهذا يدل على عظم أمره لأنه اساس كثير من الفضائل، بل هو أمها لأنه يربي ملكات الخير في النفس ، فما من فضيلة الا وهي محتاجة اليه :

فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد .
والعفاف هو الصبر على الشهوات .
والحلم هو الصبر على المثيرات .
والكتمان هو الصبر على اذاعة الاسرار .

لهذا كله أحب الله الصابرين ، وأعلن في القرآن انهم ينالون مزيداً من الفضل والرحمة في الدنيا والآخرة . قال تعالى :

﴿ إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ الزمر : ١٠ .

﴿ ولنجزينّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ النحل : ٩٦

﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ الانسان : ١٢ .

والصابرون زيادة على هذا مؤيدون بمعونة الله، قال الله تعالى: ﴿ واصبروا ان الله مع الصابرين ﴾ ويخولهم الله إمامة الناس الى ما يحبه ويرضاه ، وهذا ما حكاه الله عن بني اسرائيل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ السجدة : ٢٤ .

ويخبر الله أن الصبر من الخصال العظيمة التي يجب ان يتصف بها المؤمنون:

﴿ وان تصبروا وتتقوا فإن ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ آل عمران : ١٨٦ .

أي ان الصبر والتقوى من صواب التدبير الذي ينبغي ان يعزمه كل أحد .

ومدح الله نبيه أيوب لاتصافه بالصبر بقوله :

﴿ إنّا وجدناه صابراً نِعْمَ العبد ﴾ ص : ٤٤ .

والصبر الذي دعا اليه القرآن هو ملكة الثبات والاحتمال التي تهون على صاحبها ما يلاقيه في سبيل تأييد الحق، وإزالة الباطل، او احتمال أذى الناس، وما يلاقيه من مصاعب كالفقر والمرض وفقد عزيز .

دعا القرآن الى الصبر في موطن الجهاد في سبيل الله فقال سبحانه :

﴿ قال الذين يظنون أنهم مُلاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن

الله والله مع الصابرين ﴾ البقرة : ٢٤٩ .

ودعا اليه في موطن تحمل أذى الناس : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ النحل : ١٢٦ .

ودعا اليه في موطن المثابرة على العبادة : ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته ﴾ مريم : ٦٥ . ﴿ وأمُر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ طه : ١٣٢ .

ودعا اليه في موطن البلاء الذي يمتحن الله به عباده : ﴿ ولَنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبْلو أخباركم ﴾ محمد : ٣١ .

وعدد الله انواع البلاء بقوله : ﴿ ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين . الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا اليه راجعون . اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

في هذه الآيات يذكر الله الصابرين بأنهم يفوزون بثلاث مزايا لا تتوفر لغيرهم وهي، اولاً : (اولئك عليهم صلوات من ربهم) أي غفران الله لهم والثناء الحسن عليهم وتشريفه إياهم في الدنيا والآخرة . ثانياً : (ورحمة) وهي ما يكون لهم في نفس المصيبة من لطف الله واحسانه . ثالثاً : (واولئك هم المهتدون) أي الى الحق والصواب فيما ينبغي عمله في اوقات الشدائد والمصائب، فلا يستحوذ الجزع على نفوسهم ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم .

هذا هو الصبر الذي ذكره القرآن ، فيه العزاء للقلوب المكلومة ، وفيه الشفاء للنفوس الحزينة ، والنجاح في هذه الحياة ، انه من الصفات الروحية التي تجلب كثيراً من الخير للمعذبين الذين يتلمسون الخلاص مما هم فيه .

العفو

العفو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الانسان لأنها لاتصدر الا من نفس كبيرة راجحة العقل صبرت على اعتداء الغير وأذاه .

ان اعتداء الغير علينا لا يكون الا من نفس مريضة حجب الشر صوابها فأجدر بنا ان نغفر لها .

اننا كثيراً ما نخطىء فنفتقر الى العفو والغفران ، وان لم نغفر لمن اساء الينا فلا يُغفر لنا ، وان أردنا الانتقام من المعتـــدي فلننتقمن بالاحسان اليه لأن مقابلة الاساءة بالإحسان تنزع من المعتدي البغضاء وتتركه مندهشاً فيرتد غالباً عن غيه وتنقلب بغضاؤه الى مودة .

ولهذا مدح الله العفو في كثير من المواضع في القرآن كقوله :

﴿ وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ التغابن : ١٤ .

ووصف الله المؤمنين الصادقين بقوله : ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ الرعد : ٢٢ . أي يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال .

ودعا الله الى مقابلة شرور الناس بالاحسان اليهم لأن ذلك داعية الى نزع العداوة من قلوبهم واحلال المودة مكانها : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ فصلت .

ولما كانت بعض النفوس جبلت على الاعتداء ، فقد وضع الاسلام علاجاً لها لمنعها من التمادي في غيها ، وهو مقابلتها بالمثل بدون اسراف أو ظلم . ولكن بالرغم من هذا لم يغفل من ترجيح العفو . قال الله تعالى : ﴿ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ، ولئـن صَبَـرتُـمْ لهو خيرٌ للصابرين ﴾ النحل : ١٢٦.

وقال سبحانه : ﴿ وجَـزَاءُ سيئة سيئةٌ مِـثْـلُـها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين . ولَـمَـنِ انتصر بعد ظُـلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم . ولَمَنْ صَبَـرَ وَغَـفَر إنّ ذَلك لمن عَزْمِ الأمور ﴾ الشورى : ٤٠ – ٤٣ .

هذا هو مذهب الاسلام في العفو ، أما المسيحية فهي تزين العفو مطلقاً ، جاء في الاصحاح الخامس من متى : ٣٨ (قد سمعتم انه قيل العين بالعين والسن بالسن : ٣٩ . أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر : ٤٠ . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضاً : ٤٣ . قد سمعتم أنه قيل أحبب قريبك وأبغض عدوّك : ٤٤ . أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وأحسنوا الى من يبغضكم وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم) .

ولقد سُئل صديقنا العلامة الشيخ محمد الشال عن العفو في القرآن من قبل أحد الباحثين الاميركيين : ألا ترى أن المسيحية اسمح من الإسلام لأنها تقول : إن من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر ، والإسلام يدعو الى القصاص ولاً والى العفو ثانياً . فأجابه الاستاذ بقوله : « ان ما دعا اليه الاسلام هو ما تدعو اليه الفطرة السليمة ، بل لا اغالي اذا قلت ان الاسلام اسمح من المسيحية في هذا ، لأنه إذ اعطى حق القصاص للمعتدى عليه فقد أراحه نفسياً ، حيث قد جعل له سلطاناً يؤيده الحق ، ثم دعاه ، وهو صاحب السلطان في القصاص، الى العفو وهو لا يكون الاّ معه .

ولا شك ان الانسان اذا عفا وهو متمكن من القصاص كان عفوه فيه رحمة وعزّة اما اذا دعوناه الى العفو من أول الأمر ، ولم نجعل له حقاً في القصاص كما دعت اليه المسيحية ، فإن استجاب — وقلّ ما يستجيب — فعل ذلك وهو برم وساخط ، لأنه عفو الضعف لا عفو المقدرة والعزة كما دعا الاسلام » .

والعفو كما دعا اليه الإسلام يؤدي في كثير من الاحيان الى صداقة قوية بين المتخاصمين ، لأن المعتدي يؤلمه هذا العفو من قادر على القصاص فيعمل على إرضائه ومحو أثر الاعتداء من نفسه .

الصِّدق ومَظاهِرُه

ليست هناك صفة تكفل استقرار المجتمع وتضمن الثقة بين الافراد مثل الصدق ، لذلك اعتبر اساساً من أسس الفضائل الّتي تبنى عليها المجتمعات . وجُعل عنواناً لرقي الأمم .

وما فقدت هذه الصفة إلاّ حلّ محلها عدم الثقة وفقدان التعاون ، فالصدق من ضرورات المجتمع وينبغي أن ينال حظاً عظيماً من العناية في الاسرة والمدرسة لأنه يحصل منه الخير الكثير ، فيه ترد الحقوق ، وبه يحصل الناس على الثقة فيما بينهم ، لهذا دعا الله سبحانه المؤمنين للتخلق به فقال :

﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ التوبة : ١١٩ .

﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾[1] الاحزاب : ٧٠ .

---

(١) القول السديد : القول الصدق الذي يراد به الوصول الى الحق .

ويقول الرسول ﷺ في الدعوة الى الصدق : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر[1] وان البر يهدي الى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً . واياكم والكذب فإن الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً)[2] .

الأمانة : ومن أنواع الصدق الأمانة، وهي من أرفع الصفات في الإنسان، ومن أقوى الدعائم التي يقوم عليها أي مجتمع سليم، ويحصل منها الخير ، لهذا نرى الاسلام يعتبرها من صفات المؤمنين ، قال الله تعالى :

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ المؤمنون : ٨ .

صدق الوعد : ومن انواع الصدق ايضاً صدق الوعد وهو من الصفات الحميدة التي ينبغي ان يتحلى بها الانسان لأنها سبب جوهري من أسباب النجاح في هذه الحياة ، وهي تعتبر اليوم من أبرز صفات القوم المتمدنين الذين يحرصون عليها أشد الحرص والقرآن دعا الى هذه الصفة فقال الله تعالى يمدح نبيّه اسماعيل بقوله : ﴿ واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ مريم : ٥٤ .

فالصدق من ضروريات المجتمع ، وهو كما نرى لم يغفله القرآن بل دعا اليه كما دعا الى كل فضيلة ترقي المجموعة البشرية .

الإصلاح بين النّاس

ليس الخير كله في الاسلام بأن يكون المسلم مستقيماً في حياته ، مجتنباً الأضرار بالناس لا يهمه الا صلاح نفسه ، بل الخير ان يسعى المرء ايضاً الى الاصلاح بين الناس .

فالاصلاح بين الناس من اهداف الاسلام ، لأن العداوة بين شخصين ستتطور حتماً الى العداوة بين اصدقاء كل من المتعادين ، وكثيراً ما تنقسم الأمة

---

(١) البر : الخير — الاحسان — العدل .

(٢) رواه مسلم .

الى جماعات لا همّ لها الا النكاية والاضرار ببعضها وقد يتطور الأمر الى المشاجرة وربما الى سفك الدماء .

فالاصلاح بين الناس صفة من أرفع الصفات الانسانية التي لا تصدر الا من قلوب نبيلة أحبّت الغير ، وهل مثل الاصلاح بين الناس يؤتي الخير والنفع للمجتمع ، ويجعل الناس وحدة مترابطة ، لهذا أمر الله بالاصلاح بين المؤمنين الذين تجمع بينهم الأخوة الدينية بقوله :

﴿ إنّما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ الحجرات : ١٠ .

ودعا الى الاصلاح بين طوائف المؤمنين :

﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ الحجرات : ٩ .

ودعا الى الإصلاح بين الزوجين : ﴿ وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفّق الله بينهما ﴾ النساء : ٣٥ .

ويبيّن الله ثواب الاصلاح بين الناس بقوله :

﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلاّ من أمَرَ بصدقة أو معروف أو إصْلاح بين الناس ؛ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ النساء : ١١٤ .

والمعنى : أن كثيراً من التناجي بين الناس لا خير فيه ، لما يحصل فيه من الاثم كالغيبة والنميمة أو مما يحاك به من المؤامرات ضد أفراد معينين يسبقون غيرهم في السلطة والنفوذ بقصد الاستعلاء عليهم . ثم حدد القرآن السبيل الذي يجب أن يسلكه الناس في تناجيهم وهو تأمين حاجات الطبقة الفقيرة ، والأمر بالخير والاحسان والاصلاح بين الناس ومن يفعل هذه الاعمال الكريمة لوجه الله وطلباً لمرضاته فإن الله سيؤتيه الثواب العظيم والأجر الجزيل .

التعاون

من أبرز مميزات الحياة الروحية التعاون على الخير للنهوض بالحياة الاجتماعية الى المستوى الرفيع الذي يؤدي الى رفاهية المجموع والتخفيف من آلام الغير .

وقد أدركت المدنية الحديثة ميزة التعاون فانتشرت فيها الجمعيات التعاونية حتى لا تكاد تخلو منها مدينة ، وهي تعطينا الدليل القاطع على فوائد التعاون وضرورته لإسعاد الفرد والمجتمع .

ولقد كان لمبدأ التعاون حظه من العناية في القرآن الكريم فدعا اليه بهذه الآية التي تشتمل على أروع المعاني الروحية :

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعُدوان ﴾ المائدة : ٢ .

أمر القرآن بالتعاون على البر والتقوى . والبر في اللغة يأتي بمعنى : العطية والطاعة والصلاح والصدق . فالبر كما تبين لنا كلمة جامعة لكثير من الفضائل ، والتقوى هي مخافة الله والعمل بطاعته . فالتعاون على البر والتقوى يتناول المؤازرة في كل عمل ينتج عنه الخير سواء اكان من وسائل السعادة في الآخرة اوكان من وسائل سعادة الدنيا كالتعاون على بناء المدارس والمستشفيات وغير ذلك من اعمال الخير .

ثم يأتي الشطر الثاني من الآية وهو النهي عن الاثم والعدوان . فالإثم في اللغة : هو عمل ما لا يحل ، وهذا يشمل كل الرذائل ، والعدوان هو الظلم الصراح ، ويدخل في الاثم والعدوان كل عمل يعود على النفس أو المجتمع بالفساد .

فالمتمعن في الآية القرآنية يرى انها لم تكتف بالدعوة الى التعاون وتخصيصه بالبر والتقوى بل انتقلت الى التحذير من التعاون على معصية الله والاضرار بالغير .

فالتعاون لا يدعو اليه الاسلام الا اذا كانت غايته اسعاد النفس والغير والذي اذا اتجهت إليه الجماعات حصلت على ما تطمح اليه من ازدهار وسلام .

الايثار

من الصفات الكريمة التي يتحلى بها الانسان : الايثار ، الذي هو تفضيل الغير على النفس في الخير وهو شعار النفوس الكبيرة الساعية لخدمة الانسانية ، وبعكس هذا الاثرة التي قال في وصفها (سنتهلير) في شرح مذهب افلاطون : إن أكبر شرّ في الانسان هو عيب يرافقنا جميعاً منذ الولادة ، وكل الناس يسامح

نفسه فيه ولهذا لا تجد من يبحث عن الخلاص منه، انهم يسمونه الحب الذاتي ، ولا شك في ان لهذا الحب الذاتي بعض المحل من الحق، بل من الضرورة، لأن الطبيعة هي التي ركبته فينا ، ولكن ذلك لا يمنع انه متى أفرط فيه صار العلة العادية لجميع خطايانا . قد يتعامى الانسان بغاية السهولة عما يجب ، فقد يسيء الحكم على ما هو حق وطيب وجميل متى ظن أن الواجب عليه أن يفضل دائماً منافعه على منافع الحق ، فأي إنسان شاء ان يكون رجلاً عظيماً لا ينبغي له ان يحب ذاته ولا ما هو له ، ولا ينبغي أن يحب الا الخير سواء في نفسه أو في غيره ، وإلا وقع من سلوكه في ألف خطيئة لا يمكن اجتنابها[1]

فالإيثار له اكبر الأثر في توثيق المحبة بين أفراد المجتمع إذ يجعلهم متعاطفين متعاونين ، بعكس الاثرة التي تجعل صاحبها مكروهاً منبوذاً من المجتمع لأنه لا يرغب أن يؤدي حقه فيه . هذا ما يحمله الايثار من سعادة لصاحبه ، فمن أهم مكتشفات علم النفس الحديث ما ثبت علمياً أن سعادة الانسان لا تتحقق بغير تضحية النفس في سبيل الغير .

لهذا دعا الله الى الايثار ومدح قوماً تخلقوا به : ﴿ ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة[2] ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ الحشر : ٩ .

جاء في أسباب نزول هذه الآية ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة : (أتى رجل رسول الله فقال : أصابني الجهد ، فأرسل الرسول الى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : الا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقال ابو طلحة : أنا يا رسول الله ، فذهب الى أهله فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ، قالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية ، قال : اذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالي فاطفئي السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم : لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل الله فيهما : ﴿ ويُؤْثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

هذه الحادثة تدل على عمق التربية التي غرسها الاسلام في اتباعه ، وفيها قبس للذين ينشدون السمو الروحي لخير المجتمع .

---

(١) مقدمة كتاب (الأخلاق) لأرسطو ترجمة الأستاذ لطفي السيد ص ٦٦ جزء ١ .

(٢) خصاصة : احتياج وفقر شديد .

الكلام الحسن

إذا تتبعت المشاكل الخطيرة والتافهة التي تنشأ في محيط الاسرة والمجتمع رأيت مصدرها في كثير من الأحيان الكلام السيء الذي يصدر عن المرء بدون روية ولا تفكير فيقع عند الغير موقع الاستهجان ، وكثيراً ما يولد منازعات لا داعي لها .

فالكلام الحسن مصدرٌ عظيم للنجاح وسبب في تكوين مجتمع راق ، لهذا عُني به المربون والمصلحون ، ودعوا الى حسن مخاطبة الغير ومراعاة اللهجة اللينة ، فاختيار الكلام الحسن اللين يجعل الانسان محبوباً في بيئته وسبباً للترقي في مجال عمله وللحصول على أصدقاء كثيرين يقدمون له كثيراً من المعونة في مجال هذه الحياة ، لهذا دعا الله الى الكلام الحسن بقوله :

﴿ وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن ان الشيطان ينزغ بينهم ﴾ الاسراء:٥٣

يأمر الله المؤمنين في هذه الآية بأن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الحسن فإن لم يفعلوا ذلك واختاروا الكلام السيء فان الشيطان يفسد بينهم فيقع الشر والخصومة .

ويقول الله تعالى في موضع آخر : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ البقرة : ٨٣ .

ويأمر الله بخفض الصوت لأن ذلك من امارات الكلام الحسن، ويشبه الصوت المرتفع بنهيق الحمير للتنفير منه : ﴿ واغضض من صوتك إنّ أنكر الاصوات لصوت الحمير ﴾ لقمان : ١٩ .

ويدعو الله الى البشاشة عند معاملة الناس ومخاطبتهم ، وينفر من الغلظة معهم فيقول مخاطباً نبيه محمداً :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ آل عمران : ١٥٩ .

والمعنى : بسبب الرحمة التي انزلها الله عليك يا محمد عاملت قومك بالرفق ولو كنت فظاً شرس الأخلاق في القول والعمل لتفرقوا عنك ونفروا منك . وهذا ارشاد للمؤمنين يبين لهم ان المعاملة الكريمة والقول الحسن من الضروريات

عند الانبياء وقادة الأمم لتجتمع القلوب حولهم فيكونوا مسموعي الكلمة في قومهم .

هذا هو الأدب القرآني في معاشرة الناس لاقرار المودة فيما بينهم ، وهو فيما نرى لا غنى عنه لكل جماعة تبتغي السلام والسعادة في هذه الحياة .

مُعَاشَرَةُ الأَخيَار

مما يجمّل ويحسن خلق الانسان صحبة الأخيار ، فالإنسان مولع بالتقليد فكما يقلد الانسان من حوله في أزيائهم يقلدهم في أعمالهم ويتخلق بأخلاقهم ، قال حكيم : « نبئني عمن تصاحب أنبئك من أنت » .

ان مصاحبة الأخيار تغرس في النفس الأخلاق الكريمة وتدفعها الى معالي الأمور ، أما مصاحبة الاشرار فانها تقود الى الاستهانة بالاخلاق ، وتجرىء على اقتراف الآثام ، وتباعد بين الانسان وبين القيام بالأعمال العظيمة .

فالقرين الصالح يعتبر بحق من أفضل نعم هذه الحياة فهو الملاذ في الملمات ، وهو المرشد الأمين لطريق الحق والنجاح ، فكثير من النابغين والعظماء والمتفوقين في هذه الحياة يعزون سبب نجاحهم الى انهم وفّقوا في اختيار قرين صالح ساروا على ارشاده واقتبسوا من نصحه .

والقرآن الكريم دعا الى اختيار الاصحاب الصالحين . قال تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يَدْعون ربهم بالغداة والعشي يُريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذِكْرِنا واتبع هَوَاهُ وكان أمره فُرُطاً [1] ﴾ الكهف : ٢٨ .

أمر الله سبحانه رسوله وكل مؤمن في هذه الآية بمصاحبة الأخيار الذين ساروا على الهدى ليقتدي بهم ويقتبس من فضائلهم، ولا يزهد في صحبتهم فيتطلع الى من عداهم لأجل الحصول على مظاهر الحياة الكاذبة ، ثم نهى الله المؤمن عن مصاحبة الأشرار الغافلين عن ذكر الله الذين اتبعوا اهواءهم وجاوزوا حدود الحق في أعمالهم .

---

(١) فرطاً : متجاوزاً الحدود الشرعية المشروعة .

وقال تعالى أيضاً في هذا المعنى : ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يُرِد إلاّ الحياة الدنيا ﴾ النجم : ٢٩ .

وبيّن الله في آية أخرى انه ليس من شأن المؤمن أن يتودد الى من يغضب ربه بالمعاصي ولو كان أقرب الناس إليه :

﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادّون من حادّ[1] اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ المجادلة : ٢٢ .

وصور لنا رسول الله ﷺ الجليس الصالح والجليس السيء خير تصوير في قوله : (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير[2] فحامل المسك إما ان يحذيك[3] وإما ان تبتاع منه واما ان تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثوبك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة)[4] .

هذه هي تعاليم الاسلام في اختيار القرين الصالح ليقودنا دائماً نحو الخير ويجنبنا مواطن الضلال .

الاستئذان والتحيّة

من أخص صفات الأمم المتمدنة أن تكون لهم في علاقتهم ببعضهم آداب عالية وعادات حسنة يسيرون عليها .

والاسلام الذي استوفى جميع مقومات الاجساد والأرواح لم يغفل الآداب التي يجب أن يسير عليها أتباعه فوفاها حقها من الرعاية التي تنم عن كمال في الذوق وسمو في الشعور .

ومن الآداب التي سنّها : الاستئذان والتحية ، وهما اليوم من الخلال التي تعد من مميزات أهل المدنية فتراهم يحرصون عليهما . ولا يتسامحون فيهما ، والاسلام قد سنهما لأهله منذ أجيال كثيرة جاء في القرآن : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

---

(١) حاده : عاداه وغاضبه .

(٢) الكير : منفخ الحداد الذي يشعل النار وينفث الدخان .

(٣) يحذيك : يعطيك .

(٤) رواه مسلم .

لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا[1] وتسلّموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكّرون . فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾النور : ٢٧.

أمر الله المؤمنين بأن لا يدخلوا بيوتاً ليست لهم إلاّ بعد ان يطلبوا الأذن من ساكنيها ويسمح لهم بالدخول وبعد ان يلقوا تحية السلام على ساكنيها ، فإن لم يجدوا في هذه البيوت احداً فلا يدخلوها حتى يجيء من يسمح لهم به، وإن لم يسمح لهم وطلب منهم الرجوع فليرجعوا فإن ذلك اطهر لنفوسهم ، والله مطلع على احوالهم .

رد التحية : وإذ شرع الاسلام الاستئذان والتحية نراه من جهة أخرى يحض على رد التحية، لأنه ليس هناك صفة معيبة تثير العداوة بين الأفراد مثل عدم رد التحية ، ولا يكتفي الإسلام من اتباعه برد التحية بل يأمر بردها بأفضل منها ، وهذا نهاية في السمو الأدبي الذي يأمر به الإسلام متبعيه قال الله تعالى :

﴿ واذا حُيّيتم بتحيّة فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها ﴾ النساء : ٨٦ .

هذا هو أدب القرآن الذي لم يغفل أية ناحية ترقي الأمة وتهذب من اخلاقها الا ّ وحضّ عليها .

الانقياد لهوى النفس

تجتاح الإنسان في معترك هذه الحياة تيارات شتى من الرغبات والشهوات يؤثر فيها مصلحته الخاصة ولو كان فيها إضرار بالغير ، ولا يهمه ان تكون أعماله سيئة ما دامت تشبع رغباته وأهواءه .

وإن اهم اهداف الاسلام مجابهة اهواء الانسان والحيلولة بينه وبين الانقياد لها ، إذ أن هوى النفس[2] يشوّش نظام ميول الانسان الطبيعية، وان للميول في الحالة الطبيعية نظاماً خاصاً ، وترتيباً متسقاً يقتضيان الاعتدال والتوازن ،

---

(١) تستأنسوا : الاستئناس عبارة عن الإنس الحاصل من جهة المجالسة، وقد تأتي بمعنى الاستعلام والاستكشاف ، والمراد : أن على المؤمنين ان يتحروا من يريدون زيارته هل يستريح لتلك الزيارة ويرحب بها ، وهل وقت الزيارة الذي سيقومون به هو وقت مناسب لذلك .

(٢) رجعنا في هذا الفصل الى كتاب « دروس في الفلسفة » للأستاذ جميل صليبا .

ولكن إذا وقع الإنسان في حبال الهوى تشوش عليه هذا النظام الطبيعي وفسد ، واتجهت قواه إلى غاية واحدة مطلقة فيختل بذلك توازن الميول واتساقها الطبيعي وينفرد واحد من هذه الميول بالزعامة فيسخّر جميع النزعات الاخرى اليه ، ولهذا نرى القرآن وصف الهوى بأنه مفسد للنظام الطبيعي لهذه الحياة الذي يجب أن يسود فيه الحق . قال الله تعالى : ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ﴾ المؤمنون : ٧١ .

وان أعظم أضرار هوى النفس هو ما يجيء عن طريق الحكام الذين من واجبهم اقامة العدل في الأرض ، فإنهم ان انقادوا لأهوائهم فحابوا الاقوياء وجاروا على الضعفاء يكن من أثر ذلك فساد في الأرض لا يلبث ان تظهر بوادره بثورات تورث الخراب كما حصل في كثير من ادوار التاريخ ، ولهذا جاء في القرآن تعليماً لنا بما خاطب الله نبيّه داود : ﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ ص : ٢٦ .

وان اتباع هوى النفس يصرفنا عن حقائق هذه الحياة ، ويرى ابو الفلسفة الحديثة « فرنسيس بيكون » وهو من فلاسفة القرن السادس عشر انه للوصول للحق يجب التخلص من أربعة أوهام تسد علينا سبل الحقيقة ومنها – بل وأهمها – أوهام الجنس ، هذه الأوهام تدخل فيها الأخطاء التي انطبع عليها العقل تقليداً لمن تقدموه حتى ليهون على المرء ان يعادي الحق ويرفضه من ان يترك عقيدة او رأياً رسخ في ذهنه بفعل الزمن والوراثة . لهذا نرى القرآن عندما حاجج اليهود وأمرهم باتباع رسالة محمد وما جاء بها من الحق ، بيّن بأن عدم استجابتهم لدعوة الاسلام انما هي بسبب أهواء نفوسهم التي تؤثر القديم ولما انطبعوا عليه من التقليد الأعمى لمن سبقوهم . قال الله تعالى :

﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتّبعون اهواءهم ، ومن أضل ممن اتّبع هواه بغير هُدى مِنَ الله ، ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ القصص : ٥٠ .

والحق ان اكثر أسباب إتباع الهوى في هذه الحياة هو بسبب ضعف في النفس ونقص في المعرفة ، فالهوى يملك على الانسان عقله فلا يدرك ولا يتذكر ولا يفكر كغيره من الناس بل تحوم نفسه كلها حول نقطة واحدة . وحب الانسان للشيء يقوي انتباهه اليه فلا يفكر الا فيه ، ولهذا كان منطق الهوى مختلفاً جداً

عن منطق العقل ، فالمقدمات في منطق العقل تولد النتائج ولكنها في منطــق العواطف تتولد منها . ولهذا وصف القرآن أثر الهوى في الانسان بأنه يضله بغير علم . قال الله تعالى :

﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ الانعام : ١١٩ .

﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ الروم : ٢٩ .

والقرآن يصف العلاج للقضاء على هوى النفس وذلك بالتوجه الكلي الى الله والامتناع عن مخالفة أمره . قال الله تعالى : ﴿ وأمَّا مَنْ خافَ مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإنَّ الجنة هي المأوى ﴾ النازعات : ٤١ .

هذه المراقبة لله مع جهاد النفس كفيلة بأن لا نخرج عن طريق الحق ولا نرتاد سبل الضلال ، وخصوصاً إذا كان هذا الجهاد النفسي في جو ديني تدفعه الرغبة في نيل ثواب الله العظيم .

الكِبرياء

الكبرياء رذيلة من الرذائل الاجتماعية ، تغرس الفرقة والعداوة بين الافراد فتقضي على التعاون والمحبة بينهم .

والكبرياء لا تصرفنا عن محبة بعضنا البعض فقط ، بل وتجعل اصلاحنا الأدبي عسيراً وذلك بتعامي المتكبر عن نقائصه وعيوبه ، وتقدير نفسه فوق قدرها ، وصمّ اذنيه عن سماع كل حديث يرفع من حاله سوى حديث المدح والتملق من مادحيه ، لأن من أعجبته نفسه أبى أن يسمع النصيحة من غيره فيكون ذلك حائلاً بينه وبين الاستفادة من علم العلماء واقتباس الفضيلة من الفضلاء فينزل الى هوة من الجهل والضلال .

لهذا كان من سنّة الله أن صرف قلوب المتكبرين عن سماع ما أنزله على رسله من البيّنات والهدى لأن هؤلاء المتكبرين كتب الله عليهم الضلالة التي تؤدي بهم الى غضبه وذلك من جراء كبريائهم . قال تعالى :

﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل

آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سَبيلَ الرشدِ لا يتخذوه سبيلاً ، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ الاعراف : ١٤٦ .

والقرآن يخبرنا ان المستكبرين كانوا أعصى الناس على الاستجابة لدعوة الرسل لهذا حكى الله عن قوم نبيّه صالح :

﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون ان صالحاً مرسل من ربه قالوا : إنّا بما أُرسِلَ به مؤمنون . قال الذين استكبروا : إنّا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ الاعراف : ٧٥ ــ ٧٧ .

وهؤلاء قوم عاد استكبروا عن سماع هداية الله فكان جزاؤهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة : ﴿ فأما عادٌ فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة او لم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشدّ منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً[1] في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا يُنصرون ﴾ فصلت : ١٥ ، ١٦ .

لهذا توعد الله المتكبرين بالعذاب الأليم في الآخرة فقال سبحانه :

﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ الزمر : ٦٠ .

أي أليست النار كافية لهم سجناً وموئلاً بسبب تكبرهم !

ولنتساءل بماذا يفتخر المتكبر ؟ هل بملاحته وقوته ؟ ان الجمال يزول ، وأقل مرض يضعضعه ، وكل يوم يفعل الزمان فعله بجسده إلى أن يصبح بعد سن الشباب موضع الضعف والهرم ، وان تباهى بماله وغناه فليعلمن ان الموت لا يفرق بين الغني والفقير ، وان الانسان سيترك كل ما يملك الى غيره ، لهذا جاءت وصايا القرآن تنهى عن الاختيال . قال تعالى : ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ الاسراء : ٣٧ .

أي لا تمش متبختراً كمشي الجبارين فانك لن تخرق الأرض بمشيك وشدة وطئك ، ومهما شمخت بأنفك فلن تبلغ الجبال ارتفاعاً .

ويقول تعالى في النهي عن التكبر : ﴿ ولا تُصَعِّر خدّك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ان الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ لقمان : ١٨ .

---

(١) ريحاً صرصراً : ريحاً شديدة البرد .

أي لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم او كلموك احتقاراً لهم واستكباراً .

هذا هو التكبر الذي كرهه الله لأنه من الصفات الذميمة التي تفسد المجتمع الانساني ، وتورث البغضاء ، فما احرى بالمربين والمصلحين أن يحاربوه ويبينوا شروره ليحصل المجتمع على المحبة التي هي عماد المجتمع .

الخَمْرُ وَالقِمَارُ

قال الله تعالى في تحريم الخمر والقمار :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر[1] والانصاب[2] والازلام[3] رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه[4] لعلكم تُفلحون . إنما يُريدُ الشيطان أن يُوقِعَ بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر وَيَصُدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ﴾ المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

اشتملت هاتان الآيتان على مواعظ جليلة :

فقد سمى الله الخمر والقمار رجساً من عمل الشيطان ، والرجس يدل على منتهى ما يكون من القبح والخبث ، وذلك لما ينشأ عنهما من الشرور والفساد .

وجعل الله اجتنابهما سبباً للفلاح في هذه الدنيا ، فدلّ بطريق المقابلة على أن ارتكابهما أساس الخسران في الدنيا والآخرة .

---

(١) الميسر : القمار .

(٢) الأنصاب : حجارة أو أصنام كان العرب يذبحون قرابينهم عندها ، وروي انهم كانوا يعبدونها .

(٣) الأزلام : قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم .

(٤) تجري على ألسنة البعض كلمات تشكك في تحريم الخمر فيزعمون ان الله سبحانه لم يقل الخمر حرام ، بل قال : اجتنبوه ، واجتنبوا كما يقولون لا تدل على التحريم كدلالة كلمة « حرمت » والجواب على ذلك : ان كلمة « اجتنبوه » أدل على التحريم من « حرمت » لأن اجتنبوه أي اطرحوه جانباً أي انه حرام فيجب اجتنابه . ومن جهة أخرى فان القرآن قرن تحريم الخمر بتحريم الأوثان في قوله تعالى : (إنما الخمر والميسر والأنصاب) والأنصاب هي الأوثان فجعل حرمة الخمر كحرمة الأوثان لأنه قرنها بها في تعبير واحد . ومعلوم ان حرمة الأوثان هي أكبر حرمة حرمها الإسلام ويؤيد هذا ان كلمة اجتنبوه جاءت في موضع آخر في تحريم الأوثان قال الله تعالى : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) سورة الحج .

وجعلهما سبحانه مثاراً للعداوة والبغضاء وهما شر المفاسد الدنيوية .

وأخيراً جعلهما صادّين عن ذكر الله وعن الصلاة وهما عماد الدين ، وفيما يلي بيان ذلك مع عرض أضرار كل من الخمر والقمار على حدة :

مضار الخمر : مضار الخمر كثيرة لا تحصى ، فهي تؤدي بالشارب الى اضعاف صوت ضميره وذهاب حيائه ، ولا شيء يضر بالمجتمع الانساني أكثر من اضعاف صوت الضمير او ذهاب الحياء من الانسان، فان ذلك يدفع بالشارب الى نبذ الاخلاق وفعل كل منكر قبيح ، وان كثيراً من حوادث الزنا والخيانة الزوجية تقع تحت سلطان الخمر مما يؤدي الى خراب البيوت والندم العميق ، كما ان الواقع الملموس أثبت ان كثيراً من حوادث الشغب وما تؤدي اليه من ارتكاب الجرائم تحدث في مواطن شرب الخمر من الحانات وغيرها .

وقد يدافع البعض عن الخمرة فيقول : ان الآلام النفسية قد اشتدت والمحن قد كثرت ، ولا دواء لها الا الخمر .

والجواب على ذلك : ان المحن النفسية لا يقضى عليها بالخمر ، بل بتقوية الوجدان الخلقي وتربية الناس على ضبط النفس والصبر الجميل والعزاء الروحي . اما اذا تألمت النفس فأخذ المتألم الكأس ليخفف الألم ويضعف صوت الضمير فإنه يستبدل بألمه داء أشد شراً ، وان ألمه لا يلبث ان يعاوده بعد ذهاب أثر الخمر ، فيجعل الانسان ضعيفاً لا يملك زمام نفسه ، مما يؤدي به الى الانهيار العصبي أو ادمان المسكرات فيسير في الحياة سير من ينتحر ببطء فيقضي على نشاطه ومواهبه العقلية ، هذا فضلاً عما ينشأ عنه أيضاً من الضرر الصحي وقد فصّلنا ذلك في بحث (صحة الابدان) .

وأما الضرر الاجتماعي فالخمر سبب لوقوع العداوة والبغضاء بين الاصدقاء وغيرهم ، ذلك ان شارب الخمر يسكر فيفقد العقل الذي كان يمنعه من الأقوال والاعمال القبيحة فيسيء الى الناس ويسرع اليه الغضب بالباطل فيكون سبباً للمشاجرة والخصام .

كما ان الخمر يصد عن ذكر الله وعن الصلاة لأن السكران لا عقل له ولا وعي يذكر به ربه ويثني على نعمه ويعبده ، والعبادة لا تقوم الا على العقل ، من هنا كان الاسلام الذي حرم الخمر وشرع العقوبة للسكران أسمى من غيره

من الأديان التي لم تحرم الخمر او التي لم تشرع العقوبة لمن يتناول الخمر ، فالدين من أول واجباته دعوة الانسان لعبادة خالقه، وليس هناك عبادة لله اذا سكر الانسان ، فتحريم الخمر في الاسلام مع بيان ضرره هي مفخرة له ودليل على انه دين روحي يقوم تشريعه على ما يهذب النفس ويسمو بها عن شرور المـــادة .

مضار القمار : اول ما يطالعنا من مضار القمار هو ما يحصل منه من الضرر المالي للمقامر ، وقد فصلنا ذلك في بحث « الاقتصاد » . وهنا نثبت ما ينشأ عنه من الضرر بين أفراد الأمة فهو مجلبة للعداوة ، فان ربح المقامر لا يقوم الا على خسران الغير ، فهو مغتصب مال أخيه على مرأى منه ، وكلما أوغل الانسان في الخسارة اشتد حنقه على الرابح الذي يسلبه ماله في لحظات قليلة هذا المال الذي بذل في جمعه عصارة جهده وعقله، وكثيراً ما يتمادى لاعب القمار في الخسران حتى يفقد كل ماله فيؤدي به ذلك الى عدم السيطرة على نفسه فينتحر أو يتعرض للرابح بالشتم ويضمر له كل شر ، وربما انتهى ذلك بالشجار كما هو مشاهد عند بعض المقامرين .

والقمار يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، فالمقامر تتوجه جميع قواه العقلية الى اللعب الذي يرجو منه الربح ويخشى الخسارة ويستغرق في ذلك زمناً طويلاً ينسيه خالقه ويلهيه عن عبادته ويشغله عن الصلاة التي تسمو بروحه ، وليس هناك عمل من الاعمال يشغل الفكر ويصرفه عن كل ما سواه مثل القمار ، لذلك كان هذا الاستنتاج الذي تطرق اليه القرآن آية في دقة الوصف وصدق الواقـــع .

فتحريم القمار يعطينا برهاناً على أن الاسلام دين روحي يحرّم كل ما يضرّ الانسان ويلهيه عن عبادة خالقه .

الكذب ومظاهره

الكذب أصل الرذائل، به يتصدع بنيان المجتمع ، ويختل سير الأمور ، ويسقط صاحبه من عيون الناس فلا يصدقونه في قول ، ولا يثقون به في عمل .

وأكثر الناس في الحياة أصحاب حرف وصاحب الحرفة محتاج في بيعه وشرائه وعمله الى ثقة الناس به ، والكذب يهدم هذه الثقة ، لهذا كتب الله على الكاذبين الضلالة فقال سبحانه: ﴿ ان الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب ﴾ غافر : ٢٨ . وقال أيضاً : ﴿ ان الله لا يهدي من هو كاذب كفّار ﴾ الزمر : ٣.

وتوعّد الله الكاذبين بالعذاب الأليم يوم القيامة :

﴿ ولا تقولوا لِمَا تَصِفُ ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . مَتَاعٌ قليل ولهم عَذَابٌ أليم ﴾ النحل : ١١٦ ، ١١٧ .

والكذب ليس بغيضاً في جميع الظروف على الاطلاق ، فهناك ظروف قد يكون فيها الكذب أجدى من الصدق وأنفع للانسانية وذلك للاصلاح بين الناس يقول الرسول ﷺ : (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً)[1] .

والخيانة : هي شر انواع الكذب التي يتصف بها المرء وينتقل ضررها مباشرة الى سائر أفراد الأمة ، وما انتشرت هذه الصفة في قوم إلا كانت نذيراً للخراب والفوضى ، ولهذا نهى الله المؤمنين عن الخيانة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ الانفال : ٢٧ .

وأخبر الله انه يبغضهم : ﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً اثيماً ﴾ النساء .

فعلى الذين ينشدون بناء مجتمع سليم أن يتوجه أكبر سعيهم إلى محاربة هذه الرذيلة ليحصلوا على السلام في حياتهم .

خلف الوعد : ومن ضروب الكذب المكروهة خلف الوعد وهي صفة تدل على أن صاحبها ذو شخصية ضعيفة لا يرجى منها خير ولا تكون موضع ثقة ، وهي تنزع المودة من بين الافراد ، ويحصل منها كثير من الاضرار ؛ من تضييع وقت الغير سدى ، أو ايجاد أمل كاذب عنده، أو نحو ذلك . لهذا وصف الرسول ﷺ خلف الوعد بأنها من صفات المنافقين فقال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان)[2] .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

شهادة الزور : وهي من أنواع الكذب التي يترتب عليها أقبح الشرور الاجتماعية وأخطر المشاكل التي تودي بالأرواح وتؤدي الى ضياع الحقوق ونشر الفوضى ، لهذا قارن الاسلام اثمها بإثم الإشراك بالله الذي هو شر الآثام في الاسلام . قال الله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ﴾ الحج : ٣٠ . ووصف الله عباده المقربين بقوله : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ﴾ الفرقان : ٧٢ .

البهتان : وهو ايضاً من ضروب الكذب الذي حرّمه الاسلام ، ويقصد به في الغالب النيل من انسان في شرفه وعمله ، وهو يسبب كثيراً من الاضرار والبلايا ، ولهذا حذّر الله منه بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ الحجرات : ٦.

ففي هذه الآية يرشد الله المؤمنين ويحذرهم ان يأخذوا بالأخبار قبل الكشف عنها والتثبت منها ومن سيرة حاملها لئلا يصيبوا أقواماً بسبب الجهل ، فيصبحوا بعد ذلك آسفين نادمين .

النميمة : وهي من ضروب الكذب ، التي تدل على أن صاحبها ذو نفسية مريضة لا همّ له إلا رؤية الناس متعادين متخاصمين ، وإن أكبر سلاح يحارَب به النمام هو عدم الاستماع له ، وهذا ما يأمرنا به الله سبحانه :

﴿ ولا تطع كل حلّاف[١] مهين[٢] . همازٍ[٣] مشّاءٍ بنميم ﴾ القلم : ١٠، ١١

فالمشاء بنميم هو ناقل حديث السوء من قوم الى آخرين . ومثل هذا النمام نهى الله عن تصديقه وطاعته لأنه يفسد بين الناس .

احتقار الغير

من اهداف القرآن الكريم احترام الغير لحفظ وحدة الجماعة ونشر المودة بينها والقضاء على أسباب الفرقة والعداوة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

(١) حلاف : كثير الحلف بالحق او الباطل .
(٢) مهين : حقير .
(٣) هماز : عياب ، يذكر الناس بالمكروه .

لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى ان يكنّ خيراً منهن، ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ الحجرات : ١١ .

يأمر الله المؤمنين في هذه الآية بأن يحترموا غيرهم ويحافظوا على سمعتهم وكرامتهم وشعورهم فلا يستهزئون بأي فرد من الناس ذكراً كان ام انثى ولا يحقرونه بالقول أو الاشارة باليد أو اللسان أو نحو ذلك لمجرد رؤيته رث الهيئة فقيراً أو ذا عاهة ، اذ ربما كان المستهزأ به خيراً من المستهزىء فيكون هذا قد ظلم نفسه بتحقير من وقّره الله ، فضلاً عن أن المستهزأ به لن يرضى عن ذلك بل سوف يحمله الهزء على أن يفتش عن عيوب المستهزىء به ويذيعها ، وان لم يجد فيه ما يعيبه اختلق له معايب ونسبها اليه وألبسها ثوب الصدق فيتناقلها الناس وفي ذلك ما فيه من الضرر بالمستهزىء نفسه .

فإذا علمنا ذلك كله أدركنا أن السخرية تورث البغضاء في القلوب ، وتقطع روابط المودة بين الأفراد .

ثم نهى الله أن يذكر أحد معايب غيره في حضرته والطعن في شخصه لأن ذلك داعية لإثارة العداوة أيضاً بين أفراد المجتمع ، ويذكر الله في هذه الآية أيضاً أن المؤمنين كنفس واحدة لا يليق أن يطعن بعضهم بعضاً ، فمتى عاب الانسان اخاه فكأنما عاب نفسه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ .

كما نهى الله أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ ولا فرق أن يكون اللقب المكروه صفة له أو لأبيه أو لأمه أو لغيرهم ممن له بهم صلة لأن ذلك يورث الحقد في الصدور .

ثم بيّن الله ان السخرية واللمز والتنابز بالألقاب موجبة للفسوق والخروج عن طاعة الله ، فلا يليق بالمؤمن أن يُطلق عليه كلمة فاسق بعد أن عُرف بالايمان ، والذين لا يرجعون عن اقتراف هذه الخصال الذميمة فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم لأنهم عرضوها لسخط الله .

الظن السيء والتجسس والغيبة

وجاء في القرآن في الدعوة الى احترام الناس :

﴿ يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظن إثم ولا تجسّسوا ولا يَغْتَبْ بَعْضُكم بعضاً أيُحبُّ أحدكم أن يأكُلَ لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم ﴾ الحجرات : ١٢ .

نهى الله في هذه الآية عن ظن السوء بالمؤمنين لأنه مدعاة الى تحقيرهم والى ايقاع الضرر بهم ، ولهذا حذر الله منه بقوله : ﴿ إنّ بَعْضَ الظَنّ إثم ﴾

ويشترط في حرمة الظن ان يكون المظنون بهم ممّن عُرفوا بالصلاح والأمانة أما الذين يتعاطون الخبائث والمنكرات فلا يحرم الظن السيء بهم .

ثم نهى الله عن التجسس على المؤمنين والبحث عما استتر من امورهم ، لأن ذلك تعرّض منهم لما لا يعنيهم وما لا يفيد ، وهذا لا يثمر الا الضغينة .

اما ما تفعله الحكومة من بثّ العيون لتتبع خطوات المفسدين الداعين الى الفتنة فهو لا يشمله النهي المنصوص عليه في الآية القرآنية السابقة ، لأن النهي غايته كل ما يثير العداوة بين الناس .

وأخيراً نهى الله عن الغيبة ، وهي : ان يذكر الانسان أخاه المسلم في غيبته بما يكرهه ، سواء أكان الذكر صراحة أم كناية أم إشارة أم رمزاً ، وسواء أكان ما يذكره متعلقاً بدينه أم دنياه ، وبخُلُقه أم خَلْقه ، لأن في ذلك اثارة للعداوة بين الناس .

وقد نفّر الاسلام من الغيبة هذه ، حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه المؤمن ميتاً ، فقال سبحانه : ﴿ أيُحبّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم ﴾ أي أيُحب احدكم ان يأكل لحم اخيه بعد مماته ؟ فإذا كنتم لا تحبون ذلك ، بل تكرهونه ، فكذلك فاكرهوا ان تغتابوه في حياته . اما المجاهر بالفسق والداخل في مواطن الريب فلا يحرم ذكر حاله اذا قُصد التنفير من عمله والتحذير من سلوكه .

ثم ختم الله الآية بالدعوة الى تقواه لأنه يتوب عمن يمتنع عن هذه الصفات الذميمة .

الزّنــا

الزنا رذيلة تحرم الانسان الطمأنينة النفسية التي تتمتع بها النفس الطاهرة المستقيمة ، فالعفة تجلب لنا السلام وطمأنينة النفس ، بينما الزنا يدخل القلق الى نفوسنا ويولد فيها الشعور بالإثم ذلك الشعور الذي يصيب النفس بأضرار شتى ، وقد وصف لي أحد الذين تورطوا في هذه الرذيلة نفسية الزاني بقوله تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ وكل نظرة تأنيباً لهم .

والزاني لا يسلك الطريق المشروع ، وهو الزواج ، لأنه يريد أن يستمتع على حساب غيره استمتاعاً لا يكلفه شيئاً من التضحية والاخلاص للغير ، بينما الزواج ناموس طبيعي يفرض على المرء أن يبذل بعض حياته لغيره ، ويخلف اولاداً يحسن تربيتهم فيصبحوا أفراداً صالحين غيورين على الخير العام . هذه هي المتعة الروحية التي يشعر بها المتزوج .

والزنا كالسيل يغرق صفاتنا الأدبية ويطفىء ما بنا من نور وخلق كريم ، ويخلف لقطاء يكونون عالة على المجتمع ، ويحملون شعوراً لا يمحى من الألم ، ونظرة حنق على هذه الحياة التي حرمتهم لذة العيش في كنف أبوين يحنوان عليهم ويهيئان لهم مستقبلاً زاهراً .

والزواج هو الرابطة الانسانية التي تصل ما بين الجنسين بالود والرحمة والتضحية كما صرح بذلك القرآن : ﴿ وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ بينما الزنا يجعل علاقة الجنسين حيوانية قائمة على اللذة العابرة والمنفعة الشخصية مما يجر إلى كثير من العداوات .

لهذا حرّم الاسلام الزنا ، ووصفه بأنه فاحشة وأنه طريق السوء الذي يجب على الأمة أن تجتنبه . قال تعالى :

﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ الاسراء : ٣٢ .

وكان من سمو الاسلام أن شرع العقوبة الزاجرة لهذه الرذيلة — مائة جلدة — أو الرجم للمحصن . وذلك لأن الأخلاق ليس لها من الاحترام ولا يمكن تطبيقها إذا لم يكن لها من قوة العقوبة ما يكفي أن تزجر النفوس المريضة الشريرة بخلاف ما إذا كانت تعاليم الأخلاق في دائرة نظرية بحتة ، فإنها لا تؤدي إلى الغرض المطلوب .

الغَضَبُ

الغضب من الرذائل الخلقية التي إذا تحكمت في نفوس الناس وتمكنت من مجتمعاتهم كان لها أسوأ الأثر في حياتهم ، ونتائج بشعة في تمزيق روابط المودة بينهم .

فالانسان حين يشتد غيظه يفقد الرشد والصواب ، ويصبح وحشاً ضارياً لا يدري ما يفعل ، ويظن انه بذلك يظهر بمظهر المحترم لنفسه المحافظ على كرامتها وهو إنما يظهر بمظهر الطائش الاحمق، وهو لا شك خاسر لأن الغضب يعتبر شروعاً في الاعتداء بينما يعتبر الحلم دليل فطنة ورجاحة عقل .

كما أن الانفعال الذي يثيره الغضب ضار بصحة الانسان من وجوه كثيرة كما أثبت الطب ذلك .

لذلك كله جعل الاسلام من صفات المتقين الذين يستحقون رضوان الله عدم الاستسلام للغضب . قال الله تعالى في وصفهم : ﴿والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين﴾ آل عمران : ١٣٤ .

فالغيظ هو أشد الغضب ، وكظم الغيظ هو الامساك على ما في النفس من الغضب حتى لا يظهر له أثر .

ولا يدعو القرآن الى كظم الغيظ فقط بل يدعو الى العفو عن المعتدي الذي أثار الغضب ومقابلته بالاحسان، فالانسان لا يُثار غضبه إلاّ عند الاعتداء عليه او انتقاص حقه من الغير ، وهذه أرفع منزلة من السمو الخلقي يمكن ان يسلكها انسان عند فوران غضبه .

فالانسان في غضبه حاكم غير منصف ، لا يرى في وقت غضبه صواباً لذلك تأتي أحكامه بعيدة عن الحق ، لهذا جعل الاسلام من صفات المؤمنين العفو عند الغضب ، قال الله تعالى : ﴿ واذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ الشورى .

والرسول محمد ﷺ عدّ مجاهدة النفس وامتلاكها عند الغضب من امارات البطولة : (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) [١] .

---

(١) رواه مسلم .

والمعنى : ليس القوي الذي يصرع خصمه بل القوي الذي يسيطر على نفسه عند الغضب .

فعلى الذين ينشدون الرقي الأدبي أن يتعودوا امتلاك نفوسهم ويضبطوا كل نزوة يبعثها الانفعال الطارىء فينطلق بها الفم قبل أن يمحصها العقل فإنهم أحرى بذلك ان يجتنبوا مشاكل لا حصر لها .

الحسد

الحسد من الرذائل الخلقية ايضاً، وهو من أقبح الخصال التي تصيب الانسان وتنكد له عيشه ، فان الحسود الذي يتمنى الشقاء والنحس لغيره يُشقي نفسه أيضاً بهذا الحسد ، فهو بدلاً من ان يستمد السرور مما أوتي من خير نراه يستمد العذاب من الخير الذي أوتيه سواه .

وعصرنا الحاضر يقوم فيه الحسد بدور خطر ذي أهمية بالغة ، فالفقير يحسد الغني ، والنساء يحسدن الرجال ، والقبيحات يحسدن الجميلات ، وهكذا مما يجعل بعض الأمة يكره بعضها الآخر ويتمنون لهم الشقاء ، فالحاسد خلقه اللؤم ، ولذته الوشاية بين الناس والوقيعة والدس بينهم ، فلا ينفك يدس للرجل الناجح حتى يشوّه سمعته لأجل ان يحلّ محله ، أو يجعل منه انساناً فاشلاً مثله ، فالحسود انسان فقد الثقة بنفسه واستشعر العجز عن تحقيق غاياته ، لذلك نهى القرآن عن الحسد: ﴿ ولا تتمنّوْا ما فضّل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ﴾ النساء: ٣٢.

نهى الله في هذه الآية عن تمني ما أوتي الغير وهو التعرض له بالقلب حسداً ، ثم أخبر الله المؤمنين بأن ما يكتسبه الانسان هو نتيجة عمله وسعيه، فعلى المؤمنين ان يعتمدوا على جهودهم ، ومواهبهم لنيل ما يرغبونه ، وما حُرموه فليسألوا الله أن يعطيهم من فضله وإنعامه .

وأمر الله في موضع آخر بالاستعاذة به من الحاسد : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ الفلق .

والحاسد يستحق الرثاء والشفقة مما يلاقيه من ألم ، فما أحرى بنا أن نقابل

حسد الحاسدين بالعفو عنهم وعدم مؤاخذتهم على حسدهم الذي لا يضرّ إلا أنفسهم وهذا ما يأمرنا به الله سبحانه : ﴿ وَدّ كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ البقرة : ١٠٩ .

علاج الحسد : وهناك وسائل شتى للتخلص من الحسد منها : ان يقنع الانسان بما يصادفه في حياته من خير ، ويؤدي واجبه مع عدم المقارنة بين حاله ومن هو أسعد منه حظاً بل ينظر الى من هو دونه ليدرك فضل الله عليه ، وهذا ما يقوله الرسول ﷺ : (اذا نَظَرَ أحدكم الى من فُضّل عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممّن فُضّل عليه)[١] .

اللغو

وفي الاسلام عامل قوي للسمو الروحي والنجاح في هذه الحياة هو ما دعا اليه القرآن من الإعراض عن الثرثرة والهزل ، والباطل من القول والفعل ، وكل ما توجب المروءة الغاءه ، وهو ما سماه الله لغواً ، جاء في القرآن :

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو[٢] معرضون ﴾ المؤمنون : ١ ــ ٣ .

وقد تكرر في القرآن النهي عن اللغو بصور شتى ، قال الله تعالى في وصف عباده المقربين : ﴿ واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم[٣] لا نبتغي الجاهلين[٤] ﴾ القصص : ٥٥ .

ويقول سبحانه في وصفهم : ﴿ واذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ الفرقان : ٧٢. أي مروا معرضين عنه مترفعين بأنفسهم عن مشاركة أهل اللغو .

ويدخل في معنى اللغو ما استحدثه الناس من صنوف اللهو الفاجر الذي

---

(١) رواه البخاري .

(٢) اللغو : جاء في قاموس لسان العرب ، اللغو واللغا : السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ونفع .

(٣) سلام عليكم : اي وداع لكم ومتاركة .

(٤) لا نبتغي الجاهلين : لا نريد مخالطتهم وصحبتهم .

لا يهذب النفس ولا يرقي الشعور وذلك لاشتماله على كل ما يثير الشهوات ويفسد الخلق الانساني .

وان من اسباب رقي الشعوب : اعراضها عن اللغو ، وانهماكها في العمل المفيد المثمر ، بعكس ذلك الشعوب المتخلفة التي يكثر في افرادها اللغو والكلام الفاحش في أحاديثهم وإضاعة الوقت بدون فائدة مجدية .

الشراهة

كلما ضعفت رغبات الفرد الروحية اشتدت بطبيعة الحال رغباته المادية وتركزت غالباً في شهوة الطعام .

ومن الملاحظ أن الإسراف في شهوة الطعام يذكي الرغبة الجنسية ، ويؤدي بالانسان الى أن يعتبر الحياة مجرد متعة مادية ، فتضعف فيه الصفات الروحية من : الاحسان والتضحية وانكار الذات ، وتحل محلها : الانانية وقسوة القلب والاستكانة الى الترف ، وذلك يؤدي به الى أن يصبح عضواً فاسداً في المجتمع الانساني لا يستفيد منه الافادة التي ترفع من شأنه وترقي حاله .

ومن أجل هذا توجهت وصايا القرآن الى التحذير من الانقياد لرذيلة الشراهة ، ووصف صاحبها بأنه مكروه من الله . قال الله تعالى :

﴿ وكلوا واشربوا ولا تُسرفوا انه لا يحب المسرفين ﴾ الاعراف : ٣١ .

كما أن الشراهة تؤدي الى تبلد الأذهان ، والإنصراف عن تغذية العقل والروح بالمعارف التي يحتاجها ، ولا يكون همّ الشره الا التفكير في أصناف الطعام ، والانهماك في متع الحياة الرخيصة ، فيصرفه ذلك عن تزكية نفسه والسمو بها عن النقائص ، فينخلع عن انسانيته ويصبح كالحيوان ، وهذه الصفة التي ينحدر اليها الانسان وصفها القرآن بأنها من صفات الكافرين ، قال الله تعالى :

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ محمد : ١٢ .

هذه وصية القرآن في الاعتدال في المأكل والمشرب لخدمة الناحية الروحية التي هي من أهم أهداف الإسلام .

الفصل الرابع عشر

الصلاة في الإسلام

الغاية من الصلاة – حكمة الصلاة – من حكم الوضوء – شروط الصلاة – عرض لأفعال الصلاة – المعاني التي ترمز اليها سورة الفاتحة – من حكم الصلاة في القرآن : تغيير الأعمال القبيحة – غرس خلق الشجاعة والجود – تنمية ملكة حصر الذهن – تقوية النفس الإنسانية .

الصلاة * في اللغة : الدعاء بخير ، وهي دعاء يتقرب به الى الله استغفاراً لذنب ، او شكراً لنعمة، او دفعاً لضيم ، او قياماً بفرض عبادة .

كما انها اظهار الحاجة والافتقار الى المعبود بالقول والعمل ، وقد فرضها الله على عباده ليذكرهم بأوامره ، وليستعينوا بها على تخفيف ما يلقونه من انواع المشقة والبلاء في الحياة الدنيا ، كما ان من معانيها الثناء على الله بما يستحقه من الحمد والتمجيد .

الغاية من الصلاة

يقول الاستاذ (اجوست سباتييه) مدرس الفلسفة بجامعة باريس في كتابه فلسفة الدين : « اننا نستطيع الآن ان نستخلص أصل الدين وان نضع له تعريفاً، فهو : صلة وعلاقة معروفة ومرادة تنشئها الروح المكروبة بينها وبين القدرة الخفية التي تشعر هي انها تابعة لها ، وان مقدراتها تحت مشيئتها ، فالصلاة هي: الدين في حالة العمل ، او هي الدين الحق » . ثم يقول : « والدين لا يكون شيئاً

(*) ملاحظة : نظراً لأهمية الصلاة في الاسلام وضع المؤلف كتاباً خاصاً بهذا الموضوع اسمه : (روح الصلاة في الاسلام) فليرجع اليه من يريد الاستزادة في هذه الناحية .

يعتد به اذا لم يكن عملاً حيوياً بواسطته تحاول النفس ان تنجو من الهلاك بالتجائها الى اصلها الذي تنزلت منه ، وهذا العمل هو الصلاة ، وهي كما أعنيها ليست التلفظ بكلمات أو ترديد عبارات ، ولكنها الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يحس الانسان بوجودها حتى قبل ان يستطيع ان يطلق عليها اسماً ، فحيث لا توجد هذه الصلة الباطنية فلا يكون هناك دين »[1] .

حكمة الصلاة

المجتمع الانساني بحاجة الى قوة روحية ترفع من نفسية الافراد على وجه الاستمرار الى مثل عليا ، وذلك خشية ان تنحصر روابط الافراد في الحاجات المادية والمصالح الشخصية مما يؤدي الى الفساد في الأرض ، والصلاة هي التي تمد الجماعة الانسانية بالقوى الروحية التي لا بد منها لصلاح المجتمع .

اما من الناحية النفسية فالانسان اذا لم تتصل روحه بمبدعها ظهرت فيه مظاهر الوحشة والاكتئاب وعدم القناعة بشيء ، وربما ظن ان وحشته واكتئابه حصلا من عدم أخذه حظاً من الملهيات فألقى بنفسه بين أحضانها وجرّه ذلك الى تعاطي الخمر ، فيقضي حياته وهو شديد الاقبال على الدنيا عظيم الحسرة فيما لم يبلغ اليه اجتهاده فيها ، دائم الحيرة ، كثير الهلع ، بينما الصلاة تتيح للمرء ان يسأل بارئه كل ما يريد حتى ينفس عن مشاعره ، وتخلق في الانسان عقيدة اطاعة أوامر الله ولو كانت تتعارض ورغباته الشخصية ، كما تبث فيه عدم اليأس وتدعوه الى التماس العون من الله ؛ فالانسان الذي يعتمد على الله لا يعرف اليأس الى قلبه سبيلاً ، ويملك من القوى النفسية ما يواجه بها أعظم المشاكل دقة وخطراً .

من هنا يتبين لنا ان اتصال الروح الانسانية بخالقها ولو لحظات في اليوم من الضروريات للانسان ، لهذا شرع الله الصلاة في الاسلام .

وجوب الصلاة : أمر القرآن بالصلاة في آيات كثيرة منها : ﴿ فأقيموا الصلاة إنّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾[2] النساء : ١٠٣ .

---

(١) ترجم هذه الكلمات العلامة محمد فريد وجدي ونشرها في مجلة الأزهر .

(٢) كتاباً موقوتاً : فريضة لها وقت معين .

وقال الله في وصف أصحاب النار عندما يُسألون عن سبب عذابهم :

﴿ ما سلككم في سقر[1] قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين ﴾

والقرآن لم يفصّل كيفية الصلاة ، بل فصّلها النبي ﷺ فقد قال لأصحابه : (صلوا كما رأيتموني أصلي) . وها نحن سنعرض أفعال الصلاة مع ما تشتمل عليه من معان روحية ، وقبل ان نتحدث عنها نذكر مقدماتها ، ونبدأ بالوضوء .

من حكم الوضوء

أشار القرآن الى كيفية الوضوء بقوله تعالى :

﴿ يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ﴾ المائدة : ٦ .

« ومن حكم الوضوء الاستعداد للصلاة ، لأن جوهر الصلاة هو ان يتصور الشخص انه أمام الخالق خاشع ، ولكي يتهيأ ذهنه لذلك ويتخلص من شواغل الحياة الكثيرة ، فُرض عليه الوضوء قبل القيام بالعبادة .

وبيان ذلك : ان الانسان اذا كان مشغولاً بتفكير عميق فإنه لا يمكنه ان يفكر في شيء آخر إلا اذا تنبه اليه بانفعالات عصبية ، وهنا يترك التفكير الأول فجأة وعلى عجل ، واذا اريد تنبيهه ليفكر في شيء آخر تفكيراً هادئاً فإنه يحتاج إلى وقت ما ، فإن الذي يفكر في التجارة والصناعة ثم يقال له : قم للعبادة ، يجد صعوبة في تأديتها ، وهنا كانت حكمة الوضوء لأنه يساعد على ترك التفكير الأول ويعطيه الوقت الكافي ليبدأ في تفكير عميق من نوع آخر »[2]

شروط الصلاة

ويشترط لصحة الصلاة : طهارة بدن المصلي ، وثوبه ، ومكان صلاته من النجاسة والأقذار ، وفي هذا تعويد المسلم على اجتنابها والتباعد عنها .

ويشترط أيضاً للمصلي : أن يستر عورته ، وهي بالنسبة للذكر ما بين السرة والركبة ، وللانثى جميع بدنها ما عدا وجهها وكفيها .

---

(١) سقر : جهنم .

(٢) اقتبسنا هذا المعنى بتصرف من كتاب « الإسلام والطب الحديث » .

ويشترّط كذلك : استقبال الكعبة ، لتتحد وجهة الصلاة عند المسلمين ، إذ لو فوّض الأمر الى المصلي لغلب على نفسه الاضطراب والحيرة فلا يدري اي الجهات أقرب الى الله ، فلهذا كان من حكمة الله أن عين له جهة الكعبة التي هي أول بناء قام في الأرض لعبادة الله . وليس المقصود من استقبال الكعبة عبادة عينها بل المقصود بذلك هو الله وحده ، لأن الشريعة تحكم بالكفر على من يقصد بتوجهه غير الله .

وقبل ان يشرع المسلم في الصلاة يقول الصيغة المعروفة في الأذان والإقامة . وألفاظ الأذان هي : (الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حيّ على الصلاة . حي على الصلاة[١] . حيّ على الفلاح . حي على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله)[٢] .

عرض لأفعال الصلاة

وعندما ينتهي المسلم من الاقامة يستحضر النية في قلبه ، فإذا فعل ذلك رفع المصلي يديه حذو منكبيه قائلاً : (الله أكبر) ليشعر نفسه بأن الله أكبر من كل شيء وبما أنه اراد ان يشرع بمناجاته فعليه ألا يشغل قلبه بشيء سواه ، ثم يرسل المصلي يديه أو يضع اليمنى على اليسرى ، وهذه الهيئة تذكر المصلي بوجوب اقامة القلب مع الله عز وجلّ .

ثم يتلو المصلي بعد هذا دعاء الإستفتاح ، وهذا نصه : « وجّهت وجهي[٣] للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين » . يقول المصلي ذلك لأجل ان يحرّك في نفسه الإحساس بعظمة الله ويوقظها للاخلاص في عملها .

---

(١) حي على الصلاة : أي يا نفس أقبلي على الصلاة ، فان حي في اللغة تستعمل لطلب الإقبال .

(٢) الاقامة كالاذان لفظاً لكنها لا تكرار فيها إلا في التكبير ويزاد بعد حي على الفلاح جملة (قد قامت الصلاة) مرتين .

(٣) وجهت وجهي : ليس المراد فيه الوجه الظاهر فالله سبحانه يتقدس عن ان تحده الجهات حتى يقبل المصلي بوجهه عليه وإنما المراد بذلك وجه القلب .

ثم يتلو المصلي بعد دعاء الاستفتاح (سورة الفاتحة) وهذا نصها :

﴿ بسم[1] الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراطَ الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

وقد فُرضت قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة لما تحمل من المعاني العظيمة والسمو الروحي ولما لها من أثر فعال في إصلاح الفرد والجماعة . (فالفاتحة) هي روح الصلاة ، ولذا يحسن بنا ان نقف عندها قليلاً .

المعاني السامية في سورة الفاتحة

١ – **تعرّف إحسان الله** : مقتبس من قوله تعالى : ﴿ الحمد[2] لله رب[3] العالمين[4] . الرحمن الرحيم ﴾[5] .

فجملة (الحمد لله) مفيدة لقصر الحمد عليه سبحانه وتعالى ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالحمد انما هو صادر من الله سبحانه ، مصدر كل نعمة.

وجملة (رب العالمين) تنص على أن الجنس البشري أسرة واحدة ، وأن الله تعالى ربها ، وهذه الفكرة الإنسانية التي يقررها القرآن هي الدرع الواقي من طغيان الوطنية والجنسية والألوان .

وتربية الله للناس نوعان : تربية خلقية ، وتكون بتنمية أجسامهم وتنمية قواهم العقلية ، وتربية دينية تهذيبية ، وتكون بما يوحيه الى أفراد منهم ، وهم الأنبياء ليبلغوا للناس ما يصلح به حالهم وتصفو به نفوسهم .

(الرحمن الرحيم) صفتان من اخص صفاته تعالى . فالعلاقة بين الرب والعباد علاقة رحمة ورعاية . ومعنى آخر وهو : أن البعض يفهم من معنى الرب

---

(١) الباء في بسم متعلقة بفعل مقدر والمعنى ابتدىء القراءة متبركاً باسم الله .

(٢) الحمد ، هو المدح والثناء على فعل حسن صدر عن فاعله باختياره .

(٣) الرب : السيد المطاع ، والمصلح للشيء ، والمالك له .

(٤) العالمين : جمع عالم ، والعالم الخلق من ذوي العلم وهو الجنس البشري والملائكة والجن .

(٥) الرحمن الرحيم : صفتان مشتقتان من الرحمة ورحمة الله عطفه وإحسانه ورزقه ، والرحمن ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة والذي وسعت رحمته كل شيء ، فلا يجوز أن يقال رحمن لغير الله ، وأما الرحيم فهو رفيق بالمؤمنين خاصة .

الجبروت والقهر، فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته واحسانه وأن ربوبيته ربوبية رحمة واحسان ليقبلوا على اكتساب مرضاته مطمئنة قلوبهم . فالاسلام يغرس في نفوس المصلين في كل صلاة بأن الله رحمن رحيم .

٢ـ **الوعد والوعيد** : لما بين الله صفة الرحمة : قال لا تغترّوا بذلك فإني (مالك يوم الدين)[١] أي انه سبحانه وتعالى يتصرف في أمور يوم القيامة تصرف المالك فيما يملك .

والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد فيعم نعيم الدنيا والآخرة ، فقد وعد الله المؤمنين العاملين بشريعته بالاستخلاف في الأرض والنعيم في الآخرة .

والوعيد يشمل الشقاء والخزي في الدنيا ونار الجحيم في الآخرة .

٣ ـ **التوحيد والعبادة** : مقتبسان من قوله تعالى : (إياك نعبد[٢] وإياك نستعين)[٣] اي نعبدك وحدك دون سواك ، ونطلب معونتك وحدك على عبادتك وعلى جميع شؤوننا بالعمل بما أعطيتنا من الأسباب والتسليم اليك عند العجز عنها .

وفي ذكر هاتين الصفتين القضاء على الشرك والوثنية التي كانت فاشية في جميع الأمم وهي اتخاذ أولياء يُعتقد فيهم السلطة الغيبية ، ويُدعون من دون الله ويستعان بهم على قضاء الحوائج ، فمن يستعن بقبر ناسك أو ضريح عابد لقضاء حاجة له ، أو تيسير أمر تعسر عليه ، أو شفاء مريض فقد ضل سواء السبيل وأعرض عما شرعه الله وارتكب ضرباً من ضروب الوثنية .

فإذا كان الله وحده هو المعبود وهو المستعان به فقد تخلص الضمير من استغلال البشر والأساطير والخرافات والاوهام .

٤ ـ **الاستقامة والثبات** : مقتبستان من قوله تعالى : (اهدنا[٤] الصراط[٥]

---

(١) مالك يوم الدين : المالك وصف من الملك بكسر الميم ، والدين يطلق في اللغة على الحساب وعلى المكافأة والجزاء .

(٢) العبادة : الطاعة البالغة في الخضوع والتعظيم والتذلل .

(٣) الاستعانة : طلب المعونة ، ولم يذكر الله المستعان عليه من الأعمال ليشمل الطلب كل ما يتجه اليه الإنسان من الأعمال الصالحة .

(٤) الهداية : هي الإرشاد والدلالة بلطف على ما يوصل الى البغية .

(٥) الصراط : هو الطريق السهل المستوي ، ومعناه في الآية ما يدعو اليه الأنبياء من العقائد والشرائع والآداب .

المستقيم) أي : دلنا وأوصلنا بتوفيقك ومعونتك الى طريق الحق في العلم والعمل الذي لا عوج فيه . فالمسلم عندما يحدق به البلاء أو يصاب بأزمة نفسانية حادة ويُسدّ باب الفرج في وجهه يهرع الى الصلاة ويدعو ربه فيها : (إهدنا الصراط المستقيم) فتطمئن نفسه وتقوى على مواجهة الأهوال .

٥ ـ الاقتداء بالمُثل الصالحة : مقتبسة من قوله تعالى : (صراط الذين انعمت [١] عليهم) اي دلنا الى الطريق الذي سلكه خيار عبادك المفلحين من النبيين والصديقين والصالحين . والمُثُل الصالحة يحتاج اليها الانسان للاقتداء فهي تضاعف همته ، وتوجهه نحو الخير .

٦ ـ اجتناب سبل الضلال : مقتبسة من قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فالمغضوب عليهم : هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به فغضب الله عليهم . والضالون : هم الذين غلوا في معتقداتهم فضلوا .

فوائد أخرى لسورة الفاتحة : ففي قوله تعالى : نعبد، ونستعين، واهدنا، بصيغة الجمع مع ان المصلي مفرد هو دعوة من الله الى وحدة شاملة والى تعاون وثيق والى نصح يفضي الى خير الجماعة .

فقوله تعالى : (اياك نعبد) دعوة منه لتوحيد قلوبنا نحو هدف واحد وهو عبادة الله وحده، وجعل صلاتنا مع بعض صلة غايتها رضاء الله لا المصالح الشخصية ولا الشهوات التي تودي بالوحدة الانسانية .

وفي قوله تعالى : (اياك نستعين) ارشاد لنا للاستعانة به على أمورنا ، ودعوة منه لنا لمعونة بعضنا البعض لأن طلب المعونة لا يكون الا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفّه حقه، او يخشى ان لاينجح فيه فيطلب المعونة على اتمامه .

وفي قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) طلب الهداية للطريق القويم ، ودعوة منه تعالى لارشاد بعضنا البعض .

هذه هي الفاتحة التي يرددها المسلمون كل يوم وليلة في كل ركعة من ركعات الصلاة وعددها سبع عشرة ركعة عدا صلاة النافلة ، وهي النشيد الرباني الذي يتلوه المسلمون آناء الليل وأطراف النهار يناجون به ربهم ، هذا النشيد اسمى

---

(١) الانعام : إيصال الخير إلى الأحياء العقلاء ، والمراد في الآية الانعام الديني فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به ، والخير فعملوا به .

وانبل من سائر اناشيد الأمم التي تحمل في طياتها معنى التعصب والاستعلاء والدعوة الى الاقليمية الضيقة بينما ينشر الاسلام الاخوة والمحبة للانسانية جمعاء والدعوة الى نصحها .

تتمة أفعال الصلاة

وبعد ان يقرأ المصلي الفاتحة ويتدبر معانيها يقول بعد الانتهاء منها : (آمين) أي استجب لي يا رب ؛ وان حالة المصلي مع ربه كحالة المريض مع طبيبه فان المريض يهرع الى الطبيب آملاً في الشفاء فيأمره طبيبه بأخذ الدواء المناسب ، فكذلك المصلي في طلبه الهداية من ربه يطلب الدواء الشافي من أمراض الأعمال والاعتقادات الباطلة فكأن الله يقول له : خذ دواءك من كلامي وهو القرآن ، واتل ما تيسر منه فهو الدواء الشافي لك من جميع الامراض ، لذلك يقرأ المصلي بعد الفاتحة عدة آيات من القرآن . وبعدها ينظر المصلي الى عجزه وضعفه واحتياجه الى ربه في هدايته لذلك الدواء ، وحصول الشفاء ، ويتصوّر انه لا قادر على ذلك سوى الله ، فيخرّ المصلي حينئذ راكعاً له متمثلاً صورة عجزه قائلاً : (الله أكبر) واضعاً راحتيه على ركبتيه ثم يقول : (سبحان ربي العظيم) ثلاث مرات ، والزيادة على ذلك مستحبة ان لم يكن إماماً .

ثم يرتفع المصلي من الركوع الى القيام لأداء الحمد والشكر لمولاه الذي منّ عليه بالهداية قائلاً : (سمع الله لمن حمده) اي أجاب من شكره ، ويقول بعد ذلك : (ربنا ولك الحمد) . ثم يرى ان نعم الله لا تحصى وهو عاجز عن أداء شكرها ، فيخرّ ساجداً معظماً مولاه قائلاً : (الله أكبر) ويضع جبهته على الارض في ذلك السجود ، فيرى نفسه وقد بلغ غاية الخضوع أنه ما فعل ذلك الا لتعظيم ربه الأعلى ، فينطلق لسانه قائلاً : (سبحان ربي الأعلى) ثلاث مرات . وبعد السجود يرفع رأسه مكبراً وسائلاً حاجته بقوله : (ربّ اغفر وارحم) ، ثم يعود الى السجود ثانياً وهو يقول : (الله أكبر) . وبعد السجود الثاني يقوم لتأدية الركعة الثانية قائلاً أيضاً : (الله أكبر) ، ويفعل ما فعل في الركعة الأولى ما عدا قراءة دعاء الاستفتاح .

ومما يجب لفت النظر اليه : ان الصلاة شرع فيها (الله أكبر) عند ابتدائها وعند الركوع والسجود والقيام من السجود . وفي تكرير هذه الجملة عدة مرات

تعويد المسلم على العزّة والكرامة ، وأن لا يذلّ لمخلوق ، لأن الله أكبر من كل من يستكبر من الخلق .

ثم عندما يأتي المصلي بالركعة الثانية يجلس عقب السجود الأخير ويقول : (التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) .

والحكمة فيها أن المصلي عندما يخرج من الصلاة فهو يريد الانصراف من حضرة مولاه فيثني عليه أبلغ الثناء بقوله : (التحيات لله) ، أي أن كل تحية وتعظيم لا يستحقهما في الحقيقة الا الله ، وهذه الصلوات التي نقيمها ينبغي أن لا تكون الا لربّ العالمين . ثم أمرنا الله بالسلام على النبي تنويهاً بذكره واظهاراً لفضله واقراراً برسالته وأداء لبعض حقه ، كما أن في السلام على الرسول معنى الميثاق والعهد معه على التمسك بالاسلام . وبعدها يقول المصلي : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .

وهنا اشارة الى معنى سام من معاني الاسلام وهو أنه دين يدعو الى السلم ويأمر أهله أن يحيوا به في الصلوات الخمس ، وأنه شعارهم الذي تنطق به شفاهم كل يوم ملايين المرات ، ثم يأتي بالتشهد وهو تجديد لعقد الايمان أمام الله قبل الانصراف من حضرته ، بعد هذا يصلي على النبي ، ثم يختار من الدعاء ما يحتاج اليه من خير الدنيا والآخرة ، ثم ينصرف من الصلاة مسلماً على من معه من الملائكة والمؤمنين ، وذلك بأن يلتفت إلى اليمين ويقول : (السلام عليكم ورحمة الله [1]) ويلتفت الى الشمال ويقول مثل ذلك ، وبهذا يقبل المسلم على الدنيا إقبالاً جديداً فيه معنى السلام والرحمة .

هذه هي الصلاة في الاسلام ، فهل ترى أيها القارىء أن من صلى هذه الصلاة يبقى فيه شيء من دنس الطباع أو ظلمات النفس ؟ هذا وقد كان من حكمة الله أن علم أن الانسان لا بد له من الاشتغال بأمور الدنيا ومقارفة ما يتلوث به أثناء الاشتغال بأمورها فأمر بتكرار الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة ، فهي بمنزلة الدواء الذي يتكرر أخذه كلما خيف من صولة المرض .

---

(١) فصلنا هنا فريضة الصبح ، وهي ركعتان ، وهناك صلاة الظهر والعصر والعشاء وكل واحدة منها اربع ركعات وصلاة المغرب ثلاث ركعات .

بعض حكم الصلاة في القرآن

تغيير الاعمال القبيحة

فالمصلي اذ يحس برهبة المثول بين يدي الحضرة الإلهية خمس مرات في اليوم والليلة ، لا بد أن يرسخ الايمان بالله في تفكيره وفي نظرته الى العالم المادي ، فيصبح ايمانه قوّة فعالة في حياته ، فترتدع نفسه عن الشهوات ، وتعدل عما كانت عليه من الآثام والمنكرات ، والى هذا المعنى يشير قوله تعالى:

﴿ وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ العنكبوت : ٤٥ .

ففي هذه الآية يأمر الله سبحانه باقامة الصلاة ، واقامة الشيء هو الإتيان به إتياناً كاملاً يتحقق المقصود منه ، وهو التوجه الى الله ، والخشوع الحقيقي له ، مما يحول بين الانسان واقتراف الفواحش والمنكرات ، فإذا خلت صورة الصلاة من هذه المعاني لم يصدق على المصلي أنه أقام الصلاة . وعلى هذا فالصلاة ليست هي الصورة الشكلية المعهودة من القيام والركوع والسجود والتعبد بالألفاظ التي يسهل على كل فرد أن يتعودها . وقد توعد الله الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة بقوله :

﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون[1] ﴾ الماعون : ٤ ، ٥ .

غرس خلق الشجاعة والجود

الانسان غير ثابت في أحواله ، إن رزقه الله خيراً بطر وبخل ، وان اصابه الشر جزع ، فإذا ادى الصلاة توطنت نفسه على الثبات وقوة الجأش ، واستندت الى ركن متين ألا وهو خالق البشر ورازقهم مما يذكره بفضل الله عليه وما اوجب عليه من فعل الخير ، فينفق عندئذ من أمواله في سبيل المنفعة العامة

---

(١) يظن البعض ان حضور القلب في جميع أجزاء الصلاة من أصعب ما تقوم به النفس لغلبة الخواطر على ذهن المصلي ، وانما عرض لهم هذا الظن الخاطىء من شدة الغفلة وجهلهم بروح الصلاة ، وعلاج ذلك : هو ان لا ينطق المصلي بلفظ إلا ويستحضر معناه في ذهنه . فاذا أخذ المصلي على نفسه ان يتصور المعاني من ألفاظها التي ينطق بها فقد أقام الصلاة .

امتثالاً لأمر الله، والى هذا المعنى يشير القرآن : ﴿ ان الانسان خُلِقَ هلوعاً . إذا مَسّه الشر جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً . إلاّ المصلين ﴾ .

ويشير القرآن الى اثر الصلاة في تخفيف المصيبة بقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ اي استعينوا ايها المؤمنون على مصائب الحياة بالصبر والصلاة التي تزيد بها الثقة بالله وتصغر بمناجاته فيها كل الهموم .

تنمية ملكة حصر الذهن

فالانسان عندما يهرع الى الصلاة ويتوجّه الى الله بالعبادة تتنازعه افكار متعددة فيحاول أن يطردها ليحلّ محلها استحضار عظمة الله ولذة مناجاته ، وان هذا العمل الذي يقوم به المصلي لطرد الأفكار التي تتنازعه يحتاج الى عزم وصبر ، ورهبة من الله ، وهو ما يسمى بالخشوع .

والقرآن رتب على الخشوع في الصلاة الفلاح في الدنيا والآخرة . قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ المؤمنون : ١، ٢ فالخاشعون هم الخاضعون لله والخائفون منه ، وفسر الفخر الرازي الخشوع في الصلاة بأنه : جمع الهمة لها والاعراض عما سواها ، وهذا الخشوع هو وسيلة لتنمية ملكة حصر الذهن التي لها أكبر الأثر في نجاح الانسان في هذه الحياة ، ولهذا يحسن بنا أن نعرّفها ونرى مبلغ أهميتها في نجاح الفرد . يقول (وليم مولتون مارستن) الاخصائي في علم النفس في مجلة المختار من (ريدرز دايجست) : « القدرة على تركيز الخواطر تجري مجرى العادة عند كل رجل بارز في كل باب من أبواب الحياة . ففي أية لحظة معينة يركز الزعيم او الرجل الفائق في أمر ما ، خواطره كلها في العمل المفرد الذي يكون عليه ان ينهض به . واكثرنا تنقصه هذه القدرة على التركيز ، ويحيره ويفسد عليه امره الاضطراب والشواغل والاهواء المتعارضة » ثم يقول : « والعقل الإنساني يصبح أداة مدهشة الكفاءة اذا ركّز تركيزاً قوياً حاداً » .

ثم يقول (وليم مولتون) في كيفية اكتساب هذه الصفة : « ..هذه القدرة تكتسب بالمرانة ، والمرانة تتطلب الصبر ، فان الانتقال من الشرود الى حصر الذهن حصراً بيناً محكماً ، هو ثمرة الجهد الملح ، فاذا استطعت ان ترد عقلك مرة بعد أخرى ، وخمسين مرة ، ومئة مرة الى الموضوع الذي اعتزمت معالجته

فان الخواطر التي تتنازعك لا تلبث ان تخلي مكانها للموضوع الذي آثرته بالاختيار والعناية ثم تلفي نفسك آخر الأمر قادراً على حصر ذهنك بارادتك فيما تختار » .

ونستطيع ان نقول : ان الصلاة في الإسلام تساعد على تنمية ملكة حصر الذهن في الإنسان فالمصلي الذي يستطيع ويحاول بكل قدرته ان يحصر فكره طيلة الوقت الذي تستغرقه الصلاة وهو ما يسمى بالخشوع ، لا شك بأنه تنمو فيه ملكة حصر الذهن وتصبح له اكبر معين في سائر الأعمال التي يزاولها .

ومما يزيد في تأييد هذا المعنى قول وليم مولتون أيضاً : « وخير ما يمسك الالتفات ويمنعه ان يتوزع هو ان يعمل العقل والجسم معاً بالاتحاد فيما بينهما » والصلاة في الاسلام يعمل العقل فيها والجسم معاً ، فالمصلي يركع ويسجد وهو يقوم بطقوس العبادة .

تقوية النفس الانسانية

أثبتت الدراسات في النفسية الانسانية على فائدة الصلاة والعبادة فقد أجرت مصلحة تشغيل المتعطلين بمدينة نيويورك اختباراً نفسياً على ١٥٣٢١ نفساً من الرجال والنساء المتعطلين ، وفي ضوء هذه الاختبارات أمكن توجيه كل منهم الى المهنة المناسبة له وقد عين الدكتور (هنري لنك) أحد علماء النفس التجريبي مستشاراً خاصاً في هذه العملية وكلف وضع الخطط ومراقبة الدراسات الاحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ، فيقول في ذلك : « وفي هذا الوقت بالذات بدأ ادراكي لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان إذ وجدت ان كل من يعتنق ديناً أو يتردد على دار العبادة يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يزاول أية عبادة »[1] .

والاسلام عرف هذه الحقيقة ودعا اليها ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تُفلحون ﴾ الحج : ٧٧. ولذا فرض الله صلاة الجمعة مرة كل أسبوع في المسجد ، ووصفها بأنها خير للنفس الإنسانية ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نوذي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذِكْرِ الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾

---

(١) من كتاب « العودة الى الإيمان » تأليف الدكتور هنري لنك ترجمة الأستاذ ثروت عكاشة .

الفصل الخامس عشر

الصوم في الإسلام

روح الصيام – بعض حكم الصوم وفوائده – تلطيف الإسلام من شدة الصوم .

الصيام في اللغة : الامساك والكف عن الشيء ؛ وفي اصطلاح علماء الشرع : الامساك عن الاكل والشرب والاتصال الجنسي ، من الفجر الى غروب الشمس ابتغاء مرضاة الله . والأصل في فرضيته ما جاء في القرآن :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سَفَر فَعدّة مِنْ أيام أُخَر وعلى الذين يُطيقونه فِدْيَةٌ طعام مسكين ، فمن تَطَوّع خيراً فهو خير له ، وان تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون . شَهْرُ رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هُدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ، فمن شَهِدَ منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فَعِدّة من أيام أُخَر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ البقرة : ١٨٣ – ١٨٥ .

فرض الله على المسلمين الصيام بهذه الآيات وأبان احكامه ، واليك ايها القارىء الكريم شرح هذه الآيات :

فالله سبحانه يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ .

بيّن الله للمسلمين ان تشريع الصوم ليس جديداً في الشرائع السماوية وانما هو تشريع قديم شرع للأمم السابقة أيضاً ، ولا شك ان في هذا ما تستريح له

النفوس ، وييسر القبول والطاعة وعدم الشعور بالحرج لأن المسلمين ليسوا منفردين بما يطالبون به .

روح الصيام في الإسلام

بعد هذا عقب الله بالغاية من الصيام بقوله : (لعلكم تتقون)[1] اي تتخذون من الصيام وقاية تحول بينكم وبين الميول المرذولة والمنكرات . والصوم يقي الشخص في مفرده والمجتمع في مجموعه ، فهو يقي الشخص ان يكون حيواناً يعمل بشريعة الغاب ، ويقي المجتمع بتهيئة الفرد الصالح العامل على خيره فيكون إنساناً مع إنسان لا حيواناً ضارياً مع إنسان ، ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الصوم جُنّة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث[2] ولا يجهل[3] ، وان امرؤ قاتله او شاتمه فليقل : إني صائم ، إني صائم) .

والصوم جنّة ، أي وقاية ، والمراد ان يعتقد الصائم أنه صام ليتقي شر حيوانيته . وعندما يقول : إني صائم يتذكر أنه في انسانيته وليس في حيوانيته .

واذا اتقى الانسان شرور نفسه ، واذا وقى المجتمع من شروره فقد بلغ رضى الله وصار في مصاف المتقين ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى : (لعلكم تتقــون) .

ومعنى (لعل) الاعداد والتهيئة ، واعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأناً : أن أمر الصيام موكول الى نفس الصائم لا رقيب عليه الا الله ، فإذا ترك الصائم شهواته التي تعرض له أثناء الصوم امتثالاً لأمر الله تعالى ، وراض نفسه على الصبر كلما أغرتها الطيبات والشهوات شعوراً منه بأن الله تعالى يراقبه ، وأنه مطلع على سر نفسه ، وتكرر منه ذلك شهراً كاملاً ، فلا جرم أن يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة مراقبة الله تعالى وخشيته ، والحياء من الله ان يراه حيث نهاه ، والقدرة على ترك ملذات يجمل به ان يتخلى عنها ، كما أن مراقبة الله تؤهله لكل أعمال

---

(١) التقوى : مأخوذة من مادة (الوقاية) وهي حفظ الشيء عما يضره، والمراد هنا حفظ النفس عما يؤثم .

(٢) فلا يرفث : المراد بالرفث ، الكلام الفاحش، وهو يطلق ايضاً على الجماع وعلى مقدماته .

(٣) ولا يجهل : لا يفعل شيئاً من أفعال أهل الجهل ، كالصياح والسفه ونحو ذلك .

الخير وتبعده عن الشر ، فلا يخدع ولا يغش ، ولا يظلم ، ولا يهضم حقاً ؛ ولا يسعى في الفساد بين الناس .

أما مجرد الإمساك عن الطعام والشراب مع عدم مراقبة الله تعالى مما يسهّل عليه ارتكاب الآثام فليس هو الصيام الذي فرضه الله على المؤمنين ، ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[1] .

فروح الصيام في الاسلام مراقبة الله فيه وكونه لوجهه . ويؤيد ذلك ما ورد عن الرسول أيضاً : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غـُفـِرَ له ما تقدم من ذنبه[2])

كذلك يعد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله من جهة أن الصوم يخفف الشهوة التي هي أم المعاصي ، ولهذا يقول الرسول ﷺ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة [3] فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[4])[5] .

بعض حكم الصوم وفوائده

وللصوم حكم كثيرة وفوائد جمة من الناحيتين الاجتماعية والفردية منها : العطف على المساكين ، لأن الصائم عندما يجوع يتذكر من هذا حاله في عموم الأوقات فيحمله هذا التذكر على رحمة المساكين ، لأن الرحمة في الانسان تنشأ عن الألم ، والصيام طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ، ومتى تحققت رحمة الغني للفقير الجائع أصبحت للكلمة الانسانية الداخلية سلطانها النافذ ، لهذا روي : (ان رسول الله كان اجود الناس وكان اجود ما يكون في رمضان [6]).

ومن حكم الصوم : المساواة بين الأغنياء والفقراء ، فهو نظام عملي من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة ، فهذا الصوم فقر إجباري يفرضه

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) الباءة : القدرة على الزواج جسمياً ومالياً .
(٤) وجاء : قطع للشهوة .
(٥) رواه البخاري ومسلم .
(٦) رواه البخاري ومسلم .

الاسلام فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم ، فقر إجباري يراد به إشعار النفس الانسانية بطريقة عملية ان الاشتراكية الصحيحة حين يتساوى الناس في الشعور ، لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون باحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بالرغبات المتعددة .

ومن حكم الصوم : إضعاف سلطان العادة ، فقد بلغ ببعض الأفراد سلطان العادات الى حد الاستعباد ، فلو تأخر عنهم الطعام عن موعده فأصابهم الجوع لساءت أخلاقهم ، وقد يكون سلطان المكيفات من القهوة والشاي والتدخين اشد من سلطان الطعام على أهله ، فهؤلاء يعتبرون مستعبدين لعاداتهم ، فإذا اضطروا في حين من الزمان الى تغيير نظام حياتهم كما يحدث في أيام الحروب ، لم يستطيعوا هذا التغيير والصمود أمام تبعات الحروب التي تفرضها عليهم »[1] .

ومن حكم الصوم : تقوية الارادة ، فقد وضع الاستاذ الالماني (جيهاردت) كتاباً في تقوية الارادة جعل أساسه الصوم ، وذهب فيه الى انه هو الوسيلة الفعالة لتحقيق سلطان الروح على الجسد فيعيش الانسان مالكاً زمام نفسه ، لا أسير ميوله المادية .

هذه بعض حكم الصوم اخترناها من كثير ، وهي بلا ريب علاج ناجع لكثير من الامراض النفسية والاجتماعية بالاضافة الى هذا ما فيه أيضاً من الفوائد الصحية[2] .

تلطيف الأسلام من شدة الصوم

إن من الناس من يتفق ان يكون مريضاً في شهر رمضان ، او يكون على سفر ، والسفر مرهق للجسم ، فاقتضت حكمة الله ان يخفف وطأة الصيام عن هؤلاء فقال : ﴿فمن كان منكم مريضاً[3] او على سفر[4] فعدة من أيام أخر﴾

---

(١) اقتبسنا هذا المعنى عن أحد البحوث للأستاذ محمد فريد وجدي .

(٢) راجع بحث (صحة الابدان في الاسلام) في هذا الكتاب .

(٣) المرض المبيح للفطر هو الذي يؤدي عادة الى ضرر في الجسم أو زيادة في العلة . أما المريض الذي لا يضره الصوم فلا يرخص له في الإفطار .

(٤) كانت المسافة التي يباح للمسافر فيها الإفطار مسيرة يوم وليلة بسير متوسط وهو سير الإبل وسير الأقدام ، وتقدر هذه المسافة بحوالي ست وثمانين كيلومتراً ونصفاً ، فمن قطع هذه المسافة في يوم وليلة او ساعة كان له ان يفطر ويصوم بدله .

اي من كان مريضاً او مسافراً فله ان يفطر أيام سفره ويصوم بدلها في غير رمضان في حالة صحته .

ثم قال الله تعالى: ﴿ وعلى الذين يُطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ . والإطاقة نهاية درجات الاستطاعة والقدرة على الشيء ، فلا تقول العرب أطاق الشيء إلا اذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف ، بحيث يتحمل معه مشقة كبيرة ، فالمراد بالذين يطيقونه هنا الشيوخ الفانون والضعفاء والمراضع والحوامل والمرضى الذين لا يرجى شفاؤهم ، فهؤلاء لهم ان يفطروا ويطعموا بدلاً عن كل يوم مسكيناً مقدار ما يشبع الرجل المعتدل ولا قضاء عليهم[1] .

ثم قال الله تعالى بعد ذلك : (فمن تطوّع خيراً) بأن زاد على القدر المذكور في الفدية أو أطعم عن اليوم الواحد أكثر من مسكين ، أو جمع بين الصوم والفدية (فهو خير له) لأن فائدته وثوابه له . ثم عقب على ذلك بقوله : ﴿ وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون ﴾ أي تعلمون ما في الصوم من فضيلة وخير : ﴿ شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن ، هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ﴾ .

هذا الشطر من الآية تتمة لبيان تلك الأيام المعدودات التي كتبت على المسلمين وهي أيام شهر رمضان ، وان الحكمة في تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة هي أنه الشهر الذي أُنزل فيه القرآن وافيضت على البشر فيه هداية الله . والمراد بإنزال القرآن فيه ابتداء نزوله .

﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ المراد بالشهر هنا الهلال ، فقد كانت العرب تعبر عن الهلال بالشهر ، فعلى كل من رآه أو ثبتت عنده رؤية غيره ، عليه أن يصوم . ويثبت شهر رمضان بأحد أمرين :

الاول ، ثبوت رؤية الهلال فعلياً إذا كانت السماء صافية .

الثاني ، اذا كانت السماء غائمة ويستحيل معها رؤية الهلال فيجب اكمال شهر شعبان ثلاثين يوماً ثم يبدأ الصيام بعد ذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم : (صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته، فإن غمّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين)

أما سكان بلاد الشمال الذين يطول ليلهم ونهارهم ، وقد يصل في بعض الجهات القطبية الى شهور ، فهؤلاء يقدرون أوقات صيامهم على البلاد المعتدلة التي وقع فيها التشريع كمكة والمدينة ، وقيل على أقرب بلاد معتدلة اليهم .

---

(١) مذهب الإمام ابي حنيفة : ان يطعم المسكين أكلتين مشبعتين ، او يعطيه مقدار صدقة الفطر .

الفصل السادس عشر

الحج في الإسلام

قصة بناء الكعبة – روح الحج في الإسلام – الاحرام وحكمته – حكمة الطواف حول الكعبة – حكمة السعي بين الصفا والمروة – حكمة الوقوف بعرفة – شهادة في الحج .

الحج لغة : القصد الى معظّم ، وفي الشرع الاسلامي : قصد البيت الحرام بمكة للعبادة . والحج من الشؤون الدينية التي كانت تعرف من لدن أقدم العصور عند جميع الامم .

وكان العرب قبل الاسلام يحجون الى البيت الحرام الذي بناه ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام في مكة .

فلما جاء الاسلام أقر الحج ولكنه لم يدعه على ما كان عليه في عهد الجاهلية ، فإن بعض العرب كانوا يطوفون بالبيت الحرام عراة الأجساد مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون ، وقد سجل الله عليهم هذه الحالة فقال مستنكراً : ﴿وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء[1] وتصدية [2]﴾ الانفال : ٣٥ .

وعندما قوي الاسلام طهّر الكعبة من جميع مظاهر الشرك والجهل والوثنيــة .

قصة بناء الكعبة

الكعبة هي الموطن الاساسي لأداء فريضة الحج لذا يجدر بنا أن نلم بقصة

(١) المكاء : الصفير .
(٢) التصدية : التصفيق .

بنائها : إن بناء الكعبة يرجع الى عصر ابراهيم الخليل عليه السلام ، فقد فشت عبادة الاصنام في ذلك الزمن وهجر الناس عبادة الله ، فهاجر ابراهيم من بلاد الشام موطن آبائه وأجداده ومعه زوجته هاجر وولدهما اسماعيل واتجه جنوباً حتى حط رحله في بادية الحجاز بعيداً عن الناس ليكوّن أسرة تعبد الله وحده .

وعندما شب اسماعيل وبلغ أشده ، أمر الله تعالى ابراهيم ان يقيم مصلى لتجتمع حوله الناس لعبادة الله وذكره وشكره على ما أنعم عليهم . وقد ذكر الله ذلك الحادث بقوله : ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد[1] من البيت واسماعيل، ربنا تقبّل منّا انك أنت السميع العليم ﴾ البقرة : ١٢٧ .

فلما أتم ابراهيم واسماعيل البناء أمرهما الله ان يحافظا عليه ويبعدا عنه كل رجس سواء أكان مادياً كالاقذار ، ام معنوياً كالاشراك بالله ، قال تعالى :

﴿ ... وعَهِدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ البقرة : ١٢٥ .

فالكعبة هي اول بيت وضع للناس لعبادة الله وحده كما يقول الله تعالى :

﴿ إن أوّل بيت وُضع للناس للذي ببكة [2] مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾ آل عمران : ٩٦ ، ٩٧ .

مات ابراهيم وتبعه اسماعيل عليهما السلام ، وطال الزمن فأدخل الناس في أمور الحج أشياء منكرة من الشرك وعبادة الأصنام، لهذا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم للقضاء على الشرك والرجوع الى توحيد الله كما دعا اليه ابراهيم عليه السلام . قال الله تعالى مخاطباً أمة محمد ﷺ :

﴿ ... هو اجتباكم[3] وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ... ﴾ الحج : ٧٨ .

روح الحج في الإسلام

والحج في الاسلام ، يختلف كل الاختلاف عن الحج في سائر الاديان اذ أن الحج عندها عبارة عن التبرك بقبور القديسين وما تركوه من آثار ومبان ،

---

(١) القواعد من البيت : أسسه وجدرانه .

(٢) بكة : مكة المكرمة .

(٣) اجتباكم : اختاركم .

وهذا ما كرهه الاسلام ونفر منه . وكان أفضل الحج عندها ما حمّل الانسان نفسه في سبيله من المشاق ، أما الاسلام فإنه كره ان يرهق فيه أحد نفسه ولو تطوعاً رغبة في زيادة الأجر . فقد روي ان النبي رأى رجلاً ماشياً يتهادى بين ولدين له يريد الحج فسأل عن شأنه فقيل : يا رسول الله إنه نذر أن يزور البيت ماشياً ، فقال : كلا ، ان الله غني عن تعذيب هذا نفسه ، احملوه ، (أي على بعير) .

فالاسلام يعتبر الحج وسيلة لتحقيق الفوائد الروحية والادبية والاجتماعية والاقتصادية ، وتنطق بذلك هذه الآية : ﴿ وأذّن[1] في الناس بالحج يأتوك رجالاً[2] وعلى كل ضامر[3] يأتين من كل فج عميق[4]. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ الحج : ٢٧ ، ٢٨ .

تأمل قوله تعالى : (ليشهدوا منافع لهم)، وقد فسر العلماء المنافع بأنها : دينية ودنيوية معاً ، والدين والدنيا في نظر القرآن مترابطان ترابط الروح بالجسد ، فإذا كان الدين يمدّ الروح بالايمان الصحيح والآداب ، فإن امور الدنيا تمدّه بأسباب البقاء ودواعي الارتقاء . فلو أردنا أن نستقصي ما يمكن أن يثمره الحج للمسلمين كافة من وجوه المنافع الادبية والمادية لضاق بنا المجال .

فالحج مؤتمر عام لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم الى مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر .

ويتبع هذا أيضاً ناحية لا تقل أهمية عن الاولى ان لم تكن تفوقها قوة ، تلك هي الناحية الاقتصادية ، فإن لكل شعب من الشعوب الاسلامية صناعات ، ونبوغاً وإن لبلادهم منتوجات لا توجد عند سواهم ، وبواسطة هذا المؤتمر العام يمكن ابرام اتفاقات على تبادلها فيما بينهم ، وان مثول أصحابها في مجتمع عام يلي الحج يسهّل عليهم تدارس الوسائل المختلفة لتسهيل أمر ذلك التبادل الثقافي والاقتصادي وجعله أمراً واقعياً بتذليل ما عسى أن يقوم أمامه من العقبات.

---

(١) التأذين : الإعلام ، أي أعلم الناس بان الله أمر بالحج .
(٢) رجالا : جمع راجل وهو الماشي على قدميه .
(٣) ضامر : أي حيوان مركوب .
(٤) فج عميق : مكان بعيد .

من يجب عليه الحج : والحج فرض على : المسلم، العاقل ، البالغ ، الصحيح البدن ، الذي يملك زاد السفر ، واجرة الانتقال ، كما أنه يملك من المال ما يمكن عياله من النفقة على أنفسهم في بحبوحة حال سفره ، على أن يكون هذا المال الذي يملكه خالصاً من الدَّيْن وحقوق الغير ، خالياً من الربا والمحظورات ، مدفوعاً عنه فريضة الزكاة ، وأن يكون فوق ذلك كله الطريق الى مكة مأموناً .

وأركان الحج هي : (١) الاحرام (٢) طواف الزيارة (٣) السعي بين الصفا والمروة (٤) الوقوف بعرفة (٥) حلق شعر الرأس او تقصيره (٦) ترتيب هذه الأفعال . واليكم بيان كل ركن من هذه الاركان : [١]

الاحرام وحكمته

كانت العرب تضرب الحمى لمراعيها ، اي تجعل لها حدوداً لا تتعداها القبائل الاخرى ، وكان العزيز منهم من يتخذ له متسعاً من الارض يجعله حمى له ، الى ان جاء الاسلام فأبطل كل حمى إلا حمى الله ، وجعل لبيته (اي الكعبة) حرماً ومواقيت لا يتعداها من يريد الدخول الى الحرم إلا اذا كان على وصف معين .

فإذا دخل المسلم في الاحرام حَرُمَ عليه ان يتخذ اي وسيلة من وسائل الرفاهية والزينة ، فلا يتطيب بأي طيب ، ولا يلبس من الثياب ما فصّل على الجسم وخيط من حلة وقميص ، ولا ينتعل حذاء ساتراً للرجل إلا نعلاً ساذجة ، ولا يتزين بالخواتم وما اشبه ذلك ، ولا يحلق[٢] ولا يقصّر أظافره ، ولا يقرب النســاء .

وحكمة الامتناع عن هذا كله : ان الحج عبادة ، الغرض منها التقرب الى الله ، والوصول الى ما أعدّه سبحانه للنفس المحسنة من حسن الجزاء . ولا يكون ذلك عادة الا بإبعاد النفس عن شهواتها ، وخروجها عن مألوفها ، وكفّها عن لذائذها .

ومظهر هذا الاقتصار على الضروريات من الحياة ، والتجرّد لله في جميع الحركات والسكنات .

---

(١) هذه الأركان بمقتضى مذهب الإمام الشافعي .

(٢) إذا ما انتهى الحاج من أعمال الحج وجب عليه الغسل والحلق .

ومن حكمه أيضاً : أنه يوحي للنفس بالتقشف والزهد في متع الحياة ، والسمو والارتفاع فوق المادة ، وفوق ما اعتادت ان تخضع له من شهوات جسدية .

إنها لرياضة ترجع النفس الى طبيعتها الاولى ، ونحن في الفترات القليلة التي نعود فيها الى طبيعتنا نشعر أننا أزكى أرواحاً وأطهر قلوباً .

كما أن الحكمة من ذلك : رياضة النفس على المشقة واحتمال المكروه . لقد كان لنظام الكشافة الذي ابتدعه (بادن باول) نتائج حميدة في تربية نفوس النشء على قوة الاحتمال مما جعل كثيراً من الامم توليه عنايتها ، وإنه ليسوغ لنا القول : إن رياضة الاحرام أعظم أثراً في النفس من رياضة « الكشفية » فإن المشقة في الاحرام أثقل حملاً وأطول مدة ، وهي في جوّ ديني يجعل تأثيرها على النفس أعظم ، وفائدتها أكثر .

كما ان هذا المظهر العام الذي يظهر فيه الحجاج في هذا اللباس الموحد ، الغني مثل الفقير ، يحمل معنى المساواة والأخوة الشاملة التي يحرص الإسلام على غرسها في نفوس اتباعه .

الإحرام والسلام : يقول المحرم عندما يرى البيت الحرام : « أللهم أنت السلام ومنك السلام حيّنا ربنا بالسلام ، أللهم زد هذا البيت تشريفاً وتكريماً ومهابة ، وزد من حجّه أو اعتمره تكريماً وتشريفاً » .

هذا الدعاء يدل على أن من أهداف الاسلام في الحج غرس حب السلام في النفوس، واستئصال روح الكراهية والبغضاء منها، وتوجيه الناس إلى أن يعيشوا إخوة متحابين . ويؤيد هذا المعنى ما جاء في القرآن : ﴿ الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ البقرة : ١٩٧ . فرض الله في هذه الآية على المحرم أن يكون وديعاً مسالماً لا يخاصم أحداً ، فهي تأمره بأن يجتنب فيه الرفث[1] أي الفحش في الكلام ، وأن يترك الفسوق فلا يخرج عن طاعة الله ولا يرتكب شيئاً من المحظورات ، وأن يدع الجدال فيه أيضاً ، اي الخصام .

ولغرس حب السلام في الأنفس حرّم الاسلام على المحرم أن يقتل الحيوان

---

(١) الرفث : يأتي ايضاً بمعنى الجماع .

البري سواء اكان أكله مباحاً أم غير مباح . قال الله تعالى :

﴿ أُحِلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة، وحُرِّم عليكم صيد البر ما دمتم حُرُماً واتقوا الله الذي اليه تحشرون ﴾ المائدة : ٩٦ .

إن الدعوة الى السلم في الحج في أشمل معانيه يريد أن يغرسها الاسلام في متبعيه بالمرانة والتدريب ، عن طريق العبادة .

الخضوع والانقياد لله : يردد المحرم بصوت مرتفع هذه التلبية في كل فرصة وعند كل مشهد : « لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » . إن هذه الكلمات بمنزلة النشيد الذي ينشده الجند في ساحة الحرب ، فتشع فيهم روح الحماسة والاقدام . والغاية من ترديد هذه التلبية أن يلقي الانسان مقادته لله، وأن تتحطم كبرياؤه لكي يعيش كما أمره الله أن يعيش مخلوقاً وديعاً واقفاً عند الحدود التي شرعها له .

حكمة الطّواف حول الكعبة

يطوف الحاج سبعة أشواط حول الكعبة جاعلاً الحجر الأسود نقطة الابتداء . والطواف حول الكعبة هو بمثابة تحية للكعبة التي هي أول بيت وضع لعبادة الله وحده .

والحجر الأسود[1] هو حجر الزاوية للكعبة ، وقد وضع هناك كشعار أو رمز الى أن هذا هو الذي خلفه ابراهيم . وقد كان العرب يحتفظون به كلما تغير البناء . ثم إن الطواف حول الكعبة تشبّه بالملائكة الحافين بعرش الله ، الطائفين حوله، المسبحين له ، لا يفترون . وفي هذا من سمو الروح ما فيه . هذا والمسلمون في صلاتهم يتوجهون شطر الكعبة خمس مرات في اليوم أو أكثر فيجب عليهم إذا ذهبوا لأداء فريضة الحج ان يطوفوا محيين هذا المكان الذي بناه ابراهيم لعبادة الله وحده .

---

(١) روى الترمذي عن النبي قوله : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم . ولقد قبله النبي عند طوافه بالبيت ، ولعل النبي قبّله لأنه أثر من الجنة . والمسلمون لا يعبدون الحجر الأسود بل يخصونه بنوع من الاحترام والإجلال لمكانته ، وفي تقبيل المسلمين له اقتداء بالنبي ﷺ . ولقد قال إمام المسلمين عمر بن الخطاب وهو يقبله : « والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » .

حكمة السعي بين الصفا والمروة

السعي هو السير بسرعة تزيد على المشي وتقل عن الركض. وقد كان السعي بين الصفا والمروة من أركان الحج في الجاهلية فأبقاه الاسلام كذكرى لحادثة تاريخية، فإن أول من سعى بين الرابيتين هي ام اسماعيل زوجة ابراهيم عليه السلام باحثة عن الماء لولدها الظامىء اسماعيل. وقد احتفظ الجاهليون بهذه العبادة إلا أنهم وضعوا على كل من الرابيتين صنماً يقال لأحدهما: (أساف) وللآخر: (نائلة)، فلما جاء الاسلام كسر جميع الاصنام وأبقى السعي بين الصفا والمروة نقياً من شوائب الشرك والوثنية، وقد احتفظ الاسلام بالسعي بين الصفا والمروة أيضاً لانه يوافق مبادىء الاسلام من حيث بث النشاط في جسم الحاج وهو أشبه بالتمارين العسكرية الرياضية.

وفي السعي بين الصفا والمروة لجوء الى الله في كشف الضر، وغفران الذنوب، وصلاح النفوس، لأن في ذلك الموضع كشف الله الضر عن هاجر وولدها اسماعيل، وفجّر لهما نبع ماء (زمزم) بعد ان كاد العطش يودي بهما.

حكمة الوقوف بعرفة

من أركان الحج الوقوف بعرفة في التاسع من ذي الحجة، ومزايا هذا الوقوف كثيرة، فهو مؤتمر يحضره سنوياً مئات الألوف من الحجاج يأتون من مختلف انحاء العالم، يجتمع فيه الباكستاني والمصري والعراقي والأردني والاندونيسي والتركي والسوري واللبناني والليبي والمغربي والجزائري والتونسي وسائر وفود الأقطار الاسلامية، يقفون في صعيد واحد يدعون الله ويسألونه الرحمة وغفران الذنوب. وهذا الموقف الذي تظهر فيه المساواة بين الناس، هو أعظم مظهر يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها.

ومن حكم الوقوف بعرفة: تجديد الشخصية والانخلاع من الماضي المشوب بالإثم والباطل، وتجديد العهد مع الله على استئناف حياة نظيفة مستقيمة، يقول الرسول عليه السلام: (من حج لله فلم يرفث[1] ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[2].

---

(١) يرفث: الرفث الفعل السيء والكلام البذيء.
(٢) رواه البخاري.

شهادة في الحج

ونختم هذا الموضوع بما قاله الدكتور فيليب حتي في كتابه (تاريخ العرب) عن الحج عند المسلمين :

« ولا يزال الحج على كر العصور نظاماً لا يبارى في تشديد عرى التفاهم الاسلامي والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين ، وبفضله يتسنى لكل مسلم أن يكون رحالة مرة على الأقل في حياته ، وان يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعاً أخوياً ، ويوحد شعوره مع شعور سواه من القادمين من أطراف الأرض . وبفضل هذا النظام يتيسر للزنوج والبربر والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم اغنياء كانوا أم فقراء ، عظماء ام صعاليك ان يتآلفوا لغة وايماناً وعقيدة . وقد ادرك الاسلام نجاحاً لم يتفق لدين آخر من اديان العالم في القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية خاصة بين ابنائه فهو لا يعترف بفاصل بين أفراد البشر الا الذي يقوم بين المؤمنين وبين غير المؤمنين . ولا شك أن الاجتماع في مواسم الحج أدى خدمة كبرى في هذا السبيل »[1] .

(١) تاريخ العرب جـ ١ ص ١٨٧ ط ٢ .

الفصل السابع عشر

العلم في الإسلام

الصراع بين العلم والدين في اوروبا – منزلة العلم في الإسلام – الإسلام دين الحجة والبرهان – الإسلام دين اليقين لا الظن – الإسلام عدو التقليد – الإسلام يدعو للأخذ بالأحسن – العقل في الإسلام – للكون نواميس ثابتة – التجارب والمشاهدات – العلم الذي يدعو اليه الإسلام – شهادة بعض علماء الغرب في مدنية الإسلام .

ذاعت بين الأوروبيين في القرن الماضي تهمة خاطئة مؤداها : ان الاسلام كان حرباً على حرية الفكر ، وانه كبت جميع الحركات العلمية ، وحارب العلم والفلسفة وكان العالم الفرنسي « ارنست رينان » ابرز دعاة هذه التهمة بما أعلنه في كتابه : « الاسلام والعلم » .

ونحن في هذا البحث سنعالج هذه الناحية على ضوء تعاليم القرآن ، وعلى شهادة التاريخ لبيان بطلان هذه التهمة الخاطئة التي فيها عداء للحق وافتئات على التاريخ .

الصراع بين العلم والدين في اوروبا

والحق أن الذين حاربوا العلم هم بعض القائمين على الأديان الاخرى ، فقد اجمع المؤرخون على ان العلماء الكونيين لقوا من رجال الدين في اوروبا طوال عهد القرون الوسطى ما يلقاه الخصوم من الخصوم ، فقد اسست محاكم خاصة لمحاكمة رجال العلم والفكر على ما يرتكبونه مما يعدّه رجال الدين مخالفاً لآراء

(ملاحظة) : من مراجع هذا البحث كتاب « في سنن الله الكونية » للأستاذ محمد احمد الغمراوي ، وبعض البحوث للعلامة محمد فريد وجدي نشرها في مجلة الأزهر .

الكنيسة . وكان اذا ثبت على احدهم شيء من ذلك استتيب ، واخذت عليه المواثيق بأن لا يعود اليه ، فإن عاد قبضوا عليه وألقوه حياً في النار ، او رموا به من عال الى مكان سحيق ، فأهلك على هذه الصورة في مدى القرون الوسطى كثير من العلماء من ذوي المكانة العالية ومن العباقرة المجددين .

استمرت الحال على ذلك حتى ضعف سلطان رجال الدين لنشوء الشقاق العظيم بينهم بظهور البروتستانية واعتناق ممالك برمتها هذا المذهب؛ والبروتستانية اضطرت لاجتذاب النفوس اليها ان تطلق الحرية للعقول، فخرج العلم منتصراً، ولكنه من فداحة ما لحقه من اضطهاد رجال الدين جعل بعض أنصاره أكبر همهم ليس الانتقام من رجال الدين فحسب ، ولكن من الدين نفسه ايضاً ، فوضعوا بعض المؤلفات للتدليل على سذاجة اصوله ، وزعموا : ان اصوله من اوهام الجماعات الاولية ، واكثروا من الحط من كرامة الدين في كل فرصة سنحت لهم ، حتى افضت هذه الحال الى نفور مستعص من الاديان ، والى انتشار الإلحاد بين كثير من الطبقات، وما زال ينتشر حتى اعتبر التمسك بالدين دليلاً على الجهل .

ولِنُعطِيَ القارىء مثلاً مما كان يهاجم به الدين في ظلال حرية الفكر، ننقل ما جاء في دائرة معارف لاروس القرن التاسع عشر تحت كلمة (دين) في كلامه عن رجال الدين : « ان قلنا : ان الذوق الانساني يقتضي اعتقاد الاشياء التي يمكن تعقلها يقولون : لا ، لا ، ثم يحاولون أذلال هذا العقل الانساني الذي يدعي لنفسه حق التمييز بين الخير والشر وبين العدل والظلم حتى اذا تم تعمية عين العقل وتغشية باصرة البصيرة ، الى حد ان تعتبر المعجزات اموراً عادية ، وان تتوهم الابيض أسود وان تعد الرذيلة فضيلة، يعود الدين فيهيب بالناس الى الطاعة ، فإن سألتهم نطيع من ؟ أنطيع عقولنا ، ام واجباتنا الطبيعية ، ام احساساتنا القلبية أنطيع القوانين المفيدة للانسانية ، والتي تنتج من تلك الأصول المتقدمة نفسها ؟ أجابوك : لا ، ولكن اطع وانت اعمى ... » .

منزلة العلم في الاسلام

اما الاسلام فقد فرض التطور على اهله فرضاً وذلك بالحض على العلم وتوجيه عنايته اليه توجيهاً خاصاً ، لأن الشخصية الانسانية لا يقوّمها ولا يرقيها

شيء غير العلم ، قال تعالى في الحض على العلم :

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، انما يتذكر أولو الألباب ﴾ الزمر : ٩ .

ففي هذه الآية من تشريف العلم ما فيه اذ حكم الله بأن أهله يمتازون على سواهم ، ثم حصر التذكر في أولي الألباب (أي أصحاب العقول) ولا مقوِّم للألباب غير العلم .

ثم نرى القرآن في آية اخرى يصرح بأن العلماء لهم درجات عند ربهم وميزات يخصهم بها :

﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ المجادلة : ١١

كما أن الله اعتد بشهادة أهل العلم في وحدانيته فقال :

﴿ شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط ﴾ آل عمران : ١٨ .

فقد ساوى الله شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة ، وفي هذا من رفع قدر أهل العلم ما فيه .

ومن ناحية أخرى نرى القرآن يسجل على الذين لا يعلمون حكماً لا يرضاه ذو ادراك لنفسه : ﴿ كذلك يطبع [1] الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴾ الروم : ٥٩

كما انه يبين ان لا حد للعلم : ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ يوسف : ٧٦. وذلك حتى يخفف العلماء من كبريائهم ، ويطلبوا المزيد من العلم ، ويعدوا انفسهم لتلقي نقد الناقدين .

ويطالب القرآن المسلمين بأن يطلبوا العلم ليهديهم الى القول الفصل في كل ما يرجون معرفته من حقائق علوية وكونية :

﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ طه : ١١٤ .

لم يكتف الاسلام بهذا في الدعوة الى العلم بل قرّر أصولاً تمنع من الجمود العقلي وتحمي من التحجر الفكري ، وهذا يتبين لنا من الأصول التي قررها وهي :

---

(١) يطبع الله على القلب : يختمه ويغلقه فلا يعي خيراً .

الاسلام دين الحجة والبرهان

العلم لا يقول عن شيء أنه حق الا اذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع ، والقرآن يأمر كذلك بأن لا يقبل الانسان شيئاً على انه حق الا اذا قام عليه البرهان : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هوداً [1] او نصارى تلك أمانيهم ، قل : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ البقرة : ١١١ .

ولا يجوز الايمان بشيء الا ببرهان ، والذين اشركوا تقليداً لسواهم سيحاسبهم الله على ذلك : ﴿ ومَن يدعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون ﴾ المؤمنون : ١١٧ .

ونرى في آية أخرى أن الله يطالب المشركين بالبرهان على ما اتخذوا من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز : ﴿ أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ النمل : ٦٤ .

فهذه الآيات القرآنية التي ذكرناها إعلان صريح بأن كل قول يجب ان يكون لصاحبه على صوابه دليل ، وأن كل من يلقى اليه هذا القول يجب ان يطالب بهذا الدليل والا ردّهُ .

الاسلام دين اليقين لا الظنّ

العلم يحذر كل الحذر ان يجعل يقيناً ما ليس بيقين ، وان ينزل الظن بمنزلة اليقين ، فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار متانة الحجة التي تشهد لها ، فإن كانت الحجة قاطعة فالقضية حق ، وإن كانت غير قاطعة فالقضية ظن .

وهذا التفريق العلمي في المنزلة بين ما هو حق وما هو ظن يتفق مع تعاليم القرآن الذي يأمر بالحذر من الظنون والاوهام ، ويعلل ذلك بأنهما كانا السبب في تضليل الناس وافساد معتقداتهم : ﴿ وان تُطِـع اكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون إلاّ الظن وان هُم إلاّ يخرصون ﴾ [2] الأنعام : ١١٦ .

---

(١) هوداً : يهودياً .

(٢) يخرصون : يكذبون .

ويقول الله تعالى في هذا المعنى : ﴿ وما يتبع اكثرهم الاّ ظناً ، ان الظن لا يُغني مِنَ الحق شيئاً ﴾ يونس : ٣٦ . مؤدى هذه الآية ان الناس لا يتبعون فيما يعتقدون الا الظن ، والظن تصوّر لا يستند الى دليل ، ويؤدي بصاحبه الى وهم باطل ، وهو لا يفيد ما يفيده الحق الذي عليه مدار الإيمان الصحيح .

والقرآن يأمر بالاعتماد على العلم اليقيني ، وينعى على الذين يجرون وراء الوهم والظن : ﴿ بل اتّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ الروم : ٢٩ .

ونرى القرآن من جهة اخرى ينعى على الدهريين الاعتماد على الظن :

﴿ وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هُم إلاّ يظنون ﴾ الجاثية : ٢٤ .

ويأمر الله تعالى المسلمين بأن يتقيدوا بهذا الأساس العلمي بقوله :

﴿ ولا تقْفُ ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾ الاسراء : ٣٦ .

ومعنى الآية : لا تتبع كل ما يقال لك مما ليس لديك عنه علم يقيني ، لأن الانسان يُسأل يوم الحساب عما تلقاه سمعه وادركه بصره ووعاه قلبه من المدركات غير المحققة التي قد تجر الى معتقدات ضالة او جهالات ضارة .

فالحكمة القرآنية بنص الآيات التي أوردناها أساسها العلم الثابت المحقق، لا الظن والفكر المجرد كما هو شأن الفلسفات التي كانت قبل الاسلام كاليونانية وغيرها ، وهذا طراز جديد من الحكمة لم يتطور الى شكل فلسفة الا في القرن التاسع عشر تحت اسم الفلسفة الوضعية (Positivisme) وهي احدث الفلسفات نشوءاً ، واعمها سلطاناً على العقول ، فقد تعبت الانسانية من الفلسفات الظنية وأنفت ان تنقض في كل جيل ما أبرمته ودانت له في الجيل السابق ، فضلاً عن أنه كثيراً ما أدت الظنيات الى بناء احكام خياليـــة وطوحت بأهلها الى مناح شتى من الخلافات .

هذا رأي الفلسفة الوضعية التي أساسها الدليل المحسوس الذي لا يُنقض في عهد من العهود المستقبلة وهو بعينه : اساس الحكمة القرآنية .

الإسلام عدوّ التقليد

العلم يمنع التقليد من غير وقوف على الدليل واقتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم القديم في هذا ، لأن العلم قديماً والآخذين به ، خصوصاً في القرون الوسطى من الاوروبيين ، كانوا كثيراً ما يقتنعون في الاستدلال على الصحة او البطلان بإثبات ان القضية توافق او تخالف رأي فلان من المشاهير ، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلاً يتخذ حجة قاطعة في موضوعه من غير ان ينظر في رأي أرسطو في ذاته ، ومن غير أن يُسأل ما دليل ارسطو .

والعلم في منعه التقليد الأعمى يتفق تماماً مع القرآن الذي شدّد النكير على اناس كانوا يتمسكون بالرأي ، لا لأنهم عقلوه ، ولكن لأن آباءهم فعلوه :

﴿ واذا قيل لهم : تَعَالوا إلى مَا أنزل الله والى الرسول ، قالوا ، حَسْبُنا مَا وَجَدْنا عليه آباءنا ، أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ المائدة : ١٠٤ .

وينفـّر الله من التقليد بقوله :

﴿ واذا قيل لهم : اتّبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا أَوَلَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون . وَمَثَلُ الذين كفروا كَمَثَل الذي يَنْعِقُ [١] بما لا يَسْمَعُ إلاّ دُعَاءً [٢] وَنِدَاءً [٣] صُمٌ بكمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يعقلون ﴾ البقرة : ١٧٠ ، ١٧١ .

فهذا النص القرآني صريح في أن التقليد بغير عقل واقتناع هو شأن الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا علم الاسلام وآمن به عن اقتناع لا عن تقليد . ثم صوّر الله حالة الكفار ومن يدعوهم إلى التوحيد ثم لا يقبلون عليه بحال البهائم والراعي حين يصيح بها لتقبل أو تدبر فلا تسمع إلا صوتاً أو ألفاظاً لا تعقل لها معنى (صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون) صم عن سماع دعوة الحق ، بكم عن إجابة الداعي اليه ، عمي عن رؤية آيات صدقه .

---

(١) ينعق : يصيح .
(٢) الدعاء : الصياح بالبهائم لتأتي .
(٣) النداء : الصياح بها لتذهب .

والقرآن يحذّر الشعوب من التقليد الأعمى للقادة والرؤساء الروحانيين ، فيصرّح بأن القادة ومن اقتدى بهم يتساوون في العذاب في الآخرة إذا كانوا على باطل : ﴿ إذ تبرّأ الذين اتُّبِعوا[1] من الذين اتَّبَعوا[2] ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾[3] البقرة : ١٦٦ .

مؤدى هذه الآية : أن المتبوعين في الحياة الدنيا يتبرأون من تابعيهم يوم القيامة ، ويرى كلاهما العذاب الذي ينتظره ، وتنقطع بينهم العلاقات .

هذه هي تعاليم الاسلام التي تقضي على التقليد الأعمى وتدعو الى ما كان موافقاً للعقل .

الاسلام يدعو للأخذ بالأحسن

والقرآن بعد أن نهى وزجر عن تقليد الآباء والانقياد الأعمى للقادة والزعماء. نهى أيضاً عن التقيد بوجهة نظر واحدة وذلك بدعوته للأخذ بالأحسن لأن أكثر الناس يتخذ مما سمعه في أول عهده بالنظر وما قرأه في بعض ما كتب ممّن يحسن الظن بهم ، سدوداً أمام كل ما يناقضها من الآراء والمذاهب الصحيحة ، فلهذا يظل على ضلاله ولا يحيد عنه .

فالأخذ بالأحسن نزعة جديدة في الاخلاص للحقائق لم تتجل على أكمل حالاتها إلا لدى مفكري القرن التاسع عشر الذين أدركوا : أن الحقائق المطلقة لايمكن أن تكون وقفاً على فلسفة مقررة محدودة بل يجب عليهم أن يأخذوا بأحسن ما يجدونه من جميع الفلسفات ، وإن أسلوباً واحداً من البحث لا يصح أن يحتكر أحسن طرق الوصول اليها ، وهذا المبدأ هو الذي دعت اليه الحكمة القرآنية منذ نحو أربعة عشر قرناً في قوله تعالى :

﴿ الذينَ يَسْتَمِعونَ القَوْلَ فيتّبعون أحْسَنَهُ أولئكَ الذين هَدَاهُمُ اللهُ وأولئك هُم أولو الألباب ﴾ الزمر : ١٨ .

---

(١) اتبعوا : ائمة الكفر الذين يحرمون ويحللون من غير ما أمر الله .
(٢) اتبعوا : أشياعهم الذين يتلقون أفعالهم بالتقليد .
(٣) الاسباب : القرابة ، المودة ، وغيرها .

ففي هذه الآية أمر الله المسلمين ان يسمعوا كل قول ، ويستعرضوا كل مذهب وان لا يحملهم التعصب للرأي أن يرفضوا أي رأي دون تفهم وتمحيص بل يأخذوا أحسن ما يجدونه ، وقد وصف الله الذين يفعلون ذلك : بأنهم المهديون هداية إلهية ، وبأنهم أهل العقول الراجحة والبصائر النيّرة .

وهكذا نرى ان الاسلام قرر لأهله من الأصول ما توصلت اليها أرقى الفلسفات بعد تطوّر دام قروناً كثيرة .

العقل في الإسلام

والأصل في العلم : تحكيم العقل في كل ما يعرض للانسان من أمر . والمراد بالعقل : العقل الذي استوفى شروط الفهم التي تؤهله لادراك ما يلقى اليه .

فالقرآن يحتكم الى العقل وينعى على من لا يستعمله فيذكر القرآن العقل باسمه وأفعاله زهاء خمسين مرة ، ويذكر كلمة (أولو الألباب) أي أصحاب العقول في بضع عشرة مرة، وكذلك جاءت كلمة (أولي النهى) في موضع واحد .

والقرآن يبيّن أن العقل نعمة كبرى ، وانه لا بد من استخدامه واللجوء الى حكمه . فيقول تعالى في تذييل كثير من الآيات القرآنية :

﴿ ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿ ولقد بيّنا الآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ .

ثم نرى القرآن يعيب على الذين يهملون استعمال العقل بأسلوب مؤثر يفعل في قارئه ما لا تفعله أقسى الزواجر :

﴿ ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ الأنفال : ٢٢ .

ويقول الله تعالى أيضاً في هذا المعنى : ﴿ أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ الفرقان : ٤٤ .

كما ان الله جعل اهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة كقوله عن الكفار : ﴿ وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ الملك: ١٠.

هذه اشادة كبيرة بالعقل اختص بها الاسلام وهي لا نظير لها في الأديان الاخـــرى .

للكون نواميس ثابتة

من اصول العلم اطراد الحقائق الطبيعية، فما ثبت بالدليل القطعي أنه حق في وقت ما فهو حق دائماً.

هذا الأصل الذي يستمسك به العلم هو أصلٌ قرآني، قال الله تعالى:

﴿ فهل ينظرون إلا سُنّة الأولين فلن تجد لسنّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً ﴾ فاطر: ٤٣. وقوله تعالى: ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ الروم.

تلك آيات صريحة في اطراد الطبيعة وبقاء سنن الله فيها من غير تحويل ولا تبديل حتى ينتهي الأجل المقدر لها.

التجارب والمشاهدات

المنهج العلمي في البحث سواء في نطاق العلوم الطبيعية والحياة والاجتماع أو الفلك لا يبدأ بمسلمات مطلقة أو نظم فلسفية أو آراء بعينها، ولا يعتمد على الأحكام المستنبطة في التأمل في النفس أو أقوال ذوي العقول الممتازة بل يعتمد على التجربة والمشاهدة التي تستعمل فيها الحواس خصوصاً السمع والبصر، ولكن بشرط إعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة كالمكرسكوبات التي يستطيع بها المشاهد أن يرى من الاجسام ما صغر حتى دقّ عن أن تبصره العين المجرّدة كالجراثيم، أو بالتلسكوب الذي يقرّب إلى الانسان الاجرام السماوية البعيدة فيرى ما لم يكن يراه من قبل.

هذه المشاهدة هي الطريق الذي سلكه العلم الطبيعي للوصول إلى مقدمات صحيحة، ولولاها ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع، ولا كشفت بعض أسرار الخلق.

فالمشاهدة التي هي أصل علمي هي أصل قرآني أيضاً، والآيات القرآنية التي تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر مع العقل كثيرة، نذكر منها:

أولاً: استعمال البصر مع العقل. قال الله تعالى:

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ العنكبوت: ٢٠.

ثانياً: استعمال السمع مع العقل. قال الله تعالى:

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ الحج : ٤٦

والمراد بالقلوب في هذه الآية العقول لأنها موطن الادراك ، يدل على ذلك قوله تعالى: (قلوب يعقلون بها) والمعنى المراد هو أن القلب يصدأ فلا يعي ولا يعقل شيئاً ، على الرغم من كونه لم يصب من الناحية المادية بمرض . وهذا سر من أسرار البسكولوجيا وهو أن للقلوب عمى تصاب به البصائر ، لا يعتبر بجانبه عمى الابصار شيئاً لأنه يحجب عن الانسان نور البصيرة الذي يقوّم به حياته الصحيحة . ولهذا نفى الله الفهم عن قلوب الكافرين في آية أخرى وهي :

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ الأعراف : ١٧٩ .

والمعرفة تعتمد على السمع والبصر والعقل ، فلو أُخذ طفل وحبس عن العالم إلا فيما يكفي لحياته من طعام وشراب فإنه وإن نما جسمه حتى يبلغ الرجولة ، لا ينمو عقله عن عقل الطفولة ، بهذا يقول علماء التربية ، والى هذا تشير الآية القرآنية التالية :

﴿ والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ النحل : ٧٨ .

فهذه الآية صريحة في ان ما يحصله الانسان من علم ، بعد أن يولد ، انما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل .

العِلمُ الذي يَدعو اليه الاسلام

ما المراد بالعلم الذي يدعو اليه الاسلام ؟ أهُوَ العلم الديني فقط ، كما يظن البعض ؟ لا ، بل المراد كل علم يدفع الجهل ، سواء أكان في الأمور الدينية أم في الشؤون المادية ، فالعلوم الطبيعية وعلم النفس وعلم التاريخ والجغرافيا والاجتماع وغيرها هي التي قصدها القرآن بجانب العلوم الدينية .

حضّ الله المسلمين على تعلم هذه العلوم ليكونوا أبصر بعظمة الله وقدرته المتجلية في خلقه ، كما أن هناك ، الى جانب هذه الحكمة ، حكماً أخرى

هي ما يتبع هذه العلوم من منافع مادية آتية من استخدام حقائق العلم في شؤون الحياة .

الدعوة إلى تعلّم العلوم الطبيعية : أما الآيات التي وردت في القرآن بمعنى الحض على تعلم العلوم الطبيعية فهي كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ الروم : ٢٢ .

﴿ ألم ترَ أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدَدٌ[١] بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب[٢] سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾ فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

وواضح من السياق في هذه الآيات أن المراد بالعلماء هنا العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله على هذه الأرض ، وموضوع هذه الآيات هو نفس موضوع العلم الطبيعي . فالعلم الطبيعي يبحث عن الأشياء الكونيـة وطبائعها ، وخواصها والعلاقات التي بينها ثم عن حقيقتها إن أمكن ، أي عن آيات الله المودعة في هذه الأشياء .

ففي آية فاطر مثلاً لا يعرف سر نزول الماء منَ السماء الا بعلم الطبيعة ، ولا يعرف تركيبه وخواصه الا بعلم الكيمياء ، ولا يعرف الانبات والاثمار فيهما الا بعلم النبات ، ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض ، ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام الا بعلمي أصل الشعوب والحيوان ، ثم انظر الى تذييل الآية : (إنّما يخشى الله من عباده العلماء) فقد حصر الله الخشية الكاملة من الله في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية ، لأن العلماء اذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الطبيعة على خشية الله خالقها .

علم الحياة (البيولوجيا) : ونرى القرآن يوجه نظر الانسان الى نفسه وكيفية تكونه في الرحم وأطواره : ﴿ فلينظر الانسان مما خـُلِقَ . خُلِقَ من ماء دافق . يخرج من بين الصلب[٣] والترائب[٤] ﴾ الطارق : ٥ — ٧ .

---

(١) جدد : طرائق وأنواع .
(٢) غرابيب سود : شديدة السواد .
(٣) الصلب : عظام الظهر .
(٤) الترائب : عظام الصدر .

فمن النظر في اصل التكوين يتوصل الانسان الى علم الحياة وما فيه من عجائب نمو الجرثومة الانسانية وتقلبها في ادوار الخلقة وتطورها، وهو ما اصبح مادة (البيولوجيا) .

علم النفس : أما ما جاء في القرآن عن التفكير في النفس فيتجلى لنا في مثل قوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ الذاريات : ٢١ .

أليس النظر في النفس يُستنبط منه علم النفس بكل ما فيه من تحليل الغرائز والميول والبواعث الانسانية ؟

عِلم التاريخ والاجتماع : ولم يكتف الاسلام بحثّ المسلم على النظر فيما هو أمامه من الكائنات بل دفعه الى البحث فيما كانت عليه الأمم السالفة من قوة السلطان واتساع العمران، ثم ما آلت اليه بعد اتباع الشهوات وتجاهل البيّنات من هلاك ودمار ، قال الله تعالى :

﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا اشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ الروم : ٩ .

أترى ان قوماً أتت اليهم هذه التعاليم يهملون السياحات العلمية للتعرف في أسباب تكون الأمم وانحلالها ورقيها وانحطاطها وعمرانها وخرابها ؟ أفلا يؤدي هذا التعرف كله الى علمي التاريخ والاجتماع بكل ما يشتملان عليه من بحوث؟

شهادة بعض علماء الغرب في مدنية الإسلام

ثبت تاريخياً وبشهادة المؤرخين الغربيين أن المسلمين الأولين انتشروا في الأرض يبلغون الأمم دعوة الاسلام ، ويقتبسون ما صادفوه من العلوم والصناعات التي لديها وأخذوا يتدارسونها ويتقنونها ، ودفعهم حب التكمل الى البحث عن نصوصها في مصادرها المكتوبة، فلم يحرقوا ما صادفوه في البلاد التي افتتحوها من الكتب العلمية كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين ، ولكنهم كانوا يستولون فيها على أمهات المصادر العلمية، ويستأجرون العارفين بلغتها لكي يترجموها ترجمة حرفية ، ويغدقون على اولئك التراجمة من المال ما يغريهم على الاجتهاد . ثم اكبوا على دراستها وتطبيقها وساعدهم على ذلك ملوكهم وامراؤهم واثرياؤهم حتى انتقلت اليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين

والرومانيين ، واصبحت جامعاتهم محط رحال مريدي الاستفادة من جميع الأمم وزادوا في مواد العلوم مما اكتشفوه في الطب والكيمياء والطبيعيات والرياضيات الخ .. والى القارىء اقوال بعض مؤرخي أوروبا في ذلك :

قال العلامة (دريبر) المدرس في جامعة نيويورك في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ م . أي بعد موت محمد بست سنين . ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية ، وقدّروها قدرها الصحيح . ولما آلت الخلافة الى المأمون سنة ٨١٣ م . صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض فجمع الخليفة اليها كتباً لا تحصى وقرّب اليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم » .

وبعد أن عدّد مآثرهم في العلوم الطبيعية قال : « لو أردنا ان نستقصي كل آثار هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جداً وأوجدوا علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم » .

ويقول في مواطن اخرى : « إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوروبيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك اوروبا وامراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

وقال العلامة سديو (Sedillot) في كتابه تاريخ العرب :

«كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون ، وقد نشروها اينما حلت اقدامهم ، وتسربت عنهم الى اوروبا ، فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها » .

ويقول العلامة الاجتماعي ، الدكتور (جوستاف لوبون) ، في كتابه (حضارة العرب) : « خضع الشرق لكثير من الشعوب ، كالفرس والاغريق والرومان الخ... ولكن تأثير هذه الشعوب السياسي ، اذا كان عظيماً فيه ، فإن تأثيرها المدني فيه كان ضعيفاً للغاية ، وما عجز الاغريق والفرس والرومان عنه في الشرق قدر عليه العرب بسُرعة ومن غير إكراه ، وما وفق العرب له في مصر اتفق لهم مثله في كل بلد خفقت فوقه رايتهم كافريقية وسورية وفارس الخ ... وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التي لم يدخلوها إلا عابري سبيل . وقد كان لهم تأثير واضح

في بلاد الصين التي لم يزورها الا تجاراً .

« ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حيناً من الزمن .

« ولم يتجلَّ تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضاً . وقد نقل العرب الى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسماً كبيراً من معارفهم العلمية التي عدّها الاوروبيون على غير حق من اصل هندي او صيني .

« نثبت الآن ان تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق وأن اوروبا مدينة للعرب بحضارتها » . « ولا يمكن ادراك اهمية شأن العرب في الغرب الا بتصور حال اوروبة حينما أدخل العرب الحضارة اليها . فإذا رجعنا الى القرن التاسع من الميلاد ، حين كانت حضارة العرب الأندلسية في أوج نضارتها ، رأينا ان مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجاً يسكنها أمراء اقطاعيون متوحشون يفخرون بعجزهم عن القراءة ... »

« مضت مدة طويلة قبل شعور اوروبا بهمجيتها ولم يبد ميلها الى العلم الا في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها أناس رأوا ان يرفعوا أكفان الجهل عنهم ولوا وجوههم شطر العرب » .

ونقل عن الاستاذ (ليبري) قوله : « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون » .

« وقد كانت ترجمات العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات اوروبا نحو ستة قرون ، ويمكننا ان نقول : إن تأثير العرب في بعض العلوم ، كعلم الطب مثلاً ، دام الى الزمن الحاضر . فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبيليه في أواخر القرن الماضي »[1] .

* * *

هذا مايقوله العلماء الاجتماعيون الأوربيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والإغراق في أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة . ونحن اذ ننشر هذه الأقوال لنَدلل عَلى أن في الإسلام روحاً تبعث الآحاد والجماعات الى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها في التعاليم البشرية، وهي من أقوى الأدلة على ان الإسلام وحيٌ الهي لا من صُنع البشر .

(١) نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ٥٨٥ — ٥٩١ .

الفصل الثامن عشر

التسامح في الإسلام

الصراع بين اتباع الأديان – اختلاف الناس سنة الله في خلقه – الحرية الدينية – اسباب منع المسلمة من الزواج بغير المسلم – محاربة التعصب – معاملة المسلمين لغيرهم – شهادة بعض علماء الغرب في التسامح الإسلامي .

الصّراع بين أتباع الأديان

اذا تتبعنا ادوار التاريخ رأينا ان المجتمع الانساني لم يعرف السلام بسبب اختلافه في الدين ، فكانت كل جماعة لا تفتأ تثور على مخالفيها في العقيدة ، وكثيراً ما نشأ من جراء ذلك مذابح وحشية سودت وجه التاريخ . وهذا يرجع – ولا ريب – الى التعاليم ونزعة الحقد التي بثها زعماء الأديان في روع العامة ضد الآخذين بالأديان الأخرى . وقد ادعى الباحث (جون سيمون) في كتابه (حرية الاعتقاد) ان الحقد الديني لم يتوصل الى تخفيفه الا منذ قرن ونصف ، فقال : « ان حرية الأديان ليست ببعيدة العهد ، فإن تاريخ العالم كله هو عبارة عن تاريخ الحقد الديني . وهذا الحقد الديني الذي هو أقدم من الحرية يتصاعد الى ابعد عصر في التاريخ » وبعد ان عدد آثار التعصب المذموم في العالم كله من القرون الأولى الى العصور الوسطى ، قال : « وأخيراً توصلت الروح الفلسفية الى تقرير حرية الأديان في ٤ آب سنة ١٧٨٩ م . ولكن هذه الأمنية العادلة لم تتحقق الا في سنة ١٧٩١ م . وهو تاريخ تحرير اليهود من المظالم . ومع هذا كله فإن الثورة الفرنسية على ما كانت عليه من خلوها من حسن الادارة في الاعمال لم تتمكن من تأسيس الحرية الدينية » .

ان قول جون سيمون: بأن الحرية الدينية لم تتقرر إلاّ منذ قرن ونصف

تقريباً ليس صحيحاً، بل ان اقرارها كان منذ أربعة عشر قرناً وذلك على يد الاسلام ، ولا يسعنا الا ان نستدل على ذلك بنصوص من القرآن ، وشواهد من سيرة المسلمين الأولين ، وشهادة بعض المؤرخين الغربيين .

اختلاف الناس سُنّة الله في خلقه

كيف توصل الاسلام الى نزع الأحقاد الدينية من عقول متبعيه ؟ إنه توصل إلى ذلك بطريقة لم نسمع بها إلا منذ أمد قريب اي بعد ان وقف علماء الانسان على اسرار النفس الانسانية وكيف أنها تختلف في الحكم على الاشياء ، ولهذا صرح القرآن بأن اختلاف الناس في معتقداتهم من سنن الله في خلقه . قال تعالى:

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين . الا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ هود : ١١٨، ١١٩ . ويقول الله مُخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿ وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ يوسف : ١٠٣ .

وعلى هذا علم المسلمون انه يتوجب عليهم ان لا يحقدوا ولايضطهدوا من يخالفهم في الدين لأن هذه هي ارادة الله التي خلقت الناس على هذا الاختلاف .

الحُريّة الدينيّة

ثم نرى انه بينما كان رؤساء اكثر الأديان يأمرون اتباعهم باستعمال أشد الطرق الاكراهية لحمل الناس على الدخول في دينهم ولو ادى ذلك الى قتل عشرات الآلاف ، نرى الاسلام يخاطب متبعيه بأن لا يرغموا أحداً على ترك دينه واعتناق الاسلام، وفي هذا يقول تعالى: ﴿ لا اكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي ﴾ البقرة : ٢٥٦ . ويقول تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ يونس : ٩٩. اي ليس بمستطاع لك يا محمد ولا من وظائف الرسالة التي بُعثت بها ان تُكره الناس على الايمان .

وعلى هذا المبدأ سار المسلمون في علاقتهم مع أهل الأديان الأخرى ، فكانوا يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه ان يبقوا على دينهم مع اداء الجزية ، وكانوا في مقابل ذلك يحمونهم ضد كل اعتداء، ولا يمسّون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم . وخير مثال على ذلك العهد الذي قطعه عمر بن الخطاب على نفسه

لأهل القدس ، « أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ، وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ، ولا من شيء من اموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود[1] .. »

وهذا العهد كتبه من قبله أبو بكر خليفة رسول الله لأهل نجران المسيحيين حيث كتب لهم بأنه أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبي ﷺ على أنفسهم وأرضيهم وملتهم وأموالهم وحاشيتهم وعبادتهم وغائبهم وشاهدهم وأساقفتهم ورهبانهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يخسرون ولا يعسرون، ولا يغير اسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته وفاء لهم بكل ما كتب لهم محمد النبي ﷺ، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي ﷺ أبداً وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق»[2].

ومن آثار الحرية الدينية ما رسمه الاسلام من ادب المناقشة الدينية ومجادلة اهل الكتاب[3] مجادلة اساسها العقل والمنطق وعمادها الاقناع بالطريقة التي هي احسن . قال تعالى : ﴿ ولا تُجادلوا أهْلَ الكتاب إلا بالتي هِيَ أحْسن . إلاّ الذين ظَلَموا منهم . وقولوا آمنَّا بالذي أُنزِلَ إلينا وأُنزل اليكم وإلهنا وإلهكم وَاحِدٌ ونحن له مُسلمون ﴾ العنكبوت : ٤٦ . ويقول الله تعالى : ﴿ أدعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ النحل : ١٢٥ .

ويرسم الله كيفية معاملة المسلمين للذين يخالفونهم في دينهم بقوله :

﴿ لا ينهاكُمُ الله عن الذين لم يُقاتلوكم في الدّين ولم يُخرجوكم من دياركم ان تَبرّوهم وَتُقْسِطوا[4] اليهم إنَّ اللهَ يُحبُّ المقسطين . إنما ينهاكم الله عَنِ الذين قاتلوكم في الدِّين وأخرجوكم من دياركم وَظَاهروا على إخراجكم ان تَوَلَّوْهم[5] ومن يَتَولَّهم فأولئك هم الظالمون ﴾

---

(١) الطبري « تاريخ الأمم والملوك » ج ١ .

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف.

(٣) أهل الكتاب هم اليهود والنصارى .

(٤) تقسطوا : تعدلوا .

(٥) تولوهم : تتخذونهم أنصاراً .

ففي هاتين الآيتين يأمر الله المسلمين معاملة من يخالفونهم في دينهم بالعدل ، ولم يكتف به بل تجاوز ذلك الى التوصية بالبر بهم ، والبر فوق العدل ، فهو لا يأتي إلا من العطف والحنو وإرادة الخير ، واستثنى الله الذين اضطهدوا المسلمين وقاتلوهم ، وهذا عدل لا شائبة فيه .

والاسلام يرجح كفة الصلح والمودة على العداوة والبغضاء . قال الله تعالى:

﴿ عَسَى اللهُ أن يَجْعَلَ بينكم وَبَيْنَ الذين عاديتم مِنهم مَوَدَّة ، واللهُ قَديرٌ والله غفور رحيم ﴾ الممتحنة : ٧ .

ومما ينتظم في حسن معاملة المسلمين لمن يخالفهم في دينهم هو : ما سوّى به القرآن بين الوالدين المؤمنين والوالدين المشركين في وجوب الإحسان إليهما :

﴿ وَوَصّينا الإنسان بوالديه حَمَلَتْهُ أمه وَهْناً[1] على وَهْنٍ وفِصَالُهُ في عامين[2] أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير . وإن جَاهَدَاك[3] على أن تُشرِكَ بي ما ليس لك به علم فلا تُطعهما وصاحبهما في الدُّنيا مَعروفاً ﴾ لقمان : ١٤ ، ١٥ .

ومن التسامح في الاسلام : إباحته طعام اهل الكتاب ، وتحليله لذبائحهم ، وإباحته للمسلم ان يتزوج من نسائهم ، قال الله تعالى :

﴿ وَطَعَامُ الذين اوتوا الكتاب حلٌ لكم وطعامكم حِلٌ لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات[4] من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ﴾ المائدة : ٥ . والمؤاكلة والمصاهرة تدعو للمحبة وحسن المعاشرة والاخلاص في المعاملة .

ومن التسامح ايضاً : تسميتهم بأهل الذمة . فلفظ الذمة معناه : ذمة الله وعهده ورعايته ، وقد ورد عن النبي قوله في التوصية بهم : (من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة) .

أسباب منع المسلمة من الزواج بغير المسلم

ان الحياة الزوجية شركة وتعاون ومساواة بين الزوجين في جميع الحقوق العامة ، وهي شركة لا تنتظم إلا إذا بنيت على المحبة الخالصة واحترام كل

(١) الوهن : الضعف .
(٢) وفصاله في عامين : وفطامه بعد انقضاء عامين من ولادته .
(٣) جاهداك : بذلا معك جهدهما .　　(٤) المحصنات : العفيفات .

من الشريكين للآخر يتناول جميع أموره ، ومن أهم الأمور التي يحرص عليها الإنسان الجانب الديني فيه .

وعندما أباح الإسلام للمسلم ان يتزوج امرأة مسيحية أو يهودية جعل لها كافة الحقوق التي للزوجة المسلمة ما عدا أمراً واحداً وهو التوارث[1] ، فلا ترثه ولا يرثها لاختلاف الدين ، وحتى في هذا الحق كان الإسلام منصفاً كعادته لأنه سوّى في منع الميراث بالنسبة لكل منهما ، بخلاف ما يقرره تشريع اليهود فيما إذا تزوج رجل يهودي امرأة غير يهودية ثم ماتت فإنه يرثها ، وإذا مات هو قبلها لا ترثه .

كما دعا الإسلام الزوج المسلم إلى احترام الزوجة الكتابية، مسيحية كانت أم يهودية ، وان لا يجبرها على ترك دينها بل يترك لها الخيار في ذلك وإن كان يستحسن للزوج المسلم دعوة زوجته هذه إلى الإسلام بالموعظة الحسنة لأنه خاتم الأديان والمكمل لها والمصحح لما طرأ عليها من بدع وتحريف .

هذا مع العلم ان من معتقدات الإسلام الأساسية الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله لهداية البشر ومنهم عيسى وموسى عليهما السلام، أمام هذا تشعر الزوجة الكتابية أنها تعيش مع زوج يحترم نبيّها .

أما إذا تزوجت المسلمة بالمسيحي أو اليهودي فإن الحياة الزوجية ـ التي لا تقوم إلّا على الاحترام المتبادل كما ذكرنا ـ لا تستقيم ، لأنها تتزوج من رجل يعاديها لأنه يكذب نبيّها محمداً ﷺ ولا يؤمن به ، وليس عنده من التسامح في العقيدة مثل ما عند المسلم ، وهو ينظر إليها من أنها تؤمن بدين لا أساس له من الصحة ، ولا شك أن هذا يؤدي إلى احتقارها ومنعها من الاستمرار في اعتناقها لدينها أو قيامها بشعائره ، وكيف تنتظم الحياة الزوجية مع هذا العداء والاحتقار ؟

محاربة التعصّب

دحض الاسلام الظنون والأوهام التي رانت على عقول اهل الأديان

---

(١) من تسامح الاسلام أنه أباح للمسلم أن يوصي لزوجته الكتابية أو لغيرها من غير الورثة بما لا يتعدى ثلث ماله .

الاخرى ونشأ عنها التعصب العنصري الذميم وذلك حين ادعوا انهم أبناء الله وشعبه المختار ، وان الجنة خاصة بهم دون غيرهم :

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناءُ الله واحباؤه قل فلِمَ يُعذّبكم بذنوبكم ، بل أنتم بَشَرٌ مِمَّن خلَقَ يَغفِرُ لِمَنْ يشاء ويُعذّبُ مَنْ يشاء، ولله مِلكُ السماوات والأرض وما بينهما واليه المصير ﴾ المائدة : ١٨

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن يَدخُلَ الجنة إلاّ من كان هُوداً أو نَصارى تِلْكَ امانيّهم قُلْ هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أَسْلَمَ وجهه لله وهو محسن فلَهُ أجْرُهُ عِنْدَ ربه ولا خَوْفٌ عَليهم ولا هُمْ يحزنون ﴾ البقرة : ١١١ ، ١١٢ .

ويُعلن القرآن أن الانسانية جمعاء تستحق التكريم من غير اختصاص بلون او جنس او امة، قال الله تعالى: ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحَملناهم في البَرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضّلناهم على كثير ممن خلَقْنا تفضيلاً ﴾ الاسراء : ٧٠ .

فليس ثمة شعب الله المختار في الاسلام بل الإنسانية كلها جديرة بالتكريم في هذه الأرض بمقتضى الإرادة الإلهية .

معاملة المسلمين لغيرهم

أعطى النبي ﷺ مثلاً أعلى لمعاملة أهل الكتاب ، فقد روي أنه كان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويستقبل وفودهم ويحسن إليهم .

وروي : انه كان يقترض من أهل الكتاب نقوداً ويرهنهم أمتعته ، حتى أنه توفي ودرعه مرهونة عند بعض يهود المدينة في دين عليه ، ولم يخلص درعه الا خلفاؤه بعد وفاته . كان يفعل ذلك لا عجزاً من أصحابه عن إقراضه ، فكان منهم المثرون ، وهم المستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في مرضاة نبيهم ، ولكنه كان يفعل ذلك تعليماً وارشاداً لأمته .

وقد سار المسلمون على سيرة نبيهم فعاشروا غيرهم من أهل الملل والنحل الأخرى بصفاء ووئام ، فكان المسيحي واليهودي يجاوران المسلم فيتزاورون ويتهادون لا يفصلهم الا المسجد والكنيسة والبيعة . روي : ان غلاماً لابن عباس

الصحابي الشهير ذبح شاة فقال له ابن عباس : لا تنس جارنا اليهودي ، ثم كررها حتى قال له الغلام : كم تقول هذا ! فقال : إن النبي ﷺ قد أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه . فابن عباس بنص هذا الخبر كان مجاوراً ليهودي ، وكان يهتم بالاهداء اليه كما يهتم بسواه مراعاة لحرمة الجوار ، ومعنى هذا : ان الاسلام لا يفرق في مكارم الأخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وغيره.

ومما يدلنا على مبلغ إدراك الخلفاء المسلمين لمعنى الحرية الدينية ما نراه من عمر الفاروق حين حضرته الصلاة في كنيسة القيامة في بيت المقدس فلم يصلّ فيها حتى لا يتخذها الناس مسجداً من بعده فيظلموا اهلها .

وقد دل تاريخ المسلمين على ان تشريعهم يسمح لغير المسلم أن يقاضي ارفع إنسان في المسلمين وينتصف منه ، فقد روي : ان يهودياً اشتكى علياً للخليفة عمر بن الخطاب ، وعلي رضي الله عنه كما لا يخفى ابن عم النبي وزوج ابنته وأحد المرشحين للخلافة ، فلما مثلا بين يدي عمر نظر الى علي وقال له : قم يا أبا الحسن واجلس أمام خصمك، او قال له: ساوِ خصمك يا أبا الحسن، فساوى علي خصمه وجلس امامه وقد بدا التأثر على وجهه ، فلما انتهت الخصومة قال عمر : أكرهت يا علي أن تجلس امام خصمك ؟ فأجابه علي : كلا ! ولكني كرهت أنك لم تسوِ بيننا حين قلت : يا أبا الحسن (يريد أن الكنية تشير الى التعظيم) .

وحدث مرة: ان ولداً لعمرو بن العاص ضرب فتى قبطياً، فأقسم هذا ليشكونه لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقال له ابن عمرو ما معناه : اذهب فلن ينالني ضرر من شكواك فأنا ابن الأكرمين ، فبينما كان الخليفة مع خاصته، وعمرو بن العاص وابنه معهم في موسم الحج قدم هذا الرجل عليهم وقال مخاطباً عمر : يا امير المؤمنين ان هذا — وأشار الى ابن عمرو — ضربني ظلماً وقال : اذهب فأنا ابن الأكرمين . فنظر عمر الى عمرو وقال له : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً » ثم توجّه الى الشاكي وناوله درته وقال له : « إضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك » .

هكذا نشأ المسلمون نشأتهم الاولى ؛ والدين أقوى حاكم على شعورهم ، فلم يشاهد منهم ما يعابون عليه من جهة التسامح مع مخالفيهم ، ثم لما انتشر العلم فيهم ونبغ منهم المؤلفون والباحثون لم تصب هذه النزعة فيهم أدنى

انحراف بل زادوها رونقاً بما قاموا به من حماية علماء الملل الأخرى ومكافآتهم ، وقد أفاض بذكر ذلك كتاب (الأغاني) الذي سرد كثيراً من أخبارهم .

والفقهاء الأولون لم يهملوا حقوق أهل الذمة فقد نصوا على وجوب الرفق بهم ودفع من يتعرض لأذيتهم ، فقال الشهاب القرافي — وهو من كبار أئمة التشريع في الاسلام — في كتابه الشهير (الفروق) : « إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقاً علينا ، لأنهم في جوارنا ، وفي خفارتنا ، وفي ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ودين الاسلام . فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم ، أو اي نوع من أنواع الأذية ، او أعان على ذلك ، فقد ضيّع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة دين الاسلام » .

وقال الامام ابن حزم في (مراتب الاجماع) : « ان من كان في الذمة ، وجاء أهل الحرب الى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم ... ونموت دون ذلك ، فإن تسليمه ، اهمال لعقد الذمة » .

شهادة بعض علماء الغرب في التسامح الإسلامي

جاء في الاخبار النصرانية شهادة تؤيد مدى التسامح الاسلامي وهي شهادة « عيشويابه » الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ — ٦٥٧ هـ . اذ كتب يقول : « ان العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون . انهم ليسوا بأعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قسيسينا وقديسينا ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا »[١] .

وقد استطاع (ميخائيل الأكبر) بطريق انطاكية اليعقوبي أن يحبذ فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ما قرره اخوانه في الدين ، وأن يرى اصبع الله في الفتوح العربية حتّى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الاسلامي خمسة قرون ، وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : « وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت والذي يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا الى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم وأنزلوا بنا العقاب في غير

(١) Thomas of marge : Books of Governors, vo. 2 p. 156

رحمة ولا شفقة أرسل ابناء اسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من من قبضة الروم . وفي الحق أننا إذا كنا قد تحمّلنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم .

ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) .

ومع ذلك فلم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام »[1] .

ويقول «سير . ت. و. أرنولد » أيضاً في كتابه (الدعوة الى الاسلام)[2] :

« ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة ، واستمر في الاجيال المتعاقبة ، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الاسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح » .

ويقول أيضاً قبل ذلك في ص ٤٨ : « ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس الى الاسلام ، فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ، ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم » .

وهذه شهادة اخرى على تسامح الاسلام من الاستاذ « متز » إذ يقول : « إن ما يميز المملكة الاسلامية عن اوروبا النصرانية في القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقي الأديان الاخرى غير الاسلام ، وليست كذلك الثانية ، وان الكنائس والبيع ظلت في المملكة الاسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، وكأنها لا تكوّن جزءاً من المملكة ، معتمدة في ذلك على

---

(١) « الدعوة الى الإسلام » لسير . ت . و . ارنولد ص ٥٣ .

(٢) ترجمة حسن ابراهيم وزميليه ص ٥١ .

العهود وما أكسبتهم من حقوق . وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا في القرون الوسطى ، كان اليهودي أو النصراني حراً في أن يدين بدينه ، ولكنه إن أسلم ثم ارتدّ عوقب بالقتل »[1] .

وهذه شهادة أخيرة على تسامح الاسلام من عالم كبير ، وهو الاستاذ شكري قرداحي ، فقد نشر كتاباً بالفرنسية سماه « إيجاد وممارسة القانون الدولي الخاص في بلاد الاسلام » تكلم فيه عن حالة الأجانب في بلاد المسلمين ، متتبعاً في بحثه أدوار التاريخ . فأفاض يفصّل الأطوار التي مرّت فيها حالة الأجانب على عهد الدولة العربية أولاً ، ثم على عهد الدولة التركية ، فلم يجد بداً من الاعتراف : بأن معاملة الأجانب في بلاد المسلمين كانت تصدر عن شعور صادق بالتسامح لا يوجد ما يقابله في معاملة الدول الغربية . ثم لما تقرر نظام الامتيازات في بلاد المسلمين بإلحاح الدول الغربية ، وهو النظام الذي جعلوه مشابهاً لنظام الاقليات العنصرية في العهد الراهن ، ظهر جلياً امر لم يكن منتظراً ، ذلك أنه قد ثبت أن حالة الاجانب تحت ظل الامتيازات أصبحت أقل ملاءمة لهم من كل وجه من حالتهم على عَهد الدولة الاسلامية . فاتضح أن عاطفة التسامح الاسلامي كانت أجدى عليهم من نظام الحماية التي يتمتعون بها الآن .

هذه شهادة بعض العلماء في التسامح الاسلامي ، وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في الأمم قديماً وحديثاً .

* * *

فالتسامح الإسلامي يُعتبر من أقوى الأدلة على أن القرآن وحي إلهي لا عمل إنساني ، وإلا فأنّى للأمم في عهد اعتزازها بقومياتها وأديانها ان تتغلب على أهواء نفوسها فتقوم على نظام مِن المعاملات يقصر عن مثله ما أوجدته المدنيَّة بعد مجالدة للحوادث دامت قروناً طويلة ، وبعد أن بلغت من العلوم شأواً لم يكن يتخيله الأقدمون في أيامهم الأولى .

---

(١) لخص هذا القول الدكتور احمد امين في كتابه « ضحى الإسلام » عن كتاب « نهضة الإسلام » لمتز الذي ترجمه خدابخش عن الألمانية .

الفصل التاسع عشر

نظام الحكم في الإسلام

واضع الأحكام هو الله – الحكومة الإسلامية ليست تيوقراطية – الشورى – المساواة – العدالة – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – التشريع الإسلامي – بعض الأسس التي قام عليها التشريع الإسلامي – كفاية التشريع الإسلامي وصلاحه لأي مجتمع – الخلافة .

سيرى القارىء عندما يتأمل التشريع الذي أتى به القرآن في : نظام الحكم ، والقانون الجزائي ، والمعاملات والنظام المالي ، والسياسة الخارجية ، أنه لم يتعرض للتفصيلات وأحكام الجزئيات التي تختلف فيها الأمم باختلاف أحوالها وأزمانها ، وانما أتى بأسس مجملة وقواعد كلية قلما تختلف فيها أمة عن أمة .

ففي نظام الحكم لم يقرّر القرآن شكلاً معيناً يجب ان تكون عليه الحكومة الاسلامية ، ولم ينص على كيفية تنظيم سلطاتها ، وإنما قرّر الأسس الثابتة التي يجب ان يقوم عليها نظام الحكم تحقيقاً للعدالة .

والسبب في ذلك : ان مصالح الناس تختلف باختلاف البيئات والازمان والاحوال ، فربّ قانون يحقق مصلحة في زمن ما ، يثير مفاسد في زمن آخر ، او لأمة اخرى . فلو شرع الله في القرآن أحكاماً مفصلة محددة ، لوقع المسلمون في الحرج لا سيما اذا وجدوا ان مصلحتهم تتناقض مع تعاليمه ، لهذا كان من حكمة الله ان شرع في القرآن الاحكام الاساسية والمبادىء العامة التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، وترك الفروع والتفاصيل تتصرف فيها كل أمة وفق ما تراه بما يحقق مصلحتها على أن لا تشذ هذه الفروع عن الأحكام الأساسية التي قررها القرآن .

وَاضِعُ الأَحْكَامِ هُوَ اللّٰه

إن أول اساس ارتكز عليه نظام الحكم هو : أن واضع الأحكام هو الله وحده ، فليس لبشر ان يشرع أصولاً قانونية غير التي سنها الله ، اما في القضايا التي لم يرد فيها نص فقد فوضت الشريعة مهمة سن قوانينها الى اولي الأمر من العلماء الذين هُم أهل للاجتهاد .

والدليل على اختصاص الله بالتشريع قوله سبحانه : ﴿ إنِ الحُكمُ إلاّ لله أمَرَ ألاّ تعبدوا الاّ اياه ﴾ يوسف : ٤٠ . ويخاطب الله نبيه بقوله : ﴿ إنّا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لِتَحكُمَ بين الناس بما أراك الله ﴾ النساء : ١٠٥ . ويأمر الله تعالى المؤمنين باتباع الشريعة وينهى عن اتباع ما يخالفها بقوله : ﴿ إتبعوا ما أُنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكّرون ﴾ الاعراف : ٢ .

ويحرّم الله تحريماً قاطعاً الخروج عن نصوص الشريعة ويعتبر العامل بغير الشريعة كافراً وظالماً وفاسقاً :

﴿ وَمَنْ لم يَحكُم بما أَنزَلَ الله فأولئك هم الكافرون ﴾ المائدة : ٤٤.

﴿ ومن لم يَحْكُمْ بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ المائدة : ٤٥ .

﴿ ومن لم يَحْكُمْ بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ المائدة : ٤٧ .

وينفي الله الايمان عن المؤمنين ويقسم بنفسه على ذلك حتى يحكّموا الرسول فيما شجر بينهم ، ولا يكتفي بهذا بل يشترط لاعتبارهم مؤمنين : ان ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق من قضاء الرسول ويسلموا تسليما . والرسول لا يحكم الا بما أنزل الله: ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليما ﴾ النساء : ٦٥.

والمؤمن الذي يختار من الاحكام غير ما اختاره الله ورسوله فهو ضال :

﴿ وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ الاحزاب : ٣٦ .

ويترتب على كون الحكم لله نتيجتان هامتان :

النتيجة الأولى : ثبات القوانين الشرعية واستمرارها ولو تغير الحكام ،

وليس الأمر كذلك في القوانين الوضعية التي يشرعها الحكام لحماية المبادىء التي يعتنقونها وخدمة الأنظمة التي يقيمونها ، وهي حين تضع القوانين تراعي مصلحتها دون غيرها من الفئات الجديدة ، وهكذا تتغير القوانين بين حين وآخر مما يؤدي الى عدم احترام القانون والثقة به .

النتيجة الثانية : احترام القوانين الشرعية والثقة بها لأنها من عند الله ، وهذا الاعتقاد بالذات يحمل على طاعة القوانين الشرعية لأن الطاعة تقرب من الله ولأن العصيان يؤدي الى عقوبة الله الدنيوية والاخروية ــ كما قرر بذلك القرآن في مواضع كثيرة فيه ــ وكل شريعة في العالم تقدّر قيمتها بقدر ما لها في نفوس الأفراد من طاعة واحترام وثقة[1] .

الحكومة الإسلاميّة ليست تيوقراطيّة

وإذا كانت الحكومة الاسلامية تسير حسب ما شرعه الله فلا يفهم من هذا انها حكومة (تيوقراطية)، وهي التي تترجم عادة (بالحكومة الدينية) ويقصد بها : الدولة التي يستمد الحاكم فيها سلطته من عند الله سواء أكان فرداً أم جماعة ، هذه الفكرة التي تقوم عليها الحكومة الدينية فكرة بعيدة كل البعد عن مبادىء الاسلام وتشريعه ، فهي تستمد جذورها من الأفكار الدينية القديمة التي كان رجال الدين والملوك يدّعون لأنفسهم بأن سيادتهم مستمدة من الله ، فيشرعون للناس قوانين حسب اهوائهم لأنه ليس في تعاليم دينهم شيء من التشريع إلا مواعظ خلقية . أما الدولة الاسلامية فتشتمل على التشريع الذي جاء به القرآن والذي لا يستبد بالحكم فيه طبقة من رجال الدين بل يقوم على تنفيذه الشعب لأنه في نظر القرآن هو خليفة الله بمعنى إمضاء أحكامه وأوامره .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ البقرة : ٣٠ .

كما أن الشعب مصدر السلطات ، ولهذا كان الله تعالى يخاطب المؤمنين كافة عندما يأمرهم بتنفيذ أحكامه بقوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى ﴾ البقرة: ١٧٨ .

ويقول سبحانه : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ المائدة : ٣٨ .

---

(١) اقتبسنا هذا المعنى عن كتاب « الإسلام وأوضاعنا القانونية » للأستاذ عبد القادر عودة .

ثم لما كان الشعب مجتمعاً لا يمكنه ان يقوم بالتكاليف المنوطة به فقد أوجب الله عليه ان يختار من يحمل عنه تبعة القيام بالتكاليف ، وهذا الاختيار من الامة يقوم على الرضى وتوخي المصلحة العامة لا بقهر ولا بجبروت ولا خديعة ؛ ومن تختارهم الأمة لقيادتها يخضعون لرقابتها ويجب عليها طاعتهم وهم الذين سماهم الله (أولي الأمر) قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾ النساء : ٥٩.

أمر الله في هذه الآية بطاعته ، وهي تتحقق بالعمل بالقرآن لأنه هو الذي يحوي أوامر الله ونواهيه ، وهو المصدر الأول من مصادر التشريع لا يعدل عنه متى وجد نص للحادثة فيه .

ثم أمر الله بطاعة الرسول لأنه هو الذي يبين لنا أحكام الشرع ومقاصده التي وردت مجمله في القرآن . فالسنة الصحيحة المنقولة نقلاً ثابتاً عن النبي هي في المكان الثاني بعد القرآن .

ثم أرشد الله سبحانه الى مصدر ثالث من التشريع ألزم اتباعه وطاعته كما ألزم اتباع القرآن والسنة ، وهذا المصدر مشار اليه في الآية (وأولي الأمر منكم) وهم : أهل الحل والعقد الذين يرجع اليهم أفراد الأمة ، ويعتبر رأيهم رأي الأمة . يقول الشيخ محمد عبده في تفسير (أولي الأمر) : « المراد بأولي الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين ، وهم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع اليهم في الحاجات والمصالح العامة ، فهؤلاء اذا اتفقوا على أمر واحد او حكم وجب أن يطاعوا فيه ، بشرط ان يكونوا منا وأن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله التي عرفت بالتواتر ، وان يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه ، وأن يكون ما اتفقوا عليه من المصالح العامة التي لهم سلطان النظر والبحث فيها ، فلا هو من العقائد ولا من العبادات » .

وهؤلاء يتألف منهم شبه (مجلس أعلى للأمة) يسهر على مصالحها ويوجه سياستها في السلم والحرب ، فمتى اتفق هؤلاء على أمر وجب على الأمة الطاعة وعلى الحاكم التنفيذ فإن أبى عزلوه .

واتفاق أولي الأمر هو الذي يسمى « الاجماع » وهو الركن الثالث من

أركان التشريع في الاسلام يصار اليه حيث لا يوجد نص في القرآن والسنة الصحيحـــة .

وعند التنازع بين أولي الأمر سن الله طريقاً لحسم النزاع وهو : الرجوع الى قواعد الدين العامة، وتلمّس الأسباب والعلل، وقياس الحوادث على نظائرها وأشباهها، وهذا ما أمر به الله بقوله : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول ﴾[1] النساء : ٥٩ .

وعرض الخلاف على قواعد الدين وقياس الأمور بأشباهها يقوم به اولو الامر باختيار طائفة من اهل البصر والفقه تبحث الأمور ، وهذا ما سمي عند الفقهاء : (بالقياس) الذي جعلوه المصدر الرابع من مصادر التشريع ، وهذا كله انما يكون في قوانين التعامل ، أما العبادات فكل مجتهد عليه العمل برأيه ، وكل مسلم له ان يقلد من يختار من المجتهدين الموثوق بعلمهم .

وطاعة أولي الأمر لا تجب إلا في حدود ما أمر به الله ورسوله ، فمن أمر بما يوافق القرآن والسنة الصحيحة فطاعته واجبة ، ومن أمر بخلاف ما جاء به القرآن والسنة فلا سمع له ولا طاعة ، وهذا ما قاله الرسول عليه السلام :

(لا طاعة لأحد في معصية الله انما الطاعة في المعروف)[2] .

وفيما يلي نقدم للقارىء بعض الدعائم التي تقوم عليها الدولة الاسلامية :

بعض الدعائم التي تقوم عليها الدولة الإسلاميّة

الشـــورى

ذكرنا فيما سبق ان الله أوجب على الامة طاعة اولي الامر فيما يرتضونه لمصالحهم ، وهؤلاء سنّ الله لهم قانوناً يسيرون عليه ليقيهم من الوقوع في

(١) ان ما درجت عليه الشريعة الإسلامية من رد الأمر عند التنازع الى الله ورسوله أجدر بتحقيق المصلحة مما تفعله كثير من الأمم التي تنقاد الى الأكثرية . فالأكثرية قد تكون من حزب واحد ينصر بعض أفراده بعضاً في الحق والباطل ، أو بباعث المصلحة الشخصية فتضيع المصلحة العامة . أما الرد الى تعاليم الله التي ما أمرت إلا بالعدالة المجردة والمصلحة العامة فهو ضمان لوحدة الأمة وسيرها على صراط مستقيم .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

أخطاء قد تجرّ الدولة الى الخراب، وهذا القانون هو الشورى، وهو الآن الدعامة التي يقوم عليها النظام الديمقراطي .

فالشورى قاعدة من قواعد الشريعة، ولهذا نرى في القرآن سورة سميت باسم (سورة الشورى) وفيها يمدح الله المؤمنين الذين اتخذوا المشورة قانوناً لهم في أعمالهم، قال الله سبحانه: ﴿ والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأَمْرُهُم شُورى بينهم ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفقون ﴾ الشورى : ٣٨ .

قرن الله في هذه الآية نظام الشورى بالصلاة والصدقة ليدل على : أن الشورى بين ولاة الأمر من أسس الاسلام ، وأن الاستبداد ليس من شأن المؤمنين .

ويقول الله مخاطباً رسوله : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ آل عمران : ١٥٩ .

أمر الله رسوله أن يشاور أمته في الأمر العام من شؤونها . وقد ثبت أن رسول الله قد استشار المسلمين قبل أن يخرج لغزوة احد ، وأنهم أشاروا عليه بأن يخرج لقتال أعدائهم ، وكان من رأيه أن يبقى بالمدينة مدافعاً ، ولكنه نفّذ ما أشاروا به وخرج ، وانتهى الأمر بهزيمة المسلمين . فالله سبحانه قال لرسوله : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) أي لا يحملك ماكان من نتائج المشاورة على أن تتركها بل شاورهم في الأمر . وهذا يدل على أن الله سبحانه يريد أن تكون سياسة المسلمين قائمة على مبدأ الشورى ، وأن لا يستبد بها فرد مهما كانت نتيجة المشاورة .

فإذا كانت الشورى واجبة على رسول الله ، وهو الذي يمتاز بكماله العقلي والروحي واتصاله بالوحي الإلهي ، فهي على غيره أوجب . وقد ذهب بعض علماء المسلمين الى: أن النبي كان غنياً عن المشاورة ، ولولا إرادة الله جعلها قاعدة شرعية لما أمره بها . وقد ثبت: أن النبي شاور اصحابه في كثير من الشؤون التي لم ينص عليها القرآن ، وكان يعمل بما يظهر له أنه الصواب .

والشورى التي أوجبها الاسلام ليست لمجموع افراد الأمة او للأكثرية المطلقة فيها ، لأن القرآن تكررت فيه الآيات التي تنص على أن الرأي والفضل والعلم ليست من صفات أكثر الناس على التعميم، وهذه أمثلة مما جاء في القرآن:

﴿ وإنْ تُطع أكثر من في الأرض يُضلّوك عَنْ سَبيل الله إن يتّبعون إلاّ الظن وإنْ هُم إلاّ يخرصون ﴾ الانعام : ١١٦ .

﴿ أمْ تَحْسَبُ أنّ أكثرهم يَسمعُون أو يَعقلون إنْ هُمْ إلاّ كالأنعام بَلْ هُم أضلّ سَبيلاً ﴾ الفرقان : ٤٤ .

واذا كانت طاعة الكثرة الجاهلة تضل عن سبيل الله ، فليس من الصواب ان تكون لهم المشورة ، وانما ترجع الشورى الى اهل الرأي والحكمة بدليل قوله تعالى : ﴿ واذا جاءهم أمْرٌ مِنَ الأمْن أو الخوف أذاعوا به ولو رَدّوه الى الرسول والى أولي الأمر منهم لَعَلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم ﴾ النساء : ٨٣

والذين يعلمون الأمور أحق بالمشاورة من الذين لا يعلمون :

﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ الزمر : ٩ .

أوجب الله الشورى على المسلمين ولم يبين كيفيتها ، لأن تفصيل النظم الشورية والطرق التي تكون بها لما يختلف باختلاف أحوال الأمة الاجتماعية ، فمن العدل ان تقرر الشورى، وأن يترك لكل أمة ان تضع نظمها التفصيلية بما يلائم حالها ويتوافق مع مصلحتها .

المساواة

كانت الأمم قبل الاسلام وبعده الى اواخر القرن الثامن عشر أي الى عهد الثورة الفرنسية تضع فروقاً عظيمة بين طبقات الأمة ، جاء في موسوعة لاروس : « في سنة ١٧٩٨ م . كان يوجد عدم مساواة في توزيع المناصب العمومية وعدم رقابة عليها ، فبذل وزراء لويس السادس عشر جهدهم لإجراء الاصلاحات التي تتطلبها الأمة ، فلم ينجحوا ضد المقاومة العنيفة لرجال الدين والنبلاء ، فرأت الأمة انه لا يجدي في هذا الأمر غير ثورة تضع مكان جماعة قائمة على اعتبار الامتيازات جماعة أخرى يسودها قانون المساواة بين الجميع » .

وليس بخاف على القراء ما أحدثته الثورة الفرنسية من الاصلاحات وكانت سبباً في ايقاظ شعوب اوروبة جميعاً من سباتهم فلم يلبثوا حتى ثاروا جميعاً ضد حكوماتهم طالبين الاقتداء بحكومة الفرنسيين .

وبعض الاديان تقر نظام الطبقات كالديانة البراهمية التي تقسم الأمة الى

طوائف أربع ، وتجعل أعلى هذه الطبقات « البراهمة أو الكهنة » وأدناهـــا السفلة أو الانجاس » ويكفي لندرك ظلم هذا النظام أن نعرف أنه جاء في قوانين أحد مشرعي هذه الديانة وهو Monou : ان البرهمي يجب احترامه بسبب نسبه وحده ، واحكامه هي وحدها الحجة ، وان له — حين الحاجة — أن يمتلك مال الواحد من السفلة ، لأن العبد وما ملكت يده لسيده . وكان محرماً على هذه الطبقة المنكودة أن يتصل أحدهم بشيء من الدين أو العلم وإلّا حل به عذاب غليظ ، مثل صب الرصاص المصهور في أذنيه، وشق لسانه وتقطيع جسمه[1].

واليهود زعموا: انهم وحدهم أبناء الله وأحباؤه ، وفرقوا في تشريعاتهم بين اليهود وغيرهم، فحرموا الربا بشدة بينهم ، وجعلوه تجارتهم الرابحة الحلال بالنسبة لمن لم يكن منهم[2] .

والأمة الجرمانية النازية قبل الحرب العالمية الاخيرة اسرفت في الدعوة الى العنصرية فقسمت الجنس البشري طبقات، وجعلت في مقدمتها الجنس الآري المتفوق حسب زعمها .

والامم الديمقراطية التي تدعي ان العالم الانساني مدين لها بمبادىء المساواة لا تزال في قوانينها وسياستها تسير بما يخالف هذا المبدأ كما في بعض الولايات الامريكية وبعض المناطق الافريقية الخاضعة للاستعمار الأوروبي التي تجرد السود مِن ابسط الحقوق الانسانية .

وإذا نظرنا الى ما شرعه الاسلام من مبدأ المساواة ، رأينا انه لم يصل أي تشريع سماوي أو وضعي — في مبلغ الحرص على مبدأ المساواة — الى ما وصل اليه الاسلام ، فقد قرّر الاسلام : مساواة الناس أمام القانون ، ومساواتهم في الحقوق العامة السياسية وغيرها ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لغني على فقير ، ولا لوجيه على صعلوك ، وبذلك قضى الاسلام على نظام الطوائف وأساليب التفرقة بين الطبقات في الحقوق والواجبات ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم

---

(١) يرجع في هذا الموضوع الى ما كتب عن الهند وحضارتها ومن هذه المراجع « حضارة الهند » للدكتور جوستاف لوبون ترجمة الأستاذ محمد عادل زعيتر .

(٢) يرجع في هذه التفرقة الى التوراة نفسها ، سفر التثنية ١٥ : ٧ — ٨ سفر اللاويين ٢٥ : ٣٥ — ٣٩ .

شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ الحجرات : ١٣ .

ففي هذه الآية يدعو الله الناس كافة ، ولا يدعو قبيلة واحدة ولا أمة بعينها بل يدعو الناس بأصلهم الأول وهو آدم وحواء ، ومن كان ابوهم واحداً وأمهم واحدة فلا محل لأن يدعي بعضهم السمو على البعض الآخر من ناحية الجنس . وأنهم وإن تفرقوا في البلاد واختلفوا في الاجناس واللغات والألوان ، فإن تلك الخلافات لا تزيل عنهم صفة الأخوة ، بل توجب عليهم ان يتعارفوا ، والتعارف يدعو الى التآلف والتواد والتعاون على تذليل عقبات الحياة .

هنا تشعر النفس الانسانية بسمو هذا المبدأ ، ويكاد هذا الشعور يدفعها الى الأخذ به دون تردد لولا ما يثور فيها من بقايا العصبية التقليدية من ادعاء كل شعب بأنه الأولى بالزعامة والأحق بالكرامة ، هنا يتلقاه الشطر الأخير الذي تضمنته الآية وهو : (ان اكرمكم عند الله أتقاكم) أي لا تفاضل بين الناس إلا على أساس أعمالهم ، وما يقدمه كل منهم لربه ووطنه والمجتمع الانساني .

ويقول النبي عليه السلام في الدعوة الى المساواة في حجة الوداع : (ايها الناس : إن ربكم واحد وأباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على اسود إلاّ بالتقوى)[1] .

هذا هو مبدأ المساواة الذي ولد قبل أربعة عشر قرناً على يد الاسلام في بلاد العرب التي كانت تعد أشد الأمم تباهياً بالانساب .

أنكر زعماء العرب من قريش على النبي عليه السلام مبدأ المساواة الذي بدأ بتطبيقه فقالوا له : كيف نجلس اليك يا محمد وأنت تجلس الى مثل بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وعمار ، وسواهم من العبيد وعامة الناس ؟ اطردهم ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك . فأبى رسول الله ، فقالوا : فاجعل لنا يوماً ولهم يوماً ، فكاد ان يجيب رغبتهم ، فنزل عليه الوحي :

﴿ ولا تَطرد الذين يدعون ربهم بالغَداة والعشي يُريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردَهم فتكون من

---

(١) رواه الإمام أحمد .

الظالمين . وكذلك فَتَنّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، أليسَ الله بأعلمَ بالشاكرين . واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سَلاَمٌ عليكم كَتَبَ ربكم على نفسه الرحمة ﴾ الانعام : ٥٢ ــ ٥٤ .

وتخاصم مرة أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي عليه السلام فاحتد أبو ذر على العبد وقال له :

« يا ابن السوداء » فغضب النبي عليه السلام وقال : (ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى او بعمل صالح) فوضع ابو ذر خده على الأرض وقال للأسود : (قم فطأ على خدي) تكفيراً له عن قوله .

والرسول عليه السلام كان لا يفرق في الحقوق والمعاملات بين ابيض واسود ولا بين حر ومولى ، فقد ولّى « بلالاً » على المدينة المنورة وفيها كبار الصحابة ، وبلال مملوك سابق اشتراه ابو بكر وأعتقه . كما ان النبي ولى « باذان » الفارسي على اليمن ولما مات ولى ابنه مكانه .

هذا السمو الذي تحلى به الاسلام يزداد ظهوراً اذا قورن بما يجري بين أرقى الأمم المتمدنة اليوم من المعاملات التي تنافي الكرامة الانسانية .

فاذا كان العلم وما وصل اليه العالم من الرقي ، لم يوصلا الانسانية الى ما قرّره الاسلام وحمل اهله على العمل به في بقعة من الأرض لم يكن للعلم ولا للفلسفة ظل فيها ، أفلا يكون هذا أقوى دليل على انه صادر من رب العالمين ؟! لأن عقل الحكيم مهما حلّق في جو المبادىء الصالحة لايستطيع ان يتعدى حدوده فيفكر في وضع أصل عالمي كهذا الأصل، في وقت وفي بيئة تدعو جميع الاحوال الى الصَدّ عن التفكير فيه .

العدالة

كانت الأمم قبل الاسلام تعرف معنى العدل[1] والظلم ولكنها ما كانت تعرف حدود كل منهما ، فكانت تلك الحدود متداخلة ، شأنهما في ذلك شأن أكثر المعاني المجردة إذ ذاك .

(١) من مراجع هذا الفصل بحوث للأستاذ محمد فريد وجدي كتبها في مجلة الأزهر، وكذلك فصل « الدعوة الى احترام العمران وعدم الفساد » .

فإذا نظرنا الى الشعب اليوناني نراه فرق بين من ينتسب الى اصل يوناني وبين من لا يمت اليه بسبب ، فجعل للأولين جميع الحقوق الوطنية وخولهم حق السيادة على الآخرين، وجاراه في ذلك الشعب الروماني مضيفاً الى ذلك شيئاً من الغلو ، فلم يفرق بين من هو من اصل روماني وبين غيره فحسب ، بل وفرق بين الخاصة والعامة أيضاً ، فجعل للأولين الزعامة والقيادة والحماية ، وفرض على الآخرين الخضوع والانقياد والطاعة . جاء في دائرة معارف لاروس عند ذكر نظم الرومانيين :

« ماذا كانت نظم الرومان على وجه الاجمال ؟ كانت الوحشية والقسوة بعينهما مرتبتين في صور قوانين . اما من جهة فضائل رومية مثل: الشجاعة والمكر والتبصر والنظام والاخلاص المطلق للجماعة ، فهي بعينها فضائل قطاع الطرق واللصوص ، اما وطنيتها فكانت مكتسية لباس الوحشية ، فقد كان لا يُرى فيها الا شره مفرط للمال، وحقد على الاجنبي ، وتجرد من عاطفة الرحمة الانسانية .

فمعنى العدالة لم يكتمل عند اليونانيين ، ولا اكتمل عند الرومان الذين خلفوهم ، فكان اكتماله من حظ القرن التاسع عشر ، وهو لم يتأخر الى هذا الحد إلا لابتنائه على معارف اجتماعية لم يتم نضجها الا في العصور القريبة ، وأرفع ما وصل اليه معناها لدى الشعوب المتمدنة وما شرطه علم الاجتماع في اكتمال العدالة هو : ان تراعي الأمم فيما تسنه لنفسها من قوانين حقوق الانسانية برمتها، وهو باعتراف علم الاجتماع لم تصل اليه امة بعد .

فلننظر الآن هل اكتمل معنى العدالة لدى الأمة الاسلامية ؟ وهل في نصوص القرآن تلك التعاليم ؟ فإذا تحقق هذا في القرآن ــ وقد تحقق فعلاً ــ كان ذلك حجةً علمية على أن مصدره وحي الهي .

العدالة في القرآن : من المثل العليا في الاسلام تكليف متبعيه بأن يكونوا قائمين بالعدل بين الناس مع صرف النظر عن جميع الاعتبارات التي تحد من سلطانه ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين[١] بالقسْط[٢] شُهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والاقربين إنْ يَكُنْ غنياً أو فقيراً

(١) القوامون : جمع قوام ، مبالغة من القيام بالأمر ، بمعنى فعله وأدائه .
(٢) القسط : العدل .

فالله أوْلى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تَعدِلوا ، وإن تلووا[١] أو تُعرضوا فإنّ الله كان بما تَعملون خبيراً ﴾ النساء : ١٣٥ .

ففي هذه الآية أمر الله تعالى المؤمنين ان يكونوا مبالغين في تحري العدل ، وان يكونوا شهداء بالحق مطلقاً لوجه الله لا لغرض دنيوي ولو كانت هذه الشهادة على انفسهم أو على والديهم وأقرب الناس اليهم ، إن يكن المشهود عليه غنياً يُرجى خيره ويخشى بأسه ، او كان فقيراً يشفق عليه ويترحم ، فلا تمتنعوا عن الشهادة على الغني طلباً لرضاه او على الفقير شفقة عليه ، فان الله اولى بهما واعلم بمصالحهما ، فعليكم ان تراعوا أمر الله ، وتقوموا بالشهادة عليهم بما عندكم . وإن الهوى هو الذي يميل بالنفس عن الحق فلا تتبعوه لتعدلوا ، وإن تتولوا عن إقامة العدل او تعرضوا عن إقامته فإن الله مطلع على ذلك فيجازيكم عليه .

لم يكتف القرآن بهذا ، بل أمر المسلمين بمراعاة قواعد العدل حتى مع أعدائهم، قال الله تعالى: ﴿ ولا يجرمنّكم شنآن[٢] قوم على ألاّ تعدلوا[٣] إعدلوا هو اقرب للتقوى ﴾ المائدة : ٨ . والمعنى : ولا تحملنّكم كراهتكم لقوم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل اقرب الى تقوى الله .

وورد في القرآن الأمر بالعدل والتعظيم لشأنه في كثير من الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ النساء : ٥٨ .

ويأمر الله المسلمين بالعدل حتى في الأقوال : ﴿ واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ الانعام : ١٥٢ .

ويبين الله ما تبعث الرسل لأجله : ﴿ لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ الحديد : ٢٥ .

فهذه الآية بيّنت أن الله أراد بإرسال الرسل اقامة العدالة الاجتماعية على اساس ما انزله عليهم من الكتب المتضمنة للأحكام وشرائع الدين، وما أمرهم به من استعمال الميزان، لأن به يتميز الحق من الباطل، وبه يحصل الناس على حقوقهم.

---

(١) تلووا : من اللي بمعنى التحريف والتبديل .

(٢) الشنآن : البغض والعداوة .

(٣) العدل : العدل في الحكم هو تحري المساواة والمماثلة بين الخصمين .

هذه هي مبادىء القرآن لإقرار العدالة في الأرض ، والتي يظهر لك من معناها وروحها بأنها ليست من كلام بشر بل من كلام الله الذي سَنّ للناس ما يسعدهم ويهديهم الى السلام والطمأنينة في حياتهم .

الدعوة الى احترام العمران وعدم الفساد

قامت قبل الاسلام امم توفرت لها جميع أسباب القوة ، فراحت توالي الفتوح الى كل جهة ، طلباً للتوسع في الملك والتضخم في الثروة ، فكانت الطريقة التي تتبعها هي ما تمليها عليها القوة الغاشمة لا أصول العدالة ، فكانت تستولي على المدن فتدكّ عمرانها ، وتسلب أموالها ، وتستذل اهلها وتولي عليها من يسومها الذل والظلم .

هذه سنة الفاتحين ، وقد أحسنت إيجازها ملكة سبأ إذ قالت حين أتاها كتاب سليمان — كما جاء في القرآن — : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون ﴾ النمل : ٣٤ .

وإقامة الدليل على ذلك من التاريخ ميسور . فهو حافل بالفظائع التي ارتكبت في كل عصر من أكثر أمم الأرض .

ولا نذهب بعيداً ، فهذه الحرب الماضية والتي قبلها ، رأينا فيها الأمم المتمدنة تجاوزت بآلاتها المدمرة ضرب المحاربين الى تخريب دور الأهلين ودفنهم تحت أنقاضها بتسليط أسراب كثيرة من الطائرات عليهم ، وما كان يدور بخلد أحد قبل نشوب هاتين الحربين بأن المتمدنين يبلغ بهم الحقد مع وحدة مدنيتهم الى حَدّ التفكير في إبادة بعضهم بعضاً وهدم عمرانهم .

أما الاسلام فنراه حذّر من الفساد في عبارات مؤثرة وألوان من البيان ، فاقتلع جذور هذه الرذيلة من قلوب أهله ، وأحلّ محلها إنسانية لا تعدو عليها الاعتبارات العدائية .

اعتبر الله الفساد من الجنايات الاجتماعية، وحذّر منه في آيات كثيرة، فقال تشنيعاً على المفسد : ﴿ ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام[1]. واذا تولّى سعى في الأرض

---

(١) ألد الخصام : شديد الخصومة .

ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ البقرة : ٢٠٤ – ٢٠٦ .

والمعنى : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا لأنه يبدو نصيراً للحق محباً للاصلاح ويحلف بالله على ان ما في قلبه موافق لما يقول . ولكنه اشد الناس خصومة للمجتمع . فهو إذا تولى ولاية يكون له فيها سلطان لا يكون سعيه للاصلاح بل للافساد واهلاك الزرع والنسل ، والله لا يحب الفساد . وإذا امره احدهم بالمعروف او نهاه عن المنكر تملكه الغضب وعظم عليه الأمر وخيّل اليه ان النصح والارشاد اذلال له ينافي العزة التي تليق بأمثاله ، فهذا المفسد مصيره النار جزاء اعماله .

وحذّر الله المسلمين من معاملة الشعوب بالقسوة والجبروت وتخريب العامر من مدنهم ، لأن هذه تفضي بهم الى عدم النجاح في شئونهم الخاصة ؛ ويعرف الذين درسوا تاريخ الأمم ، أن الامم أكثر ما أتاها الانحلال من الشعوب التي كانت في حوزتها والتي سامتها سوء العذاب .

وقد أوجز الله تعالى هذا الأصل في قوله : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر[١] أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ الانبياء : ١٠٥ .

والمعنى : ولقد كتبنا في الزبور[٢] من بعد التوراة ان الأرض يرثها عبادي الصالحون لعمارتها وتيسير اسباب الحياة الطيبة فيها .

ومن العجب أن يكون هذا الأمر محلاً للشك أو يكون مما يخفى على العاقلين من الناس . قال الله تعالى :

﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ص : ٢٨ .

ومما شدّد الله التحذير منه هو : إفساد ما تم اصلاحه في العالم :

﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب مِنَ المحسنين ﴾ الاعراف : ٥٦ .

وزاد تنبيهه – بعدم الفساد في الأرض –قوة بأن جعل النجاة في الآخرة

---

(١) من بعد الذكر : بعد ان دونا كل شيء في اللوح المحفوظ .

(٢) الزبور : كتاب داود ، وهو المعروف بالمزامير .

وقفاً على المتأدبين بهذا الأدب الالهي وهو عدم الفساد . قال الله تعالى :

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ القصص : ٨٣ .

وقد علم الله أن المسلمين ستؤول اليهم الخلافة في الأرض فقال سبحانه :

﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم ﴾ محمد : ٢٢ — ٢٣ .

أي فهل يتوقع منكم أيها المسلمون إن ولاّكم الله خلافة الأرض أن تفسدوا فيها وتقطعوا صلات القرابة الانسانية بينكم ؟! ثم وجه الله الى الذين يجرؤون على ذلك أشد ما يوجه الى الجناة الطاغين من لوم .

ففي هذه الآية معجزة للقرآن إذ قرنت تقطيع الأرحام بتولية الحكم ، وجاء ذلك مصداقاً لما نطق به لسان التاريخ من بعد حين قطعت الأرحام أبشع تقطيع حين دأب ولاة الحكم في كثير من عهود الدول السالفة في الشرق والغرب على استئصال اقاربهم في الساعات الأولى من توليهم الحكم .

والجدير بالذكر في هذا المقام ان من ادل الادلة على ان هذا القرآن مصدره من الله ان هذه الوصايا الداعية الى احترام العمران وعدم الفساد في الأرض صادرة من بلاد العرب وقد كانت في عهد نزول القرآن تكاد تكون خالية من آثار العمران فكثرة التوصية في هذا الموضوع اشارة قوية من الله الى أن المسلمين سيحتكون بالأمم ذات العمران . وقد امتد الفتح العربي الى نحو ربع الكرة الأرضية في مدة لاتتجاوز القرن بعد موت نبيهم وصادفوا فيها من القصور والمؤسسات ودور العبادة ما لا سبيل الى حصرها فتركوها على حالها . وفي هذا من الدلائل ايضاً على أن الاسلام هو الدين العام الذي يسع الناس جميعاً .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

واذا كان الاسلام قرر مبدأ الشورى ، فنراه من جهة أخرى اوجب ان يكون في الدولة الاسلامية جماعة من أولي الحل والعقد يمثلون الأمة وينوبون عنها ويراقبون سياستها ونظم حكمها ، وهذه الجماعة هي التي قصدها الله سبحانه بقوله : ﴿ ولتكن منكم أمّةٌ يَدْعُون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وَيَنْهَوْن عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ آل عمران : ١٠٤ .

فهؤلاء الجماعة وظيفتهم الاشراف على الحكام ليكونوا مرجعاً لهم في تشريعهم، وليكونوا دعاة الى الخير وناهين عن المنكر وناصحين للرعية.

ولا يقتصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هذه الجماعة فقط بل يعمم القرآن هذا الواجب على المؤمنين جميعاً: ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ﴾ التوبة: ٧١. وعد الله المؤمنين الذين يقومون بهذا الواجب بالرحمة وهي رعايته وتوفيقه لهم.

ويُبيّن الله أهمية الأمر بالمعروف بقوله: ﴿ والعصر[١]. إن الانسان لفي خُسْر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾.

ففي هذه السورة وصف الله جميع الناس بالخسران إلاّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات، المتواصين بالحق والصبر، وأقسم على هذا الخبر بالعصر، والتواصي بالحق هو الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وان الجماعة تكون كلها آثمة إذا كان الشر يسير في طريقه ولا يوجد من ينكره، ولقد ذم القرآن بني اسرائيل لأنهم افسدوا مجتمعهم بترك الآثمين يرتعون في اثمهم. قال تعالى:

﴿ لُعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ المائدة: ٧٨، ٧٩.

واللعن عقوبة شديدة فظيعة، هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله والحرمان من توفيقه ورعايته، ولا شك أن أمة تصاب بذلك هي أمة هالكة، وقد ذكر الله سبب هذا اللعن فبين: أنه العصيان والاعتداء وعدم التناهي عن المنكر، ثم ذمّ الله صنيعهم بهذه العبارة البليغة: (لبئس ما كانوا يفعلون).

والقرآن جعل الوصف الخاص الذي تعلو به أمة الاسلام على غيرها من

---

(١) العصر: يطلق ويراد به الدهر، وهو جملة الزمان الذي تقع الحوادث فيه، وقد أقسم الله به لاشتماله على الأعاجيب ففيه الهناء والشقاء والغنى والفقر والعز والذل، ولما كان الناس يضيفون المصائب والنوائب اليه ويشكون منه ويألمون، أراد الله ان يبين بهذا القسم: ان الخسران من عمل الإنسان في الدهر لا من الدهر نفسه.

الأمم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ آل عمران : ١١ .

وللنبي ﷺ وصايا في هذا المعنى : (الدين النصيحة : فسأله الصحابة لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) .

ويقول : (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

بهذا الاصل سعى الاسلام الى تكوين رأي عام موحد نحو غاية سامية يستأصل شأفة الفساد أنّى وجد ولا يسكت عنه . وليس أضر على شعب من مجاهرة بعض أفراده بالاعتداء على حرمات الدين والدولة والحقوق العامة ثم لا يحرّك أحد ساكناً للانكار عليهم والزامهم الاقلاع عما هم فيه .

التشريع الاسلامي

كان رسول الله في حياته مرجع المسلمين في جميع شؤونهم الدينية ، يستفتونه فيما يعرض لهم من مسائل ، ويقضي بينهم في خصوماتهم .

ولما توفي الرسول لم يكن اصحابه كلهم أهلاً للفتيا ، بل كان بعضهم فاهمين روح التشريع بما تلقوه من رسول الله وما شاهدوه من قضائه وفتاويه ، وكانت سلطة هؤلاء محصورة في أمرين :

أولاً — تفهم نص القرآن والسنة ، وبيان الحكم الذي يدل عليه .

ثانياً — استنباط الحكم بواسطة الاجتهاد ، وذلك في المسائل التي كانت تحدث للمسلمين بعد الرسول ولم ينص على أحكامها في القرآن والسنة .

ولم يكتسب الصحابة هذا السلطان التشريعي من تعيين الخليفة ، او انتخاب من الأمة وانما امتازوا به من طول صحبتهم للرسول ، وحفظهم عنه القرآن والسنة ومشاهدتهم كثيراً من أقضيته ، ومن مواهبهم في العلم والفهم ، فلهذه المميزات تصدروا لتولي السلطة التشريعية ، ودان لهم المسلمون بهذا ، وتفرقوا في البلدان الاسلامية لأداء هذا الواجب التشريعي ، فكان في كل بلد اسلامي عدد من الصحابة هم مرجع الولاة والجماعات والأفراد في معرفة

حكم الشريعة فيما يعرض وما يحدث من الوقائع ، وفي كل بلد اسلامي التف حول علماء الصحابة بعض المسلمين ، أخذوا عنهم القرآن ، ورووا عنهم السنة ، ومارسوا استنباط الأحكام فيما لا نص فيه ، وتصدوا لافتاء المسلمين .

تدوين التشريع : انقضى القرن الأول الهجري ولم يكن للدولة الاسلامية قانون سوى القرآن والسنة ، فإذا وجد أهل الفتيا من الصحابة والتابعين وغيرهم نصّاً اتبعوه ، والا اجتهدوا برأيهم . وما كانت تدون هذه الآراء الاجتهادية ولا تعتبر قانوناً ولا شرعاً الا باعتبار أن مستندها ومرجعها الى القرآن والسنة ، ولكن لما اتسعت دائرة الفتح الاسلامي ، وانتشر الاسلام في الممالك القاصية وتفرّق حفاظ الشريعة ورواتها في مختلف الانحاء ، خيف من تشتت أحكام الشريعة ودخول الفوضى في التشريع ، فكان هذا باعثاً على امرين : الأول ، تدوين حديث رسول الله . والثاني ، تدوين المجتهدين اجتهاداتهم وأصولهم التي استندوا اليها في الاستنباط مثل الأئمة المجتهدين : أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وزيد بن علي ، وجعفر الصادق ، وغيرهم ، ومنذ ذلك الحين صار رجال التشريع يرجعون الى القرآن والسنة والاجتهادات وما كان في هذا من بأس لأن الرجوع الى مجتهدات الأئمة ما كان إلا للاهتداء الى فهم القرآن والسُنّة والاستعانة على الاستنباط .

بعض الاسس التي قام عليها التشريع الاسلامي

من درس الأحكام الشرعية التي اشتمل عليها القرآن في مختلف أبوابه من: عقائد وعبادات ومعاملات وعقوبات ظهر له أن الحكمة من تشريع القرآن والسنّة هو تحقيق مصالح الناس والعدل بينهم . ولهذا يقول الله تعالى في وصف القرآن : ﴿ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ الاسراء : ٩ .

ويقول في وصف رسالة محمد عليه السلام المؤيدة بالقرآن : ﴿يأمُرُهم بالمعروف وَيَنْهَاهم عَن المنكر ويُحلُّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث وَيَضَعُ عَنهم إصْرَهُم والأغلالَ التي كانت عليهم﴾ الاعراف : ١٥٧ .

وقد أدرك علماء الشريعة الاسلامية هذه الحقيقة ، فنرى الإمام الشاطبي يقول في كتابه (الموافقات) : « إن احكام الشريعة ما شرعت الا لمصالح الناس،

وحيثما وجدت المصلحة فثمّ شرع الله » . ويقول الإمام ابن القيم الجوزي في كتابه (الطرق الحكيمة) : « إن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسماوات ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه » .

وعلى ضوء ما تقدم ، نرى علماء الشرع الاسلامي استمدوا من القرآن والسنة مبادىء تشريعية عامة تعتبر الدستور التشريعي الذي يبني عليه المشرّع تشريعه والقاضي قضاءه ، وكل مبدأ من المبادىء التي سنذكرها نراها تمتّ بسبب صحيح الى تحقيق مصالح الناس ، وتصلح للتطبيق في كل زمان ومكان .

المبادىء الخاصة بدفع الضرر :

المبادىء الخاصة بدفع الضرر استمدّها العلماء من قوله عليه السلام : (لا ضرر ولا ضرار)[1] وهي :

١ ــ **الضرر يزال شرعاً** ــ من فروعه : ثبوت حق الشفعة للشريك والجار ، ووجوب الضمان على من أتلف مال غيره ، ووجوب الوقاية والتداوي من الأمراض .

٢ ــ **الضرر لا يزال بالضرر** ــ من فروعه : لا يجوز للانسان ان يدفع الغرق عن ارضه باغراق ارض غيره . وأن يحفظ ماله بإتلاف مال غيره .

٣ ــ **يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام** ــ من فروعه : يُقتل القاتل لتأمين الناس على نفوسهم . يُهدم الجدار الآيل للسقوط في الطريق العام .

٤ ــ **يرتكب أخف الضررين لاتقاء أشدهما** ــ من فروعه : تُطلق الزوجة من زوجها للضرر والإعسار . وتفرض النفقة للفقراء من الأغنياء الأقارب .

٥ ــ **دفع المضار مقدم على جلب المنافع** ــ من فروعه : يمنع ان يتصرف المالك في ملكه اذا كان تصرفه يضر غيره .

---

(١) لا ضرر ولا ضرار : الضرر إلحاق مفسدة بالغير ، والضرار مقابلة الضرر بالضرر .

المبادىء الخاصة بسد ذرائع الفساد :

استمدها العلماء من قوله تعالى: ﴿ ولا تسبّوا الذين يدعون من دون الله، فيسبّوا الله عدْواً بغير علم ﴾ الانعام : ١٠٨ . حرّم الله تعالى سبّ آلهة المشركين – مع كون السب غيظاً وحمية لله وإهانة لآلهتهم – لأن ذلك ذريعة الى سب المشركين لله تعالى. ويقول عليه السلام في سد ذرائع الفساد : (ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ، ألا إن حمى الله محارمه) . وعلى هذه الطريقة استمد العلماء هذه المبادىء التي ساروا في التشريع على ضوئها وهي : **ما يفضي إلى المحظور فهو محظور – ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب – ما ضر كثيره حرم قليله – درء المفاسد أولى من جلب المصالح .**

وقد فصّل وشرح مبادىء سدّ ذرائع الفساد العلامة ابن القيم الجوزي في كتابه (أعلام الموقعين)[1] وذكر تسعةً وتسعين مثالاً على ذلك :

ومن الأمثلة التي ذكرها : أنه صلى الله عليه وسلم حرّم الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها في الزواج وقال: إنكم اذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم . حتى لو رضيت المرأة بذلك لم يجز ، لأن ذلك ذريعة الى القطيعة المحرّمة .

ومن ذلك أن الشريعة منعت قبول شهادة العدو على عدوّه لئلا يتخذ ذلك ذريعة الى بلوغ غرضه من عدوّه بالشهادة الباطلة .

ومن ذلك أن النبي : نهى ان يبيت الرجل عند امرأة، إلا ان يكون زوجاً أو ذا رحم محرّم عليه زواجها، وما ذلك إلا لأن المبيت عند الأجنبية ذريعة الى الزنا.

ومن ذلك ان النبي : نهى ان يخطب الرجل على خطبة اخيه الانسان او يبيع على بيع اخيه ، وما ذاك إلا انه ذريعة الى التباغض والتعادي .

المبادىء الخاصة برفع الحرج :

استمدها العلماء من قوله تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ الحج : ٧٨ . وقوله سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ البقرة : ١٨٥ . ويقول سبحانه ايضاً : ﴿ لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها ﴾ البقرة : ٢٨٦ . والمبادىء التي استمدها العلماء من هذه الآيات هي :

---

(١) راجع الجزء الثالث ابتداء من صفحة ١١٩ .

١ ـ **المشقة تجلب التيسير** ـ يتفرع عنها : ان الشريعة أباحت للصائم ان يفطر في السفر وعند المرض ، كما أباحت قصر الصلاة في السفر ، واسقطت فريضة الحج عن العاجز والمريض .

٢ ـ **الحرج مرفوع شرعاً** ـ من فروعه : قبول شهادة النساء وحدهن فيما لا يطلع عليه الرجال من عيوب النساء وشؤونهن .

٣ ـ **الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات** ـ ومما يتفرع على هذا المبدأ كثير من عقود المعاملات وضروب الشركات التي تحدث بين الناس وتقتضيها تجارتهم . فإذا قام البرهان الصحيح على أن نوعاً من هذه العقود أو التصرفات صار ضرورياً للناس بحيث ينالهم الحرج اذا حرم عليهم هذا النوع من التعامل أبيح لهم قدر ما يرفع الحرج منه .

مبدأ الضرورات تبيح المحظورات :

استمده العلماء من قوله تعالى : ﴿ فمن اضطر غير بَاغٍ ولا عَادٍ فلا إثم عليه ﴾ البقرة : ١٧٣ . وذكر سبحانه الذين يتجاوز عنهم اذا تلفظوا بالكفر بقوله : ﴿ إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ﴾ النحل : ١٠٦ . ولهذا ابيح للمكره ان يتلفظ بالكفر وقلبه مطمئن بالايمان . وابيح أكل الميتة المحرمة وشرب الخمر المحرمة عند الضرورة ، وعلى هذا المبدأ بني كثير من الاحكام منها :

١ ـ **الضرورات تقدّر بقدرها** ـ من فروعها : لا يجوز الاسترسال بالأخذ بالضرورات لأنه متى زال الخطر عاد الحظر .

٢ ـ **الاضطرار لا يُبطل حق الغير** ـ من فروعه : من اضطر لدفع الهلاك عن نفسه له أن يأكل طعام غيره ولكن عليه ضمان قيمته .

المبادىء الخاصة بالبراءة الأصلية :

استمدها العلماء من قوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً ﴾ البقرة : ٢٩ . وقول النبي : (كل مولود يولد على الفطرة)

والمبادىء التي استنبطوها هي : الاصل في الاشياء الاباحة ـ الاصل في الانسان البراءة .

هذه بعض المبادىء التي قام عليها التشريع الاسلامي والتي لا يرتاب منصف في انها مبادىء عادلة لا تتنافى مع اي مبدأ تشريعي عادل .

كفاية التشريع الاسلامي وصلاحه لأي مجتمع

ما ضاقت القوانين الشرعية الاسلامية عن حاجة، ولا وقفت عقبة في سبيل مصلحة او عدالة ، بل نراها وسعت مصالح الناس على اختلافهم ؛ فقد كانت الدولة الاسلامية في عصورها الذهبية تمتد رقعتها من بلاد الصين شرقاً الى جبال اسبانيا غرباً ، تضم أمماً متباينة الاجناس والعادات والاديان ، وقد نظمت الدولة الاسلامية شؤون هذه الأمم بقوانين من شريعتها ، وما حدثنا التاريخ ان المسلمين في عصر من تلك العصور استمدوا قانوناً من تشريع غيرهم ، بل كلما فتح الله للمسلمين ارضاً فتح العلماء للتشريع أبواباً من الاجتهاد والاستنباط ، وما ضاقت القوانين الشرعية عن حاجة، ولا قصرت عن مصلحة من مصالح مسلم او يهودي او نصراني بل عاشوا في ظل عدالتها وتسامحها عيشة راضية .

والتشريعات الاسلامية التي كانت تطبق آنذاك سبقت المدنية الحاضرة بكثير من اصول العدل، واشتملت على كل ما يتطلبه المجتمع المتحضر، وقد اعترف بهذا علماء القانون الذين لا يدينون بالاسلام، وها هي بعض شهاداتهم :

يقول العلامة (سانتيلانا) : « ان في الفقه الاسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم المدني ان لم نقل ان ما فيه ما يكفي للانسانية كلها »[1] .

وكتب الدكتور محمد صادق فهمي القاضي المصري رسالة الدكتوراه في « الاثبات » وجعل اهم جزء فيها ما قرّره علماء الشريعة الاسلامية ، فلما اطلعت عليها لجنة الامتحان الفرنسية وناقشته اياها أقرتها له، فتوج استاذه في الحقوق « ليفي اولمان » كتابه بمقدمة نشرت في صدره قال فيها : « ان كتاب الدكتور جدير بأن يلحق بالكتب المكونة للمجموعات العلمية القانونية الحاضرة بل يجب ان يكون من رؤوس القانون في عصر النهضة الحاضرة . وعلى ذلك يجب اعتبار الشريعة الاسلامية في المعاملات مصدراً حياً للقانون العصري ومناطاً للحق في أدواره المختلفة » .

ولقد عقد البحاثة الامريكي « هوكنج » ، استاذ الفلسفة بجامعة هارفرد ، فصلاً مستفيضاً عن « مصير الثقافة الاسلامية » في كتابه « روح السياسة العالمية » المطبوع سنة ١٩٣٢ ، فبعد أن تكلم بإسهاب عن اصول الفقه الاسلامي وعن

---

(١) Avant-projet du Code Civil et Commercial Tunisien

المذاهب الأربعة قال: «ان سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي ان الدين ليس له أن يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماوية، وانما يجب ان يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم. وأحياناً يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار احكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية. فالجواب على هذه المسألة هو أن في نظام الاسلام كل استعداد داخلي للنمو، لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً النظم المماثلة، والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الاسلامي، وانما في انعدام الميل الى استخدامها. وإني أشعر بكوني على حق حين أقدر ان الشريعة الاسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض».

ويقول الدكتور (انريكو انسابا توحين): «ان الاسلام يتمشى مع مقتضيات الحاجات الظاهرة، فهو يستطيع ان يتطور دون ان يتضاءل في خلال القرون، ويبقى محتفظاً بكامل ما له من قوة الحياة والمرونة ... فهو الذي أعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً، وشريعته تفوق في كثير من تفاصيلها الشرائع الأوروبية»[1].

وفي سنة ١٩٣٢ قَرَّر المؤتمر الدولي المنعقد في (لاهاي) للقانون المقارن أن الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن، وبهذا صارت مصادر القانون المقارن أربعة وهي: القوانين الفرنسية، والقوانين الالمانية، والقوانين الانجليزية والشريعة الاسلامية.

هذه بعض شهادات علماء القانون في الشريعة الاسلامية اقتصرنا عليها خوفاً من التطويل، وليس يضير الأمم الاسلامية ان ترجع الى الحكم بأصول هذه الشريعة بعد ان جُربت وبرهنت على صلاحيتها لكل مجتمع انساني، فهي شريعة الله ﴿ ومن أحسن مِنَ اللهِ حُكماً لقوم يوقنون ﴾ المائدة: ٥٠.

وعلى هذا فالواجب على كل دولة اسلامية ان تكوّن هيئة علمية من خيرة رجال الدين والقانون والاقتصاد تكون مهمتها وضع قانون وفق ما جاء به القرآن والسنة الصحيحة، وأن ترجع الى أقوال المجتهدين فيما يوافق مصلحة الأمة، وما لا يوجد نصّ فيه في القرآن والسنة من معاملات الناس يوزن بميزان المصلحة العامة وينظر فيما يجلبه من نفع للافراد والجماعات.

---

(١) الإسلام وسياسة الخلفاء ١٤٥ – ١٤٦.

الخلافة

الخلافة [1] في الاسلام وترادفها الإمامة ، وإمارة المؤمنين : (هي رياسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ) .

وسمي القائم بذلك خليفة وإماماً ، فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والإقتداء به ، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته ، فيقال بإطلاق : خليفة رسول الله ...

والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي ، في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها ، اذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به [2] .

من ينصب الخليفة ويعزله

اتفق أهل السنة على أن نصب الخليفة فرض كفاية ، وأن المطالب به هم أهل الحل والعقد في الأمة، وهم : زعماؤها ورؤساؤها وعلماؤها العالمون بشريعتها ومصالحها السياسية والاجتماعية والقضائية والادارية .

وهذه الرياسة العليا مكانتها من الحكومة الاسلامية مكانة الرياسة العليا من أية حكومة دستورية، لأن الخليفة انما يستمد سلطانه من الأمة الممثلة في أولي الحل والعقد، ويعتمد في بقاء هذه الولاية على ثقتهم به ونظره في مصالح المسلمين ، ولهذا قرر علماء المسلمين : أن للأمة خلع الخليفة لسبب يوجبه وإن أدى ذلك الى الفتنة احتمل أدنى المضرتين . وتختلف الخلافة عن سائر الرياسات العليا في الحكومة الدستورية في : أن الخلافة رياسة عامة في أمور الدين والدنيا .

الشروط المعتبرة في الخليفة

اشترط العلماء شروطاً فيمن يولى الخلافة نذكر ما قاله أبو الحسن الماوردي

---

(١) الخلافة لغة : النيابة عن الغير ، والخليفة السلطان الأعظم .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٠ – ١٨١ .

في (الاحكام السلطانية) : وأما أهل الامامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة :

أحدها : العدالة على شروطها الجامعة .

والثاني : العلم المؤدي الى الاجتهاد في النوازل والاحكام .

والثالث : سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها .

والرابع : سلامة الأعضاء من نقص يمنع استيفاء الحركة وسرعة النهوض .

والخامس : الرأي المفضي الى سياسة الرعية وتدبير المصالح .

والسادس : الشجاعة والنجدة المؤدية الى حماية البيضة وجهاد العدو .

والسابع : النسب وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الاجماع عليه » .

وأما الشرط السابع الذي ذكره الماوردي فمختلف فيه . ومنشأ الخلاف عدم القطع بصحة النص الوارد فيه ومعارضته للنصوص الكثيرة التي وردت بالغاء اعتبار الانساب والاعتماد على الأعمال ، والنعي على من دعا الى عصبية . والنسب القرشي ان كان مشروطاً وخصوصاً قرب عهد وفاة الرسول فسببه ما كان لقبيلة قريش من المنعة والقوة التي يستعين بها الخليفة على أداء واجبه وجمع الكلمة حوله ، فهو شرط زمني مآله اشتراط أن يكون الخليفة من قوم اولي عصبية غالبة ، ولا اطراد لاشتراط القرشية .

الفرق بين الخلافة والبابوية

أثار كثير من كتاب اوروبا مسألة الخلافة وشبهوها بالبابوية ، والحقيقة أن الخلافة تختلف كثيراً عن البابوية الى حد أنهما لا يلتقيان أبداً .

فالبابا ينتخبه الكرادلة من بينهم ، والكردينالية ارفع الرتب الكهونتية بعد البابوية . وأمير المؤمنين يعتبر رجلاً عادياً ينتخبه أهل الحل والعقد ، ولهم أن يعزلوه وأن ينتخبوا غيره إذا فارق الكتاب والسنة في عمله لقوله صلى الله عليه وسلم : (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) . والبابا بيده النقض والابرام والغفران والحرمان ، والخليفة ليس بيده شيء من ذلك . والبابا من اختصاصه تفسير الكتاب المقدس ، والخليفة لا يخصه الدين بمزية فهم القرآن والعلم

بالأحكام بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، انما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الاصابة في الحكم .

ما يجب على الخليفة نحو الأمة

يجب على الخليفة نشر دعوة الاسلام ، واقامة ميزان العدل ، وحماية الدين من الاعتداء والبدع ، والمشاورة في كل ما ليس فيه نص ، وهو مسؤول عن عمله يراجعه كل واحد من الأمة فيما يراه اخطأ فيه ، ويحاسبه عليه اهل الحل والعقد ، يقول صلى الله عليه وسلم : (الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته) .

ويقول سبحانه : ﴿ ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ﴾ النساء : ٥٨ . والأمانة : كل ما يجب حفظه وتأديته الى مستحقيه ، فالمناصب العامة امانة في عنق الإمام يجب ان يضعها في اهلها ، واموال الدولة امانة يجب صرفها في وجوهها ، وما للأفراد والجماعات من حقوق مشروعة امانة يجب تمكينهم منها . والعدل المنصوص هو : الحكم بما أنزل الله وايصال الحق الى مستحقه في اقرب وقت .

وطالب الولاية والامارة لأجل الجاه والثروة لا يولى في الاسلام ، فقد قال النبي لرجلين طلبا منه ان يؤمرهما : (اننا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه)[1] .

كيف اختير أول خليفة في الاسلام

توفي محمد ﷺ تاركاً أمته تتصرف في شؤونها وفق نصوص القرآن والسنة حتى انه لم يسمّ من يخلفه من كبار الصحابة .

كان موته مفاجأة لقومه اذهلتهم هنيهة ، وكادت تفتن البعض عن دينهم . وفي هذه الفترة العصيبة وقف أبو بكر فصعد المنبر وخطبهم قائلاً : (أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت) . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين ﴾ آل عمران : ١٤٤ . فعاد صواب

(١) رواه البخاري .

الصحابة بعد هذه الكلمة وتركوا رسولهم مسجى في حجرته ، واجتمعوا تحت سقيفة أحدهم ، وتشاوروا فيما بينهم لتعيين من يخلفه ، فما مضت غير ساعة حتّى انتهوا الى رأي شبه اجماعي بتعيين أبي بكر لخلافته . ولما تمت بيعة أبي بكر ، قام في الناس خطيباً وقال :

(أيها الناس ، اني قد وُليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني وان صدفت[1] فقوّموني . الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي حتّى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف عندي ، حتّى آخذ الحق منه إن شاء الله .

لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل .

أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم .

قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله) .

المتأمل في هذه الخطبة ـ وهي أول ما طرق آذان المسلمين من ذي سلطان بعد وفاة النبي ﷺ ـ يرى فيها أصول الديمقراطية ماثلة لا ينقصها شيء . وأين الأمم الماضية من الديمقراطية وخاصة الأمة العربية ، في ذلك العهد ؟ فتولي ابي بكر رياسة الحكومة على النحو الذي حدث من الاجتماع والتشاور فيمن هو أحق برياستها، ثم مبايعة الناس اياه بعد انتخابه هو إيذان صريح بأن السلطان للأمة، وعدم تعيين النبي من يخلفه أيد هذا الحق للجماعة اعظم تأييد .

وقول ابي بكر في خطبته : (فإن أحسنت فأعينوني وان صدفت فقوّموني) اشعار واضح بأن للأمة حق الاشراف على الحكومة ، فتعين المحسن وتؤيده وتقوّم المعوجّ او تعزله .

وفي قوله : (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم) اعلان لا يقبل المماراة في ان الحكومة الاسلامية ذات دستور مقرر هو : القرآن والسنة النبوية ، وقد قيد ابو بكر نفسه بالسير عليهما على رؤوس الأشهاد . حتى انه صرح بأن للأمة حق اقالة الحكومة اذا لم تقم بما يوجبه عليها الدستور . وهذه الالتزامات هي الأركان الثابتة للديمقراطية الصحيحة .

هذا مثال من ديمقراطية الخليفة الأول ، ولولا خوف التطويل لأثبتنا أمثلة كثيرة عنه وعن الخلفاء الراشدين الذين جاءوا بعده .

---

(١) صدف : انصرف ومال واعرض .

الفصل العشرون

الاقتصاد في الإسلام

الاقتصاد الرأسمالي – الاقتصاد الاشتراكي – إقرار الملكية الفردية في الإسلام – التخفيف من طغيان رأس المال ويشمل ما يلي : الزكاة – نظام التوريث – الوصية – نصيب الفقراء من الغنائم والفيء – تحريم كنز الأموال – حفظ أموال الأمة والأفراد ويشمل ما يلي : الحجر على السفهاء – اختبار اليتامى قبل تسليمهم اموالهم – كتابة العقود المالية والرهن – تحريم الربا – تحريم أكل أموال الناس بالباطل – تحريم القمار – تحريم التلاعب بالمكاييل والأوزان – ذم الإسراف – البر بالطبقات الفقيرة .

تتبوأ المشكلة الاقتصادية في النظام العالمي مكان الصدارة لأنها المسألة الخطيرة التي تشغل العالم اليوم ، وقد حملت حضارة الغرب المادية حالة من اضطراب العلاقات الدولية في يد ، بينما حملت في اليد الاخرى حالة من النزاع بين الطبقات المختلفة .

فالنظام الاقتصادي لدول الغرب قد انتهى الى مشاكل جمة بسبب عجزه عن سد حاجات الأوضاع الجديدة ، فهو نزاع دائم بين « رأس المال » والطبقة العاملة . وعلى ذلك فلن يكون في العالم سلام ما دامت المشكلة الاقتصادية لم تحل .

ولعل مقومات السلام في هذه الحالة هي في يد الاسلام لأن النظام الاقتصادي الذي جاء به هو الذي يوفق بين صاحب العمل والعامل ، ويقدم الاصلاح المنشود ليسود السلام في الأرض قاطبة . ولنظام الاسلام خصائص لا نجدها في غيره كما سيمر معنا ، ولكننا قبل ان نستعرض خصائصه لا بد لنا من القاء نظرة مجملة على النظامين الاقتصاديين : الرأسمالي والاشتراكي .

الاقتصاد الرأسمالي

يقوم الاقتصاد الرأسمالي على أساس حرية الفرد في ان يعمل ما يروقه من الاعمال التجارية والصناعية وما يتبعها من معاملات ، وان ينتج الاصناف التي يختارها والكمية التي في وسعه انتاجها ، وان يتعامل مع غيره بكل ما يستطيع من حرية ، وبعبارة أخرى ، الاقتصاد الرأسمالي يرتكز على سياسة « الباب المفتوح » Laissez faire في الداخل والخارج[1] .

ويقول علماء الرأسمالية : انه لكي تكون الحياة الاقتصادية صحيحة لا بُدّ ان تكون مستندة على أسس ثلاثة :

أولاً : المصلحة الشخصية كهدف ، لأن واقع الانسان أنه لا يعمل اذا لم تكن له مصلحة شخصية تدفعه الى العمل .

ثانياً : المزاحمة كوسيلة ، لأن الانسان مسير بخلقه أكثر من ذكائه وعقله ، فلا بد له لكي يقتحم مصاعب العمل من منافس .

ثالثاً : الحرية كشرط ، لأن فقدان الحرية يقتل المنافسة ، ويشل النشاط ، ولا يحقق المنفعة الشخصية .

ان ترك الناس في هذا الجو من الحرية الاقتصادية المطلقة ــ خصوصاً بعد ان حلت الآلة محل العمل اليدوي ــ قد ولّد جملة مشاكل اقتصادية خطيرة منها :

تضخم الانتاج وتكدسه في الاسواق وانخفاض الاسعار .

ومنها : اقفال المعامل والمصانع وصرف العمال ، وهذا يستتبع عادة عدم حصول هؤلاء العمال على ما ينفقونه لسد احتياجاتهم كالطعام واللباس ، الأمر الذي استلزم ثورة هؤلاء العمال ، فحطموا المعامل ، وأشعلوا النار فيها ، وانزلوا الدمار بأصحاب رؤوس المال لأنهم رأوا ان هؤلاء مصدر بؤسهم وشقائهم.

الاقتصاد الاشتراكي

في هذا الجو المثقل بالفواجع والكوارث قام أنصار العمال فهاجموا النظام الرأسمالي واظهروا مساوئه فكان في جملة ما قالوه في هذا الصدد : ان مبدأ

(١) من مراجع هذا الفصل بحث كتبه الأستاذ محمود اللبابيدي في مجلة (الكتاب) .

المصلحة الشخصية في الاقتصاد لا يمكن الا ان يؤول إلى تكديس الثروة بيد الاقلية واخضاع الأكثرية الى مشيئة هذه الاقلية وتحكمها ، كما ان الرأسمال لا يمكن ان يشيع بين الطبقات الفقيرة الا البؤس والظلم ، يضاف الى ذلك ان المزاحمة الحرة لا تؤول ايضاً الا الى تبذير القوى الانتاجية، وافلاس المضاربين فضلاً عن ان من عيوب المزاحمة عدم تكافؤ اسلحة المتزاحمين ، وكذلك فإن الحرية الاقتصادية لا تعني سوى الفوضى ، لأنها تترك الفرد حراً في انتاج ما يشاء كيفما يشاء نوعاً وكماً ، فتنشأ الازمات الاقتصادية .

ولهذا نادى انصار العمال بالاقتصاد الاشتراكي وبنوه على ما يأتي :

أولاً : محو الملكية الفردية الواسعة للأرض ولرأس المال ، وتسليمها للدولة لمصلحة الجميع ، والافراد يؤدون أعمالاً للدولة نظير اجور تعطى لهم بالتساوي على أساس قيمة العمل الذي ينتجه كل واحد منهم .

ثانياً : توزيع السلع الاستهلاكية على الافراد كل حسب حاجته .

ثالثاً : وضع منهاج للانتاج في حدود حاجة المجموع نوعاً وكماً .

قالوا : وبذلك يزول التفاوت بين الافراد ، وتنمحي الطبقات الاجتماعية ويتساوى الافراد ، فلا أزمات اقتصادية ، ولا شحناء على المال ، ولا تباغض ولا تحاسد وانما اخوة وتعاون وسلام .

الاسلام يقر الملكية الفردية

نظام الاقتصاد الاسلامي لا شبيه له بين النظم الاقتصادية الحاضرة ، فهو فريد في بابه ونسيج وحده ، فيه من الرأسمالية أحسن ما لديها ، وليس فيه عيوبها ، وفيه من الاشتراكية الماركسية خيرها دون شرها .

أول ما يطالعنا الاسلام من نظامه: أنه يحترم (الملكية الفردية) ولكنه لم يقرها مطلقة في آثارها بل أقرها مقيدة بقيود عديدة أريد تخليصها من شرورها، فهو يختلف عن الرأسمالية في عدة أمور :

اولاً : يحارب تكديس الثروة وجمعها في يد فئة قليلة ، بل يجنح الى جعلها رأسماليات متوسطة أو صغيرة ، وهذا ما سنفصله تحت عنوان : التخفيف من طغيان رأس المال .

ثانياً : ما أتى به من تشريع يحفظ اموال الأمة والأفراد .

ثالثاً : ما دعا اليه الاسلام من البر بالطبقات الفقيرة ، وجعل ذلك من صلب العبادات . وفيما يلي تفصيل ذلك :

التخفيف من طغيان رأس المال

الزكاة

الاسلام سعى للتخفيف من طغيان رأس المال بأن فرض على مالكي الثروات أن ينزلوا عن حصة من ثرواتهم لصالح الطبقة الفقيرة ، وهذه الحصَّة أطلق الإسلام عليها اسم (الزكاة) .

وهذه الزكاة جعلها الاسلام أحد أركانه الخمسة ، كما أنه جعلها تشبه ضريبة حكومية واجبة التحصيل .

والزكاة يجب اخراجها عن كل ما يملكه الشخص من أموال عينية وتجارة وزراعة ومواش وما الى ذلك من أشياء ، شرط : أن تكون زائدة عن حوائجه الضرورية ، وأن يمر عليها سنة كاملة .

وقيمة الزكاة اثنان ونصف بالمئة في الذهب والفضة وسائر الأموال ، وقد تبلغ عشرة بالمئة في منتوج الأراضي التي تسقى بدون تكاليف .

وينفق المحصول من الزكاة على : الفقراء والمساكين والمثقلين بالدين وعتق الأرقاء وغيرهم[1]

نظام التوريث

والاسلام فرض قانون التوريث لمنع تكديس الأموال في أيد قليلة للحد من الفروق بين الطبقات . فقانون التوريث الاسلامي ساعد على توزيع الثروة على أكبر عدد ممكن من الذرية ، ووسع دائرة الانتفاع بها ؛ فكل أبناء المتوفي من ذكور واناث لهم الحق في الميراث بعكس القانون الانجليزي مثلاً الذي

---

(١) راجع بحث الزكاة في هذا الكتاب .

يقضي بانتقال ثروة الاب الى الابن الأكبر مما يجعل الثروة مكدسة في يد فرد واحد من الاسرة .

والارث في الاسلام شرع نعمة للوارث لا نقمة عليه ، ولهذا لا يتحمل الوارث ديون المورث الزائدة عن التركة كما في بعض الشرائع الحديثة اليوم . هذا ولا يستطيع المورث حرمان الوارث من الارث بعد وفاته، لأن الارث جبري بحكم الشرع لا بإرادة المورّث .

والنظام الاسلامي قسم الوارثين الى طبقتين : الاولى طبقة الأولاد والآباء والازواج ، والطبقة الثانية الاخوة والاخوات ، وجميع من ذكروا في الطبقة الاولى هم الوارثون المباشرون ، اما من ذكروا في الطبقة الثانية فلا يرثون إلا اذا انعدمت الطبقة الأولى او معظمها، وقد تتفرّع الطبقتان الى طبقة أخرى، فيحل الاحفاد وسلالتهم عند انعدام الأبناء، ويحل الجدود عند فقد الآباء، ويحل الاعمام وأولاد الاخوة عند انعدام الاخوة والاخوات ، وبهذا يعمل الاسلام على توزيع الثروة كلما مات مسلم ثري .

ويقول الدكتور (جوستاف لوبون) الفرنسي في كتابه : (حضارة العرب) « ... ومبادىء المواريث التي نص عليها القرآن على جانب عظيم من العدل والانصاف ... والشريعة الاسلامية منحت الزوجات – اللواني يزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف – حقوقاً في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا »[1] .

هذا وقد جعل الاسلام نسبة من الميراث للزوجة هو : ربع تركة زوجها عند عدم وجود الأولاد ، والثمن عند وجودهم .

والآيات القرآنية التي فصلت الميراث هي قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حَظ الأنثيين ؛ فإن كُن نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك ؛ وإن كانت واحدةً فلها النصف، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يُوصي بها او دين ، آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعاً فريضة مِنَ الله إن الله كان عليماً حكيما . ولكم

(١) ص ٤١٦ نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر .

نصف ما ترك ازواجكم إن لم يكن لهن ولد، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها او دين، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها او دين، وإن كان رجل يورث كلالة او امرأة وله أخ او أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها او دين غير مضار وصية من الله، والله عليم حليم ﴾ النساء : ۹۱ — ۱۲ .

﴿ يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة [1] ، إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك، وان كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين ، يبين الله لكم ان تضلوا ، والله بكل شيء عليم ﴾ النساء : ۱۷٦ .

« وإنك لو تأملت حكمة الاسلام في احترام الملكية الفردية ووضع القواعد العامة للمواريث لعرفت ان هذا من اكبر الدوافع التي تحفز الممولين الى قوة الاستثمار والنشاط في الانتاج ، ويدعو الى السهر على المصالح وبذل الجهود القوية في تكثير الأموال ، وهو في الوقت نفسه يحمي هذه الأموال من أن تعبث بها يد السرف والتبذير . فالرجل الذي يعرف أن الأموال التي بذل في جمعها صحته وعقله ستصير بعد ذلك الى الدولة ولا ينتفع بها بنوه بطريق مباشر ، ليس هناك ما يحفزه الى ادخارها ويدفعه الى المحافظة عليها » [2] .

ولهذا نرى أن الروس عندما الغوا الملكية الفردية وجدوا الفشل في ذلك، فقد ظهر لهم أن الناس اذا أمنوا على حاجاتهم الضرورية فقدوا كل همة على العمل ، واستناموا الى الكسل ، فما دام كل امرىء مجزياً على عمله بما يكفل التساوي فإن الناس يفضلون الأعمال غير المجهدة، لهذا أصدروا تعديلاً لهذا النظام فكان دستور ۱۹۳٦ الذي سمح بالملكية الفردية الصغيرة وتغيرت القاعدة الشهيرة : من « كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته » فصارت من « كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل ومن لا عمل له ، ليس له الحق في أن يأكل »

---

(۱) الكلالة : من لا والد له ولا ولد .

(۲) نقلا عن كتاب « الإسلام ومبادئه الخالدة » للشيخ محمد مأمون الشناوي ص ۳۸ .

الوصيّة وحدودها

وفي الاسلام عامل حيوي للتقليل من مساوىء تكدس رأس المال وهو : الوصية . فإن لكل مسلم الحق في ان يوصي بنصيب من ماله لينفق في معاونة الفقراء والمشروعات الخيرية التي يعود نفعها للمجتمع .

والقرآن يجعل للوصية أسمى المراتب في تشريعه مقارناً اياها ـــ في وجوب الأداء ـــ بالدين، فكما أن الديْن يُؤدى لصاحبه قبل تقسيم التّركة على الورثة كذلك الوصية ، ولهذا نرى في تذييل آيات الميراث السابقة قوله تعالى :

﴿ مِنْ بَعدِ وَصيَّة توصون بها أو دين ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ من بعد وصيّة يوصين بها أو دين ﴾ .

إلاّ أن الاسلام لم يجعل الوصيّة مطلقة بل حرّمها على الوارث لقوله صلى الله عليه وسلم : (لا وصية لوارث) وذلك حتى لا يظفر بنصيبين : نصيب من الارث ونصيب من الوصية ، كما منع ان تزيد الوصية عن ثلث الثروة ، وجعل الميراث إجبارياً في الثلثين ، بخلاف بعض القوانين المدنية اليوم التي تجيز الوصية لأي كان بجميع المال سواء أكان وارثاً أم غير وارث ، حتى انه لتجوز عندهم الوصية للكلاب والقطط وسائر الحيوان ، بخلاف القانون الاسلامي الذي يأمر بتوزيع حصص الارث توزيعاً واسعاً فيعطي للقرابات حصصاً متفاوتة إجبارية ، ولا يسمح لصاحب الثروة ان يتصرف فيها بالوصية إلاّ بالثلث ، وذلك للمحافظة على التوازن الاقتصادي .

نصيب الفقراء من الغنائم والفيء

وللتخفيف من طغيان رأس المال دعا القرآن الكريم رجال الحرب والغزاة أن يشركوا معهم في الغنائم المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من القتال . قال الله تعالى : ﴿ واعلموا ان ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه[١] وللرسول[٢] ولذي القربى[٣] واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ الانفال : ٤١.

---

(١) لله خمسة : اي يصرف فيما يرضي الله من مصالح الدين كالدعوة الى الإسلام وإقامة شعائره .

(٢) وللرسول : بصفته نبي الأمة وإمامها ورئيس حكومة الإسلام يأخذ كفايته منه وبعد وفاته يصرف على مصالح المسلمين وعلى تحصين الحدود وعلى علماء الاسلام المشتغلين بعلوم الشرع .

(٣) ولذي القربى : أقارب النبي، أي أقرب الناس إليه نسباً ، وهم الذين حرمت عليهم الصدقة =

واليتامى والمساكين وابن السبيل الذين ذكرتهم الآية لا شك أنهم من المستضعفين الذين انما قعدوا عن الاشتراك في الجهاد لعلل تختلف أنواعها، ولكن الله لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيباً مع أولئك المجاهدين الخائضين غمرات الموت ، ولهذا كان الرسول يختص بخمس الغنائم لتوزيعها على المنصوص عليهم في الآية ، والأخماس الأربعة الأخرى توزع على رجال الجيش بنسبة مجهود كل شخص . هذا بالنسبة لما كان عن طريق الحرب ، اما اذا كان الحصول على الغنائم بطريق الفيء ، وهو الذي يأخذه المسلمون بلا قتال ، فالقرآن لا يكتفي بالخمس بل يوزع المال كله على هذه الأصناف . قال الله تعالى :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دُولة بين الاغنياء منكم ﴾ الحشر : ٧ .

علل الله هذا التقسيم بقوله : ﴿كي لا يكون دُولة[1] بين الاغنياء منكم ﴾ والمعنى : لئلا يكون المال محصوراً في الاغنياء منكم متداولاً بينهم وحدهم .

تحريم كنز الأموال

حرّم الاسلام كنز الأموال لأن في ذلك منعاً لها من التبادل الاقتصادي الذي لا بد منه لحاجة المجتمع لأجل استخدامها في الانتاج الاقتصادي واستغلالها في استثمار الموارد الاقتصادية المختلفة لزيادة الدخل الوطني وتنمية الثروة القومية ، لكل هذا حرم الاسلام كنز الاموال، وتوعد المكتنزين بأن أموالهم المكدسة ستكون في الآخرة ناراً تحرق أجسامهم وتأكل أعضاءهم : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .

والتحريم المقصود في الآية هو تخزين الأموال وعدم إخراج زكاتها .

= كما حرمت عليه فقد قال : (إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة) وحكمة ذلك حتى لا يقول الناس أنه جمع الأموال من الناس ليعطيها ذويه وأقاربه وهو الحريص على ان يكون الحاكم فوق ريب المرتابين ، ولهذا جعل الله له ولأقاربه حصة من الغنائم والفيء .

(١) دولة : هو المال المتداول .

فالكانز إذا علم أنه يتوجب عليه أن يخرج في كل سنة ربع العشر من أمواله فإنه في هذه الحالة سيعمد الى استثمارها كي لا تفنيها الزكاة على طول الزمن .

وإذا علمنا أن ثروة الأمة هي عبارة عن ثروة الأفراد مجتمعة أدركنا أنه يتوجب على الأثرياء أن لا يجمدوا الأموال في صناديقهم حرصاً على الصالح العـــام .

وإذا أصر الأغنياء على كنز الأموال فإنه يحق للحكومة الإسلامية أن تصادر الأموال المكدسة لاستثمارها ، وحفظ أصلها لصاحبها وإعطائه حصة من ربحها ، ويتحمل الخسارة لو وقعت ، اذا دعت لذلك مصلحة الأمة العليا .

* * *

وهكذا نجد أن غرض الاسلام هو ايجاد نظام « الملكيات الصغيرة » ليقي أفراد المجتمع من طغيان رأس المال الكبير وليسعف الطبقة المحتاجة ، ولكن على الرغم من ذلك نجد أن هذه « الملكيات الصغيرة » أقامها الاسلام على معيار وقانون أخلاقي يجعلها مقيدة بالمصلحة العامة بصورة مقصودة وواضحة . وهذا يتبين لنا فيما يلي :

حفظ أموال الأمة والأفراد

الحجر على السفهاء

قال الله تعالى : ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها[1] واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ النساء : ٥ .

فالسفهاء هم المسرفون المبذرون أموالهم في غير الوجوه الصحيحة إما لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم او لسوء تدبيرهم .

فالآية نهت المسلمين ان يطلقوا أيدي السفهاء في الأموال يبعثرونها ولا يحسنون التصرف فيها ، وفيها اشارتان بليغتان الى حث المسلمين على المحافظة

(١) قال صاحب الكشاف : وإنما قال سبحانه : (وارزقوهم فيها) ولم يقل وارزقوهم منها تنبيهاً للقوام الى ان يستثمروا أموال السفهاء ويستغلوها ويجعلوها موضعاً لرزق السفهاء وكسوتهم وطريقاً لهم لتكون النفقة على السفهاء من ربح أموالهم لا من أصلها .

على اموال السفهاء وصيانتها من اسرافهم وتبذيرهم :

الأولى : في قوله تعالى : (اموالكم) فلم يقل الله تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالهم) بل قال : (ولا تؤتوا السفهاء اموالكم) ليلفت انظار المسلمين الى ان مال السفيه هو في الوقت نفسه مال الأمة ، فيجب المحافظة عليه وعدم إعطائه للسفيه ، لأنه إن بدده وأصبح فقيراً كان خطراً على المجتمع وعلى اموال افراده ، فالتضامن الاجتماعي يقضي بأن نعتبر مال السفيه هو مال المسلمين .

الثانية : في قوله تعالى : (التي جعل الله لكم قياماً) ، أي أن الأموال جعلها الله لتقوم بها معايشكم وتبنى عليها مصالحكم، فهي قوام وعماد الحياة الاقتصادية ، ففي تضييع السفيه لها تضييع لهذا العماد الذي هو قوام الحياة .

فالسفيه اذا بدّد ماله وأنفقه على الفساد فكأنما بدّد مال الأمّة جميعاً، وعرّض حياته وحياة مجتمعه لخطر الفقر ، وخصوصاً اذا تَسرّب هذا المال الى أيدٍ أجنبية مثل ما نشاهده من الذين يسافرون الى البلاد الأجنبية ، ويبددون اموالهم الوفيرة على القمار والغواني والخمور وغيرها من وسائل اللهو والعبث، لذلك يجب رفع امر هؤلاء الى الحكام ليحجروا عليهم ويعطوهم من اموالهم قدر حاجتهم . فليس لأحدٍ أن يقول: المال مالي أتصرف به كما أشاء، فالمال مال الكل ينتفعون به في الطرق المشروعة حتى إذا أخلّ أحدٌ بذلك فأسرف وبذر أو احتكر حُجِرَ عليه . والغريب ان كثيراً من المسلمين يسيرون على خلاف هذه التعاليم ، فنرى قسماً من ثروة امتهم يتبدد في السفه بواسطة سفهائهم ولا رقيب عليهم ولا حَجْرَ على اموالهم .

اختبار اليتامى قبل تسليمهم أموالهم

وللمحافظة على الاموال من أن تتبدد في الطرق غير المشروعة أمر الاسلام باختبار اليتامى قبل تسليمهم أموالهم . قال الله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف، فإذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾ النساء : ٦ .

ومعنى الآية : اختبروا أيها الأولياء من في كنفكم من اليتامى قبل سن

البلوغ ببعض التصرفات المالية الجزئية الى ان يبلغوا سن الزواج ، فإن آنستم منهم رشداً بعد بلوغهم سن الرشد فادفعوا اليهم أموالهم ليتولوها بأنفسهم ، ومفهوم هذا أنه اذا لم يؤنس منهم رشد بعد سن البلوغ لا تدفع اليهم أموالهم .

ثم نهى الله الأولياء عن أكل أموال اليتامى وذلك عن طريق الاسراف والمسارعة في صرفها على أنفسهم حذر أن يكبر اليتامى فيلزموا بدفعها اليهم .

ثم خاطبهم الله بأنهم اذا كانوا أغنياء غير محتاجين الى مال اليتيم فليعفّوا عن أن يأخذوا شيئاً منه أجراً على ولايتهم وليكن عملهم انسانية ومروءة ، واذا كانوا فقراء محتاجين الى أخذ شيء من أموال اليتامى في مقابل ولايتهم فيباح ان يأخذوا ولكن بالمعروف : اي بالمتعارف الذي لا يستنكره أهل المروءة والخبرة بالأعمال . ثم أمرهم الله أخيراً بالاشهاد عند دفعهم اموال اليتامى لأنه يظهر أمام الشهود نزاهة ايديهم ويحول دون الجحود والتنازع .

كتابة العقود المالية

ان العصر الحديث أظهر فائدة كتابة العقود المالية ، وذلك حتى يعلم طرفا التعاقد او ورثتهما او أي شخص تمسه تلك العلاقة في الحاضر والمستقبل حقوقه وواجباته ، لأن مرور الزمن مدعاة للنسيان ، وموت الشهداء مدعاة للانكار وما الى ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، فلأجل الاحتراز من الوقوع في الخلافات المستقبلة أمر القرآن الكريم بكتابة الدين في وثيقة والإشهاد عليه برجلين او رجل وامرأتين صيانة له من الضياع واحترازاً من النكران .

ويقاس على ذلك جميع العقود المالية لأنها لا تقل أهمية عن الدين ، بل إن بعضها قد يفوق الدين أهمية . كشراء العقارات وبيعها والرهونات والتعهد بعمل ، وغير ذلك ، وفيما يلي ما جاء في القرآن في تقرير ذلك :

﴿ يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بديْن الى أجل مسمى فاكتبوه ١ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله ، فليكتب ٢ وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُمِلَّ هو فليملل وليّه بالعدل ٣ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ٤ ولا يأب

الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسئموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادةِ وأدنى ألاّ ترتابوا إلاّ ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ٥ وأشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلّمكم الله ، والله بكل شيء عليم . وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ٦ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي اؤتمن امانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ٧ ومن يكتمها فانه آثم قلبه ﴾ البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

يؤخذ من هاتين الآيتين وجوب حفظ الحقوق المالية، واليك بعض ما جاء فيهما في الأمور السبعة التي رمزنا اليها بالارقام :

١ ــ كتابة الدين المؤجل الى تاريخ معين ، وهذه النظرية اخذ بها القانون الفرنسي في أواخر القرن الثامن عشر حين اشترط ان يكون الدين مكتوباً اذا زاد على قدر معيّن . وعنه اخذت القوانين الأوروبية .

٢ ــ ان يكتب وثيقة الدين او الحق المالي كاتب يتحرى العدل بين الطرفين عالماً بأحكام الشريعة فيما يكتبه ، ولا ريب في أن تحري العدل يستدعي العلم بشؤون التوثيق الذي يحفظ الحقوق حسب المعروف بين الناس أو المنصوص عليه في القوانين الموضوعة ، وفي هذا ايحاء قوي الى انه ينبغي ان يكون في الأمة المتخصصون على القيام بهذه المهمة .

٣ ــ ان الذي يتولى املاء الكاتب انما هو المدين ، والقصد من هذا ان يكون بحضرته واعترافه ليكون ما في الوثيقة حجة عليه يبرزها الدائن عند الاستحقاق .

واذا كان المدين لا يستطيع أن يملي بأن كان عاجزاً بآفة تمنعه من النطق ، أو كان جاهلاً بشؤون التعامل وكيفيته قام عنه وليه بهذا الواجب ، وذلك حرصاً على حقه وخوفاً من أن توقعه حالته في الاساءة الى نفسه .

٤ : بعد الانتهاء من كتابة الوثيقة يجب الاشهاد عليها بشاهدين على الاقل من الرجال العدول ، فاذا تعذر ذلك فلا بأس بأن يشهد رجل وامرأتان أيضاً

وأشارت الآية الى ان الحكمة في جعل المرأتين بمنزلة الرجل الواحد في الشهادة هي : ان المرأة يغلب عليها النسيان أو الخطأ ، ولعل ذلك يرجع الى ان ممارستها

لشؤون المعاملات قليلة وغير مألوفة .

٥ : استثنى القرآن الدين التجاري وأباح اثباته بغير الكتابة من طرق الاثبات، والعلة في استثنائه: ان الصفقات التجارية تقتضي السرعة ولا تحتمل الانتظار، ولأن المعاملات التجارية أكثر عدداً وتكرراً وتنوعاً، فاشتراط الكتابة فيها كالدين قد يؤدي إلى الحرج وتضييع فرصة الكسب على المشتري أو تعريض البائع للخسارة ، وَهذا ما تسير عليه القوانين الوضعية اليوم .

٦ : أرشد القرآن الى نوع آخر مما يحفظ الحقوق وهو: الرهن، فإذا كان المتعاملان على سفر ولم يجدا الكاتب قام الرهن مقام الكاتب والشهود ، ولا يدل هذا التقييد على ان مشروعية الرهن خاصة بتلك الحالة لأنه ثبت في الصحيحين : ان النبي ﷺ رهن درعه في المدينة عند يهودي ، وجرى التعامل بين المسلمين على الرهن في السفر والحضر ، وُجِدَ الكاتب أم لم يوجد ، وإنما أرشدت الآية الى ما يقوم مقام الكتابة في الحالة التي يغلب فيها عدم وجود الكاتب وهي حالة السفر .

٧ : حرّم القرآن على الانسان اذا دعي للشهادة أن يمتنع عنها لأن ذلك يفضي الى تضييع الحقوق وتعقيد المعاملات وبطئها ، فالمصلحة العامة تقضي بالتعاون على حفظ الحقوق وتسهيل المعاملات بين الناس .

وهكذا نرى ان توثيق الحقوق الذي يعد من النظم الحديثة قد شرعه الاسلام منذ اربعة عشر قرناً ، واننا لنرى فيه نظاماً يشبه تمام المشابهة النظام الذي يجري في تسجيل الحقوق في المحاكم المختلفة اليوم .

تحريم الرّبا

حَرّم الاسلام الربا (١) لأنه يقتل كل مشاعر الشفقة في الإنسان ، فالمرابي لا يتردد في تجريد المدين من أمواله اذا كان في ذلك اضافة ليرة الى ألوفه .

فالمال في نظر الاسلام وديعة في يد صاحبه ، وهو موظف لخير الجماعة ، فليس له ان يتحين ساعة احتياجهم فيأخذ منهم أكثر مما أعطاهم .

---

(١) من مراجع هذا الفصل كتاب « العدالة الاجتماعية » للأستاذ سيد قطب ، وكتاب « الإسلام والمناهج الاشتراكية » للأستاذ محمد الغزالي .

والمحتاجون في الدولة الاسلامية يجب ان يعطوا قرضاً بلا فائدة لأن هذه الطريقة هي التي تنمي المودة وتكفل التضامن بين الجماعة غنيها وفقيرها، بينما الربا يثير العداوة والبغض بين الافراد.

فالربا اعتبره الاسلام منكراً اقتصادياً غليظ الاثم لأنه يتنافى مع تعاليمه التي تحض على المعاونة الصادقة والمساعدة لمن يحتاجها. قال الله تعالى:

﴿ يمحق[1] الله الربا ويُربي[2] الصدقات ﴾ البقرة: ٢٧٦.

ويقول تعالى أيضاً في التحذير من الربا: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون. وإن كان ذو عُسْرة فنَظِرةٌ الى مَيْسَرة، وأن تَصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٨٠.

هذه الآيات حرّمت الربا تحريماً قاطعاً، ومعناها: فإن لم تتركوا ما بقي لكم من الربا كما أمرتم فاعلموا بأنكم في حرب مع الله ورسوله لعصيانكم اوامرهما. ثم قال الله تعالى: (فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم) وفي هذا نص صريح على ان الذي يستحقه صاحب الدين انما هو رأس المال فقط بدون زيادة ما، وبعد هذا قال تعالى: (وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تَصَدّقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) وفي هذا حض على امهال المعسر الى وقت يتمكن فيه من الاداء، وحث على التصدق وذلك بالعفو عن المعسر الذي لا يجد ما يفي به دينه.

وجاء في القرآن في تحريم الربا: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مُضاعفة[3] واتقوا الله لعلكم تفلحون. واتقوا النار التي أُعدت للكافرين. وأطيعوا الله والرسول لعلكم تُرحمون ﴾ آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٢.

هذه الآيات نص صريح قاطع بتحريم الربا، وبيان ما فيه من ظلم شديد؛

---

(١) يمحق الله الربا: يهلكه ويهلك المال الذي يدخل فيه.

(٢) يربي الصدقات: يزيد خيرها وثمرتها في الدنيا وأجرها في الآخرة.

(٣) هذه الآية ليست نهياً عن أكل الربا في حال المضاعفة فقط فيدل على إباحته عند عدم المضاعفة ـ كما فهمه البعض ـ وإنما هو حكاية الواقع والغالب عند العرب من غير قصد الى تسويغ ما عداه.

فالربا يؤدي الى ان يأخذ الدائن الدين اضعافاً مضاعفة ، ومعظم الذين استدانوا أفضت بهم الفوائد اليسيرة الى ضياع ما يملكون ، واليسير من الربا يتضاعف بمرور الزمن فلا ينتهون الا وهم مثقلون بالدين وفوائده ، عاجزون عن السداد مما يجر الى شرّ المشاكل والخسائر ، ولهذا أوعد الله بالعذاب الشديد آكلي الربا ليجتنبوه ويتركوه .

والربا الذي حرمه القرآن هو ربا النسيئة : أي التأخير في الدفع مقابل زيادة في الدين . يقول (الجصاص) في كتابه أحكام القرآن ما نصه : « الربا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله انما كان إقراض الدراهم والدنانير الى أجل بزيادة على مقدار ما استقرضه على ما يتراضون به ، هذا كان التعارف المشهور عندهم »[1] .

ويقول أيضاً [2] : « إنه معلوم ان ربا الجاهلية انما كان قرضاً مؤجلاً بزيادة مشروطة فكانت الزيادة بدلاً من الاجل فأبطله الله تعالى وحرّمه وقال : (وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم) وقال الله تعالى : (وذروا ما بقي من الربا) .

وربا النسيئة يطلق عليه أيضاً : ربا الجلي . يقول ابن القيم[3] : « الجلي ربا النسيئة ، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل ان يؤخر دينه ويزيده في المال ، وكلما أخره زاد المال حتى تصير المائة عنده آلافاً مؤلفة » .

وهناك نوع آخر من الربا فصلته السنة وهو الذي يطلق عليه : ربا الفضل وهو مبادلة عين بعين مع زيادة يأخذها أحد المتبادلين بدون تأجيل ، وهذا النوع من المعاملة قليل الوقوع في زماننا فلا حاجة الى تفصيله هنا .

بعض مضار الربا : حرّم الاسلام الربا لأنه يسبب العداوة بين الأفراد ويمنع التعاون بينهم . كما أن الاسلام يرمي من تحريمه الى الحيلولة دون المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح ، ويسعى لتحقيق المساواة بين أفراد الأمة ، فالمرابي بدلاً من أن يعمل عملاً مجدياً يصبح كالطفيلي يعيش من كدّ غيره، وقد شرّف القرآن العمل وذمّ الربا، قال الله تعالى: ﴿ ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرّم الربا ﴾ البقرة : ٢٧٥ .

---

(١) أحكام القرآن ج ١ . ص ٤٦٥ .
(٢) الكتاب المذكور ص ٤٦٧ .
(٣) اعلام الموقعين ج ٢ ص ٩٩ .

فبينما يستلزم البيع العمل والمهارة وارتفاع الروح المعنوية في الفرد ، اذ بالربا يؤدي الى وجود طبقة مترفة مستبدة لا تعمل شيئاً تتضخم الأموال بين يديها تضخّماً شديداً لا يقوم على الجهد ولا ينشأ مِنَ العمل .

والربا يسهل على الناس ان يدخلوا في مغامرات ليس باستطاعتهم تحمل نتائجها ، فالتاجر بدل ان يتجر في المال الذي في حوزته ويكون قادراً على السداد يأخذ مالاً بفائدة ليوسع تجارته ، وقد يكسب من ذلك ولكن العاقبة وخيمة ان نزلت قيمة البضائع ، فالديون والفائدة التي ألزم نفسه بها قد تؤدي به الى الافلاس .

كما ان الربا يوجد اضطراباً نفسيّاً مستمراً بالنسبة لآكل الربا والمدين على السواء .

والربا وسيلة للاستعمار وشقائه ، فقد ثبت أن الغزو الاقتصادي القائم على المعاملات الربوية كان التمهيد الفعّال للاحتلال العسكري الذي سقطت أكثر دول الشرق تحت رحمته ، فقد اقترضت الحكومات الشرقية بالربا ، وفتحت أبواب البلاد للمرابين الأجانب ، فما هي الا سنوات معدودة حتى تسربت الثروة من أيدي المواطنين الى هؤلاء الاجانب ، حتى اذا افاقت الحكومات وأرادت الذود عن نفسها وأموالها استعدى هؤلاء الاجانب عليها دولهم فدخلت باسم حماية رعاياها ، ثم تغلغلت هي كذلك فوضعت يدها مستثمرة مرافق البلاد، ولهذا: (لعن رسول الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال : هم سواء)[1] .

فآكل الربا : هو صاحب المال الذي يقرض بفائدة ، وموكله هو المدين الذي يستدين بفائدة يعطيها لصاحب رأس المال ، والكاتب والشاهد لأنهما أعانا على ما نهى الله عنه .

وقد يعترض البعض ويقولون · اننا نعيش في زمن ليس به امم اسلامية ذات دول قوية تقيم الاسلام وتستغني عمن يخالفها في احكامها ، وانما يسيطر على العالم دول مادية قبضت على ناصية الثروة حتى صارت سائر الأمم عيالاً عليها لأخذ قروض منها بفوائد قليلة ، والفائدة هي ربا ، فما موقف الاسلام

---

(١) رواه مسلم .

من ذلك ؟ بعض العلماء اباح ذلك للضرورة الشديدة، ودليلهم من القرآن : ﴿ فمن اضطُر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه ﴾ .

والضرورة التي اباحها هؤلاء العلماء يجب أن لا ترجع الى رأي فرد يستقل بذلك بل يقررها اولو الأمر من علماء الأمة العارفون بمصالحها والمختصون بشؤونها المالية والصناعية والتجارية .

وَسائل للقضاء على الربا : القرض الحسن من وسائل منع الربا ، فمن مصارف فريضة الزكاة في الاسلام اداء الدين عن المدينين الذين اقترضوا الأموال من غير معصية ولا اسراف وعجزوا عن ادائها ، ويشمل ذلك اقراض الذين لا يجدون من يستدينون منه ، فيخصص من اموال الزكاة قسم يُصرف لقرض المحتاجين « أما المقترض لضرورة كأن يكون محتاجاً الى قوت اولاده او الانفاق على حاجاتهم ولا يجد من يقرضه قرضاً حسناً فيضطر الى الاقتراض بالفائدة، وهذا لاحرج فيه ويبوء باثمه من اقرضه بالربا، كما يبوء باثمه من لم ينفذ احكام الشرع فإن الزكاة فيها باب للاقراض فلو نفّذت ما وجد الاضطرار »[1] .

ومن المبادىء الاسلامية : الحض على التعاون في سبيل خير الفرد والمجتمع ، (وتعاونوا على البر والتقوى) ويشمل ذلك : تعميم التعاون الزراعي والصناعي والاجتماعي ، وان هذه الجماعات التعاونية التي تمدها الدولة بالمال تنبث بفروعها في المدائن والقرى تموّل المزارعين والتجار والصناعيين بدون فائدة ، وتتولى هذه الجماعات تصريف المنتجات الزراعية والصناعية وتكسب من ذلك ربحاً يعود على المتعاونين جميعاً .

الربا الاستهلاكي والإنتاجي مُحرّمان : يقول العلامة شارل جيد : « ان تحريم الربا كان من الضروريات في العصور الغابرة ، وان اباحته في هذا العصر ، من الضروريات أيضاً ، لأن الدين فيما مضى كان للاستهلاك ، وأما الآن فهو للإنتاج »[2] .

اعترف العلامة (شارل جيد) أن الربا الذي يكون للاستهلاك يجب تحريمه ،

---

(١) عن بحث كتبه فضيلة الأستاذ محمد ابو زهره في مجلة العربي .

(٢) الاقتصاد السياسي ج ٢ .

ولكن هل الاقتراض بالربا في عصرنا الحاضر يذهب كله للانتاج ؟ كلا ، فقسم منه يذهب للاستهلاك الضروري . ولنسلم جدلاً أن الدين بالربا للانتاج مفيد ، ثم هب بعد ذلك أن حكومة من حكومات العالم حللت الربا للانتاج وحرّمت كل ربا معدّ للاستهلاك ، أخذاً برأيه ، فهذا التشريع غير قابل للتطبيق ، لأنه لا يمكن التحقق قبل الاستدانة من أن المدين سوف يخصص حتماً هذه الدراهم للانتاج دُون غيره ، وباب الاحتيال كما نعلم في هذا الأمر واسع .

ولهذا حرّم الاسلام الربا ، سواء أكان للاستهلاك أم للإنتاج ، لانه إن كان للاستهلاك فهو لنفقة المستدين على حاجاته الضرورية ، فانه لا يجوز أن يرهق برد زائد على دينه ، فحسبه أن يرد أصل الدين عند الميسرة ، وإن كان للانتاج فالأصل أن الجهد الذي يبذله المستدين هو الذي ينال عليه الربح لا المال الذي يستدينه ، فالمال لا يربح إلا بالجهد .

ولكن يعترض أنصار مشروعية الربا ويقولون : إن الربح الذي يحصل عليه المقترض للانتاج ، إنما ينشأ وليداً من التزاوج بين عمل المستدين ورأس مال الدائن فكيف تخولون للعمل حقاً في الربح ، ولا تخولون للمال حقه ؟ أي مكافأة الدائن مع أنه شريكه في هذا الانتاج ؟

الجواب على ذلك : إنه بمجرد عقد القرض أصبح العمل ورأس المال في يد شخص واحد ولم يبق للمقرض علاقة ما بذلك المال ، بل صار المقترض هو الذي يتولى تدبيره تحت مسئوليته التامة في الربح والخسارة ، حتى أن المال إذا هلك أو تلف فإنما يهلك أو يتلف على ملكه ، فاذا أصررنا على اشراك المقرض في الربح الناشيء وجب علينا في الوقت نفسه أن نشركه في الخسارة النازلة ، إذ كل حق يقابله واجب ، وأما أن نجعل الميزان يتحرك في جانب واحد فذلك معاندة للطبيعة . ومتى قبلنا اشتراك رب المال في الربح والخسارة معاً انتقلت المسألة من موضوع القرض بالربا الى صورة معاملة اخرى وهي الشركة التضامنية الحقيقية بين رأس المال والعمل ، وهذا ما يقره الاسلام .

الفوائد المصرفية: عرض أمر الفوائد المصرفية علي مجمع البحوث الإسلامية الذي عُقد في القاهرة ونُشر عام ١٩٧١ في مجلته والذي شاركت فيه وفود كثيرة من علماء الإسلام وقدمت فيه عشرات الأبحاث وانتهت تلك البحوث إلى قرارات حاسمة بشأن الفائدة الربوية :

١ ـ الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرّم، لا فرق في ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكي وما يسمى بالقرض الانتاجي، لأن نصوص القرآن والسنة في مجموعها قاطعة على تحريم النوعين.

٢ ـ كثير الربا وقليله حرام.

٣ ـ الإقراض بالربا المحرم لا تبيحه حاجة ولا ضرورة، والاقتراض بالربا محرم كذلك، ولا يرتفع إثمه إلّا إذا دعت إليه الضرورة، وكل امرىء متروك لدينه في تقدير ضرورته.

٤ ـ الحسابات ذات الأجل وفتح الاعتماد بفائدة وسائر أنواع الأقراض نظير فائدة كلها من المعاملات الربوية وهي محرمة.

وما تجدر الإشارة إليه أن الضرورة هنا: هي الضرورة إلى الاقتراض لا الإقراض، وحتى في هذا النطاق فهي مقيدة بقيدين:

أولهما: أنها أمر شخصي يقدّر في كل حال على حدة.

ثانيهما: إن الضرورة المقصودة هنا هي الضرورة التي تعدم الخيار، أما لو كان هناك بديل عن الربا أو يمكن إرجاء المصلحة أو الاستغناء عنها ولو مع بعض العسر والمشقة وجب عدم اللجوء إلى الاقتراض بالربا.

تحريم اكل أموال النّاس بالباطل

قال الله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتُدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ البقرة: ١٨٨.

والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض لأن ذلك جناية على نفس الآكل وجناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، لا بد أن يصيبهم سهم من كل جناية تقع عليها، ولذا اختار الله لفظ: (أموالكم) للاشعار بوحدة الأمة وتكافلها، فمال البعض هو مال الكل، لأن المال عصب الأمة، فكان لزاماً على الجميع أن يتكاتفوا لصيانته والمحافظة عليه.

ومعنى قوله تعالى: (وتدلوا بها الى الحكام) أي ولا تلقوا بها الى الحكام رشوة لهم (لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون).

فالاستعانة بالحكام على أكل المال بالباطل محرّم لأن حكم الحكام لا يغير الحق ولا يحله للمحكوم له .

واذا حرّم الله أكل أموال الناس عامة ، نراه في موضع آخر يشدد هذا المنع في فئات خاصة منها :

تحريم أكل أموال اليتامى ظلماً والوعيد لمن يفعل ذلك بالعقوبة في الآخرة . قال تعالى : ﴿ إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً إنَّما يأكلون في بُطُونِهم ناراً وسَيَصْلَوْنَ سعيراً ﴾ النساء : ١٠ .

وذم الله رجال الدين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأحْبَار والرُهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله ﴾ التوبة : ٣٤ .

هذه الآية حذّرت من الأحبار والرهبان الذين يأخذون أموال الناس بغير حق . ويقاس على ذلك: ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله ليدعو لهم عند الله في قضاء حاجاتهم ، والدعاء مطلوب دون أخذ الأموال .

ومنها: ما يأخذه سدنة قبور الاولياء الصالحين من الهدايا والنذور التي يحملها الى تلك المواضع من لا يعقلون معنى التوحيد المجرد ، كل هذا مما حاربه الاسلام .

تحريم القمار

سمى الله القمار في القرآن ميسراً ، وهو القمار الذي كان عند العرب ، فكل ما يتراهن فيه الناس من معاملة فيهـا خطر الكسب المطلق أو الخسارة المطلقة يعد ميسراً أو قمـاراً . ويدخل في الميسر اليوم ما نسميه « أوراق اليانصيب » والرهان في سباق الخيل . وقد حرّم الاسلام الميسر بأنواعه ، فقال الله تعالى :

﴿ إنّما الخَمْرُ والميسر والأنصابُ والأزلام رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ المائدة : ٩٠ .

فالقمار يصد المقامرين عن الطريق القويم لكسب العيش، ويعوّدهم الكسل وانتظار الرزق من السبل الوهمية، ويضعف مواهب العقل بترك الأعمال المفيدة

من الزراعة والتجارة والصناعة التي ترقي الأمة ، ويضيّع الوقت دون فائدة حقيقيـــة .

وفي القمار تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى الى الفقر ، فكم من أسرة نشأت في الغنى والعز فأضاع رب الاسرة ثروتها في ليلة واحدة فصارت فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش عيشة الكفاف . لهذه الأسباب حَرّم الاسلام القمار ولما ينشأ عنه أيضاً من الاضرار في الأمة .

تحريم التلاعب بالمكاييل والاوزان

وَممّا شرَعه الاسلام لحفظ أموال الأفراد ونيل حقوقهم هو ما دعا اليه من تنظيم الموازين والمكاييل وعدم التلاعب بها ؛ وقد حَذّر الاسلام اتباعه من أن يبخسوا الناس أشياءهم فيمنعوهم حقهم الشرعي ، قال الله تعالى :

﴿ وأقيموا الوزن بالقِسْطِ ولا تُخسِروا الميزان ﴾ الرحمن : ٩ .

وحذّر الذين يتلاعبون بالأوزان بأشد العقوبات الأخرويّة . قال الله تعالى : ﴿ ويْلٌ للمطففين . الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون[1] . واذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون[2]. ألا يَظُنّ أولئك أنهم مبعوثون . ليوم ٍعظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ المطففين : ١ — ٦ .

وعلى هذا فالواجب على الدولة الاسلامية إقامة جماعة مخصوصة يكون عملها تنفيذ ما أمر به القرآن من الإشراف على ضبط المكاييل والموازين .

النهي عن الإسراف

وَلحفظ أموال الأفراد نهى القرآن عن التبذير والاسراف في الأموال وانفاقها في غير مواضعها لأن الاسراف يؤدي بصاحبه في النهاية إلى الافلاس، ولهذا نرى القرآن شبّه المسرفين بالشياطين الذين يعملون على اضلال الناس ويعيثون في الأرض فساداً : ﴿ ولا تبذّر تبذيراً إنّ المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ الاسراء : ٢٦ ، ٢٧ .

---

(١) يستوفون : يأخذون حقهم كاملا .

(٢) يخسرون : ينقصون .

فالمبذرون يفسدون نظام معيشتهم باسرافهم ، ويكفرون بالنعمة التي ينبغي حفظها ووضعها في موضعها وذلك بالاعتدال في الانفاق .

ووصف الله عاقبة المسرف في آية أخرى بقوله : ﴿ ولا تجعل يَدَكَ مَغْلُولَةً الى عُنُقك ولا تَبْسُطها كل البسط فَتَقْعُد مَلوماً محسوراً ﴾ الإسراء : ٢٩ .

علّل الله تحريم الإسراف في الإنفاق بأنه يجعل صاحبه ملوماً من الناس محتاجاً الى معونة غيره متحسّراً على ما فاته .

البرّ بالطبقات الفقيرة

وفي القرآن دعوة سامية للقضاء على الفوارق بين الجماعات ، فقد حَثّ القرآن على الإنفاق في سبيل الله وعلى مصالح الطبقة المحتاجة ، وقد رغّب القرآن في هذا الانفاق ووعد المنفقين بحُسن المثوبة والأجْر العظيم في الآخرة .

الانفاق في سبيل الله

وهو يشمل كل ما ينفق لاعلاء كلمة الاسلام ، والدفاع عنه ، ونشره بين الناس ، واقامة أحكامه ، وما يوصل الى مرضاة الله ، وهو ما كان نفعه عاماً : كإزالة الجهل بنشر العلم ، ومساعدة الضعفاء ، وترقية الصناعات ، وكل ما يرفع مستوى المسلمين من كافة النواحي . والآيات القرآنية التي دعت للإنفاق في سبيل الله كثيرة ، نختار منها قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كَمَثَلِ حبّة أنبتت سَبْعَ سَنَابل في كل سُنبلة مائة حبّة والله يُضَاعِفُ لِمَنْ يشاء، والله واسعٌ عليم . الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذى لهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عَليهم ولا هُم يحزنون ﴾ البقرة : ٢٦١، ٢٦٢.

أخبرنا الله أن ما ننفقه في سبيله يضاعفه لنا أضعافاً كثيرة ، فهو مفيد لنا في دنيانا وآخرتنا ، وقد شرط الله لهذا الثواب : ترك المنّ والاذى ، فالمن هو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن اليه ليظهر تفضّله عليه ، أما الأذى فهو اشد منه كأن يذكر المحسن احسانه لغير مِن أحسن اليه .

ووصف القرآن الانفاق في سبيل الله بأنه التجارة الرابحة التي تنفع صاحبها يوم القيامة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تُنجيكم من عذابٍ أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سَبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ﴾ الصف : ١٠ ، ١١ .

الانفاق على ذوي الحاجة

يدخل الانفاق على ذوي الحاجة تحت الانفاق في سبيل الله ولكن القرآن حدّد فئات من الناس هم أحوج الى الاحسان والمؤاساة . فمن اعمال البر : الاحسان الى هؤلاء المحتاجين التي ذكرتهم هذه الآية :

﴿ وآتى المال على حُبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ﴾ البقرة : ١٧٧ .

والمراد بإيتاء المال في الرقاب بذله في تحرير العبيد لترد اليهم حريتهم ويزول عنهم ذل العبودية .

ووصف الله البررة في آية أخرى :

﴿ ويُطْعِمون الطعام عَلى حُبِّهِ مسكيناً ويتيمًا وأسيرًا . إنّما نُطعمكم لِوَجْهِ الله لا نُريد مِنكُم جزَاءً ولا شكوراً ﴾ الانسان : ٨ ، ٩ .

وجعل الله أول صفات المكذّبين بالاسلام : القسوة على اليتيم وعدم الحث على إطعام المسكين : ﴿ أرأيت الذي يُكذّب بالدِّين[١] . فذلك الذي يَدُعّ[٢] اليتيم . ولا يحض[٣] على طعام المسكين ﴾ الماعون : ١ — ٣ .

ويُسأل أصحاب النار يوم القيامة عن سبب عذابهم : ﴿ ما سلككم في سقر[٤] . قالوا : لم نَكُ مِنَ المصلّين ولم نَكُ نُطعم المسكين ﴾ المدثر :٤٢

الانفاق من الطيبات

كان بعض المسلمين يعمد الى التمر فيعزل الجيّد ناحية حتى إذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الرديء فنزل قوله تعالى :

---

(١) الدين : قيل معناه الاسلام ، وقيل : الجزاء والحساب في الآخرة .

(٢) يدع : يدفعه عن حقه وماله بالظلم ، ويزجره ويضربه .

(٣) يحض : يحث .　　(٤) سقر : جهنم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مِنْ طَيِّبات ما كسبتم ومِمَّا أخرجنا لكم مِنَ الأرض ولَا تيمَّموا الخَبيث مِنه تُنفقون ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غني حميد ﴾ البقرة: ٢٦٧ ومعنى الآية: أنفقوا من جيّد أموالكم ولا تقصدوا الخبيث فتجعلوه صدقتكم، ثم وبخهم الله لأنهم يقصدون الخبيث منه يتصدّقون وليس يرضون بمثله لأنفسهم إلا أن يتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينيه فلم يرَ العيب فيه.

وقال تعالى في هذا المعنى: ﴿ لن تنالوا البر حتى تُنفقوا ممّا تُحبّون وما تُنفقوا مِنْ شيء فإن الله به عليم ﴾ آل عمران: ٩٢.

المال مُلكٌ لِلّه

والقرآن يوجّه نظر الانسان الى أن المال هو ملك لله، وأن الانسان نائب عنه في الاشراف عليه، فلا يجمل به أن يعصي ربه فيما استودعه إياه. انظر الى هذه الآيات التي رتبناها ترتيباً منطقياً والتي قرَّرت هذه الحقيقة:

فالله مالك السموات والأرض: ﴿ ولله مُلْكُ السموات والأرض ﴾ آل عمران ١٨٩. وهو الذي يرزق جميع الناس: ﴿ هل مِنْ خالق غَيْرُ الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾ فاطر: ٣.

والناس مكلفون بالانفاق مما رزقهم الله من الأموال التي جعلهم خلفاء في التصرف فيها، فالمال ليس مالهم في الحقيقة وما هم منها إلاّ بمنزلة الوكلاء:

﴿ وأنفقوا ممّا جَعَلَكُم مستخلفين فيه ﴾ الحديد: ٧. ﴿ وأنفقوا مِمّا رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربِّ لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين ﴾ المنافقون: ١٠. ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ النور:

وعلى هذا يجمل بالبشر أن لا يتأخروا عن تنفيذ أمر الله في ماله الذي استودعهم إياه، واذا أُمروا أن يؤتوا منه فئات من الناس محتاجة فعليهم أن يبادروا الى ذلك.

الاحسان قرضٌ لله

والقرآن حض على الاحسان ورغب فيه بأسلوب في غاية الروعة، من

ذلك قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يُقرِضُ الله قَرْضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبضُ ويبسط ﴾ البقرة : ٢٤٥ .

فأي تلطف من الله في هذا التعبير حين يجعل الاحسان بمثابة الإقراض لله ، وإنما يقترض المحتاج والله غني عن العالمين الذي له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وانما جاء التعبير في هذه الصورة نيابة عن الفقراء والمحتاجين ودفاعاً عنهم ، وما قيمة امرىء يبخل بإقراض بعض المال لواهبه الذي سيرده له حتماً أضعافاً مُضاعفة . ثم يختم الله هذه الآية بقوله : (والله يقبض ويبسط) فلو شاء لأغنى فقيراً وأفقر غنياً فإن الأمر كله بيده .

مَوْرِدٌ للفُقَراءِ لاحَدَّ لهُ

والاسلام جعل للفقير مورداً لا حد له عن طريق الكفارات التي فيها معنى العقوبة أو البدل أو جبر الناقص . مثال ذلك :

يحلف الرجل يميناً أن يفعل شيئاً أو يتركه ثم يعدل عن ذلك ، فإنه في هذه الحالة ملزم بإطعام عشرة مساكين يوماً واحداً مما جرت به العادة أن يأكله هو واهله ، أو كسوتهم أو تحرير إنسان من الرق . ويعجز الرجل عن صوم رمضان لسقم أو هرم فيفطر، فعليه مقابل ذلك أن يطعم عن كل يوم مسكيناً .

ويخل الحاج بشرط من شروط الحج فيكفّر عنه بذبيحة يقدمها للمساكين .

ويقبل عيد الصوم فتجب زكاة الفطر على كل مسلم ، كما يجب أو يسنّ على القادر المستطيع ذبح ضحية في عيد الأضحى ليطعم منها الفقراء .

وينذر المسلم لله نذراً فيوجب عليه الاسلام أن يفي به براً بالفقراء وعوناً لهم .

ويعجز الرجل عن تكاليف العيش لسبب اضطراري فيوجب الاسلام على قريبه الثري أن ينفق عليه : فينفق الابن على الأب ، والأب على الابن ، والأخ على الأخت ، والزوج على الزوجة .

كما أن الاسلام شرع الوقف ليصرف ريعه في وجوه البر عامة .

* * *

هذا بعض تشريع الاسلام الاقتصادي الذي غايته التقريب والتوفيق بين الطبقات المختلفة والقضاء على الفقر . ولو أردنا الاسهاب في شرح ما جاء في القرآن والسُنّة لضاق بنا هذا البحث ولكن أحببنا أن نعطي صورة لبعض أصول القرآن الرئيسية التي تشهد بعظمته وسموّ مصدره الالهي وصلاح هذه الاصول لكل زمانٍ ومكانٍ .

الفصل الحادي والعشرون

الزكاة في الإسلام

الضرائب عند الأمم السابقة – معنى الزكاة – تأثير الفقر في المجتمع – منزلة الزكاة – الزكاة إجبارية – أنواع الزكاة – شروط الزكاة – زكاة الذهب والفضة – زكاة عروض التجارة – زكاة المحصولات الزراعية – زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم – زكاة المعادن والكنوز – مستحقو الزكاة .

الضرائب عند الأمم القديمة

كانت الحكومات قبل الاسلام تفرض الضرائب على الفقراء ومتوسطي الحال أما الملوك والأمراء ورجال الدين ومن لهم صلة بهم فقد كانوا معفيْن من كل التكاليف المالية . وكانت الطبقات الفقيرة تعيش في الحرمان بل في العبودية للأمراء والمثرين .

ولهذا « ما كان الفرد في الزمن القديم يعتبر الحكومة تمثله أو تمثل مصلحته العامة انما كان على العكس يرى فيها عدوه الأكبر الذي لا همّ له الا ابتزاز أمواله وامتصاص دمه من غير منفعة محسوسة تأتيه من وراء ذلك، ولهذا فقد كان الفرد يعتبر الضريبة عبئاً ثقيلاً ينبغي التهرب منها ما استطاع الى ذلك سبيلا »[1] .

« ولقد كانت الشعوب فيما مضى لا تعنى بمالية الحكومة من حيث وارداتها أو مصروفاتها اذ كانوا يعتبرونها مما يخص الملك ومن يلوذ به من الوزراء والعمال . وكانت الحكومات القديمة بدورها لا تهتم الا بتوفير المال لخزينة الملك ، مستعملة في ذلك ما تستطيع من وسائل مشروعة وغير مشروعة . فلم

(١) Daltnn public Finance

تكن – كالحكومات الحديثة – توجه قسطاً كبيراً من عنايتها الى العدل في فرض الضريبة ، وفي توزيع عبئها توزيعاً مناسباً بين طبقات الأمة ، والى انفاق الواردات العامة فيما ينفع الناس ويزيد الرفاهية في المجتمع »[١] .

فلما جاء الاسلام قلب هذه الحال الى ضدها ففرض على الاغنياء ضريبة لمصلحة الفقراء سمّاها : (الزكاة) وتوخى في جبايتها وصرفها أسساً من العدل والنظام لا يوجد نظيرها في اي مذهب من المذاهب الحديثة .

معنى الزكاة

الزكاة صدقة ؛ والصدقة زكاة ؛ يفترق الاسم ويتفق المسمى[٢] .

والزكاة في اللغة معناها : الطهارة . وسمى الله الصدقة المفروضة زكاة لأنها تطهر النفس . قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ التوبة : ١٠٣ .

وما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين يشمل أفرادهم وجماعاتهم ، فهي تطهر نفوس الافراد من الذنوب ومن أرجاس البخل والدناءة والقسوة والاثرة والطمع وغير ذلك من الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادي والعدوان والفتن والحروب ، وتزكي انفسهم أي تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعملية حتى تكون بها اهلاً للسعادة الدنيوية والأخروية .

تأثير الفقر في المجتمع

وقد ثبت أن الفقراء في الطبقات السفلى من المجتمعات هم شر أدواء المجتمع ، فالفقر يحمل الواقعين تحت سلطانه على إتيان جَميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت ، فالبطون اذا جاعت دفعت أصحابها لاستساغة جميع صنوف الجرائم ، وعدت ذلك عملاً مشروعاً ، وفي البيئات التي يشيع فيها الفقر تروج جميع المذاهب المتطرفة ، وتستحل جميع الأعمال الوحشية للوصول الى أغراضها .

---

(١) Lutz public finance

(٢) الماوردي في أحكامه السلطانية .

وقد ذاقت أوروبا من هذه الناحية شر ما يولده الفقر من الأعمال الضارة للعمران ، ابتدأت بالاضرابات البريئة من الشغب ، وانتهت بالثورات الدموية التي لا تبقي ولا تذر .

منزلة الزكاة

أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بدفع الزكاة في مواضع كثيرة ، ولم ترد في القرآن آية تدعو الى إقامة الصلاة الا مقرونة بالدعوة الى إيتاء الزكاة ، فالزكاة والصلاة دعامتان متينتان بُني عليهما الاسلام، من ذلك قوله تعالى : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ الحج : ٧٨ .

كما أن المسلم لا تحصل اخوته الدينية للمسلمين إلّا بأدائهما : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ التوبة : ١١.

وأنذر الله الذين يمتنعون عن أداء الزكاة بقوله: ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين يَبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوقون[١] ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ .

وأنذر النبي مانعي الزكاة بالجدب وضيق العيش فقال : (وما منع قوم الزكاة الا مُنعوا القطر[٢] من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)[٣] .

الزكاة اجبارية

والاسلام ما جعل فريضة الزكاة ترجع لهوى الشخص إن شاء أعطى وإن شاء منع بل جعلها اجبارية لأنها حق الفقير في مال الله الذي أعطاه للغني لقوله تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ﴾ المعارج : ٢٤ ، ٢٥ . فكان حقاً على الإمام أن يجمع حقوقهم ويوزعها عليهم بالعدل .

ولهذا كان النبي يجمع الزكاة ويأمر أمراءه كذلك بجمعها من الأغنياء ليردها على الفقراء . ثم بعد وفاته ومبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة حدث أن أعلن بعض العرب منع الزكاة وقد ظنوا أن الخليفة لا يستجيز مقاتلتهم ، ولكنّ

---

(١) سيطوقون : أي يجعل ما بخلوا به من مال طوقاً من نار في اعناقهم .

(٢) القطر : المطر .

(٣) رواه ابن ماجة .

أبا بكر جمع سراة الصحابة وتشاور وإياهم ثم أجمعوا على قتال مانعي الزكاة ، فأعدوا العدة وخرجوا الى مانعي الزكاة وضربوهم ضربة حاسمة أرجعت للمجتمع الإسلامي وحدته وثبتت تعاليمه السامية التي جاء بها القرآن .

« لقد كانت حرباً أهلية لانصاف الطبقة الفقيرة ولن تجد في جميع الحروب الأهلية التي قامت لإنصاف الطبقة الفقيرة في أوروبا ما يعادلها إخلاصاً ونزاهة ذلك لأن الذين حاربوا لإنصاف الطبقة الفقيرة في أوروبا هم الطبقة الفقيرة نفسها، حاربوا تحت تأثير الحاجة ، أما الذين حاربوا في زمن الخليفة أبي بكر فهم سراة الصحابة ، ورجال الحل والعقد وعلى رأسهم الخليفة نفسه [1]» الذي قال في هذه الحادثة : (والله لو منعوني عناقاً[2] كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على منعها) .

من هذا يتبين لنا : أن الزكاة ليست إحساناً فردياً، وان اعتبارها كذلك خروج بها عن معانيها، بل هي ضريبة إجبارية تأخذها الحكومة الاسلامية لتصرفها على الطبقة الفقيرة لأن الأصل أن الإمام هو الذي يأخذ ويعطي ، لقوله تعالى : ﴿ خُذْ من أموالهم صَدَقَة ﴾ وعلى هذا اتفق الفقهاء على أن الزكاة لا يتولى توزيعها من تجب عليهم من المسلمين وكان ذلك لإبطال معنى الاحسان الفردي الذي يتحقق فيه الذل والهوان للمحتاجين ، أما عطاء الدولة للفقراء المحتاجين من غير سؤال منهم ولا منّة في العطاء فليس فيه إذلال بل معونة كريمة وسد حاجة .

هذا وقد قرّرَ جمهور الفقهاء: ان من يموت ولم يؤد الزكاة الواجبة عليه تكون ديناً في التركة لا تخلص للورثة إلاّ بعد سدادها، كمن يموت وعليه دين للعباد فإن التركة لا تخلص للورثة إلاّ بعد سداده .

أنواع الزكاة

الانواع التي تجب فيها الزكاة شرعاً خمسة :

أولاً : الذهب والفضة .

ثانياً : البضائع التجارية .

---

(١) نقلا عن كتاب « إصلاح الإسلام الإقتصادي » للأستاذ هاشم الدفتردار المدني .

(٢) عناقاً : أنثى المعز التي لم تبلغ سنة .

ثالثاً : المحصولات الزراعية وثمار الأشجار والكروم .

رابعاً : السوائم من الإبل والبقر والغنم .

خامساً : المعادن والكنوز .

وما عدا هذه الأنواع الخمسة من الأموال لا تجب فيها الزكاة . فلا زكاة في الدور المعدة للسكنى ، ولا في الثياب الخاصة ، ولا في أثاث المنازل ، ولا في دواب الركوب ، ولا في السيارات المعدّة للاستعمال الشخصي ، ولا في الاسلحة والتحف وأدوات الزينة والحلي والجواهر الكريمة ، ولا في آلات الصناعة والزراعة وكتب العلم .

أما اذا اتخذ شيء من ذلك للتجارة فإنه تجب عندئذ الزكاة فيه .

والمعادن النفيسة غير الذهب والفضة قد درج الفقهاء على اعتبارها لا زكاة فيها ، ولكن الحق هو أن يطبق على هذه المعادن حُكم الذهب والفضة في وجوب الزكاة عليها ، فاذا بلغت قيمتها نصاباً ذهبياً أو فضياً أخرجت زكاتها .

شروط الزكاة

وأما شروط الزكاة التي يجب أن تتوفر في كل نوع من هذه الأنواع فهي أربعة :

أولاً : أن يكون المال مملوكاً ملكاً تاماً ، والمراد بتمام الملكية أن يكون المال بيد صاحبه ، وأن لا يتعلق به حق لغيره ، وأن يكون له حرية التصرف فيه باختياره . وأن تكون ثمرته له . وعلى هذا الشرط فالمال الموقوف لا تجب فيه الزكاة ، وكذلك الديون التي في ذمم المدينين والتي لا يرجى سدادها . وكذلك المال الذي ليس لمالكه حرية التصرف فيه باختياره كالمال المرهون ، والموضوع تحت يد حارس ، والقائم بشأنه نزاع .

ثانياً : أن يبلغ هذا المال النصاب ، أي المقدار الذي حدده الشرع لكل نوع من أنواع هذه الأموال . وعلى هذا الشرط فالمال القليل الذي لا يبلغ مقدار النصاب لا زكاة فيه ، لأن الزكاة تجب في الزائد عن حاجة المالك ، لقوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ أي الفائض عما يحتاجون .

ثالثاً : أن تمضي سنة قمرية[1] على هذا النصاب وهو مملوك لصاحبه ملكاً تاماً . وعلى هذا الشرط اذا زالت ملكية المالك عن ماله بعد نصف سنة أو أكثر فلا تجب عليه الزكاة فيه . ومرور سنة شرط لوجوب الزكاة . فيما عدا الحاصلات الزراعية ، وما يعثر عليه في باطن الأرض من معادن وكنوز ، فتجب الزكاة فيهما عند ظهورهما .

رابعاً : أن يكون المال زائداً عن حاجات مالكه الضرورية وعن ديونه ، وعلى هذا الشرط فالمال المملوك للانسان ولكنه على قدر نفقة مالكه ونفقة من يعولهم أو مستغرق بديون عليه لا تجب الزكاة فيه .

والزكاة تؤخذ كل عام مرة واحدة لأن نماءها لا يتحقق إلا بمرور العام ، وهذا الحكم بالنسبة للأموال المنقولة ، أما زكاة الزرع فيتكرّر الأخذ كلما أنتجت الأرض .

وتؤخذ الزكاة من مال الصبي والمجنون والسفيه اذا بلغ مالهم النصاب ، ويدفعها الولي أو الوصي على الأموال ، ولا فرق في الزكاة بين ذكر وانثى وبين سجين وطليق .

والزكاة لا تتبع ميزانية الدولة بل يجب أن تكون لها إدارة منفصلة ، والدولة اذا كانت متسعة الأرجاء فانها تترك الأمر لحكومات المقاطعات تنظم كل مقاطعة طريق الجمع وطريق التوزيع .

زكاة الذهب والفضة

تُفرض الزكاة في الذهب والفضة سواء أكانا مسكوكين نقوداً ، أم تبراً ، أم سبائك اذا مرّ عليهما سنة قمرية .

ومقدار الزكاة ربع العشر ، أي اثنان ونصف في المائة ، تؤخذ ممن يملك نصاباً من الذهب أو الفضة . ومعنى نصاب الذهب : أي المقدار الذي يبتدىء فيه وجوب الزكاة ، ويجعل مالكه من المزكين . والنصاب : هو عشرون مثقالاً أو عشرون ديناراً من الذهب[2] .

---

(١) السنة القمرية ثلاثمائة واربعة وخمسون يوماً ، أما السنة الشمسية فتارة تكون ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وتارة تزيد على ذلك يوماً .

(٢) وقيمة العشرين مثقالا ١٠,٨٠ ليرة عثمانية ذهباً او اثنا عشر جنيهاً وثمن جنيه انكليزي ، والمثقال يساوي ٣,٨٨ غرام ذهباً .

ونصاب الفضة مائتا درهم ، وهو ما يعادل بالتقريب ٢٧ ريالاً أو ٥٣٠ قرشاً مصرياً . والذي يلاحظ أن نصاب الفضة يساوي أقل من نصاب الذهب وكان الاحرى أن يساويه ، ولهذا فإن من يملك الآن عشرة جنيهات من الذهب لا تجب عليها الزكاة فيها لأنها دون النصاب ومن ملك ثلاثين ريالاً من الفضة وهي دون العشرة جنيهات تجب عليه الزكاة فيها لأنها اكثر من النصاب الفضي ، فعلى هذا القياس يكون الغني لا زكاة عليه والفقير عليه الزكاة ، وقد فطن لهذا الاستاذ عبد الوهاب خلاف فقال في مجلة لواء الاسلام في مجلد ١٩٥٠ ما نصه : « وعلى هذا لا بد أن تكون القيمة المالية للعشرين ديناراً في وقت التشريع تعادل القيمة المالية للمائتي درهم . والاحكام الشرعية تدل على هذا، فقد قررت دية القتيل خطأ بألف دينار أو عشرة آلاف درهم . وهذا معناه أن الدينار يعادل في قيمته عشرة دراهم وعلى هذا فالعشرون ديناراً تعادل في قيمتها المالية مائتي درهم . ولكن هذا التعادل غير ثابت بل هو متغير تبعاً لتغير سعر الفضة ونسبتها الى الذهب، ثم يقول : « والذي أراه: أن تقدير النصاب المالي كان مراعى فيه قيمة الفضة بالنسبة الى الذهب في وقت التشريع ، وهذه النسبة تتغير بتغير الأزمان والبيئات والعرض والطلب، وأرى أن يعتبر الذهب هو الوحدة في تقدير النصاب، ويكون نصاب الزكاة: عشرين ديناراً أو ما يعادلها من الفضة المضروبة أو غير المضروبة » .

والنقود التي تكون من غير الذهب والفضة كالعملة المتخذة من النيكل وغيره تجب الزكاة فيها إذا بلغت نصاب الذهب . والأوراق المالية بأنواعها وأسهم الشركات تجب الزكاة فيها على أساس قيمتها .

هذه أحكام النقود بكل أنواعها ما دامت في حوزة صاحبها ، ويستوي في ذلك أن تكون في المصارف المالية مودعة فيها أمانة أو كانت رصيداً تجارياً أو أموالاً مدخرة أو صكوك تأمين .

زكاة عروض التجارة

والزكاة واجبة في عروض التجارة ، والوجوب ليس على أعيان العروض وإنما على قيمتها ، لذلك كان نصابها هو نصاب الذهب .

وليس الشرط أن تمر السنة على نفس السلعة ، بل على القيمة ، وإن

تداولت القيمة آلاف السلع . والمعتبر أن تكون البضائع التجارية بالغة النصاب، في أول السنة وفي آخرها ولا عبرة بنقصها أو زيادتها في وسطها .

وتشمل عروض التجارة : الحيوان الذي يقتنى للاستيلاد ويرعى بالمجان، وكل ما كان للاتجار من مختلف البضائع .

والزكاة تؤخذ من رأس المال مع الأرباح . وتقوّم عروض التجارة بحسب الزمن الحاضر .

زكاة المحصولات الزّراعيَّة

وزكاة الزروع عشرة في المائة إذا سقيت بدون آلات : أي من مطر أو نهر أو عين ، وخمسة في المائة إذا سقيت بالآلات ، وإذا اختلف السقي كان الحكم للأغلب وإن تساويا كان الواجب إخراج نصف العشر .

والزكاة من الزروع تؤخذ من كل ما أخرجت الأرض لا فرق بين صنف وصنف ، ولا بين مطعوم وغير مطعوم ، ولا نصاب لها، ففي كل ما أخرجت الأرض زكاة ، ويتكرّر الأخذ كلما أنتجت الأرض لقوله تعالى :

﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ الانعام : ١٤١ .

وألحق فضيلة الاستاذ محمد أبو زهرة[١] زكاة الدور المعدة للاستغلال بزكاة الزرع فقال : « والمعروف عن جمهور الفقهاء أنهم لم يقرروا زكاة في الدور ، لأن الدور في عصورهم لم تكن مستغلة بل كانت لسد الحاجات الأصلية ، وكان ذلك عدلاً اجتماعياً في عهد الاستنباط الفقهي . أما في عصرنا الحاضر فقد استبحر العمران وشيدت العمائر والقصور للاستغلال وصارت تدر أضعاف ما تدره الأرضون فكان من المصلحة أن تؤخذ منها زكاة كالأراضي الزراعية إذ لا فرق بين مالك تجبى اليه غلات عمارته كل شهر ومالك تجبى اليه غلات أرض زراعية كل عام فلو أوجبنا الزكاة في الأراضي الزراعية ورفعناها عن المستغلات العقارية لكان ذلك ظلماً »[٢] .

فكل ما يحصل من غلات العمائر المعدة للسكنى أو نحوها تجب فيها الزكاة .

---

(١) من علماء الأزهر .

(٢) لواء الإسلام ، مجلد ١٩٥٠ .

واذا انقطعت الغلات أمداً انقطعت الزكاة في ذلك الأمد ، وتتبع الزكاة في الأدوار التي تحصل بها غلات تلك العقارات وما يشبهها ، فاذا كانت الغلات تحصّل كل شهر وجبت كل شهر ، وإن كانت تحصل كل عام وجبت كل عام . ويؤخذ نصف العشر من الغلات .

ويقيس فضيلة الاستاذ محمد ابو زهرة نفس القياس على الآلات الصناعية التي تكون في المصانع والتي تفيض بها الغلات وليست أدوات شخصيّة للعامل يستخدمها لسد حاجاته فتجب فيها الزكاة من ثمراتها ، وتحتسب غلات تلك المصانع كل عام فإذا تبين ثمّة كسب كان للفقير حق فيه، وقدره الأستاذ بنصف العشر .

زكاةُ السَوائِمِ مِنَ الأبلِ وَالبقرِ وَالغنم

المراد بالسوائم تلك التي ترعى أكثر السنة في المراعي العامة المباحة ، ولا يتكلف ملاكها مؤونة علفها . أما الابل والبقر والغنم التي يغذيها ملاكها بأموالهم فلا تجب فيها الزكاة . فالاسلام لا يجمع على مالك الانعام بين مؤونة علفهـا وفريضة الزكاة فيها .

ولكل نوع من أنواع هذه السوائم نصاب مقدر لا تفرض الزكاة فيما دونه « ففي الإبل لا زكاة فيما دون الخمس، وفي الغنم لا زكاة فيما دون أربعين، وفي البقر لا زكاة فيما دون ثلاثين . والواجب في خمس من الإبل شاة ، والواجب في أربعين من الغنم شاة ؛ والواجب في ثلاثين من البقر تبيع « أي واحد منها أتم سنة ودخل في السنة الثانية[1] » والإبل تشمل: الجمال والنوق . والغنم تشمل: الضأن والمعز . والبقر يشمل: الجاموس، وليس فيما عدا هذه الثلاثة من المواشي زكاة ولو كانت سائمة، فلا زكاة في الخيل والبغال والحمير ، ولعل الحكمة في هذا ان الابل والبقر والغنم هي التي لها نماء بالدر والنسل فتكون الزكاة من نمائها لأنها تقصد للدر والنسل .

وإنما ذكر الفقهاء أن لا زكاة في الخيل والبغال والحمير لأنها تتخذ للحاجة ،

---

(١) من أراد ان يعرف الواجب فيما زاد عن خمس من الإبل او أربعين من الغنم او ثلاثين من البقر فليرجع الى كتب الفقه فقد فصلت ذلك او الى كتاب (فتح القدير) للكمال بن الهمام جـ ١ ص ٤٩٥ – ٤٩٦ .

فالفرس للجهاد ، والبغال والحمير للحمل وغيره ، أما اذا اتخذت للاستغلال فان لها نسلاً ونماء فعندئذ تجب فيها الزكاة .

زكاة المعادن والكنوز

ما يكون في باطن الارض من معادن كالبترول يكون ملكاً لبيت مال المسلمين[1] .

أما الكنوز الجاهلية التي ثبت انها وضعت في باطن الارض قبل الاسلام فيؤخذ منها الخمس . والأخماس الأربعة الباقية للواجد . والكنوز الإسلامية هي التي ثبت انها وضعت في باطن الإرض بعد ظهور الاسلام وتكون ملكاً للدولة الا اذا عُرف ملاكها فانها تكون لهم ، وانما تكون تلك الكنوز للدولة لأنها ضوائع والضوائع تكون لبيت المال الخاص بها ، ومثلها كمثل المال الذي يؤول الى بيت المال اذا مات صاحبه ولم يعرف له وارث ، فانه يكون لبيت مال المسلمين الخاص بالضوائع ويصرف في مصارف الزكاة .

أما ما يكون في البحار من عنبر ولآلىء وأسماك فيؤخذ منها الخمس .

وهذا ما اختاره واضعو مشروع قانون الزكاة في مصر اذ قالوا : « إن المعروف عن جمهور الفقهاء ، أنهم لا يأخذون الخمس في السمك وذلك حكم زمانهم ، لأن السيادة على البحار لم تكن ثابتة ؛ ولأن من كان يصطاد انما كان يصطاد قوت يومه ، ولأنها لم تكن محل عناية وتربية ولم تنظم المصايد ذلك التنظيم القائم اليوم ، ولو أن أئمتنا عاشوا في عصرنا لقرروا ما قررنا ، فالاختلاف بيننا وبينهم اختلاف عصر وزمان لا اختلاف دليل وبرهان » .

والكنوز الأثرية تعد ملكاً للدولة لقيمتها التاريخية ولفائدة العلم .

مستحقو الزكاة

لم يترك الاسلام أمر الزكاة الى تقدير ولي الأمر بل بيّن المصارف وعيّنها بالنص القرآني الذي لايقبل التأويل، قال الله تعالى : ﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله، وابن السبيل فريضة من الله، والله عليم حكيم ﴾ التوبة : ٦٠ .

---

(١) مذهب الإمام مالك .

عدّد الله أصناف المستحقين[1] للزكاة وهم :

أولاً : **الفقراء** : وهم الذين لا يملكون أموالاً يزكّون عنها أي أن أموالهم لا تبلغ النصاب وإنما لديهم قليل من المال لا يكفي لكل حاجاتهم ، وقيل : من لا يملكون قوت يوم وليلة .

ثانياً : **المساكين** : قيل في المسكين : هو السائل ، وقيل : إن المسكين أشد حاجة من الفقير ، وروي عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس : ان الفقراء فقراء المسلمين والمساكين فقراء أهل الكتاب ، ويزكي هذا الرأي أن عمر بن الخطاب فسَّر المساكين بضعفاء أهل الكتاب ، فإنه يروى أنه رأى ذمياً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فقال له عمر رضي الله عنه : مالك ؟ قال : استكروني في هذه الجزية ، حتى إذا كف بصري تركوني وليس لي أحد يعود عليّ بشيء! فقال الفاروق : ما أنصفت إذن ! وأجرى له ما يقوته وما يصلحه ، وقال : هذا من الذين قال الله فيهم : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) وهم زمنى أهل الكتاب ، أي ذوو العاهات المانعة من الكسب ، والمرضى بمرض لا يرجى البرء منه . ونرى من هذا : أن الزكاة على هذا التفسير تعطى لمساكين أهل الذمة العاجزين عن الكسب ، وهو غير ما عليه جمهور الفقهاء الذين يرون أن الزكاة لا تعطى لغير المسلمين .

ثالثاً : **العاملون عليها** : وهم الذين يعملون في جمع الزكاة من أربابها وتوزيعها على مستحقيها ، وهم يعطون على قدر أعمالهم وكفاية أمثالهم ، ولأن العمل في الزكاة له أجر والأجير يأخذ سواء أكان غنياً أم فقيراً .

رابعاً : **المؤلفة قلوبهم** : وهم قوم يعطون من الزكاة تأليفاً لقلوبهم أو قلوب ذويهم، أو تمكيناً للاسلام في قلوبهم . وقد قال أبو يعلى في (الأحكام السلطانية) : « والمؤلفة قلوبهم أربعة أصناف : صنف منهم تتألف قلوبهم لمعونة المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم للكف عن المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم لترغيبهم في الاسلام ، وصنف تتألف قلوبهم ترغيباً لقومهم وعشائرهم في الاسلام ، فيجوز أن يعطى كل واحد من هذه الاصناف من سهم المؤلفة قلوبهم مسلماً كان أو مشركاً » . وعطاء هؤلاء من قبيل الدفاع عن الاسلام والدعوة

---

(١) لخصنا فصل مستحقي الزكاة من بحث لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد ابو زهرة في مجلة لواء الإسلام من مجلد سنة ١٩٥١ ص ٨٣٢ .

له ، فإعطاء المؤلفة قلوبهم هو من قبيل ما نسميه اليوم (الدعاية) ، ولذلك كان حقاً أن نجعل من مصارف الزكاة تمويل الدعاية للاسلام ، وبيان مزاياه ، ليعلم حقيقته من لم يكن يعلم .

خامساً : **وفي الرقاب** : أي في فك أسر الارقاء ، فقد كان من عادة العرب أن يعين الواحد لرقيقه مالاً إذا أداه له تحرّر من أسره . فأمر الله الحكومة الاسلامية أن تمد هؤلاء الاسرى بأموال الزكاة ليتحرّروا من رقهم . وقد ذهب الرق تقريباً من العالم . ونريد أن نسجل في هذا المقام أن الدولة الاسلامية هي أول دولة حاربت الرق في الوجود ، وحسبها أن جعلت جزءاً من ميزانيتها لفك الرقاب ، ولم يذكر التاريخ أي نظام سياسي أو فلسفي سبق الاسلام في ذلك .

سادساً : **الغارمون** : وهم الذين ركبهم الدّين ولا وفاء عندهم ، وهم ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يستدين في سفاهة وإسراف لينفق في المحلّل والمحرّم ، والاكثرون من الفقهاء يرون على أن هذا لا يوفى عنه دينه ، إلّا إذا تاب وصار من أهل الصلاح والتقى والتدبير .

٢ ـ من استدان لصالح نفسه . كتاجر لزمته ديونه في تجارته وهو يحسن تدبيرها ولكن اضطرب الميزان الاقتصادي ، وأحاط الدين بماله ولم يفِ ما عنده من المال بديْنه ، فما بقي من ديون بعد ذلك عليه يسدّد من الزكاة .

٣ ـ من ركبه دين في مصلحة عامة لا لمصلحة نفسه ، كمن تحمل ديات للصلح بين الناس ، فقد قال الفقهاء أنه يسدّد عنه دينه ، ولو كان غنياً يبقى له بعد سداد الدين من ماله نصاب ؛ وهذا للتشجيع على المروءة والصلح بين الناس .

وإذا مات مدين وليس في تركته ما يفي بدينه يُؤدى باقي دينه من مال الزكاة .

والجدير بالذكر أن الاسلام يجعل الديون العادلة تُؤدى من بيت مال الزكاة ، وبهذا سبق الشرائع الإنسانية كلها سبقاً بعيداً ، وخصوصاً الشرائع

التي عاصرت نشأته، وحسبك أن تعلم أن القانون الروماني [1] في بعض أدواره كان يسوغ للدائن أن يسترق المدين. أما الاسلام فقد جعل دين المعسر تؤديه الدولة عنه وفي ذلك تشجيع للناس على المروءة والقرض الحسن، لأن صاحب المال إن علم أن ماله لن يضيع أبداً أقرض القرض الحسن. ويصح بالقياس على ذلك أن يقرض من مال الزكاة القرض الحسن لانه اذا كانت الديون العادلة تؤدى فأولى أن تعطى منها القروض الخالية من الربا لترد الى بيت المال.

سابعاً: **ابن السبيل**: والمراد به المسافر المنقطع الذي لا يجد مالاً يوصله الى وطنه، فإنه يُعطى من مال الزكاة ما يوصله الى وطنه.

وأما إذا كان غنياً فيعطيه بيت المال قرضاً ليسترد ما أعطاه عند الرجوع الى أهله وذويه.

ثامناً: **وفي سبيل الله**: والمراد به الصرف على الغزاة والمرابطين لحماية الثغور، فينفق من الزكاة على الجيش وكل ما يتصل به ما دام الجيش يجاهد في سبيل الله.

ولقد فسَّر بعض الفقهاء كلمة في سبيل الله بما يعم كل مصالح المسلمين، فقد جاء في (التفسير الكبير) للفخر الرازي ما نصه:

«واعلم أن ظاهر اللفظ لا يوجب القصر على كل الغزاة، فلهذا المعنى نقل «القفال» في تفسيره عن بعض الفقهاء: أنهم أجازوا صرف الصدقات الى جميع وجوه الخير: من تكفين الموتى، وبناء الحصون، وعمارة المساجد، لأن قوله تعالى: في سبيل الله عام في الكل».

ويشمل في سبيل الله: اعداد دعاة الى الاسلام والإنفاق عليهم لاظهار جمال الاسلام وسماحته وتبليغ أحكامه والرد على خصومه. والانفاق على الكتب التي تتولى هذه المهمة.

ويجوز إعطاء الزكاة للمؤسسات الخيرية: كالمستوصفات الخيرية والمياتم والمدارس الخيرية لأن هذه المؤسّسات جعلت لصالح الطبقة الفقيرة.

---

(١) جاء في القانون الروماني المسمى: قانون الألواح الاثني عشر: (المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق إن كان حراً ويحكم عليه بالحبس أو بالقتل إذا كان رقيقاً).

هل تُصرف الزكاة على جميع مستحقيها : يرى جمهور الفقهاء خلافاً للشافعي أنه لا يلزم المزكي استيعاب كل مصارف الزكاة بل في أيها وضعت أجزأت . ويلزم الإمام العناية بالأهم اجتماعياً فالمهم .

الزكاة ضمان اجتماعي

ونختم هذا البحث بأننا نستطيع أن نؤكد أن الحكومات الإسلامية لو عملت بما شرعه الاسلام من تحصيل فريضة الزكاة لبلغ إيرادها منها ملايين الجنيهات الذهبية التي تسد حاجات الطبقات المحرومة .

وهذه الزكاة تؤدي ما تؤديه الضرائب التي عمدت اليها بعض الدول الأوروبية منذ القرن الماضي[1] اذ قررت ضرائب على رؤوس الأموال وسمتها : ضريبة الضمان الاجتماعي ، وفرضت ضرائب غيرها على أصحاب الايرادات الضخمة ، بلغت في بعض الدول نحو تسعين في المائة من تلك الايرادات ، ولولا هذه المحاولات لما هدأت الفتن في الطبقات المحرومة .

من ذلك يتبيّن لنا : أن (الزكاة) ضمان اجتماعي ثمرته حفظ التوازن بين طبقات الأمة ، وكان الإسلام أول من سَبَقَ العالم الى وضعه .

---

(١) أول دولة في الغرب بدأت بتنظيم الضمان الاجتماعي هي المانيا فقد اصدرت اول قانون في هذا الشأن عام ١٨٣٣ .

الفصل الثاني والعشرون

المرأة والأسرة في الإسلام

المرأة عند االأمم القديمة – تحرير الإسلام للمرأة عامة – تحرير الإسلام للمرأة العربية – نظرة القرآن الى الزواج – اصول الزواج في الإسلام – المساواة بين الزوجين – المرأة المسلمة والحجاب – إباحه تعدد الزوجات – الطلاق – العدة – حقوق المرأة الشخصية .

لم يتسع مجال الحديث عن المرأة في عصر من العصور قدر اتساعه في العصر الحاضر ، ولا عجب ان تحتل المرأة هذه الأهمية ، فانها لم تعد شيئاً يتلهى به ، أو سلعة تباع وتشترى ، أو مواطناً لا حقوق له ، وإنما أصبحت الأساس في الأسرة الانسانية .

ومن البديهي ان يعني المفكّر المعاصر بالكلام عن المرأة بعد أن ظفرت بحقوق كثيرة ، ووثبت هذه الوثبة الاجتماعية الكبرى ليرى أي الشرائع أكثر اعتناء بها ، ثم هل الاسلام حرّرها وأعزها وصانها أم قضى بعبوديتها وإذلالها ؟

وقبل أن نشرع في تفصيل وبيان تحرير الإسلام للمرأة نلقي نظرة سريعة على منزلة المرأة عند الأمم القديمة – قبل الاسلام وبعده – لنرى على ضوء ذلك صورة واضحة للمكانة التي تبوأتها المرأة في الاسلام .

المرأة عند الأمم القديمة

فالاثينيون –أكثر الأمم القديمة حضارة – جعلوا المرأة من سقط المتاع ، فكانت تباع وتشترى في الأسواق ، وقد سموها رجساً من عمل الشيطان ، وحرّموا عليها كل شيء سوى تدبير البيت وتربية الأطفال .

وجاء في شرائع الهند : « ان الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار خير من المرأة » .

ولم تكن التوراة أكثر رحمة بالمرأة من شرائع الهند . جاء في سفر الجامعة : « دُرت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً ولأعرف الشرّ أنه جهالة والحماقة انها جنون ، فوجدت أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود ... رجلاً واحداً بين الف وجدت . اما امرأة فبين كل أولئك لم أجد » .

وفي رومية اجتمع مجمع كبير وبحث في شؤون المرأة فقرر أنها كائن لا نفس له ، وانها لن ترث الحياة الأخروية لهذه العلة ، وانها رجس يجب ان لا تأكل اللحم ، وان لا تضحك بل ولا ان تتكلم ، وعليها ان تمضي أوقاتها في الصلاة والعبادة والخدمة ، ولأجل أن يمنعوها الكلام جعلوا على فمها قفلاً من حديد فكانت المرأة من أعلى الاسر وأدناها تسير في الطرقات ، وتروح وتغدو في دارها وعلى فمها قفل ، هذا غير العقوبات البدنية التي كانت تعرض لها المرأة باعتبار انها أداة للاغواء يستخدمها الشيطان لإفساد القلوب .

اما في فرنسا فقد عقد سنة ٥٨٦ م اجتماع في بعض ولاياتها دار فيه البحث عن المرأة : أتعدّ انساناً أم غير انسان ؟ وكان ختام البحث أن قرر المجمع : ان المرأة انسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل .

أما في انكلترا فقد أصدر الملك هنري الثامن أمراً بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء ، كما ان النساء كن طبقاً للقانون الانجليزي العام حوالي سنة ١٨٥٠ م غير معدودات من المواطنين ، ولم يكن لهن حقوق شخصيّة ولا حق لهن في تملك ملابسهن ، ولا في الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين .

اما في بلاد العرب وقبل بعثة محمد ﷺ فقد كانت المرأة ممتهنة في كثير من أحوالها كما سنفصله فيما بعد .

تحرير الاسلام للمرأة عامة

جاء الاسلام والعالم على ما وصفنا ، فقام بتحرير المرأة مما وقع عليها من حيف وظلم ، ورفعها الى مكانة عالية لم تصل اليها في آخر تطورات المدنية .

فبينما كانت المرأة عند شعوب أوروبا وغيرها تعد من الحيوان الأعجم ، أو من الشيطان الرجيم جاء الاسلام معلناً أن المرأة أحد العنصرين اللذين تكاثر منهما الانسان ، وجعل ذلك نعمة ومنّة على الناس ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خَلَقكم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ[1] وَخَلَقَ منها زوجها[2] وبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كثيراً ونساء ﴾ النساء : ١ .

وبينما كان بعض البشر يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين ، حتى أنهم كانوا يحرّمون عليها قراءة الكتب المقدسة ، جاء الاسلام مقرراً : أن للنساء ثواب أعمالهن الصالحة كالرجال . قال تعالى :

﴿ ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحات مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهو مُؤمن فأولئك يَدْخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً[3] ﴾ النساء: ١٢٤ .

كما أن الاسلام أمر المرأة بتكاليف العقيدة وفضائل الأخلاق كما أمر الرجل . قال الله تعالى :

﴿ إنّ المسْلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ، والصّادقينَ والصّادقات ، والصّابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدّقين والمتَصدّقات ، والصائمين والصائمات والحافظين فُروجَهُم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ الاحزاب : ٣٥ .

ومسؤولية المرأة مستقلة عن مسؤولية الرجل ، فلا يؤثر عليها وهي صالحة فساد الرجل وطغيانه ، ولا ينفعها وهي طالحة صلاح الرجل وتقواه ، قال الله تعالى:

﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يُغنيا عنهما مِنَ الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضَرَبَ الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة ونجني مِنْ فرعون وعمله ونجّني مِن القوم الظالمين ﴾ التحريم : ١٠ ـ ١١ .

---

(١) نفس واحدة : هي نفس آدم عليه السلام .

(٢) خلق منها زوجها : أي خلق حواء من نفس آدم .

(٣) نقيراً : أي لا يبخس حقهم في عملهم الصالح مها كان قليلا .

كما أن الاسلام ساوى بين المرأة والرجل في حق المبايعة ، فقد كان النبي يبايع[1] الرجال على السمع والطاعة والقيام بحدود الشريعة، وكذلك بايع النساء كما أمره الله .

﴿ يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يُبايعنك على أن لا يُشركن بالله شيئاً ولا يَسْرقن ولا يزنين ولا يَقتُلن أولادهن ولا يأتين ببُهتان[2] يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهُن واستغفر لهن الله، إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ الممتحنة : ١٢ .

ثم بينما نرى بعض الشعوب تحتقر المرأة فلا تعتبرها أهلاً للاشتراك مع الرجال في النشاط الاجتماعي، جاء الاسلام فأثبت أنهن والرجال سواء، قال تعالى :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءُ بعض يأمرونَ بالمعروف ويَنْهَون عن المنكر ويُقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويُطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ﴾ التوبة : ٧١ .

ففي هذه الآية إثبات ولاية المؤمنين والمؤمنات بعضهم لبعض ، والولاية عبارة عن تعاونهم وتناصرهم لما فيه خيرهم ، كما أن الآية اثبتت للمرأة حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بالأعمال الصالحة، وهذا برهان واضح في إعطاء المرأة حقها مِنَ النشاط الاجتماعي .

تحرير الاسلام للمرأة العربية

كان بعض العرب يئد البنات فجاء الاسلام بتحريم وأدهن ، وبذلك أعطى المرأة حق الحياة ، قال الله تعالى : ﴿ واذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سُوء ما بُشّر به أيمسكه على هون[3] أم يدسّه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون ﴾ النحل : ٥٨ ، ٥٩ .

وقال الله سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق[4] نحن نرزقهم وإيّاكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ الاسراء : ٣١ .

---

(١) يبايع : يعاهد .
(٢) المراد بالبهتان في هذه الآية أي الولد الذي كانت المرأة تلصقه بزوجها كذباً .
(٣) الهون : الخزي والذل .
(٤) املاق : فقر .

وكانت العرب لا تُورّث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت وإنما يورثون من يلاقي العدو ويقاتل في الحرب . فشرع الاسلام توريث المرأة وبيّن حقوقها في الارث زوجاً وأماً وأختاً ، قال الله تعالى :

﴿ للرجال نصيبٌ مما ترَكَ الوالدان والأقربون وللنساء نَصيبٌ مِمّا ترَكَ الوالدان والأقربون مِمّا قَلَّ أو كَثُرَ نصيباً مفروضاً ﴾ النساء : ٧ .

وكانت العرب ترث النساء كرهاً ، وذلك بأن يجيء الوارث ويلقي ثوبه على زوج مورثه ثم يقول : « ورثتها كما ورثت ماله » فيكون أحق بها من نفسها فإن شاء تزوجها ، أو زوّجها وأخذ مهرها لنفسه ، أو حرم عليها الزواج طمعاً في أن تفدي نفسها بمال ، أو تموت فيرثها ، فجاء الاسلام محرّماً ذلك :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحِلُّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً ، ولا تَعْضُلُوهُنَّ [1] لِتَذْهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ النساء : ١٩.

وكان بعض العرب يُكرهون إماءهم على البغاء ليكسبن لهم مالاً فمنعهم الاسلام من ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أَرَدْنَ تحصّناً لتبتغوا عَرَضَ الحياة الدنيا ﴾ النور : ٣٣ .

وكان بعض العرب يرثون زوجات آبائهم في جملة المتاع فيصبحن زوجاتهم ، فجاء الاسلام رادعاً أشد الردع عن هذا المنكر . قال الله تعالى :

﴿ ولا تنكحوا ما نَكَحَ آباؤكم مِنَ النساء إلاَّ ما قد سَلَف إنّه كانَ فاحشةً ومَقْتاً وساءَ سبيلا ﴾ النساء : ٢٢ .

كما أن الاسلام حرّم كثيراً من أنواع الزواج الفاسد الذي كان عند كثير من الشعوب ، ولا يزال بعضه إلى اليوم في البلاد التي تغلب عليها الهمجية .

نظرة القرآن الى الزواج

ما هو تعريف الزواج قبل أن يعرّفه القرآن ؟ هل هو صفقة تجارية بين شريكين في المعيشة ؟ هل هو وسيلة من وسائل الضرورة لإرضاء مطالب الجسد والاستراحة من غوايته الشيطانية ؟ كل هذا وأشباهه ما تصورته المجتمعات والعقائد من صُوَرِ الزواج قبل مجيء القرآن .

---

(١) تعضلوهن : تمنعوهن من التزوج بغيركم .

ولكن الزواج في القرآن هو الزواج الانساني في وضعه الصحيح من وجهة المجتمع ومن جهة الأفراد . فهو واجب اجتماعي من وجهة المجتمع للمحافظة على النوع الانساني ، وسكن نفساني من وجهة الفرد ، وسبيل مودة ورحمة بين الرجال والنساء ، فكان خطاب القرآن في أمر الزواج موجهاً إلى أفراد الأمة لتيسيره ، قال الله تعالى :

﴿ وأنكحوا[1] الايامى[2] منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يُغْنِهم الله من فضله ﴾ النور : ٣٢ .

فهذه الآية خطاب للأولياء – وتعم غيرهم مطلقاً – بأن يزوجوا العزّاب من النساء والرجال ، وأن لا يكون فقرهم داعياً للحيلولة دون تزويجهم لأن الله قد تكفل بإغنائهم من فضله .

أما الفقير المدقع العاجز عن الانفاق فإن الآية التالية تأمره بالعفة الى ان يرزقه الله المال الذي يمكنه من الزواج : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نِكَاحاً[3] حتى يُغْنِيهُمُ الله مِنْ فَضْله ﴾ النور : ٣٣ .

والزواج في الاسلام عهد وميثاق بين الزوجين . قال الله تعالى :

﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ النساء : ٢١ .

فهذه الآية تدل على أن النساء أخذن من الرجال ميثاقاً غليظاً وهو ميثاق الزواج ، فهو عهد بين الرجل والمرأة يلتزم كل منهما بموجبه واجبات نحو الآخر . ولهذا التعبير : (ميثاقاً غليظاً) قيمته في الإيحاء بمعاني الحفظ والمودة والرحمة ، فهو ليس عقد تمليك كعقد البيع والاجارة ، أو نوعاً من الاسترقاق .

والعلاقة بين الرجال والنساء في الزواج علاقة « سكن » تستريح فيها النفوس وتتصل بها المودة والرحمة . قال الله تعالى :

﴿ ومن آياته أن خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجَعَلَ بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ الروم : ٢١.

فهذه الآية تنبه الرجل والمرأة إلى أن من أعظم دلائل قدرة الله وآيات

---

(١) انكحوا : زوجوا .

(٢) الأيامى : جمع ايم ، ويطلق على من ليس متزوجاً .

(٣) لا يجدون نكاحاً : أي عدم استطاعة التزوج .

كرمه أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن اليها ، والسكون النفسي المذكور في هذه الآية هو تعبير بليغ عن شعور الشوق والحب والرغبة الذي يشعر به كل منهما نحو الآخر ، والذي يزول به أعظم اضطراب فطري في القلب والعقل لا ترتاح النفس وتطمئن في سريرتها بدونه . كذلك من دلائل كرمه التي حدثتنا به الآية أنه جعل بين الزوجين مودة حب ورحمة عطف ثابتتين لا تبليان كما تبلى مودة غير الزوجين ممن ألفت بينهما الشهوات .

وجاء في القرآن : ﴿ هُنّ لباسٌ لكم وأنتم لباس لهن ﴾ البقرة : ١٨٧ .

فهذه الآية شبهت كلاً من الزوجين باللباس لأن كلاً منهما يستر الآخر . فحاجة كل منهما الى صاحبه كحاجته الى الملبس ، فإن يكن الملبس لستر معايب الجسم ولحفظه من عاديات الأذى وللتجمل والزينة فكل من الزوجين لصاحبه كذلك : يحفظ عليه شرفه ، ويصون عرضه ، ويوفر له راحته وصحته .

وسكون الزوج إلى زوجه أقوى دعائمه التناسب بينهما في التربية والاخلاق، وإلى هذا يشير القرآن : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ النور : ٢٦ .

فالقسم الأول من الآية معناه : أن الخبيثات من النساء لا يستأهلن من الازواج إلا الخبيثين ، فمن كرمت نفسه من الرجال وضنّ بمروءته عن مواطن الزلل والاثم فبعيد عليه أن يجنح إلى خبيثة ساقطة يتخذها زوجة له ، وكذلك الخبيثون من الرجال لا يستحقون إلا خبائث النساء ، فمن سمت بها العزة وامتزج بها الشمم تحاشت أن تجعل نفسها زوجاً لرجل ساقط المروءة وضيع النفس . فاذا امتنع كل ذي كرامة من الجانبين عن الاتصال بالخبيث تهيأ له أن يكون مع من يدانيه شرفاً وطهراً ويناسبه أدباً وخلقاً، وهذا ما ذكرته الآية: (والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) .

والسكون الدائم الذي يثمره التناسب في الاخلاق هو وليد التربية الدينية الصحيحة ، وفي هذا يقول النبي ﷺ : (تُنكح المرأة لاربع : لمالها ، ولحسبها ، وبجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك[1]) .[2]

---

(١) تربت يداك : دعاء بالفقر في أصل معناه ولكنه غير مقصود وإنما يجري على لسان العرب في مقام الحث والتحريض .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

فهذه أهم الاسباب التي يلتمسها الناس في الخطوبة ، والرسول ﷺ يقرّ الناس عليها ، غير أنه لما كان الدين عند الناس في الموضع الاخير أكد الرسول على الخاطب أن يفضل ذات الدين على غيرها ، وأن يلتفت الى الدين قبل سواه فيمن يريدها زوجة له ، وليس القصد من الدين أن تصلي المرأة أو تصوم – مثلاً – وكفى .. ولو كانت سيئة الطباع ، لا بل التي هذب الدين أخلاقها وحفظ عليها حياءها ، واستمدت من روحه وآدابه تربيتها .

واختيار الزوجات مقصور على النساء اللاتي أباح الاسلام الزواج منهن ، لا المحرّمات . قال الله تعالى :

﴿ حُرّمت عليكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتُكم وخالاتُكم وبَنَاتُ الأخ وبنات الاخت ، وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم[1] وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم[2] اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل[3] أبنائكم الذين مِنْ أصلابكم ، وأن تجمعوا بين الأختين إلاّ ما قد سلف[4] إن الله كان غفوراً رحيما ﴾ النساء : ٢٣ .

أصول الزّواج في الإسلام

والزواج في الاسلام عقد كسائر العقود لا يشترط فيه حضور رجال الدين ، ولا يشترط أن يقام باحتفال ديني كما يحدث في أكثر الأديان . فالاسلام يعتبر الزواج ميثاقاً عـُقد على أساس التفاهم المتبادل بين الطرفين الرجل والمرأة . وشرطه : الايجاب والقبول وحضور شاهدين . فلو ان خاطباً ومخطوبته[5]

---

(١) انفردت الشريعة الإسلامية من بين الشرائع القائمة بجعل الرضاع سبباً من أسباب التحريم وذلك لأن المرضع التي ترضع الولد إنما تغذيه بجزء من جسمها فتدخل أجزاؤها في تكوينه ويصبح جزءاً منه . وان الطب يثبت ذلك فان لبنها خلاصة من دمها ينبت لحم الطفل ويقوي عظمه ، وإذا كان الطفل جزءاً منها فهي كالأم النسبية محرمة الى الأبد ، وبعض من يتصل بها محرمات عليه كذلك .

(٢) ربائبكم : بنات زوجاتكم .

(٣) حلائل : جمع حليلة وهي الزوجة ، فقد حرم الله على الأب زوجة ابنه .

(٤) إلا ما قد سلف : أي ان ما حصل من جمع قبل التحريم لا تؤاخذون عليه ، وقد كان العرب في الجاهلية يجمعون بين الأختين .

(٥) الإمام ابوحنيفة قرر – معتمداً على بعض صحاح السنة – ان المرأة ان اختارت الكفء فليس =

أعلنا إرادتهما بتراضيهما في الاقتران أمام شاهدين معتبرين شرعاً ولم يكن ثمة مانع من زواجهما تم عقد الزواج بينهما سواء أكان ذلك أمام مأذون أو قاض أم لم يكن كأن يكون على يد موظف الحكومة المكلف بكتابة عقد الزواج . والزواج في هذا يعتبر صحيحاً من الوجهة الدينية .

والزواج في الاسلام يختلف عن القوانين الوضعية ، فهذه تجرد عقد الزواج من كل صفة دينية ، بينما الشريعة الاسلامية تعتبر الزواج من المسائل الدينية على معنى أنه يستمد قواعده من الدين ، وأن الدين يحض عليه ، وفي هذا يقول الرسول ﷺ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة[1] فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء[2])[3] .

ويتفرع عن الزواج أحكام كثيرة منها : عدم صحة زواج المسلمة بغير المسلم ، وعدم صحة زواج المسلم بالمشركة التي ليس لها كتاب سماوي ، وكذلك الرضاعة فإنها من اسباب التحريم بخلاف القوانين الوضعية فإنها تجيز ذلك كله .

الخطبة : ويسبق الزواج ؛ الخطبة وهي طلب الرجل امرأة معينة للتزوج بها ، والتقدم اليها وإلى ذويها ببيان حاله ومفاوضتهم في أمر العقد ومطالبه ومطالبهم بشأنه . والأفضل : أن يرى الخاطب مخطوبته ، وترى المخطوبة خاطبها حتى تأتلف القلوب وتتوادد ولا تندم بعد فوات الوقت :

« روي عن المغيرة بن شعبة انه خطب امرأة فقال له النبي ﷺ : انظر اليها فإنه احرى ان يؤدم[4] بينكما » .

كما يجب أن يحصل الولي على موافقة المخطوبة إذا كانت بالغة ، قال الرسول ﷺ : (الثيّب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تُستأمر وإذنها السكوت) .

= لولي معها شأن ، وان ذلك القول لم تصل إليه المرأة في الأمم الأوروبية إلا منذ سنين ، فالقانون الفرنسي لا يعطي الفتى أو الفتاة حرية الاختيار قبل الخامسة والعشرين للفتى والحادية والعشرين للفتاة ، فلا يجوز زواجها قبل هذه السن من غير رضى الولي .

(١) والمراد بالباءة : التكاليف اللازمة للزواج من إعداد البيت والقدرة على الإنفاق .

(٢) الوجاء مأخوذ من وجأ بمعنى قطع ، أي ان الصوم قاطع للشهوة لمن لم يستطع الزواج .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) يؤدم : أي تحصل الموافقة والملاءمة .

ولكل من الخاطب والمخطوبة العدول عن الخطبة، واذا عدل الخاطب عن خطبته أو ردت المخطوبة خاطبها ترد الهدايا كالحلي وغيرها إلى مهديها إن كانت قائمة ، أما إذا استهلكت كالاطعمة والعطور فلا يُرد بدلها شيء .

وفي عهد الخطبة لا يجوز للخاطب أن يخلو بمخطوبته ، وهو بالنسبة اليها كغيره من الاجانب، لأن الخطبة وعد بالزواج وليست بزواج .

الكفاءة : ويشترط كفاءة الرجل لمن يريد أن يتزوجها ، والكفاءة في اللغة تعني المساواة ، والكفاءة تكون في النسب والمال ، وشرف العلم فوق شرف النسب ، والكفاءة في المال : أن يكون قادراً على المهر والنفقة ، فالغنى ليس بشرط في الكفاءة بل مطلق القدرة على الانفاق هو الشرط المعتبر .

ومن حق الولي أن يطلب فسخ الزواج إذا تهاونت المرأة في شرط الكفاءة .

المهر : وأوجب الاسلام على الرجل عند الزواج أن يبذل للزوجة مهراً ، وقد سماه الله صدُقة، قال الله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدُقاتهن نِحْلة فإن طِبْنَ لكم عن شيء منه نَفْساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ النساء : ٤ . فقد كان العرب لا يحترمون حق ملكية الزوجات لمهورهنّ ، فوليها إذا قبض مهرها لا يعطيه لها، وإذا أعطاه لها تصرف فيه زوجها بدون إذنها، فقضى الاسلام على هذا وأمر بأن تؤتى الزوجات مهورهن ، وأكدت الآية بأن وصفت الاعطاء بأن يكون نحلة، أي عطاء عن طيب نفس، واعتقاد بأنه حقها ، وبأنه لا يباح لولي أو زوج أن ينتفع بشيء منه إلا إذا طابت نفس الزوجة ، وهذا شأن كل مالك محترم حقه في ماله . وبذلك قرّر القرآن للمرأة حق الملكية الصحيحة الخالصة من رقابة الزوج وهيمنته .

وقد صوّر بعض خصوم الاسلام المرأة المسلمة – فيما يتعلق بتشريع المهر – بالمرأة القابلة للبيع والشراء ، ولم يفهموا الحكمة من المهر بأنه نصيب الرجل في بناء الحياة البيتية ، وأن هذا الالتزام من جانبه وحده لما فرض له من قوامته على المرأة ولما فرض فيه – بحكم الطبيعة – من أنه المكافح في الحياة .

فالمرأة في اوروبا بحكم العرف عليها أن تؤسس لخاطبها بيت الاسرة المقبلة التي ستتكون منهما مبدئياً ، وهي التي أطلقوا عليها كلمة « دوطة » فكون المرأة تتحمل تأسيس الاسرة وهي دون الرجل في القدرة على المكافحة في الحياة ، قلب للوضع الطبيعي .

والمهر الذي أوجبه الاسلام لم تحدد قيمته ، ويختلف بقدرة الرجل المالية أو اتفاق الزوجين ، حتى أن رجلاً فقيراً شكا للرسول بأنه لا يملك قيمة المهر الذي جرت به العادة ، فقال له الرسول ﷺ : (التمس ولو خاتماً من حديد)[1].

ولا يتعين دفع كامل المهر حين العقد ، بل يجوز أن يكون مؤجلاً كله أو بعضه، أو مقسطاً لأوقات يتفق عليها العاقدان، وللزوجة الرشيدة بعد العقد أن تبرىء الزوج منه او من بعضه لأنه حقها .

أما العادة السارية الآن عند بعض المسلمين من اشتراط المهور الباهظة لبناتهم والتي سببت إحجام الشباب عن الزواج لعدم استطاعتهم تلبية تلك النفقات الباهظة التي لايستطيع تأديتها صاحب الدخل المحدود، فهي مما يخالف روح القرآن الذي ورد فيه : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ وقول النبي ﷺ : (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير) فقد ذكر النبي ﷺ الخلق والدين ولم يذكر المال ، ونبهنا إلى أننا إذا لم نفعل ذلك تكن فتنة في الارض وفساد كبير ، وهذا ما نشاهده اليوم بين الشباب الذين انغمسوا في المحرمات لعدم قدرتهم تلبية عادات المجتمع المخالفة لروح الاسلام .

المساواة بين الزوجين

الأسرة هي نواة المجتمع البشري ، وتقدّر سعادة البشر في الاحوال العادية بالسعادة التي ترفرف على الاسرة ، والاستقرار المنزلي دليل استقرار المجتمع ورقيــه .

ولما كانت الاسرة تتألف من الرجل والمرأة فانه يتوقف ـ على مقدار فهمهما الصحيح لمركزهما ولعلاقة كل منهما بالآخر ـ الاستقرار والهناءة .

وقد انقضى زمن طويل قبل ان يعرف المجتمع مركز المرأة الصحيح ، فقد كان الزواج عند كثير من الشعوب ضرباً من استرقاق الرجال للنساء ، اما القرآن فقد ساوى بين الزوجين في الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل ، جاء في القرآن :

---

(١) رواه البخاري .

﴿ وَلَـهُنَّ مِثْلُ الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ البقرة.

« هذه آية جليلة جمعت في ايجازها ما لايؤدى بالتفصيل إلا في سفر كبير ، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق . فهذه الآية تعطي الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشؤون والاحوال ، فإذا همّ بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر انه يجب عليه مثله بازائها ، وليس من العدل ان يتحكم احد الصنفين بالآخر ويتخذه عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحه لاسيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون إلاّ باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه »[1] .

وهذه الآية بعد أن اقرت المساواة بين الزوجين استثنت أمراً واحداً عبر عنه القرآن : (وللرجال عليهن درجة) وهذه الدرجة مفسرة بآية أخرى وردت في القرآن وهي : ﴿ الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم ﴾ النساء : ٣٤ .

« فحق القوامة مستمد من التفوق الطبيعي في استعداد الرجل ، ومستمد كذلك من نهوض الرجل بأعباء المجتمع ، وتكاليف الحياة البيتية . فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ، ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية ، لانها تنصرف عن هذا الكفاح قسراً في فترة الحمل والرضاعة . وهو الكفيل بتدبير معاشها ، وتوفير الوقت لها في المنزل لتربية الابناء وتيسير أسباب الراحة والطمأنينة البيتية »[2] .

هذا وإن المرأة تقضي أسبوعاً من كل شهر في حالة (اختلال في المزاج) بسبب العادة الشهرية . كما أن الحياة الزوجية هي حياة اجتماعية ولا بد لكل اجتماع من رئيس لأن المجتمعين لا بد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور ولا تقوم مصلحتهم إلا اذا كان هناك رئيس يرجع إلى رأيه في الخلاف لئلا يعمل كل ضد الآخر فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ، ويختل النظام ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة وأقدر على التنفيذ بقوته وماله »[3] .

---

(١) عن كتاب « نداء للجنس اللطيف » للشيخ رشيد رضا .
(٢) عن كتاب « الفلسفة القرآنية » للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٤٨ .
(٣) « نداء للجنس اللطيف » للشيخ رشيد رضا .

مُعَامَلة الزوجَات

تحض الشريعة الاسلامية على معاملة الزوجة معاملة طيبة حسنة . جاء في القرآن : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ النساء : ١٩ . وجاء أيضاً :

﴿ فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ البقرة : ٢٣١ .

وعلى الزوج أن يبسط كفه بالانفاق غير مسرف ولا مقتّر :

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مِمّا آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلاّ ما آتاها ﴾ الطلاق : ٧ .

وفي حالة تمرد المرأة يجوز للرجل أن يقوّم خطأ امرأته بما نصت عليه هذه الآية : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فَعِظُوهُنّ واهجروهُنّ في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾ النساء : ٣٤ .

فهذه الآية تنص على أن الرجل إذا آنس من المرأة ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية، فعليه أن يبدأ أولاً بالوعظ الذي يرى أنه يؤثر في نفسها ، والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة وحكمة الرجل ، حتى إذا لم ينفع الوعظ عمل بعقوبة الهجر في المضاجع .

والحكمة من الهجر في المضاجع : أنها عقوبة نفسية تمس المرأة في الصميم لاعلى أنها حرمان من لذة الجسد لبضعة أيام أو أسابيع . « فالمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبته بفتنتها ، وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها . فليكن له ما شاء من قوة ، فلها هي ما تشاء من سحر وفتنة ، وعزاؤها الأكبر عن ضعفها ان فتنتها لا تقاوم ... فإذا قاربت الرجل مضاجعة له وهي في أشد حالاتها إغراء بالفتنة ثم لم يُبال بها ولم يؤخذ بسحرها فما الذي يقع في وقرها ؟ يقع في وقرها أن تشك في صميم انوثتها، وأن ترى الرجل في أقدر حالاته جديراً بهيبتها واذعانها ... فهو مالك أمره إلى جانبها ، وهي إلى جانبه لاتملك شيئاً إلاّ ان تثوب إلى التسليم . فهذه العقوبة ابطال العصيان، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه[1] ..

(١) (الفلسفة القرآنية) للأستاذ عباس محمود العقاد ص ٦٨ — ٦٩ .

وليس معنى إباحة الضرب ــ إذا لم ينفع الوعظ والهجر في المضجع إباحته في كل حالة ومع كل امرأة ، فقد كان الرسول ﷺ ــ وهو أول المؤتمرين بأوامر القرآن ــ يكره الضرب ويعيبه ويقول في حديثه المأثور : (لن يضرب خياركم) ، ويقول : (أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره) ، كما أنه روي : أن الرسول لم يضرب زوجه قط .

والضرب اشترط فيه أن يكون خفيفاً غير مؤذ ، كما أن إباحته تحمل على حال الضرورة ، وحين لا يجد الزوج مفراً من هذا التأديب ، فيكون التأديب بالضرب حينئذ خيراً من التأديب بالطلاق ، لأن ضرر الضرب يقتصر أمره على المرأة ، أما ضرر الطلاق فيتعداها إلى أولادها ومن يؤذيهم طلاقها من أهلها .

(وإنما يباح الضرب لأن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره ... فهؤلاء النساء ــ الناشزات ــ لا يكرهنه ولا يسترذلنه . وليس من الضروري أن يَكُن من أولئك العصبيات المريضات اللاتي يشتهين الضرب كما يشتهي بعض المرضى ألوان العذاب)[١] .

المرأةُ المسلمة والحِجاب

أما مسألة الحجاب التي تعرض لها كثير من كتاب الغرب بالطعن فإن القرآن لم يتعرض لمعالجتها إلا بما يصون الأخلاق والاعراض ، فشهوات الجنس أخطر من كثير من الاضرار التي تُسن القوانين لمحاربتها بالحد من الحرية في في بعض الأحوال . وقد تعرض القرآن للحجاب في قوله تعالى :

﴿ قُلْ للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إنّ الله خَبيرٌ بما يصنعون . وقُل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهنّ ويحفظنَ فروجهن ولا يُبْدِين زينتهن إلّا ما ظَهَرَ منها ، ولْيَضْرِبن بخُمرهنّ على جُيُوبهن[٢] ولا يُبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو

---

(١) الفلسفة القرآنية ص ٦٨، ٦٩ .

(٢) وليضربن بخمرهن على جيوبهن : أي يلقين على صدورهن غطاء ليسترنها عن أعين الناظرين ، والجيب المقصود في الآية هو فتحة الثوب أو القميص الذي ترتديه المرأة .

ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أُولي الإرْبَةِ من الرجال[1] أو الطفل الذين لم يظهروا على عوْرَات النساء[2] ولا يضربْنَ بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾[3] النور: ٣٠، ٣١.

أمر الله المؤمنين والمؤمنات في هاتين الآيتين بالغض من البصر، وغض البصر هو خفضه وعدم إرساله فيما تأمر به الشهوة، وليس المراد أن يكون الإنسان مطرقاً رأسه فلا ينظر رجل إلى امرأة او العكس لأن هذا مما يشق بل لا يستطاع، ولذلك أمر الله بالغض منه، و(من) للتبعيض وهو يحصل بعدم استدامة النظر إلى ما يحرم وما يثير الشهوة.

والمراد بقوله تعالى: (ذلك ازكى لكم) أزكى تأتي بمعنى النماء، ويكون المعنى: أن غض البصر عن الشهوات ينمي مواهب الانسان، ويصرف نشاطه نحو الأعمال المفيدة التي تحقق أعظم النفع للأمة في المستقبل. ولا شك ان الذي يسترسل ببصره نحو الشهوات تصرفه عن معالي الأمور وتورطه في محاذير لا تُحمد عقباها.

كما أن (ازكى لكم) تأتي بمعنى أطهر، فعفة النظر وطهارته تؤدي الى عفة النفس وطهارتها.

ومعنى: (إلاّ ما ظهر منها) أي الوجه والكفين، فإنه يجوز كشفهما أمام الرجال وذلك عند أمن الفتنة، بخلاف الشعر فإنه لا يجوز كشفه. وعلى هذا ذهب كثير من فقهاء المسلمين.

فمذهب الحنفية والرأي الثاني للشافعي، والقول المفتى به عند المالكية: أنه يُباح للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في الطرقات وأمام الرجال الاجانب.

ويرى أصحاب هذا الرأي أن المراد بالآية: (ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها) نهي النساء عن إبداء شيء من أعضائهن إلاّ الاعضاء الظاهرة بعادتها، وهي الوجه والكفان، وقد قيدوا هذه الاباحة بحالة أمن الفتنة. أما إذا

---

(١) غير أولي الأربة من الرجال: هم الذين لا رغبة لهم في النساء كالشيوخ الهرمين وذوي العلة الطبيعية.

(٢) المراد بعدم ظهور الأطفال على العورات عدم فطنتهم لها.

(٣) ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن: هذا ما كان يفعله بعض نساء العرب في الجاهلية لتنبيه السامع الى ما في أرجلهن من الخلاخيل افتخاراً بها وتشويقاً إليهن.

كان كشف الوجه يثير الفتنة ويغري بالمرأة من لا خُلُقَ له ، فإنه يجب عليها ستره كما تستر بقية أعضائها (١) .

وتقول لجنة الفتوى التابعة لمشيخة الأزهر : « ولجنة الفتوى ترى — تمشياً مع القاعدتين الاسلاميتين العظيمتين (يسر الدين وسماحته ، وسد ذرائع الفساد) ترجيح الرأي القائل بأن وجه المرأة وكفيها ليست من العورة ، فلا جناح عليها أن تكشف شيئاً منها أمام الرجال الأجانب ، دفعاً للحرج والمشقة في معاملاتها العامة والخاصة ، وأنه إذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدنها سداً لذريعة الفساد » .

« واللجنة تقرر في الوقت نفسه أن كشف الوجه واليدين مزينة بالأصباغ المعروفة نوع من التبرج الذي يمقته الشرع ويشدد النكير عليه ، وأن الكشف المباح إنما هو للوجه واليدين على طبيعتها التي خلقها الله عليها ، خالية من أصباغ وألوان ، وهي تناشد المسلمين ، حرصاً على سعادتهم ، أن يهيمنوا بهذا الأدب الاسلامي الكريم على نسائهم وفتياتهم ويشعروهن بأن مخالفة هذا الأدب توجب غضب الله وسخطه ، فضلاً عن أنها تدهور كيان الاسرة الخلقي »(٢) .

وخلاصة ما تقدم : أن القرآن نهى المرأة أن تخرج بزينة جسدها لتتصدى للغواية بين الغرباء ، وهي في حل بعد ذلك أن تلقى من تشاء ممن تجمعها بهم مجالس الاسرة من الرجال الذين نصت عليهم الآية ولا يحلّون لها ولا يتأثرون بفتنتها .

ولعل البعض يُدرك حكمة القرآن في النهي عن التبرج ، وإن اخطار الشهوات الجنسية شيء يجب أن يتعرض لها الدين بالعلاج . والقرآن كما رأينا وصف انجع علاج لذلك .

---

(١) أما ما استحدثه المسلمون من المبالغة في حجب النساء فهو من باب سد ذريعة الفساد ، فالسفور معترف به ، فقد أجمع المسلمون على شرعية صلاة النساء وراء الرجال في المساجد مكشوفات الوجوه والأكف ، وأجمعوا على جواز إحرام النساء بالحج والعمرة والطواف بالبيت الحرام بمكة والوقوف بعرفة مكشوفات الوجوه والأكف أيضاً ، وقد كن يفعلن كذلك على مشهد من الرجال في عهد النبي وخلفائه الراشدين .

(٢) المجلد الثاني عشر من مجلة الأزهر ص ١٢٠ .

تعدد الزوجات

صدرت كتابات كثيرة في أوروبا من المستشرقين والاجتماعيين في مسألة تعدد الزوجات في الاسلام وكلها ترمي إلى استهجان هذه العادة، وتنصح المسلمين بضرورة الاقلاع عنها، بل وإن منهم من علق ارتقاء المسلمين من الناحية الاجتماعية على إلغائها.

والحق أن تعدّد الزوجات لم يوجده الاسلام بل كان موجوداً عند أغلب الشرائع، وكان العرب في جاهليتهم من أكثر الأمم تعدداً للزوجات، فرأى الاسلام أن يتوسّط في الأمر فجعل للتعدد حداً لا يتعداه، وأحاطه بشروط تنفي ما ينجم عنه من أضرار، كما سنبينه فيما بعد.

التعدد لحماية المرأة

والاسلام أباح تعدد الزوجات ولم يفرضه كما يتبادر إلى أذهان المتكلمين في هذا الموضوع من الغربيين، فقد يخيل إليك وأنت تسمع بعضهم يتكلم في موضوع الزواج الاسلامي أن الاسلام قد أوجب تعدد الزوجات على كل مسلم، واستنكر منه أن يقنع بزوجة واحدة مدى الحياة.

أقرّ الاسلام مبدأ التعدد لأنه يرمي إلى هدف بعيد الغور في الاصلاح الاجتماعي لا يدركه إلّا نافذو البصر في العالم، وهو أنه علم أن من الرجال من لا يمكن أن يردعهم عن المضي في شهواتهم رادع فأباح لهم التعدّد لا ليجد هؤلاء مخرجاً من الحرج فقط ولكن ليحمي المرأة من شرٍّ مستطير معرضة له. نعم: لأن أمثال أولئك الرجال في البيئات الغربية حيث لايسمح بتعدد الزوجات يتخذون صاحبات أو خليلات، وهؤلاء لا يخرجن عن طبقة المتجرات بأجسادهن المحرومات من جميع الحقوق الزوجية، وهن في الواقع زوجات غير قانونيات.

إن الغبن الذي يقع على المرأة من ناحية هذا الارتباط العرفي لا يقف عند حد، لأنها تكون عرضة في أي وقت للطرد دون أن يكون لها الحق في نسبة اولادها إلى الرجل ان كان لها منه أولاد. فغاية الاسلام حماية المرأة من الوقوع في حالة بؤس تتجرد فيها من جميع الضمانات الاجتماعية، وتبرز في عداد النسوة

الساقطات ، فهو يريد أن تُعامل المرأة في جميع الأحوال باعتبارها زوجة شرعية ذات حقوق . فأي الأمرين أجدى للمرأة وأحفظ لكرامتها هل في أن تصبح زوجة ثانية لرجل تستطيع أن تطالبه بنفقتها ونفقة أولادها ، وترثه إذا مات ويرث أولادها منه ، أو أن تصبح في عداد المبتذلات لا حق لها من صاحبها ولا ترثه هي ولا أولادها منه، ويصبحون في حالة من البؤس يصيرون فيها عالة على الناس ؟

المبرّرات العلميّة لتعدّد الزّوجات

والمبرّرات العلمية لتعدد الزوجات كثيرة ترجع إلى خصائص الطبيعة أو إلى ضرورات المعيشة الاجتماعية ، فالخصائص الطبيعية لتعدد الزوجات تدل على ذلك، فقد ظهر من احصاءات الأمم أن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أوقات السلم فضلاً عن أوقات الحرب .

فعدد النساء في معظم دول أوروبا التي اندلعت فيها الحرب يفوق عدد الرجال، ولا تزال الحروب المروعة التي يظهر أنها أصبحت جزءاً من الحياة العادية في أوروبا تعمل على اضطراد زيادة هذا العدد ، وكيفية معاملة هذا الحشد المتزايد من النساء أصبحت السؤال الذي يشغل باب الأخلاقيين في أوروبا، فالطبيعة البشرية تصرخ في طلب حاجاتها، فإذا لم توضع الحلول في الوقت المناسب فستنتشر شرور الدعارة التي أصبحت الآن لطخة سوداء في جبين المرأة الأوروبيـــة .

والمبررات التي تفرضها ضرورات المعيشة الاجتماعية هي : انها قد تُصاب المرأة بمرض عضال، أو بعقم، أو تذهب عنها جميع المغريات الحسية والنفسية، أو يرى الرجل أن المرأة الواحدة لا تكفي لإحصانه لأن مزاجه يدفعه إلى كثرة الافضاء ، ومزاجها بالعكس ، أو يكون زمن حيضها طويلاً ينتهي إلى عشرة أيام في الشهر ، فلو لم يبح له الاسلام التعدد لاقترف ما ينافي الدين أو اختار الطلاق . وإن الطلاق يضير المرأة في هذه الحالات أضعاف ما تضيرها المشاركة في زوجها .

أحكام الإسلام في تعدد الزوجات

ذكرنا فيما سبق أن تعدّد الزوجات كان فاشياً في جزيرة العرب قبل الاسلام .

ونزيد أن كثيراً من العرب الذين أسلموا كان في عصمة الواحد منهم عدة زوجات، ومنهم من أسلم وفي عصمته عشر نسوة . ولما جاء الاسلام لم يبطله ولكن عدّله وهذّبه ، فبعد أن كانت الاباحة مطلقة قيّدها الاسلام كماً وكيفاً، قيّدها كما بتحديده أقصى عدد يباح من الزوجات ، وقيدها كيفاً باشتراطه لهذه الإباحة الأمن من الظلم ، وهذا ما ورد في القرآن :

﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع [1] فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدةً أو ماملكت أيمانكم: ذلك أدنى ألاّ تعولوا[2] ﴾ النساء: ٣.

والمعنى : تزوجوا ممّن أحل لكم من النساء ما تستطيبه نفوسكم من الواحدة حتى الأربع ، ولا تزيدوا على هذا ، فإن خفتم أن لا تعدلوا إذا تزوجتم أكثر من واحدة فاكتفوا بواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم من الرقيقات ، ذلك النظام أقرب النظم إلى أن لا يكون منكم ظلم لزوجاتكم ولا لمن تعولونهم ممن تجب عليكم نفقتهم والقيام بحقوقهم .

فالآية القرآنية أباحت التعدد ، ولكن شرطت لهذه الاباحة : العدل بين الزوجات ، والامن من الظلم ، ومعنى العدل : المساواة ، والمقصود المساواة في المعاملة الظاهرة ، أي في الانفاق والاسكان والمبيت وحسن المعاشرة ، والقيام بواجبات الزوجية .

كما أن الآية اشترطت لإباحة التعدد : الأمن من الظلم . ولم تقيد الظلم الذي يخاف بأي قيد ، فيشمل ما إذا خاف الزوج ظلماً على زوجته أو على أقاربه أو على نفسه ويشمل الظلم : الانفاق والاسكان وحسن المعاشرة ، وكل ما يخاف عدم المساواة فيه .

---

(١) قوله تعالى مثنى وثلاث ورباع : يفهم منه التحديد بما لا يزيد على أربع ، لأنه يروى : أن غيلان أسلم وفي عصمته عشر نسوة أسلمن معه ، فقال له الرسول : « اختر منهن اربعاً وفارق سائرهن » .

(٢) ذلك أدنى ألاّ تعولوا : اي ذلك النظام أقرب إلى أن لا تظلموا – من العول – وهو الزيادة ومجاوزة الحد ، وفسر الشافعي كلمة « ألا تعولوا » بأن لا تكثر عيالكم .

ومما يجب لفت النظر اليه في الآية القرآنية التي أباحت التعدد: أنها جعلت إيجاب الاقتصار على زوجة واحدة معلقاً على خوف الظلم لا على تيقنه أو ترجيحه : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) ، ومن هذا يتبين لنا بوضوح وبدون تعسف في التأويل أن النص القرآني ضيّق دائرة إباحة التعدد أشد تضييق، لأنه جعل مجرد الخوف من الظلم محرماً للتعدد وموجباً للاقتصار على زوجة واحدة . ألا فليدرك ذلك كل من يرمي الاسلام بتهم هو منها براء .

وقد كان الرسول ﷺ وبعض الصحابة يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهن مؤتمرين بوصيّة الرسول : (من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل)[1] .

والعدل المطلوب هو العدل الظاهر، وليس في المحبة القلبية، فإن ذلك لا يستطيعه أحد . وكان الرسول لا يسوّي بين أزواجه في المحبة القلبية . رُوي عن عائشة زوج النبي أنها قالت : (كان رسول الله يقسم فيعدل ، ويقول : اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[2] يعني النبي ﷺ بذلك المحبة وود القلب ، وهذا الميل القلبي الذي أشار إليه القرآن :

﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين الناس ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة ﴾ النساء : ١٢٩ .

فإن العدل المنفي في هذه الآية هو العدل القلبي ولذلك لم يطلبه الله ، ودلّ على أنه لم يطلبه بقوله : (ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فقد أجاز ألاّ يكون، ولكن طلب من الزوج ألا يفرط ويميل لإحداهن كل الميل فيذر الأخرى كالمعلقة: أي التي لا هي زوجة ولا هي مطلقة، مهملة من العطف والمحبـــة .

هذا ولم يغفل الإسلام عن مشاكل تعدد الزوجات وبالذات ما يوقظه من غيرة في المرأة ، ومن ثُمّ احتاط فحرم الجمع بين الأختين ، وبين المرأة وابنتها ، وبين المرأة وعمتها أو خالتها وذلك حتى يحفظ للأسرة مودتها .

---

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه ابو داود والترمذي والنسائي .

هذا وإن الشخص هو وحده هو المرجع في تقدير خوفه من عدم العدل عند الإقدام على تعدد الزوجات. والخوف الناشيء آنذاك هو حالة وجدانية يشعر بها المرء إذا تدبر أمره وأدرك مدى قدرته المادية والجسمية وظروف حياته، هنا يستطيع الحكم على نفسه وتقدير أمره تقديراً صحيحاً فيخاف إن علم قصوراً أو ظلماً فيقلع حينئذ عن تعدد الزوجات.

وقد ناقش مجمع البحوث الإسلامية في مؤتمره الثاني المنعقد بالقاهرة ما يثار حول إباحة تعدد الزوجات أو تحريمه وما يقال حول تقييد تعدد الزوجات بإذن القاضي أو تقييده قضائياً بالقدرة على الإنفاق أو باستطاعة العدل بين الزوجات وأصدر قراراً ينص على أنه : « بشأن تعدد الزوجات يقرر المؤتمر أن تعدد الزوجات مباح بصريح نصوص القرآن الكريم بالقيود الواردة فيه، وأن ممارسة هذا الحق متروكة إلى تقدير الزوج، ولا يحتاج إلى إذن القاضي » .

الطلاق وأحكامه

الطلاق في الفقه الاسلامي رفع قيد النكاح في الحال والاستقبال بعبارة تفيد ذلك صريحاً : — كأنت طالق — وكناية كقوله : — أنت علي حرام — أو من القاضي بناء على طلب الزوجة .

والحكمة من الطلاق في الشرائع التي تبيحه للضرورة هي : عدم تعطيل النسل المرغوب فيه ، فقد تكون المرأة عقيماً لا تلد ، والرجل فقيراً لا قدرة له على الجمع بين زوجتين وهو في الوقت نفسه يرغب في الولد ليعينه في شيخوخته ، ويحفظ له اسمه بعد موته ، هذا إذا كان الزوج يدين بشريعة تبيح له تعدد الزوجات .

كما أن من حكمة الطلاق : رفع الحرج عن الزوجين ، لأن أحدهما قد يتصف بسوء في خلقه أو فساد في تربيته أو ضعف في دينه ، أو يكون بينهما تخالف في الطباع وتضاد في المقاصد فتتنافر القلوب ، أو ينعدم التآلف . والاسرة إذا لم تقم على المحبة أو تُدعم بالموافقة ، تداعت أركانها وانهار بناؤها .

ولهذا نرى كثيراً من الدول الاوروبية والاميركية اضطرت اخيراً الى تبني

ما كانت تنكره سابقاً على الاسلام ، فقد اقرت الزواج المدني الذي يحتوي على الطلاق ، وجعلته شرعة ثابتة في قانونها الشخصي وأصلاً من أصول مدنيتها الحديثة ، وان خالف ذلك اصول دينها .

ثم إن الطلاق ليس بدعاً في الشرائع بل هو عريق في الأمم القديمة ، وقد كان الرجل يستعمله بمطلق حريته ، وليس للمرأة أن تطلبه بحال من الأحوال . وظل الأمر كذلك إلى عهد الدولة الرومانية حيث اصبحت الروابط جد واهية والطلاق فاشياً ، وعلى ذلك جرت القوانين العبرية القديمة والأثينية .

ثم لما جاءت الديانة الموسوية حسنت من أحوال الزوجة ولكنها أباحت الطلاق لسبب من ثلاثة : الزنا ، والعقم . وعيب الخُلق أو الخَلق .

أما المسيحية فالرأي الغالب بين رجال الكنيسة هو : أن الطلاق — حتى في حالة الزنا — محرّم ، فيجب على الزوج إعادة زوجته الخاطئة متى ندمت وتابت عن ذنبها . ولكن للزوج الحق بل واجب عليه أن يبتعد عن التي تصرّ على خطئها ، كما أنه ليس له الحق في التزوج ، فزنا الزوجة يؤدي إلى الانفصال الجسماني إذا ادعاه الزوج وليس الأمر كذلك بالنسبة لزنا الزوج .

فالانفصال الجسماني لا يفصم عرى الزوجية وإنما يؤدي فقط إلى إعفاء الزوجين من واجبات الزوجية ، ومع ذلك فقوامة الزوج على زوجته تبقى ولا تزول .

فالتفريق الجسدي الذي وضع أسسه رجال الكنيسة لا يختلف عن الطلاق إلا بمسألة عدم تلاشي الزواج اسماً ، لكن الزواج في الحقيقة قد تلاشى فعلاً . فالزوجان يعيشان متباعدين ولم يبقَ بين الزوجين من أحكام الزواج إلا أمران : وجوب النفقة عند الحاجة ووجوب المحافظة على عفتهما . زد على ذلك : أن قيام الزواج اسماً يمنعهما من الزواج ثانية ، ويكونان كما قال المسيو بلانيول[1] : « قد ضحيا ببقائهما دون ما أمل ، ويجدان أنفسهما قد حكم عليهما بالعزوبة الاجبارية » . وقال أيضاً : « إن في أغلب الأوقات يكون الباعث على استحالة بقاء الحياة هو زنا أحد الزوجين أو زنا الاثنين معاً ، فهل يظن إذا فرق بينهما أن يتخليا عن علاقتهما غير المشروعة ؟ ثم ما هو المركز الاجتماعي للمرأة

---

(١) بلانيول : القانون المدني الإفرنسي جـ ١ ص ٣٦٧ .

المهجورة ؟ وما هو مركز الزوج إذا كانت المرأة تعبث بشرفه حاملة ومجررة اسمه واسم أولاده في كل مكان ، ومعجزة إياه بطلب الدراهم ، أو مهددة إياه بفضائح جديدة ؟ » . ثم قال : « إن التفريق الجسدي لا يزيل داء إلا ويستبدله بداء آخر ، فإنه لا يوجد البتة صبغة حياة زوجية بين زوجين مكرهين على أن يعيشا معاً ، ولكن يوجد فضائح علنية تحمل الزوج الآخر على اليأس ، حتى أن الزوجين بعد التفريق الجسدي يمكنهما أن يقترفا المساوىء أكثر من ذي قبل » .

روح الطلاق في الاسلام

وقد أباح الاسلام الطلاق مع ذمه والتنفير منه . فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : (أبغض الحلال الى الله الطلاق)[1] .

وليس الطلاق كما يظن البعض أن للزوج المسلم أن يطلق زوجته تبعاً لهوى النفس ، فهذا تشويه لشرعة الطلاق في الاسلام .

فالقرآن يشير الى عدة أسباب تجعل الطلاق ضرورة ولكنه لا يحصيها ، ولا يحصرها في حوادث معينة ، والأمم الغربية التي أقرت الطلاق لم تتفق على أسباب الطلاق، فكيف يستطاع في دين عام كالاسلام جاء لعصور مختلفة وأمم متباينة في الرأي والحضارة أن يحصر أسباب الطلاق التي تتبدل وتتغير حسب الأزمنة والامكنة وطبيعة البشر ؟

وبواعث الطلاق الواردة في القرآن هي : رغبة الزوجين الحقيقية في الانفصال وعدم المعاشرة ، والقرآن لا يعني أن كل خلاف ينبعث عنه الطلاق . وإنما الذي يعنيه هو دوام الشقاق الذي تستحيل معه العشرة الزوجية ، وقد سمى الله هذا الخلاف ــ شقاقاً ــ ومعنى الشقاق : الانقسام إلى شقين :

﴿ وإن خِفتُم شِقَاقَ بينهما فابعثوا حَكَماً مِنْ أهله وحَكَماً مِنْ أهلها إن يُريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما ﴾ النساء : ٣٥ .

ففي هذه الآية ساوى القرآن بين الرجل والمرأة في هذا الشأن ، فلفظ (شقاق بينهما) يعني أن كلاً من الزوجين يحق له أن يطلب فسخ الحياة

---

(١) رواه ابو داود وابن ماجة .

الزوجية ، ويعني ايضاً استحالة معاشرة أحد الزوجين للآخر ، كأن يكون الشقاق من سوء سيرة أحدهما ، أو يكونا متنافرين في الطباع .

ثم إنه في حالة الشقاق نفسه لا يجوز فصم عرى الزوجية مباشرة بل لا بُدّ أولاً من القيام باصلاح ما بين الزوجين ، واجراء التحكيم قبل الطلاق بإرسال حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة ، ليتروى كل من الزوجين ويجدا فرصة للصلح ورجوعهما عن رأيهما كما نصت الآية السالفة الذكر : ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وَحَكَماً مِنْ أهلها إن يُريدا إصْلاحاً يوفّق الله بينهما ﴾

فالآية تشعرك بأن على الحكمين أن لايدخرا جهدهما ووسعهما في الاصلاح ، ومن روعة الآية أيضاً أنها لم تذكر التفريق عند عدم التوفيق بل اكتفت بذكر أن الحكمين إذا كانت نيتهما منصرفة الى الجمع بين الزوجين فإن الله يمهّد لهما أسباب التوفيق .

إذن لا يكون الطلاق إلا عند استحكام النفرة بين الزوجين ، ولكن من الذي يملكه ؟ أيملكه القاضي ؟ أم يملكه أحدهما منفرداً ؟ ام الزوجان معاً ؟

الطلاق من حق الزوج

جعل الاسلام الطلاق بيد الزوج ولم يجعله في يد القاضي إلا إذا كان بطلب المرأة ، ولكن قد يقول القائل : « إن الطريقة المثلى إذا كان الزوجان غير متفقين في أمر الطلاق أن يكون بيد القاضي ليس لاحدهما أن ينفرد به ، لأن القاضي ناظر غير متحيز ، ولان العقد الذي ينشىء حقوقاً لازمة لا تبطله الارادة المنفردة ، ولأنه لو جعل بيد أحدهما لانفصم العقد بنوبة غضب عارضة فإذا جاء الندم كان في غير وقته . وإن لذلك مكاناً من الفكر ، قد أخذت به شرائع ، ولكنه لا يستقيم إلا إذا كانت أمور النفوس وخفايا القلوب يمكن أن تثبت بالدليل الظاهري لأن القاضي لا يقضي إلا بما تثبته الامارات والبينات ، ثم إن القضاء إنما ينظر فيما هو حق أو ظلم ليقرّ الحق ويمنع الظلم ، والمسألة في الحياة الزوجية ليست مسألة ظالم ومظلوم ، وإنما هي صلاحيتها للبقاء بامكان استمرار المودة ، أو عدم صلاحيتها . فمثلاً إذا تقدم الزوج طالباً الطلاق لأنه أصبح يبغض زوجته ، وأن حبل المودة قد تقطع بينهما ، وأنه حاول إصلاح الأمر — فلم يفلح — أفيطلق القاضي أم لا يطلق ، لا شك أن الطلاق في هذه الحال

أمر لا بد منه ، ولكن ما الفرق بين إيقاع القاضي الطلاق وإيقاعه هو ، وإذا كان سبب الطلاق أمراً غير الحب والبغض فهل من المصلحة الاجتماعية أن تنشر دخائل الأسر في دور القضاء ، وتسجل في سجلاته ، ومنها ما لا يسوغ إعلانه .. »[1] .

حق المرأة في الطلاق

أما المرأة فلم يسوغ لها الطلاق إلاّ بواسطة القاضي ، وحكمة ذلك : أن المرأة تحكمها العاطفة ، والعاطفة إذا سيطرت على الأمور الخطيرة قد تضر ولا تنفع ، والطلاق من أخطر الأمور ، وقد لوحظ أن النساء اللواتي يعطين حق طلاق انفسهن يُسئن استخدام هذا الحق، ويطلقن انفسهن لأتفه الأمور ، وإن الرجل بما انفق في سبيل الزواج من مال وبما أُلقي عليه من تبعات، وبما له من حرص على أولاده الذين ينتسبون اليه، وبما يعقبه الطلاق من عواقب ليفكر ويقدّر قبل أن يقدم عليه، فلا يندفع إلا إذا رجحت لديه عوامل الانفصال، ولو أننا جعلنا الطلاق بيد المرأة لكان في ذلك ظلم للرجل بضياع ما أنفق في سبيل هذا الزواج من نفقات مالية وإنها لكثيرة . فلم يكن للمرأة حق طلب الطلاق إلاّ من طريق القاضي على شرط أن يقبل الزوج ، وتعوّضه الزوجة بعض خسارته أو كلها ــ تلك الخسارة التي تلحق بالرجل من جراء الطلاق ــ وهذه العملية تسمى «الخلع» : (رُوي أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي فقالت : يا رسول الله : ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر[2] في الاسلام ، فقال رسول الله : أتردّين عليه حديقته ــ حديقة كان قد قدمها الزوج مهراً لها ــ فقالت : نعم ، فقال رسول الله : إقبل الحديقة وطلقها تطليقة)[3] .

ولكن هناك سؤالاً يتبادر الى الذهن : إذا لم يرد الزوج أن يطلق زوجته فهل تستطيع المرأة أن تطلب من المحكمة الطلاق كحق لها فيما إذا كان لديها سبب شرعي ؟

---

(١) (الأحوال الشخصية) قسم الزواج . للعلامة محمد ابو زهرة ، الطبعة ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) المقصود بالكفر هنا كفران العشير والتقصير فيما يجب له بسبب شدة البغض .
(٣) رواه البخاري .

الجواب على ذلك : ان الاسلام سوّغ للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها إذا كان عاجزاً عن النفقة ، وهذا ما ذهب اليه الامام مالك وأصحابه مستدلين بقول الرسول ﷺ : (امرأتك ممن تعول ، تقول أطعمني وإلا فارقني) ..

ومن الأسباب أيضاً التي تسوغ للمرأة طلب التطليق : إذا وجدت بالزوج عيباً مستحكماً لا يمكن البرء منه ، أو يمكن ولكن بعد زمن طويل ، ولا تقبل المقام معه : كالجنون والجذام والبرص .

وكذلك يسوغ للمرأة طلب الطلاق : إذا غاب الزوج سنة فأكثر — كما جاء في (المدونة) في المذهب المالكي — فيكتب للزوج الغائب إن كانت تبلغه الكتابة : إما أن يقدم ، أو ينقل زوجته اليه ، أو تطلق عليه ، فإن امتنع عن ذلك ضرب له أجل ، فإذا انقضى الأجل فرّق القاضي بينهما ، فإن لم تبلغه المكاتبة طلق عليه لتضررها بترك العشرة الزوجية . أما اذا ارتضت الزوجة إبقاء عقدة الزواج رغم هذه الاسباب فإن الزواج يبقى مستمراً .

حوافظ تمنع الطلاق

جعل الاسلام الطلاق بيد الزوج ولم يجعله من حق القاضي إلا بطلب المرأة للاسباب التي ذكرناها ، ولكن بالرغم من هذا أوصى الرجال بأن يعاشروا زوجاتهم بالمعروف والصبر على ما يكرهون منهن ، وأن لا يتسارعوا في الطلاق لأتفه الاسباب . قال الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وَيَجْعَلَ الله فيه خيراً كثيراً ﴾ النساء : ١٩ .

كما أن الاسلام نهى الرجال عن إيقاع الطلاق في الحيض ، لأن الرغبة الجنسية تكون منقطعة بين الزوجين . روي عن ابن عمر : أنه طلق امرأته وهي حائض في عهد رسول الله، فسأل عمر رسول الله عن ذلك فقال : (مُره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدّة التي أمر الله أن يطلق لها النساء)[١] .

والحكمة من ذلك : أن التطليق في الطهر تطليق في وقت تكون النفس راغبة تائقة إذا كان أصل المحبة ثابتاً ، فإذا طلق مع ذلك كان دليلاً على استحكام النفرة .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

الإشهاد على الطلاق: ذهب جمهور الفقهاء من السلف والخلف إلى أن الطلاق يقع بدون الشهود لأن الطلاق من حق الرجل ولا يحتاج إلى بيّنة كي يباشر حقه، ولم يرد عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ما يدل على مشروعية الإشهاد، وخالف في ذلك فقهاء الشيعة الإمامية فقالوا إن الاشهاد شرط في صحة الطلاق واستدلوا بقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿واشهدوا ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله﴾.

أقسام الطلاق

يقسم الطلاق إلى ثلاثة أقسام. أولاً: الطلاق الرجعي. ثانياً: الطلاق البائن بينونة صغرى، ثالثاً: الطلاق البائن بينونة كبرى.

الطلاق الرجعي

فالطلاق الرجعي هو الطلاق الذي يجيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بدون عقد ومهر جديدين.. فالطلاق الرجعي لا يزيل الزوجية، فللزوج أن يراجع زوجته في أي وقت شاء ما دامت العدة قائمة. والعدة هي مدة من الزمن جعلت لانقضاء ما بقي من آثار الزواج، فإذا حصلت الفرقة بين الرجل وزوجته لا تنفصم عرى الزوجية من كل الوجوه بمجرد وقوع الفرقة، بل تنتظر المرأة ولا تتزوج غيره حتّى تنتهي تلك المدة التي قدرها الاسلام بزمن محدود والتي سنفصلها فيما بعد.

والطلاق الرجعي لم يبتدعه الاسلام، فقد كان للعرب في الجاهلية طلاق ومراجعة في العدة، ولم يكن للطلاق حد ولا عدد، فكانت المرأة ألعوبة بيد الرجل يضارها بالطلاق ما شاء أن يضارها إلى أن جاء الاسلام فجعل الطلاق مرتين. جاء في القرآن: ﴿الطلاق مرّتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾[1] البقرة: ٢٢٩.

---

(١) كان سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الترمذي والحاكم عن عائشة قالت: كان الرجل يطلق امرأته ما شاء ان يطلقها، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة وإن طلقها مئة مرة واكثر حتى قال رجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فكلما همت مدتك أن تنقضي راجعتك. فذهبت المرأة فأخبرت النبي (ص) فسكت حتى نزل الوحي «الطلاق مرتان».

والمراد بالطلاق في هذه الآية هو الطلاق الرجعي ، وهو الطلاق الذي يوقعه الزوج على زوجته التي دخل بها ولم يكن مسبوقاً بطلقة أصلاً ، أو كان مسبوقاً بطلقة واحدة .

والطلاق لا يرفع قيد الزوجية فيحل للزوج معاشرة زوجته ما دامت في العدة ، ويبطل عمله هذا حكم الطلاق .

واذا مات احد الزوجين قبل انقضاء العدة ، ورثه الآخر ونفقتها واجبة عليه ، ولا يحل مؤجل المهر إلا بانقضاء العدة .

وللزوج الحق في إرجاع زوجته ما دامت مطلقة رجعياً في العدة اما بالفعل كالمعاشرة الزوجية ، أو بالقول كأن يقول لها : ارجعتك الى ذمتي ، قال الله تعالى : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ البقرة : ٢٢٨ .

فإذا انقضت العدة ولم يراجعها في أثنائها ثبت الطلاق (طلقة بائنة) ، ولا تصح مراجعتها بل لا بد من عقد زواج جديد يستلزم رضاها ، كما يحتاج هذا العقد إلى مهرٍ جديد .

وفي قوله تعالى : (الطلاق مرتان) ولم يقل ــ طلقتان ــ إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرّة بعد مرة لا طلقتين دفعة واحدة ، كما أن الطلاق المقترن بالعدد لفظاً ينبغي بمقتضى نص الآية ألا يقع إلّا واحدة .

فكل طلاق في المرحلة الأولى والثانية هو تجربة لفراق مؤقت مع منح الفرصة لارجاع العلاقات الزوجية وذلك بتركه الزوجين يعيشان معاً تحت سقف واحد ، فإن عدل أو ندم الزوج على طلاقه أرجعها .

الطلاق البائن ببينونة صغرى

وهو الطلاق الذي يرفع الزواج في الحال ، فحقوق الزوج على زوجته تنقطع بمجرد وقوعه ، وإن أراد أن يستأنف معها حياة زوجية فإنما يكون بعقد ومهر جديدين ، هذا إذا لم يكمل الطلقات الثلاث .

والطلاق البائن بينونة صغرى يحصل في أربعة أحوال :

أولاً : الطلاق (قبل الدخول) ، ويجب فيه نصف المهر ، ولا عدة فيه .

ثانياً : الطلاق على مال (بعد الدخول) ، وهو : أن تعطي الزوجة

زوجها المهر الذي دفعه أو بعضه أو مالاً جديداً ليطلقها ، أو تبرئه من نفقة العدة أو مؤخر الصداق ، وفي هذه الحالات تجب عليها العدة .

ثالثاً : الطلاق للعيب أو للسجن أو للضرر بسبب الغيبة ، وهذا النوع لا يكون إلا بقضاء القاضي ، وهذا الطلاق تجب فيه العدة على المرأة . ويجب المهر إن حكم به القاضي .

رابعاً : إذا انقضت العدة في الطلاق الرجعي ؛ ويثبت بذلك مؤخر الصداق .

والطلاق البائن يحل به مؤخر الصداق إذا كان مؤجلاً ، ويمنع التوارث إلاّ إذا اعتبر الزوج فاراً من الميراث بأن كان مريضاً مرض الموت وطلقها في مرضه من غير رضاها فإنها ترثه إذا حصل الموت أثناء العدة .

الطلاق البائن بينونة كبرى

وهو الطلاق الذي يستكمل فيه المطلق الطلقات الثلاث ، فتنقطع بذلك جميع الصلات التي كانت بينه وبين زوجته ، ولا يحلّ له أن يعقد عليها عقداً آخر إلا اذا تزوجت زوجاً آخر بعد انتهاء عدتّها من الأول زواجاً مقصوداً لذاته لا بقصد التحليل . ويدخل بها ثم يطلقها وتنتهي عدتّها ، فإنها تحل حينئذ للزوج الأول . والأصل في ذلك قوله تعالى :

﴿ فإن طلّقها فلا تحلّ له من بَعْدُ حتى تَنْكِحَ زوجاً غيره ، فإن طلّقها فلا جُنَاحَ عليهما أن يتراجعا ، إن ظنّا أن يقيما حدود الله ﴾

والزواج الثاني يعتبر لاغياً إذا قصد به تحليل الزوجة للزوج الأول . وحكمة هذا الطلاق أن الاسلام منح الزوجين الحق في أن يعيدا العلاقات الزوجية بعد الطلاق الأول أثناء العدة وبعد انتهائها ليعودا للحياة الزوجية ، كما أنه منح الزوجين الحق نفسه بعد الطلاق الثاني ، ولكن حرم عليهما العودة بعد الطلقة الثالثة ، وبيان ذلك : أن على الزوج بعد استرجاع زوجته عقب الطلاق الثاني أن يبت بأمره إما باختيار المعيشة الزوجية طول الحياة أو بالانفصال التام ، هذا كما أنه يمكنه استرجاعها بعد أن تتزوج غيره ويطلقها ، فيمكن أن تحسن المعاشرة عندئذ بعد أن يكون قد أخذ كل منهما درساً من الزواج الثاني .

ومن الخطأ أن يستنكر (السير موير) في كتابه : (سيرة محمد) ﷺ

أحكام هذا الطلاق لأنه خفي عنه : أن اتخاذ زوج آخر قبل الرجوع إلى الأول أكبر مانع من إيقاع الطلاق عند قوم كالعرب عرفوا بشدة الغيرة والحمية ، وأقوى رادع لهم عن ممارسة الطلاق ، فجاء القرآن بأكبر زجر لمنع الطلاق في أمة اشتهرت بالغيرة على نسائها والمحافظة على العزة والشرف .

العِـــدّة

يعترض سبيل قطع العلاقات الزوجية عقبات ، يقصد منها الابقاء على رابطة الزوجية حتى بعد وقوع الخلاف بين الزوجين الذي يؤدي إلى الطلاق .

فكل طلاق تتبعه فترة تريث تسمى العدة . جاء في القرآن : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ﴾ الطلاق : ١ .

وفترة التريث تتفاوت في طولها وقصرها تبعاً لحالة الزوجة ، واليك التفصيل :

أولاً : عدة الحامل هي وضع الولد : ﴿ وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ الطلاق : ٤ .

ثانياً : عدة المتوفى عنها زوجها (غير الحامل) أربعة أشهر وعشرة أيام . جاء في القرآن : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ البقرة : ٢٣٤ .

ثالثاً : عدة المطلقة (غير الحامل) تنقسم إلى قسمين : أ ــ ذوات الحيض : وعدتهن ثلاثة قروء[1] ، أي ثلاث دورات كاملة من الحيض والطهر ، جاء في القرآن : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إنْ كُنّ يُؤمنّ بالله واليوم الآخر ﴾ البقرة : ٢٢٨ .

ب ــ عدة اليائسات : ــ وهن اللواتي تجاوزن سن الحيض ــ وعدتهن ثلاثة أشهر ، جاء في القرآن : ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن ﴾ الطلاق : ٤ .

ويلحق باليائسات النساء اللاتي تجاوزن سن البلوغ دون أن يحضن مثلاً .

(١) ثلاثة قروء تقدر تقريباً بثلاثة أشهر في أغلب النساء . وتوقيت ثلاثة أشهر هو ميعاد موضوع بحكمة فائقة لأنه قبل ذلك بشهر يصعب التثبت من الحمل ، وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل ظاهرة للشخص العادي .

ويجدر بالملاحظة أن المطلقة قبل الدخول ، لا عدة عليها مطلقاً لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عِدّة تَعتدّونها فَمَتّعوهُنّ وسَرّحُوهُن سَرَاحاً جميلاً ﴾ الاحزاب : ٤٩ .

فاذا وقع الطلاق وأصبحت الزوجة في العدة يستمر الزوجان يقطنان في مسكن واحد ، ويستمر الزوج في الانفاق، ولا يجوز للزوج أن يُخرج الزوجة من بيت الزوجية إلا في حالة سوء السيرة .. جاء في القرآن : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدّتهن واحصوا العِدّة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتّهن ولا يَخرُجن إلاّ أن يأتين بفاحشة مُبيّنة ﴾ الطلاق : ١ .

فهذه الآية لها غاية واضحة هي فسح المجال للزوجين لاعادة العلاقات بينهما ، وتخفيف حدة الخلاف ، فإذا كان هنالك بقية من أمل أو محبة فإن هذه تظهر آثارها أثناء العدة فتكون وسيلة لعودة الالفة والوفاق .

وللعدة أحكام أهمها : أنه يحرم على المرأة أن تُخطب فيها . ومنها : أنه يجب أن تظل في بيتها لا تخرج منه إلا لضرورة ملحة . هذا إذا كانت معتدة من طلاق لوجود من ينفق عليها ، ولا تحرم عليها الزينة وما يتبعها لان هذه تشجع على عودة الحياة الزوجية . أما إذا كانت معتدة لوفاة فانها لا تخرج من المنزل إلا للضرورة الشديدة ، ويحرم عليها الزينة وتوابعها .

والحكمة من العدة متعددة منها : أن الاسلام يحرص على بقاء الزوجية المؤبدة، فإذا حصل الطلاق فإن العدة تبقي من الصلات بين الزوجين مايستطيع الزوج به مراجعة زوجته ، فهي فترة لامعان الفكر قبل حل الحياة الزوجية .

ومن حكم العدة : أنه يتبين فيها للمرأة الحمل وعدمه، وفي ذلك من النفع ما فيه كي لا تختلط الانساب، ومنها : الحداد على المتوفي، فإن وفاة الزوج خسارة فادحة للزوجة إذ خسرت رب اسرتها ومعينها ، فمن الوفاء أن تمتنع عن الزواج فترة من الزمن .

حُقوق المرأة الشخصيّة

لا يزال القانون الاسلامي سابقاً كل القوانين الحديثة في اعطاء المرأة الحقوق التي أعطاها للرجل ، فالشريعة الاسلامية تسوي بين الذكر والانثى في

الولاية على المال والعقود ، فمتى بلغت المرأة سن الزواج وهي رشيدة كان لها أن تتصرف بمالها مستقلة بجميع التصرفات القولية والفعلية ، وان تعقد عامة العقود المدنية من بيع وشراء واجار وشركة وقرض ورهن ووديعة وهبة ووصية ووصاية وغيرها ، وأن توكل فيها من شاءت ، أو تتوكل بها ، وليس لأبيها أو لزوجها أو غيرهما أن يتدخلوا في ذلك .

هذا هو شأن المرأة الاسلامية منذ أربعة عشر قرناً ، وانظر إلى حال المرأة الأوروبية : ففي أغلب الدول الأوروبية تنتقل ملكية أملاك المرأة إلى زوجها عند الزواج ، ففي انجلترا تصبح المرأة في نظر القانون العام هي وزوجها شخصاً واحداً ليس لها وحدها الحق في التملك أو الدخول في الالتزامات ، ثم جاء قانون ١٨٨٢ م مبيحاً لملكية النساء المتزوجات ، فأعطاهن الحق الذي لم يتمتعن به من قبل ، فأصبحت المرأة مسؤولة عما تدخله من الالتزامات والتعهدات بقدر أملاكها الخاصة إلا أن القانون لم يجعل الزوج خالياً من تبعة تصرفات زوجته ، فإن للمدعي حق الاختيار بين مقاضاة الزوجة بمفردها أو إشراك زوجها معها ، وإذا لم يكن للزوجة مال خاص أمكن المدعي مقاضاة الزوج بصفته مسؤولاً عن تصرفات زوجته .

أما فيما يتعلق بالمرأة الفرنسية فقد نشرت الجريدة الفرنسية للقوانين في ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٨ قانوناً بمنع المرأة المتزوجة :

أ — من توقيع أذونات الصرف المالية (الشيكات) .

ب — من فتحها حساباً جارياً في أي مصرف من المصارف .

ج — من أن توقع أي عقد مالي .

د — من استيلائها على الارث مباشرة بدون اذن القاضي في ذلك كله .

ويمكننا بعد الذي ذكرناه أن نقول : إذا كان اطلاق التصرف المالي للمرأة هي الحرية الديمقراطية النسوية للقرن العشرين فللمرأة المسلمة أن تعتز بهذه الديمقراطية منذ القرن السابع الميلادي .

واذا كان الاسلام سوى بين الرجل والمرأة في التصرف المالي الخاص إلا أنه لم يسو بينهما في الميراث ، فجعل للذكر مثل حظ الانثيين ، وما ذاك إلا لحكمة عادلة وهي : أن مسؤولية الرجل في الحياة من الناحية المادية وغيرها أعظم من مسؤولية المرأة .

فالاسلام يحتم على الرجل القيام بأعباء الاسرة ومستلزماتها بخلاف المرأة التي

لم يكلفها الاسلام بشيء من ذلك حتى ولا الانفاق على نفسها ، فنفقتها واجبة على أبيها أو ولي أمرها أو أقاربها ما دامت لم تتزوج ، وواجبة على الزوج بعد زواجها لا فرق في ذلك بين أن تكون فقيرة لا تستطيع الانفاق ، أو غنية تستطيعه ، ونفقتها واجبة على بيت المال إن لم يكن لها زوج ولا عائل، وكذلك نفقة أولادها فهي واجبة على أبيهم أو على أقارب أبيهم ، لذلك جاء الاسلام بشريعته العادلة فخصص للذكر مثل حظ الانثيين كي يقوم التوازن بينهما ، فلا يُظلم الرجل وعلى كاهله كل تلك المسؤوليات التي أعفى منها المرأة .

شهادة في المرأة الاسلامية

ونختم هذا البحث بهذه الشهادة للدكتور (جوستاف لوبون) في منزلة المرأة الاسلامية إذ يقول :

« إذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أحوال النساء وجب علينا أن ننظر إلى ماكانت عليه هذه الأحوال ايام ازدهار العرب ، فقد روى المؤرخون: انه كان لهن من الشأن ما اتفق لاخواتهن حديثاً في اوروبة التي اقتبست من عرب الاندلس نبيل الطبائع وكريم العادات . ذكرنا في فصل سابق: ان الاوروبيين أخذوا عن العرب مبادىء الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة . والاسلام حقاً ، لا النصرانية ، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه ، فأنت إذا نظرت إلى سيرة أمراء النصارى الاقطاعيين في القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء ، وأنت إذا ما تصفحت كتب تاريخ ذلك الزمن علمت ان رجال عصر الاقطاع كانوا غلاظاً نحو النساء قبل ان يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى »[1] .

« وقد خبت شعلة حضارة العرب في عهد وارثي العرب ولا سيما عهد الترك فنقص شأن النساء كثيراً . وسأبين في مكان آخر أن حالتهن الحاضرة هي، مع ذلك ، أفضل من حالة اخواتهن في اوروبا .

وما تقدم يثبت على كل حال ، ان نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن ، لا بسبب القرآن وهنا نكرر ان الاسلام الذي رفع شأن المرأة كثيراً بريء من خفضه لها، ونحن لم نكن أول من جهر بهذا الرأي، فقد سبقنا الى مثله (كوسان دوبرسفال) ، ومسيو (بارتلمي سان هيلر) »[2] .

---

(١) (حضارة العرب) ص ٤٢٩ ترجمة الاستاذ محمد عادل زعيتر . (٢) نفس المصدر ص ٤٣١ .

الفصل الثالث والعشرون

نظام الحرب في الإسلام

الحرب ضرورة اجتماعية – نظرة اليهودية والمسيحية الى الحرب – دعوة الإسلام الى السلم – القتال للدفاع عن النفس – القتال في سبيل الله – مقارنة بين تشريع الاسلام والقانون الدولي في الحرب – الاستعداد للحرب – وصايا عامة أثناء الحرب – القوة المعنوية – الجزية – المستأمنون – العهود – شهادة بعض علماء الغرب في الفتح الإسلامي .

الحرب هي النزاع المسلح القائم بين دولتين فأكثر ، تقدم عليه إحداها برضاها وتجبر غيرها عليه ، وهي ذريعة تتوسل بها الدول لتحقيق مآرب سياسية أو اقتصادية أو اقليمية .

الحرب ضرورة اجتماعية

ومما لا شك فيه أيضاً ، ان الحرب ضرورة اجتماعية تلجأ اليها الجماعات البشرية لحل بعض المشاكل الاجتماعية التي تستعصي على الحلول السلمية . فالجماعات البشرية اندفعت في التناحر لا لمجرد استيفائها أغراضها المادية فحسب ولكن لحاجتها الأدبية أيضاً ، فلولا الحروب التي ثارت بين الجماعات لتعطل تقدمها في طريق العمران والمدنية .

وقد ذهب العلامة (هيجل) احد رواد الاشتراكية بأن التغيير لا يحدث في اي ميدان إلا لنتيجة تصارع قوى متضادة متشابكة تقضي كل منها على الأخرى بحيث تخرج نتاجاً جديداً يفوقها ، هذه الفلسفة تبناها فيما بعد (ماركس وانجلز) ، ومما يسجل للقرآن انه سبق ان قرر هذه الحقيقة منذ اربعة عشر قرناً حين اعلن قائلاً : ﴿ ولولا دَفْعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ البقرة : ٢٥١ .

فالاسلام أقر الحرب على انها وسيلة لحل بعض المشاكل الاجتماعية في وقت كانت القوة الغاشمة هي العائق الوحيد الذي يقف أمام دعوة الحق .

والدول الغربية نراها ، بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية ومدنية راقية ، لا تزال تعمد في القرن العشرين لحل مشاكلها المختلفة إلى الحرب ، فهل يعقل أن يحرّم الاسلام الحرب قبل أربعة عشر قرناً ؟ وقد قصد إلى إحداث تطور عام ، من الناحيتين الدينية والاجتماعية . وهذا مما يدحض رأي الطاعنين في الاسلام بأنه دين حربي ، وأنه لم ينتشر إلا بالسيف ، هذا الطعن الذي اتخذه أعداء الاسلام وسيلة لتشويهه، من ذلك ما قاله (ماكدونالد) في « دائرة المعارف الاسلامية » : « إن نشر الاسلام بحد السيف والقوة هو الواجب الديني على كل مسلم » . هذا القول هو الذي دفعنا الى كتابة هذا البحث ، للرد على هذه التهمة الباطلة ودحضها من كافة الوجوه .

نظرة اليهودية والمسيحية في الحرب

واذا نظرنا الى الأديان القديمة وجدنا : أن اليهودية فرضت على أهلها الحرب حفظاً لوجودهم، وللتمكن في الأرض والتبسط في الفتح، وتعاليمها مبنية على القتل العام ومحو سكان البلاد المفتوحة . جاء في الكتاب الخامس من الزبور : « إذا ادخلك ربك في أرض لتملكها وقد أباد أمماً كثيرة من قبلك فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم ولا تعطهم عهداً ولا تأخذك عليهم شفقة أبداً » .

ثم جاءت المسيحية بتحريم الحرب بتاتاً لقول السيد المسيح في انجيل متى : « أما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر » .

ويستند كذلك أنصار الرأي القائل بتحريم الحرب تحريماً مطلقاً إلى قول السيد المسيح عليه السلام للقديس بطرس : « أعد سيفك الى مكانه ، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون » وعلى هذا تكون المسيحية تحرّم الحرب .

ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم في سبيل التمسك بتحريم الحرب بل تحريم صناعة الجندية ، وبذل آخرون جهوداً جبارة في سبيل التوفيق بين نص الانجيل وضرورات الدولة ، فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب الممنوعة ، وأثاروا البحث في ماهية الحرب العادلة فحددوها، بأن يعلنها الأمير

وأن تكون عادلة ، واشترطوا فيمن يعلنها أن يكون سليم النية صادقاً بلا طمع ولا وحشية ، ولقد اضطرت المسيحية في القرن الرابع الميلادي أي بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الامبراطور (قسطنطين) الروماني أن تستأصل شأفة الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار .

فهل يريد الطاعنون في الاسلام أن يحرم الحرب مع أن الأديان قبله لجأت إلى الحرب بعد أن أعيتها الحيل في القيام بدونها ؟ وهل يريدون أن يحرّمها على أتباعه ، ثم متى اضطرتهم الحياة لجأوا اليها غير آبهين لنهية ، كما حدث لأهل الأديان الأخرى ؟.

دعوة الإسلام إلى السلم

وضع علماء القانون الدولي قواعد لواجبات كل دولة نحو غيرها من الدول في حال السلم والحرب ، وأول ما قرره العلماء من القواعد : أن تكون علاقات الدولة مع غيرها أساسها السلم حتى يتيسر لها تبادل المنافع والتعاون على بلوغ النوع الانساني درجة كماله ، وقرروا : انه لا يسوغ قطع هذه الصلة السلمية إلا عند الضرورة القصوى التي تلجىء إلى الحرب ، وبعد أن تفشل جميع الوسائل السلمية في حسم الخلاف .

وهذا ما سعى اليه الاسلام ، فانه أسس علاقات المسلمين بغيرهم على المسالمة والأمان . فهو لا يجيز قتل النفس لمجرد أنها تدين بغير الاسلام ، ولا يبيح للمسلمين قتال مخالفيهم في الدين لمخالفتهم في عقيدتهم ، بل يأمر أتباعه معاملة مخالفيهم بالحسنى ومبادلتهم المنافع ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم في الدّين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبرّوهم وتُقسطوا اليهم ، إنّ الله يحبُ المقسطين ﴾ الممتحنة : ٨ .

ويقول تعالى : ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يُقاتلوكم والقوا اليكم السَّلَمَ فما جَعَلَ الله لكم عليهم سبيلا ﴾ النساء : ٩٠ .

والاسلام حريص على السلم أشد الحرص ، يتبين لنا ذلك من قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ البقرة : ٢٠٨

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم أن تدخلوا في السلام العام ، فلا تعتدوا على أحد لم يعتدِ عليكم ولم يقاتلكم .

ومن الآيات أيضاً التي تحض على السلم قوله تعالى :

﴿ وإن جنحوا[1] للسّلم فاجنح لها ﴾ الانفال : ٦١ .

والمعنى : وإذا كنت في حرب مع أعدائك ، أيها الرسول ، ومالوا عن جانب الحرب إلى السلم والمصالحة فأجبهم إلى ذلك واقبل منهم .

هذه الآية تفتح باب السلام على مصراعيه ، وتتلاءم والنزعة العصرية في وضع اصول مقررة لإبطال الحرب .

ومما يجب لفت النظر اليه : أن الاسلام حريص على السلام بما لم يحرص عليه مذهب اجتماعي قبله ، فقد جعل السلام تحية الاسلام يتبادلها المسلمون في اليوم ملايين المرات بقولهم : (السلام عليكم) ، كما أنه أوجب ذكرها في نهاية كل صلاة ، فالمصلي يختم صلاته بالتوجه إلى إخوانه المصلين قائلاً : « السلام عليكم ورحمة الله » .

الاحوال التي اقر بها الاسلام القتال والغاية منها

القتال للدفاع عن النفس

مكث النبي بضع عشرة سنة يبشر بالدعوة من غير قتال صابراً على شدة إيذاء العرب بمكة واليهود بالمدينة المنورة ، فكان يأتيه أصحابه ما بين مضروب ومجروح يشكون اليه حالهم ويطلبون منه السماح لرد العدوان بالمثل فيقول لهم النبي ﷺ : اصبروا لأني لم أؤمر بالقتال ، حتى أن بعض أصحابه قتل من جراء العذاب ، منهم : سمية أم عمار بن ياسر التي عذبها آل المغيرة مع زوجها على اسلامهما ليرجعا عنه فلم يرجعا ، وماتت أم عمار تحت العذاب .

ثم تطورت بعد ذلك الأحداث وتفنن المشركون في إيذاء المسلمين حتى اجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ ، فلما علم بقصدهم هاجر إلى المدينة حيث

---

(١) الجنوح : الميل .

استقبله أهلها بالترحاب وبايعوه على الاسلام .

ولم يكتف الكفار بمحاولتهم قتل النبي ﷺ بل ألبوا عليه القبائل الجاهلية لإبطال دعوته والقضاء عليها ، لذا أذن الله للنبي بالقتال .

وإذا أمعنا النظر في النصوص القرآنية التي أمر الله فيها المسلمين بالقتال ، رأيناها تذكر أن الحرب وسيلة لدفع العدوان، وأن طبيعة البشر كثيراً ما تفضي الى التنازع والبغي والاعتداء على الحريات قال تعالى :

﴿ أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نَصْرِهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حَقّ إلاّ أن يقولوا رَبُّنا الله ، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صَوَامِعُ[1] وبِيَعٌ[2] وصَلَوَاتٌ[3] ومساجدُ يُذكر فيها اسْمُ الله كثيراً، ولينْصُرنّ الله مَن يَنصُره إن الله لقوي عزيز ﴾ الحج : ٣٩

تناولت هاتان الآيتان الاذن بالقتال، وعللت هذا الاذن بما مني به المسلمون من الظلم والاعتداء ، وما أكرهوا عليه من الخروج من الديار والأوطان بغير حق ، ثم ذكر الله أنه لولا ما شرعه للانبياء والمؤمنين من قتال الاعداء في كل عصر ، لهدمت في شريعة كل نبي معابد أمته ، فهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود، ومساجد المسلمين التي يذكرون فيها اسم الله كثيراً.

ثم بيّن القرآن عقب الآيات التي ذكرناها واجب المؤمنين المنتصرين :

﴿ الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ الحج : ٤١ .

فليست الغاية من النصر توسعاً في الملك كما تفعل الدول المستعمرة ، ولا وضع اليد على موارد الثروات ؛ ولا علواً واستكباراً في الأرض لكي يكون جنس أعلى من جنس ، ولكن المؤمنين ان انتصروا : **أقاموا الصلاة** ، أي أنهم توجهوا إلى السمو الروحي من عبادة الله وتطهير أنفسهم . **وآتوا الزكاة** أي أنهم حققوا العدالة الاجتماعية من اعطاء المحتاجين حقهم في هذه الحياة . **وأمروا بالمعروف** أي أشاعوا الخير والحق بين الناس . **ونهوا عن المنكر** أي حاربوا

---

(١) الصوامع : معابد الرهبان .

(٢) البيع : كنائس النصارى .

(٣) الصلوات : كنائس اليهود .

الشر والفساد واستأصلوهما من المجتمع .

والنبي قاتل لرد العدوان ، وقد كان مأموراً به من الله :

﴿ وقاتلوا في سَبيلِ الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثَقفتموهم[1] وأخرجوهم مِن حيثُ أخرجوكم، والفتنة أشدُّ مِنَ القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يُقاتلوكم فيه فإن قَاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنةٌ ويكون الدّينُ لله ،فإن انتهوا فلا عُدوان إلاّ على الظالمين ﴾ البقرة : ١٩٠ – ١٩٣ .

تأمر هذه الآيات أن يقاتل المسلمون في سبيل الله الذين يقاتلونهم ، وتأمرهم بتتبعهم حيثما وُجدوا ، وتشتيتهم كما فعلوا هم من قبل ، وتنهاهم عن الاعتداء وتؤكد هذا النهي بعدم محبة الله للمعتدين . ثم ترشد إلى ان ما حصل من إخراج المسلمين من ديارهم وترويعهم في أمنهم وإيذائهم ليحرموهم من دينهم هو فتنة أشد قبحاً من القتل ، إذ لا بلاء على الانسان أشد من إيذائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكن من عقله ، فيجب مقاتلة المثيرين لهذه الفتنة . ثم تمنع هذه الآيات المسلمين القتال في الأماكن المقدسة ، فان انتهك العدو حرمتها ساغ لهم أن يردوا العدوان . ثم تختم هذه الآيات ببيان الغاية التي تنتهي بها الحرب وهي : ألا تكون فتنة في الدين ، وأن يكون الدين لله ، ليحصل الناس على حرية العقيدة دون اضطهاد .

القتال في سبيل الله

الامة الاسلامية مكلفة بتحقيق العدالة في الارض ، وهذا التكليف يوجب على المسلمين أن يكافحوا الظلم والبغي حيث كان، ويزيلوا أسبابه ، لا ليملكوا الأرض ويستولوا على المرافق ، ويستذلوا الأنفس ، بل لتحقيق كلمة الله في الأرض خالصة من كل غرض ، وهذا ما يطلق عليه في الاسلام : (الجهاد في سبيل الله) و (القتال في سبيل الله) ، جاء في القرآن : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم ﴾ البقرة : ٢٤٤ ، ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ الحج : ٧٨ .

---

(١) ثقفتموهم : ظفرتم بهم .

وسبيل الله هو سبيل الحق ، فكل قتال لأجل الدين والدفاع عنه هو : في سبيل الله ، وكل قتال لدفع الظلم ومعاونة المظلومين ضد الظالمين ونصرة الحق هو من القتال في سبيل الله ، وكل طريق للوصول إلى الحق أو حمايته أو الدفاع عنه هو في سبيل الله سبحانه وتعالى .

والقرآن يدعو في كثير من الآيات للقتال في سبيل الله خالصاً من أي غرض دنيوي . انظر إلى هذه الآيات التي نزلت على الرسول وهو في المدينة المنورة إنها تبين أهداف القتال :

﴿ فليُقاتل في سبيل الله الذين يَشْرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يُقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلِب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تُقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولْدان الذين يقولون : ربنا أَخْرجنا من هذه القرية الظالِمِ أهلها ، واجعل لنا من لَدُنك وَلِيّاً ، واجعل لنا من لَدُنك نصيراً ﴾ النساء : ٤ ، ٧٥ .

ففي هاتين الآيتين اشارة لطيفة إلى أن الحرب في الاسلام ليست للتحكّم في الرقاب ولإذلال العباد ، بل هي في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من المؤمنين أمثال الساكنين في مكة الذين استذلهم كفارها وآذوهم ليمنعوهم من الهجرة وليفتنوهم عن دينهم ، هؤلاء المستضعفين الذين فقدوا النصير واستغاثوا بالله ، فعليكم أيها المؤمنون ان تنصروهم وترفعوا عنهم الظلم .

ثم قال تعالى بعد ذلك عقب الآيتين اللتين ذكرناهما :

﴿ الذين آمنوا يُقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يُقاتلون في سَبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان، إنّ كَيْدَ الشيطان كان ضعيفاً ﴾ النساء: ٧٦ .

والطغيان في اللغة هو مجاوزة الحد ، وكل شيء جاوز المقدار والحد في العصيان فهو طاغ ، وكذلك إذا تجاوز الانسان الحد وعلا في الأرض وراح يفسد فيها ، ويستعبد الناس ويسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الأرض وخيراتها فذلك هو « القتال في سبيل الطاغوت » الذي ندد به الله وجعله شعار الكفار ، أما القتال في سبيل الله فهو الذي غايته أن يرفرف القانون الالهي العادل على العالمين ، دون ان يكون هناك غاية شخصية أو علوّ في الأرض كما أمر به تعالى: ﴿ تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً ،

والعاقبة للمتقين ﴾ القصص : ٨٣ .

وقد ورد في الحديث: أن اعرابياً قال للنبي ﷺ : الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله ؟ قال النبي ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[1] .

فالإسلام في جهاد دائم لا ينقطع أبداً لتحقيق كلمة الله في الأرض ، أي لتحقيق النظام الصالح الذي يسعد البشرية ، والأمة الإسلامية منتدبة لرفع الظلم عن الأفراد والجماعات في أقطار الأرض كافة بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم ، قال الله تعالى مخاطباً المسلمين :

﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وسطاً لتكونوا شُهَدَاءَ عَلَى الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ البقرة : ١٤٣ .

أي لتكونوا أيها المسلمون شهداء على الناس في تقصيرهم وغلوهم فتقوموا باصلاح عوجهم .

وليس في هذا الأمر إظهار فضل أمة على أخرى ، أو جرح كبرياء أمة من الامم ، لأن الله الذي وضع هذا الانتداب لم يجعله ميزة لشعب من الشعوب ولا وقفاً على جنس من الاجناس ، ولكنه جعله للجماعة التي تدين بأصوله مهما كان لون هذه الجماعة أو جنسيتها ، ونصوص القرآن واضحة في أن الاسلام دين عام للناس كافة . قال الله تعالى مخاطباً رسوله محمداً :

﴿ قل يا أيها الناس إني رسولُ الله اليكم جميعاً الذي له مُلك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يُؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ الاعراف : ١٥٨ .

ولهذا نرى النبي ﷺ أرسل سفراءه إلى ثمانية ملوك وأمراء مجاورين لجزيرة العرب يحملون كتباً منه يدعوهم فيها إلى الاسلام، فرفض هؤلاء الحكام دعوته، فمنهم من قتل سفيره، ومنهم من مزق تلك الكتب مع تهديد الرسول الذي يحملها ، فكان لزاماً على المسلمين أن يحاربوا هؤلاء بعد أن تبين أنهم قتلوا الدعاة وفتنوا اتباعهم وساسوهم بسياسة الظلم .

« ولما أخذ العرب اهبتهم لمقاتلة فارس والروم كانتا تتقاسمان أكثر

---

(١) متفق عليه .

بقاع العالم المعروفة يومئذ ولكنهما مضمحلتان اضمحلالاً سياسياً واجتماعياً فقد أنهكتهما الحروب المتتابعة ، ولم يخرجا منها وفيهما بقية ، وكانت سيرة الدولتين سيرة ظلم وجبروت تستأصل الرعية وتفدحها بالمؤن المجحفة ، وتميت ما في قلوب أبنائها من حب الوطن ومناصحة الحكام، وكان أهلهما يعتقدون عقائد مزخرفة مشوهة فانقلبت الزرادشتية دين فارس الموروث إلى مجوسية سحرية قائمة على أساس الجور والبغي ، مكروهة منبوذة في السر ، وغشيت النصرانية في الشرق ببهارج الوثنية ، وفسدت بالمناظرات الجدلية التي ورثتها عن متأخري اليونان، فافترقت المجوسية والنصرانية كلتاهما إلى فرق كبرى تتوارث العداوة والبغضاء ويعذب بعضهما بأيدي بعض، كل ذلك مما أفاد الفاتحين القادمين . فلم يلق الاسلام في مكان ما مقاومة شعبية، ولم يكن يعبأ أهل العراق إذا بذلوا الخراج إلى بزنطة أو إلى المدائن أو المدينة وإذا خيروا بين العرب والفرس فلا جرم أن الأولين كانوا أبر وأنقى وأعدل وأرحم »[1] .

مُقارنة بين الاسلام والقانون الدولي في الحرب

اباح الاسلام الحرب، ولكنه احاطها بسياج من الرحمة لم تبلغها مدنية القرن العشرين، ولا الى ما يقرب منها، فقد سن احكاماً وأوجب مراعاتها لتخفيف ويلات القتال ، وهي خير ما عرف من قوانين الرحمة بالانسان .

وهذه الاحكام[2] نراها تتفق مع احكام القانون الدولي في كثير من المواضع إلا أنها تخالفها من جهة انها احكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها ايمان المسلمين، واما احكام القانون الدولي فانها ليس لها قوة تنفيذية تكفل امضاءها ؛ حتى ان بعض الباحثين يرى: ان تسمية الاحكام الدولية قانوناً، ضرب من التسامح ، لأن القانون لا يكسب هذا الوصف إلا إذا كان من ورائه قوة لحمايته وتنفيذ أحكامه ، ولا توجد قوة ما لاخضاع الدول لأحكام القانون الدولي . فالاحكام الاسلامية الحربية مع انها ترمي إلى العدل والرحمة لها من ايمان المسلمين قوة تنفيذية تكفل إمضاءها .

---

(١) Esquisse de l'Histoire Universelle نقلا عن كتاب « الشرع الدولي في الإسلام » للدكتور نجيب الأرمنازي .

(٢) من مراجع هذا الفصل كتاب « السياسة الشرعية » للعلامة الشيخ عبد الوهاب خلاف .

وعلى هذا الاساس شرعت الاحكام الحربية في الاسلام كما يأتي :

● قرر القانون الدولي : ان الدولة التي تضطر إلى اعلان الحرب على دولة أخرى يجب عليها قبل البدء ان تعلن الدولة الاخرى بميعاد الحرب ، وتخطر الاخرى لتلزم حيادها ، والغرض من هذا الاعلان توقي الغدر والاخذ على غرة.

وجاء في الشرع الاسلامي : انه يجب على المسلمين قبل البدء بقتال الكافرين ان يبلغوهم دعوة الاسلام . فقد ثبت : ان النبي ما قاتل قوماً حتى دعاهم إلى الاسلام قبل ان يقاتلهم، وبهذا كان يأمر قواده، ففي صحيح مسلم : أن رسول الله قال لبعض قواده : (إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى احدى ثلاث فأيتهن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : الاسلام أو الجزية أو القتال) .

والجزية هي ضريبة مالية خفيفة تخول من يدفعها الدخول في سلطان المسلمين والخضوع لحكمهم ، وسنفصلها فيما بعد :

● قرر القانون الدولي : أن الرعايا غير المنتظمين في الجيش لايعدون محاربين . ولا يجوز إلحاق الاذى بهم ، وأن وصف المحاربين خاص بكل جندي أو محارب .

والشريعة الاسلامية قررت ذلك ، فقد جاء في القرآن : ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونكم ولا تعتدوا﴾ البقرة : ١٩٠ . ومن الاعتداء أن يحاربوا من لا يحاربهم كأبناء أعدائهم ونسائهم ومرضاهم وشيوخهم ورجال دينهم الخ ...

روى رباح بن ربيعة : أنه خرج مع رسول الله في غزوة غزاها ، فمر رسول الله وأصحابه على امرأة مقتولة فوقف أمامها ثم قال : (ماكانت هذه لتقاتل ! ثم نظر في وجوه أصحابه وقال لأحدهم : إلحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفاً[١] ولا امرأة)[٢] .

وأوصى الرسول جيشه في غزوة مؤته وهو يتأهب للرحيل : (لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً[٣] ولا كبيراً فانياً ، ولا تحرقن نخلاً ، ولا تقلعن شجراً ولا تهدموا بيتاً) .

---

(١) عسيفاً : أجيراً .
(٢) رواه مسلم .
(٣) ضرعاً : ضعيفاً .

وعن ابن عباس : أن النبي عليه السلام كان إذا بعث جيوشه قال : (لا تقتلوا أصحاب الصوامع) .

● منع القانون الدولي الاجهاز على الجرحى ، وتعذيب العدو ، والفتك به غيلة ، واستعمال القنابل والقذائف والاسلحة التي تزيد في التعذيب ، وحرّم تسميم الآبار والانهار والاطعمة ، كما أنه أوصى أن تحترم جثث القتلى ، ومنع التمثيل بها مهما كانت جنسية أصحابها .

والاسلام حرّم هذا أيضاً ، فقد كان النبي ﷺ إذا عين أميراً على جيش أو على سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال : (أغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً)[1] حتى أن الاعداء إذا مثلوا بالمسلمين فالافضل عدم مجاراتهم في هذا التمثيل، ويدل على هذا ما روي: أنه لما مثّل المشركون في غزوة أُحد بحمزة بن عبد المطلب وغيره من الشهداء قال رسول الله: (لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لامثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب) فأنزل الله عليه هذه الآيات : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ النحل: ١٢٦ ، ١٢٧ . فقال الرسول بل نصبر .

وأوصى أبو بكر – أول خليفة للمسلمين – قائده أسامة بقوله : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله .

● قرر القانون الدولي قواعد في حسن معاملة الاسرى وعدم مسهم بأذى: فلا يجوز قتلهم ، ولا جرحهم ، ولا اساءة معاملتهم ، أو تحقيرهم إذا سلموا أنفسهم أو صودرت حريتهم.

والشريعة الاسلامية حثت على تكريم الاسرى عامة ، وجعلت ذلك من البر الذي هو علامة الايمان ، فقد أثنى الله على المؤمنين الذين يحسنون إلى الاسرى بقوله :

---

(١) رواه مسلم .

﴿ ويُطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نُريدُ منكم جَزاءً ولا شكوراً ﴾ الانسان : ٨ ؛ ٩ .

وقال ﷺ يوصي أصحابه بحسن معاملة الاسرى : (أحسنوا إسارهم) .

وخير الاسلام الإمام بين إطلاق سراح الأسرى دون مقابل أو فدائهم بالمال حسب ما تقتضيه المصلحة : ﴿ فاذا لقيتم الذين كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أثخنتموهم فَشُدُّوا الوثاق فإما منّاً بعد وإما فِداء ﴾ محمد : ٤ .

وقد منّ النبي ﷺ على الأسرى، أي أطلق سراحهم بدون مقابل، وفادى بالمال ، وبتعليم الاسرى أبناء المسلمين الكتابة .

الاستعداد للحرب

ومن مزايا الشريعة الاسلامية أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية بالحل العملي ، فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء ، وما دام أعداء الاسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الانصاف وحرية العقيدة فإن الحرب واقعة بين الناس ، ولهذا أمر الاسلام بالاستعداد ، وأخذ الاهبة لها . قال الله تعالى :

﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم مِنْ قُوّة ومن رباط الخيل تُرهبون به عَدُوَّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا مِن شيء في سبيل الله يُوفَّ اليكم وأنتم لا تُظلمون ﴾ الانفال : ٦٠ .

أمر الله المسلمين في هذه الآية بأن يستعدوا لأعدائهم بكل ما يستطيعون من قوة ، وهو أمر لا يختص بزمان ولا بفريق من الناس . ولفظ القوة عام يشمل كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للحرب من الحصون وأسلحة البر والبحر والجو على اختلاف أنواعها وأشكالها بحسب الأزمنة والامكنة المختلفة ومصانع الذخيرة، وكل ما يفيد في صلاحية الامة للحرب: كانشاء معاهد لتعليم فنون الحرب ، وغير ذلك مما يجعل الأمة قوية مرهوبة الجانب .

وقوله تعالى : (ومن رباط الخيل) يعني اقتناءها واعدادها ، وقد أمر الله بإعداد رباط الخيل لأنها كانت مركب الحرب في زمن الرسول ، فإذا تغير الزمان وصار مركب الحرب سفناً حربية وطائرات وسيارات مصفحة وجب على المسلمين أن يعدوا ذلك .

والقصد من إعداد هذه القوى إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الامة الاسلامية ومصالحها . ولأجل أن تكون آمنة في عقر دارها ، وهذا ما يُسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلح ، وقد أوجبه الاسلام قبل أن يعرفه أهل اوروبا بزمن طويل . وهذا معنى قوله تعالى : (تُرهبون به عَدُوَّ الله وعدوّكم) .

ثم حض الاسلام المؤمنين على إنفاق المال في سبيل الله لإعداد القوى العسكرية التي أمر بها إذ لا يتم بدون المال شيء منها ، فقال تعالى : ﴿ وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ اليكم وأنتم لا تُظلمون ﴾ فقد وعد الله المؤمنين بأن ما ينفقونه في سبيل الله ، قلّ أو كثر ، يجزون عليه جزاءً وافياً .

والقرآن في آية أخرى جعل إنفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة :

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ البقرة : ١٩٥ .

والمعنى : لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم بترك الانفاق فيغلبكم العدو ، لأن عدم إنفاق المال في الاستعداد للقتال يضعفكم ويطمع فيكم عدوكم فيهلككم .

وصايا عامة أثناء الحرب

وعند اندلاع الحرب تتجلى لنا ناحية رائعة في تعاليم الاسلام التي يفرضها على أتباعه ، والتي هي عماد النصر للشعوب الآخذة به ، قال الله تعالى :

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ الانفال : ٤٥ ، ٤٦ .

اشتملت هاتان الآيتان على خمس وصايا وهي :

أولاً : الثبات عند لقاء العدو وعدم الفرار من المعركة ، والنظام الحربي المعاصر يقضي بقتل الجندي الفار من القتال حال فراره ، وذلك خشية أن تنتقل عدوى فراره إلى غيره فتحدث البلبلة والجزع في صفوف المقاتلين ، فيكون داعياً لهم على الهزيمة .

ثانياً : ذكر الله في الحرب ، لما له من تأثير فعال في النصر ، لأن الايمان يمد المحارب بقوة معنوية هائلة تسند القوة المادية فتدعمها ويكون لها الحكم الفصل في المعركة .

ثالثاً : الطاعة ، طاعة الله أولاً ، وذلك باتباع ما أمر به من الوصايا التي تنهض بحال المسلمين ، وعدم معصيته ، وطاعة الرسول فيما أمر به من شؤون القتال ، فقد كان الرسول هو قائدهم في أغلب المعارك التي خاضوها ضد الكفار ، وبعد وفاته أوجب عليهم طاعة قوادهم في القتال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ فطاعة القائد العام هي عماد النظام الذي هو ركن من أركان النصر .

رابعاً : عدم التنازع ، فالنزاع في حال الحرب مدعاة للفشل وتغلب الاعداء على الفئة المتنازعة .

خامساً : الصبر على الشدة ، وما يلاقون من بأس العدو وكثرة عدده ، فإن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد . والصبر في الحرب من أعظم اسباب النصر .

ومن الوصايا التي وردت عن الرسول ﷺ : (الحرب خدعة[1]) ففي هذه الوصية تحريضٌ على أخذ الحذر في الحرب والندب إلى خداع الكفار . واليوم يعد هذا فناً من فنون الحرب يدرس في الكليات الحربية واكبر معين للحصول على النصر .

القوّة المعنويّة في القتال

وسلاح المسلمين في الحرب نوعان : مادي و معنوي ، فالسلاح المعنوي ما وقر في القلب وثبت في الصدر : ألا وهو الأيمان الكامل بالله ، وانهم يقاتلون في سبيله ، هذا العتاد المعنوي يعتمد على امور منها :

ان الله مع المؤمنين في حربهم يمدّهم بالملائكة ، وأنه سبحانه يقذف في قلوب اعدائهم الرعب فما يطيقون حرباً . قال الله تعالى :

﴿ إذ يُوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ الانفال : ١٢ .

فما ظنك بهذا الجيش الذي يسمع ان الله معه يمده بالملائكة ، ثم يسمع من آيات التشجيع : أن الفئة القليلة التي تقاتل في سبيل الله تغلب الفئة الكبيرة من اعدائها ، قال تعالى :

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

﴿ قال الذين يَظُنّون أنهم مُلاقو الله كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلَةٍ غَلَبت فِئَةً كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾ البقرة : ٢٤٩ .

وقوله سبحانه : ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يَغلبوا مائتين ، وإن يَكُن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ﴾ الانفال : ٦٥ .

فهؤلاء العشرون الذين يغلبون مائتين ، والمائة الذين يغلبون ألفاً هم الفئة القليلة التي تغلب الفئة الكثيرة لأنها تمتاز بسلاح روحي يغطي ضعفها من حيث الكمية ويجعلها تتفوق على خصمها الذي يفوقها عدداً .

ومنها : ان الله فتح امام الجنود الذين يقاتلون في سبيله باب الأمل ؛ مبيّناً ما أعده لهم من الأجر الكبير الذي ينتظرهم في الآخرة قال سبحانه :

﴿ فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأُوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتلوا لأكفّرنّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنّهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حُسْنُ الثواب ﴾ آل عمران : ١٩٥ .

ومنها : أن الله رغّب المؤمنين في القتال في سبيله وحببه إلى قلوبهم ، لأن عاقبة القتال ستكون لهم في حالتي البقاء والاستشهاد ، فإذا ظلوا أحياء كان لهم الاستخلاف في الأرض : ﴿ وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ النور : ٥٥ .

وإذا استشهدوا كانت لهم الجنة : ﴿ ولئن قُتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة مِنَ الله ، ورحمةٌ خَيْرٌ مما يجمعون ﴾ آل عمران : ١٥٧ .

ثم نجد القرآن يسلك تعبيراً آخر يعيد الطمأنينة إلى النفوس ، ويهدىء من اضطرابها ، فيعطيها وثيقة بالحياة بعد الموت ، وان هذا الاستشهاد ليس موتاً أبدياً ، بل إن هؤلاء الشهداء أحياء عند الله . قال الله تعالى : ﴿ ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون ﴾ آل عمران : ١٦٩

وقد تنوّعت أساليب القرآن في هذا الصدد ترغيباً في الجهاد وتشويقاً اليه ، من ذلك قوله تعالى :

﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقتُلون ويُقتَلون وَعْداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن

ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾ التوبة : ١١١ .

ففي هذه الآية قرّب الله معنى الجهاد إلى النفوس ، وجعله بيعاً وتجارة تمثيلاً بما يتعاطاه الناس من البيع والشراء ، لكنه هنا بيع وشراء مخصوص ، الله هو المشتري والعبد هو البائع ، ولا أحد أصدق من الله في عهده ووعده ، ثم جعل الله الجنة ثمناً لنفوس المؤمنين وأموالهم بحيث إذا بذلوها في سبيله استحقوا الثمن .

وكما رغّب الله المؤمنين الى القتال في سبيله ، وحبّبه إلى نفوسهم ، وشوقهم إلى ثواب الدار الآخرة وجزائها الحسن ، نجد في مواطن أخرى يحذرهم من ترك الجهاد في سبيله، وينذرهم من الرضى بالحياة الدنيا، ويبيّن لهم ان الدنيا لا يقاس المقام فيها بمقام الآخرة ، قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم الى الارض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاعُ الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل﴾ التوبة : ٣٨ .

ثم ينتقل الى التحذير فيقول: ﴿ إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير ﴾ التوبة : ٣٩ .

ينذرهم الله اذا هم تثاقلوا عن تلبية الدعوة إلى الجهاد بالعذاب الأليم ، عذاب الذل والاستعباد ، وانتقال الملك والسلطان إلى قوم غيرهم .

ولما كان القتال غير محبب إلى النفوس فقد بيّن الله أنه وسيلة إلى أمر محبوب ، وأنه يخفي وراءه خيراً كثيراً كإعلاء كلمة الاسلام ، ودفع الظلم :

﴿كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خَيْرٌ لكم، وعسى أن تُحبوا شيئاً وهو شرّ لكم، والله يَعْلَمُ وأنتم لاتعلمون﴾ البقرة : ٢١٦ .

الجزيــة

قبل أن تُعلن الدولة الاسلامية الحرب على دولة أخرى تخيرها بين : الاسلام والجزية والحرب . والقصد من الجزية هو أن تكون هذه الدولة تحت

حماية المسلمين ليأمنوا شرّها ، ولإفساح المجال لحرية الدعوة الاسلامية بأن تصل إلى جميع طبقات الشعب بدون إكراه ، وليكون الدعاة المسلمون في مأمن من الاعتداء عليهم .

والأصل في تشريعها قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يَدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ[1] وهم صاغرون ﴾[2] التوبة : ٢٩ .

فالجزية ضريبة شخصية يفرضها الاسلام على غير المسلمين من رعايا الدولة الاسلامية ، وهي من غير المسلمين قائمة مقام الزكاة التي تُؤخذ من المسلمين ، وذلك أن كل فرد من رعايا الدولة قادر على أن يؤدي قسطاً مما يصرف في المصالح العامة يجب أن يفرض عليه هذا النصيب ، ليكون له في مقابل هذا الواجب التمتع بحقوق الدولة التي هو من رعاياها ، ولهذا فإن من يعتنق الاسلام تسقط عنه الجزية ويُطالب بالزكاة .

والإسلام لا ينسى واجب المروءة والرحمة ، فهو لا يجيز أن توضع الجزية على الضعفاء والمساكين . ففي كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة يقول فيه : « وأيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام » . ويقول أبو يوسف في كتابه (الخراج) : « لا تجوز الجزية على النساء والصبيان ... ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدّق عليه ، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ، ولا من ذمي يتصدق عليه ولا من مقعد ، والمقعد والزمِن إذا كان لهما يسار أخذ منهما ، وكذلك الاعمى . وكذلك المترهبون الذين في الأديرة ، إذا كان لهم يسار أخذ منهم ، وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار لم يؤخذ منهم » .

وفي تعيين قدرها يقول الامام أبو حنيفة : ان الجزية على الفقير إثنا عشر درهماً ، وعلى المتوسط أربعة وعشرون درهماً ، وعلى الغني ثمانية وأربعون

---

(١) عن يد : أي عن قدرة وغنى .

(٢) صاغرون : أي تجري عليهم أحكام الإسلام طائعين .

درهماً[1] .

ومتى أعطوا الجزية وجب : تأمينهم ، وحمايتهم ، والدفاع عنهم ، ومنحهم حريتهم في دينهم ، ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين . ويسمون : (أهل الذمة) لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ، وهذا ما سار عليه امراء المسلمين في معاملة أهل الذمة . انظر إلى هذا العهد الذي عاهد فيه خالد بن الوليد أهل دمشق : « هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم . ولا يسكن شيء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ وذمة الخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلاّ بخير إذا ما أعطوا الجزية »[2] .

والجزية هي جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذين يحمونهم مِمّن يعتدي عليهم ، وليس أدل على إدراك المسلمين هذه الحقيقة وعملهم بها ما ذكره أبو يوسف في كتابه الخراج : « أن ابا عبيدة بعدما صالح أهل الشام وجبي منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم قد جمعوا له فاشتد ذلك عليه وعلى المسلمين . فكتب ابو عبيدة إلى كل وَالٍ ممّن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج ، وكتب اليهم أن يقولوا لهم : إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنّا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم ، فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم ، قالوا : ردّكم الله علينا ونصركم عليهم »[3] .

وليس أدل على قيمة الجزية الزهيدة مما شهد به العلامة (دريبر) في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلاّ شيئاً ضئيلاً من المال لا يقُارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية » .

---

(١) لم يكن سعر الدرهم بالنسبة للدينار ثابتاً بل كان متبدلا حسب الأوضاع الاقتصادية العامة، لذا كان الدينار يساوي ١٢ درهماً في زمن خلافة عمر ، وكان يساوي ١٠ دراهم في دور الرسالة، وفي خلافة الإمام علي .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٢١ .

(٣) كتاب الخراج ص ١٦٦ .

ويقول المشرع (مونتسكيو) في كتابه (روح الشرائع) عند المامه بالاتاوات الحكومية : « ان هذه الاتاوات المفروضة كانت سبباً لهذه السهولة الغريبة التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم . فالشعوب رأت — بدل أن تخضع لسلسلة لاتنتهي من المغارم التي تخيلها حرص الاباطرة — أن تخنع لأداء جزية خفيفة، يمكن توفيتها بسهولة ، وتسلمها بسهولة كذلك » .

المستأمنون

ومن نظم الاسلام الدالة على السماحة في أثناء الحرب : انه يبيح لأفراد وجماعات من الدول المحاربة أن تتصل بالمسلمين وتدخل ديارهم وتقيم فيها في حماية قانون يعرف في التشريع الاسلامي باسم الأمان ، والاسلام يقرّر عصمة المستأمنين ويوجب على المسلمين حمايتهم في انفسهم وأموالهم ما داموا في ديار الاسلام ، بل يذهب أبعد من ذلك فنراه يمنحهم انواعاً من الامتيازات ، ويعفيهم من بعض ما ينفذه على المسلمين من احكام .

والغاية من هذا الأمان الذي شرعه الاسلام ، هو أن يهيء فرصة للمستأمنين تمكنهم من درس حقيقة الاسلام وادراك اغراضه عن كثب ، ولقد كان للاسلام من ذلك وسيلة قوية لنشر دعوته . والأصل في هذا ما جاء في القرآن :

﴿ وإن أحدٌ مِنَ المشركين استجارك[1] فأجره حتى يسمع كلامَ الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ التوبة : ٦ .

والمعنى : وان استأمنك أيها الرسول أحد من المشركين لكي يسمع كلام الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو اليه أو ليلقاك مطلقاً فيجب أن تجيره وتؤمنه لكي يسمع كلام الله ، فان هذه فرصة للتبليغ والاستماع ، فإن اهتدى به وآمن عن عِلمٍ واقتناع فذاك ، والاّ فالواجب ان تبلغه المكان الذي يأمن على نفسه .

وقد توسع الاسلام في هذا الباب توسعاً عظيماً فسمح للفرد أن يجير ويؤمن ويعطي عهداً لفرد أو جماعة من الناس، وأمانه وعهده محترمان لقول النبي ﷺ :

---

(١) الاستجارة : طلب الجوار وهو الحماية والأمان . فقد كان من أخلاق العرب حماية المستجير والدفاع عنه .

(ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم) وكذلك أقر الاسلام أمان المرأة لقوله ﷺ : (قد أجرنا من أجرت يا ام هانيء) .

والاسلام لم يشترط في ذلك التشريع إلّا ما يضمن للمسلمين سلامتهم كالتأكد من انه ليس للمستأمنين قوة ولا منعة ، ولا تبدو عليهم مظاهر الميل إلى الفتنة والتجسس على المسلمين ، وليس معنى هذا ان الاسلام ينسى حق الامام فله إبطال أي أمان فردي لا يوافق مصلحة المسلمين .

العهود في الاسلام

كانت المعاهدات ولا تزال أداة هامة لتسوية العلاقات وفض المشاكل والمنازعات بالطرق السلمية ، كما أن المعاهدات تقوم على الثقة بين الطرفين ، فإذا فقدت هذه الثقة انهارت أهم دعائم السلام بين الأمم .

والاسلام أحاط المعاهدات بكل صنوف الاحترام، وهيأ لها كثيراً من الضمانات مما جعل المسلمين يرتفعون بها فوق مصالحهم وشهواتهم وعواطفهم . فليس لازماً في تشريع الاسلام انه إذا قضت الظروف بنزاع بينه وبين خصومه ان يخيرهم بين : الاسلام ، والجزية ، والحرب، وليست هذه الحالات الثلاث التي كانت تعرض على الاعداء آتية في عمل المسلمين على سبيل الحصر ، فإننا نجد اتفاقات ، وعهوداً ، وحالات سلام ، كانت قائمة بين المسلمين ومن يجاورهم من الأمم ، بغير أن يُشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث .

واذا رجعنا للعهود المنوعة والمحالفات التي عقدها النبي رأينا فيها أمراً واحداً مطرداً هو : قصد نشر دعوة الاسلام ، والوصول بهذه الدعوة الى الظهور والانتشار بالوسائل السلمية .

ولهذا أوجب القرآن على المسلمين الوفاء بعهودهم في كثير من الآيات قال الله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً ﴾ الاسراء : ٣٤ .

وذكر الله صفات المؤمنين الصادقين فقال : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ المؤمنين : ٨ .

وجعل القرآن الخروج من فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الانسانية كلها ، قال الله تعالى :

﴿ إنّ شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كلّ مرّة وهم لا يتّقون ﴾ الانفال : ٥٥،٥٦.

ولا يبغي الاسلام من وراء المعاهدات سيطرة ولا تملكاً ولا استعماراً ولا وسيلة لغش الشعوب وخداعها لأجل أن تكون أمة أقوى من أمة ، بل لأجل اقرار السلام ، قال الله تعالى :

﴿ واوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمةٌ هي أربى من أمة ﴾ النحل : ٩١ ، ٩٢ .

والمعنى : أي لا تكونوا في افساد عهودكم والعودة الى تجديدها كالمرأة الحمقاء التي تنفش غزلها بعد إبرامه واحكامه ، ولا يجوز أن تقوم عهودكم على الفساد والغش لكي تكون أمة أقوى من أمة ، أي أكثر مالاً ورجالاً وقوة مما يجعلها أرجح .

والقرآن أمر بالوفاء بالعهد ولو أدّى ذلك بالمسلمين الى عدم نجدة اخوانهم الذين يقيمون في بلد غير اسلامي معاهد لهم ، مع أن القرآن يعتبر المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلادهم أمة واحدة، وكل عدوان يقع على طائفة أو شعب من المسلمين فهو عدوان على الأمة الإسلامية . قال الله تعالى :

﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدّين فعليكم النصر إلاّ على قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ الانفال : ٧٢ .

أما إذا أخلّ المعاهدون بالمعاهدة ، كان المسلمون في حِلّ من قتالهم :

﴿ وإن نكثوا أيمانهم[1] من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمّة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون ﴾ التوبة : ١٢ .

وكذلك إذا لمسوا من أعدائهم أمارات الخيانة فيجوز لهم نقض العهد مع اخبارهم بذلك :

---

(١) نكثوا ايمانهم : نقضوا عهودهم .

﴿ وإمَّا تَخَافَنَّ مِن قوم خيانة فانْبِذْ اليهم على سَواء، إن الله لايحب الخائنين ﴾ الانفال : ٥٨ .

والمعنى : وإما تخافن من قوم معاهدين خيانة ونكثاً لامارات تلوح لك فاطرح اليهم العهد على سواء ؛ اي على طريق مستقيم وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد، وتخبرهم اخباراً مكشوفاً بيناً أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهمهم بقاء ذلك العهد، فيكون ذلك خيانة منك، إن الله لا يحب الخائنين .

شهادة بعض علماء الغرب في الفتح الأسلامي

نريد في هذا المقام أن نستشهد بأقوال مؤرخين وكتاب لا يمتون إلى الاسلام بصلة، وانما هم علماء اجتماعيون يعطون الحوادث حقها من العناية، ويضعون الأمور في نصابها .

قال الدكتور (جوستاف لوبون) في كتابه « حضارة العرب » : « سيرى القارىء حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، **أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن** ، وأن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن انتحل بعض الشعوب النصرانية الاسلام واتخذ العربية لغة له ، فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس عهد بمثله ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم تعرفها الأديان الأخرى »[1] .

ويقول في موضع آخر : «كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم فيقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ويسيئون معاملة المغلوبين ويكرهونهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في أنحاء العالم . ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت بعد غير خاضعة لهم ، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخراً . ولكن الخلفاء السابقين ، الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة ، أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً ، فعاملوا

(١) نقلا عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ١٤٥ .

أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم لهم ، وحفظ الأمن بينهم ، **والحق ان الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب** [1] » .

« ورحمة الفاتحين وتسامحهم كانا من أسباب اتساع فتوحهم واعتناق كثير من الامم لدينهم ونظمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم ، وإن أنكر ذلك المؤرخون، وتعد مصر أوضح دليل على ذلك، فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب وحافظت عليه ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم اليها من الفرس والأغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة وأن يحملوها على ما أتوها به »[2] .

ويقول في موضع آخر : « وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء اوروبة المنصفين القليلين الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب . قال (روبرتسون) في كتابه (تاريخ شارلكن) : **ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الجهاد والتسامح نحو اتباع الأديان الأخرى الذين غلبوهم وتركوهم أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية** » .

وقال (ميشود) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية): « إن الإسلام الذي أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الاديان الاخرى ، وهو قد أعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وقد حرّم قتل الرهبان — على الخصوص — لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس . وقد ذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود عندما دخلوها » .

ويقول الكونت (هنري دي كاستري) في كتابه (الاسلام خواطر وسوانح)

« بعد أن دانت العرب وآمنت بالقرآن واستنارت القلوب بنور الدين الحنيف برز المسلمون في ثوب جديد امام أهل الأرض قاطبة، هو المسالمة وحرية الافكار في المعاملات . وتتابعت آيات القرآن تأمر بالمحاسنة بعد تلك الآيات

---

(١) نفس المصدر ص ١٤٦ .

(٢) حضارة العرب ص ٦٢٩ .

التي كانت تنذر القبائل المارقة ... » . « هكذا كانت تعاليم النبي بعد إسلام العرب وقد اقتفى أثره فيها الخلفاء من بعده ، وذلك يحملنا على القول كما قال (روبرتسون) : إن شيعة محمد هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم ، وهذه المحبة التي دفعت العرب في طريق الفتح وهي سبب لا حرج فيه . فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة ، إذ أغاروا على الشام وساروا سير الصواعق الى أفريقيا الشمالية من البحر الاحمر الى المحيط الاطلانطيكي ولم يتركوا أثراً للعسف في طريقهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب وقتال ، فلم يقتلوا أمة أبت الاسلام »[1] .

« ولانتشار الاسلام ورضوخ الامم لسلطانه سبب آخر في هاتين القارتين آسيا وافريقيا الشمالية هو : استبداد القسطنطينية، فانه كان قد بلغ منتهى العسف ووصل جور الحكام الى درجة أزهقت النفوس، فلما جاء الاسلام تراموا اليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال »[2] .

« على ان الاسلام لم يكن له عمال مخصوصون يقومون بالدعوة له وتعليم مبادئه كما في الديانة المسيحية، ولو انه كان له أناس قوامون لسهل علينا إشكال معرفة السبب في تقدمه القريب ، فاننا شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركباً من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد ان يكون هو قد باشر فتح المدائن والاقاليم بجيوشه التي كان يصلي بها الأمم حرباً تجعل الولدان شيباً ، ولكننا لا نعلم للاسلام (مجمعاً دينياً) ولا رسلاً وراء الجيوش ولا رهبنة بعد الفتح، **فلم يكره أحد عليه بالسيف ولا باللسان بل دخل القلوب عن شوق واختيار وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير والأخذ بالألباب**[3] » .

وقد اعترف كثير من المؤرخين بأن انتشار الاسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية الى اللاهوت المسيحي ، وبسبب ما وجدوه في الاسلام من خير لهم ، وقدرته على نشلهم من الفوضى التي يتخبطون بها : « اما الشرق الذي عرف

---

(١) ص ٣٥ من الترجمة العربية لأحمد فتحي زغلول لكتاب L'islam impression et études

(٢) نفس المصدر ص ٣٨ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٩ — ٤٠ .

بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية الى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها . فلما اهلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي تمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ... وتزعزعت قواعدها الأساسية واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، ولم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة اغراء هذا الدين الجديد الذي بدّد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدّم مزايا مادية جليلة الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في احضان نبي بلاد العرب »[١] .

وجاء في كتاب (العالم الاسلامي الجديد)[٢] : « ولم يبتغِ العرب من فتوحهم احراز المغانم ودرس المعالم ، بل كانوا ضد ذلك ابناء أمة كريمة تحب العلم والتعلم ، وتجل ميراث الحضارات السابقة . وقد تشابكت بين الغالبين والمغلوبين أرحام المصاهرة وعقدت قلوبهما على الاخوة الدينية ، فلم يلبث الفريقان ان امتزج بعضهما ببعض ليخرجا للناس حضارة جديدة ، هي حضارة الاسلام التي احيت آثار اليونان والفرس والروم وطبعتها بطابع العزيمة العربية والعبقرية الاسلامية » .

هذه هي أقوال بعض المؤرخين والكتّاب في الفتح الإسلامي ، وهي سيرة لا يوجد لها مثيل في التاريخ الديني والاجتماعي لأمة من أمم الأرض مما يشهد على أن القرآن له تأثير في الجماعات البشرية مما لا يوجد لكتاب قبله ، وهو بذلك يعطي البرهان الواضح على أنه وحي إلهي .

---

(١) Caetani, vol ii p 1045 - 9

(٢) Le Nouveau Monde de l'Islam p 11

الفصل الرابع والعشرون

العقوبات في الإسلام

حالة الأمن قبل بعثة النبي — الجريمة والعقوبة — عقوبة القتل العمد — عقوبة القتل الخطأ — عقوبة الجناية على الأطراف — عقوبة قطع الطرق — عقوبة القذف — اللعان — عقوبة الزنا — عقوبة اللواط — عقوبة السرقة — عقوبة البغي — عقوبة شرب الخمر — عقوبة الارتداد عن الدين — التعزير — وصايا عامة للمحافظة على الأمن — المساواة في العقوبة — عقوبات الإسلام عادلة .

حالة الامن قبل بعثة الرسول

بُعث محمد ﷺ في عصر مضطرب الامن تسوده الفوضى من جميع نواحيه ، عصبيات جاهلية ، وارتكاب لأشنع المنكرات ، سلب وقتل وعدوان ، تغير القبيلة على الأخرى فتبدد شملها ، وتسلبها حرياتها ومالها ، وتعتدي على أعراضها ، فالحق للقوة الغاشمة . هذا ما كان في جزيرة العرب أما الشعوب المحيطة بها فلم تكن أسعد حظاً من الشعب العربي .

ولكن مشيئة خالق هذه الشعوب أرادت لها السلام فأوحت بالقرآن لمحمد ﷺ جامعاً لكل ما فيه سعادة المجتمع ورفاهيته ، ولنلق نظرة شاملة في تشريع الاسلام المتعلق بالمحافظة على الأمن والسلام وما شرعه من العقوبات على الجرائم ، لأنه من المتفق عليه: ان الجريمة اثر لفساد في نفس المجرم ، وان العقوبة اصلاح له أو وقاية للمجتمع من فساده .

الجريمة والعقاب

والجرائم في عرف الشريعة الاسلامية : هي محظورات شرعية زجر الله عنها بحد أو تعزير . والمحظورات : إما إتيان فعل منهي عنه ، أو ترك فعل مأمور

به . والشريعة الاسلامية تتفق تمام الاتفاق مع القوانين الوضعية الحديثة في تعريف الجريمة ، فالجريمة في عرف القوانين : عمل يحرمه القانون ، او امتناع عن عمل يقضي به القانون . ولا يعتبر الفعل أو الترك جريمة في نظر القوانين الوضعية إلا إذا كان معاقباً عليه .

علة التحريم والعقاب : والافعال المعتبر فعلها أو تركها جرائم ، هي التي يسبب اتيانها أو تركها ضرراً في نظام الجماعة : بعقائدها ، أو بحياة أفرادها ، أو بأموالهم ، أو بأعراضهم ، أو بمشاعرهم ، أو بغير ذلك من شتى الاعتبارات التي تستوجب حماية الجماعة وصيانتها .

وقد شرع العقاب في الجريمة لمنع الناس من اقترافها ، لأن النهي عن الفعل أو الامر باتيانه لا يكفي وحده لحمل الناس على اتيان الفعل أو الاقلاع عنه ، ولولا العقاب لكانت الاوامر والنواهي ضرباً من العبث .

والشريعة الاسلامية تتفق مع القوانين الوضعية في أن الغرض من تقرير الجرائم والعقاب عليها هو حفظ مصلحة الجماعة ، وصيانة نظامها ، وضمان بقائها . ولهذا قال الله تعالى في تعليل القصاص في القتلى : ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** [1] ﴾ البقرة : ١٧٩ .

لا جريمة ولا عقوبة بلا نص: وُجدت هذه القاعدة في الشريعة الاسلامية منذ ثلاثة عشر قرناً ، حين جاءت في نصوص القرآن . وبهذا تمتاز الشريعة على القوانين الوضعية التي لم تعرف هذه القاعدة إلا في أعقاب القرن الثامن عشر وقرّرت لأول مرة في إعلان حقوق الانسان الصادر في سنة ١٧٨٩ م ، ثم انتقلت هذه القاعدة من التشريع الفرنسي إلى غيره من التشريعات الوضعية . والحكمة من تقرير هذا المبدأ هي أن يكون الافراد على بينة من الجرائم التي يعاقب عليها القانون فيكون ذلك رادعاً لهم عن ارتكابها ، كما أن هذا المبدأ يمنع

---

(١) هذه الآية بيّنت حكمة القصاص بأنه يترتب عليه الحياة للأفراد والجماعات، لأن من علم انه إذا قتل فان القصاص له بالمرصاد كف عن قتل غيره . فتحفظ لهما حياتهما ويسلمان: هذا من القتل وذاك من القصاص .

وقد اشتهر عن هذه الآية انها أبلغ آي في القرآن فانها على إيجازها بينت حكمة القصاص بأسلوب لا يسامى ، وخص النداء بأولي الألباب مع ان الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم ولغيرهم لأنهم هم الذين يتدبرون عواقب الأمور ويعرفون قيمة الحياة . وانظر الى تذييلها : (لعلكم تتقون) أي كتبنا عليكم القصاص لتتقوا الجريمة خوفاً من القصاص

تعسف القضاء وباقي سلطات الدولة فلا يمكن أن يعاقب شخص بعقوبة تختلف عن العقوبة التي يعاقب بها غيره أو بعقوبة توضع بعد الجريمة .

والشريعة الاسلامية التي جاءت بهذه القاعدة لم تحدد العقوبات إلا في أمهات الجرائم وكبائر المعاصي ، وهي التي يضطرب بها الأمن ويفسد بها المجتمع . وقد ورد في القرآن ست عقوبات وهي : قتل النفس بغير الحق ، وقطع الطرق والقذف ، والزنا ، والسرقة ، والبغي .

وهناك عقوبات نص عليها النبي ﷺ وهي : عقوبة « شرب الخمر » و « الردة عن الاسلام » ، وما عدا ذلك من الجرائم لم تحدّد العقوبات فيها بل ترك لها امرها للحكام واهل الرأي من العلماء ليلاحظوا ملابسات الجريمة وحالة المجرم ، وما يناسب البيئة ويتفق مع أحوال الأمة . ولنسرد عقوبة كل جريمة باختصار[1] :

عُقوبة القَتْل العَمد

تعتبر جريمة القتل العمد من أخطر الجرائم وأشدها إخلالاً بالأمن ولذا فعقوبتها في كل القوانين والشرائع من أقسى العقوبات وغالباً يعدم القاتل ، وقد نشأت هذه الجريمة منذ وجدت الجماعة الانسانية وقبحتها جميع الديانات القديمة .

وإذا نظرنا إلى القانون الروماني القديم رأيناه يعطف على الجاني إذا كان من الاشراف فيرفع عنه القتل ويكتفي بنفيه ، وإذا كان من أواسط الناس كانت عقوبته قطع الرقبة ، وإذا كان من الطبقة الدنيا كانت عقوبته الصلب ، ثم غيرت بالقائه في حظيرة حيوان مفترس ثم غير هذا بالشنق .

والعرب قبل الاسلام كانت لهم عادات ونظم يرجعون اليها ، من بينها : قتل القاتل ، ولكنهم كانوا يُسرفون في تطبيق ذلك المبدأ ، ولا يتوخون فيه معنى

---

(١) قسم الفقهاء العقوبات الإسلامية الى ثلاثة أقسام : الأول : الحدود – وقد عرفوا الحد بأنه عقوبة مقدرة حقاً لله ، فمتى علم الحاكم ان مجرماً استحق عقوبة الحد فانه يجب عليه التنفيذ ولا يملك العفو . القسم الثاني : القصاص – وهو معاملة الجاني بمثل اعتدائه ، ولا يسمى القصاص حداً لأنه حق للعبد له فيه ان يعفو كما في القتل والجروح . والقسم الثالث : التعزير – وهو تأديب لا حد فيه ولا كفارة .

العدل . فكانوا كثيراً ما يعاقبون في سبيل ذلك البريء بدلاً من القاتل ، والعدد بالواحد ، بل كانوا كثيراً ما يأخذون الانسان بالبهيمة ، وكانوا يفعلون ذلك أيضاً في « الجراحات » والديات ، فيجعلون دياتهم وجراحاتهم ضعف ديات الخصوم وجراحاتهم ، وكثيراً ما دفعهم هذا العسف إلى الحروب ، فاندلعت ألسنتها فيما بينهم فاشتد أوارها ، وطال أمدها ، حتى تكاد تنتهي بفناء القبائل.

فجاء الاسلام بتشريعه العادل في عقوبة القتل، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر ، والعبد بالعبد، والانثى بالأنثى [1] ، فمن عُفي له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف وأداء اليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ البقرة : ١٧٨ ، ١٧٩ .

وجّه الله تعالى الخطاب الى المؤمنين على أن يقيمها الحاكم او من ينوب عنه ، ومعنى القصاص : ان يُفعل بالقاتل مثل ما فعل .

ثم قال سبحانه : (الحر بالحر ، والعبد بالعبد والانثى بالانثى) وفي هذا ابطال لما كان جارياً في جزيرة العرب من أنه : إذا قتل شخص من قبيلة ضعيفة شخصاً من قبيلة أقوى لا ترضى هذه إلا ان تقتل معه اشخاصاً من شيعته .

والاسلام لم يحتم عقوبة القتل لهذه الجريمة بل خيّر ولي القتيل بين القصاص للقاتل اي قتله او العفو عنه مع أخذ الديه (فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء اليه بإحسان) . والمراد بـ (شيء) في الآية ، اي من العفو ، أي: لو عفى واحد من اولياء القتيل وجب اتباعه وسقط القصاص . وعبّر الله عن العافي بلفظ الأخ تذكيراً بالاخوة البشرية والدينية ، وحتى يثير عطف كل واحد منهما على الآخر فيقع بينهم العفو والتراحم .

وانما يعفو من له حق طلب القصاص ، وقد جعل الله هذا الحق لأولياء المقتول ، وهم عصبته الاقربون ، فلهم ان يطلبوا ازهاق روح القاتل لانه اذا لم يُجبهم الحاكم الى طلبهم ولم يقتص لهم فانهم ربما يحتالون للانتقام،

---

(١) سياق مقابلة الأصناف بالأصناف يفهم منه ان لا يقتل فريق بفريق آخر ، وهو غير مرادإطلاقاً ، فقد جرى العمل في زمن الرسول على قتل الرجل بالمرأة . وتقتل الجماعة إذا اشتركت في قتل واحد .

ويفشو بينهم وبين القاتل وقومه التشاحن والخصام ، وهذا مشاهد الآن ، وخصوصاً في الأمم التي تعيش على حالة قبلية ، اما اذا جاء العفو من جانبهم أمن الضرر والفتنة ، ولا سيما اذا كان من اسباب العفو استعطاف القاتل وقومه بإثارة عاطفة الأخوّة الدينية ، وأريحية المروءة الإنسانية .

كما انه قد تقع جرائم قتل يكون فيها الحكم بقتل القاتل ضاراً ، كأن يقتل الإنسان أخاه أو أحد أقاربه لعارض دفعه الى ذلك ، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت فيكون حجب الدم افضل .

وليس للحكومة أن تستقل بالعفو إذا طلب أولياء القتيل القصاص ، ولا أن تمتنع من العفو اذا رضوا به الا اذا كان اطلاق سراحه يهدد الأمن ، فللحاكم أن يؤدبه بما يراه زاجراً ، وان يجعله تحت المراقبة التي تحول بينه وبين العدوان.

وفي حالة العفو عن الجاني تجب الدية[1] ولذلك يقول الله تعالى : (فاتباع بالمعروف واداء اليه بإحسان) وصية من الله لولي المقتول ان يتبع عفوه بالمعروف فلا يثقل عليه بالبدل ، ولا يحرجه في الطلب ، ووصية منه للقاتل بأن يؤدي الدية بإحسان ، أي لا يماطل ولا يبخس فيها .

أما قوله تعالى بعد ذلك : (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) فهو امتنان من الله سبحانه على عباده بما في هذا التشريع الذي تضمن فتح باب العفو والاكتفاء بالدية ، فانها تخفيف على القاتل ونفع لاولياء القتيل . ثم ختم الله هذه الآية بتحذير من يرجع بعاطفة الغضب الى قصد الانتقام فيقتل « أخاه » الذي عفا عنه (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) عذاب الدنيا بالقصاص وعذاب الآخرة بعقاب الله .

العقوبة الأخروية : هذا ولم يترك القرآن أمر القتل على القصاص في الحياة الدنيا بل أوعد القاتل بالعذاب يوم القيامة ، والخلود في هذا العذاب المرير ، قال تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ النساء : ٩٣ .

وحذّر القرآن من قتل النفس مطلقاً سواء أكانت نفس المرء بقصد الانتحار أم نفس سواه .

---

(١) الدية مائة من الإبل وتقدر بألف دينار .

﴿ ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ولا يزنون ومَنْ يفعل ذلك يلق اثاماً يُضاعَف لَهُ العَذَابُ يوم القيامة ويَخْلُدْ فيه مُهاناً ﴾ الفرقان .

ويقول النبي ﷺ : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، فقيل: هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال: انه كان حريصاً على قتل صاحبه).

عُقوبة القَتْل الخَطأ

أما القتل خطأ فقد بينته هذه الآية القرآنية : ﴿ وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً إلاّ خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة وديّة مسلّمة إلى أهله إلاّ ان يصدّقوا ﴾ النساء : ٩٢ .

والمعنى : أي ليس من شأن المؤمن ولا من خلقه ان يقتل أحداً من المؤمنين لكن قد يفعل ذلك خطأ كأن أراد رمي صيد أو غرض فأصاب مؤمناً . وعلى القاتل حينئذ تحرير نفس مؤمنة من الرق ، وان يدفع دية الى أهل المقتول ، وهي مائة بعير مختلفة السن أو يدفع قيمتها ، فإذا أسقطها أهل المقتول سقطت .

عُقوبَة الجنَاية عَلى الأطرَاف

وأما الجناية على الاطراف من يد أو عين، فقد جعلت الشريعة الاسلامية عقوبتها : أن يفعل بالجاني مثل ما فعل ، لقوله تعالى :

﴿ وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالانف والأذن بالأُذن والسنّ بالسن والجروح قِصاص، فمن تَصَدّق به فهو كفّارة له ﴾ المائدة : ٤٥ .

ولكن يشترط المماثلة بين العضوين ، فلا تفقأ عين سليمة في نظير عين عوراء، هذا هو العدل المطلق، وقد جاء في القرآن: ﴿ وجزاء سَيئة سيئة مثلها ﴾.

كما ان للمجني عليه أن يعدل عن طلب القصاص بالعفو عن الجاني وفقاً لما حض عليه القرآن من العفو والتسامح : ﴿ فمن عفا واصلح فأجره على الله ﴾

وإذا اسقط المجني عليه حقه في القصاص فله دية جروحه ، وقد عيّن قدرها الفقهاء في كتب الفقه .

« والقوانين الوضعية الحديثة تعترف بعقوبة القصاص ، ولكن تطبقها على

جريمة القتل فقط ، فتعاقب بالاعدام على القتل ، ولكنها لا تعاقب بالقصاص على الجراح ، وتكتفي في عقاب الجارح بالغرامة والحبس أو بأحدهما . ولا شك في ان الشريعة الاسلامية حين سوت بين القتل والجراح في نوع العقوبة كانت طبيعية ومنطقية . أما القوانين الوضعية فقد باعدت بين نفسها وبين المنطق وطبائع الاشياء حين فرقت في نوع العقوبة بين هاتين الجريمتين ذلك ان جريمتي القتل والجرح من نوع واحد وينبعثان عن دافع واحد ولا يكون القتل قتلاً قبل ان يكون ضرباً أو جرحاً في أغلب الأحوال ... وما دامت الجريمتان من نوع واحد فوجب أن تكون عقوبتهما من نوع واحد » [1] .

عقوبة قطع الطرق

قطاع الطرق : هم العصابات المسلحة التي تتربّص بالمارة ليلاً أو نهاراً وتعمل فيهم القتل أو السلب ، وهم الذين ورد ذكرهم في القرآن : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ان يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم . الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم ﴾ المائدة : ٣٣ ، ٣٤ .

وحكم الشريعة فيهم ينحصر فيما يلي :

أولاً : الاعدام إن ثبت أنهم ارتكبوا القتل .

ثانياً : الصلب مع القتل إن قتلوا وسلبوا الاموال ، على خلاف بين الأئمة في الصلب .

ثالثاً : قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف « اليد اليمنى والرجل اليسرى ، هذا إن اقتصروا على سلب المال دون سفك الدماء .

رابعاً : النفي إن استعملوا الارهاب ، ولم يقتلوا ولم يسلبوا . وقد فسر النفي بعض الأئمة بالحبس .

وقد استثنى الله من تابوا وأنابوا من قبل أن يتمكن الحاكم من معاقبتهم فهؤلاء تسقط عنهم العقوبة ، ولكن تبقى عليهم حقوق العباد ، فسالب

(١) « التشريع الجنائي » للأستاذ عبد القادر عودة .

المال أيام افساده إذا تاب للحاكم أن يطالبه بها ، ومن قتل تنفذ عليه عقوبة القصاص كما مر ذكرها إما العفو مع الدية وإما القتل كما يرتئي أولياء القتيل .

عُقوبَـة القَذف

القذف هو أن يتهم شخص شخصاً آخر زوراً بالزنا اتهاماً صريحاً كأن يقول له : أنت زان ، أو دلالة كأن ينسب شخصاً إلى غير أبيه ، فمن صدر منه ذلك كان جزاؤه أن يُجلد ثمانين جلدة ما لم يأت بأربعة شهداء رأوا بأعينهم المتهم يزني بامرأة ، ويستوي الحكم فيما إذا كان القاذف رجلاً أو امرأة ، وكذا إن كان المقذوف رجلاً أو امرأة . والأصل في ذلك ما جاء في القرآن :

﴿ والذين يرمون المحصنات[1] ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ النور : ٤ .

على ان الآية قد أشارت إلى أهم شرط من هذه الشروط وهو : ان يكون المقذوف محصناً[2] ذكراً كان أم انثى . ومعنى إحصانه هنا : ان لا يكون قد ارتكب جريمة الزنا قبل قذفه ، وقبل إقامة العقوبة عليه ، فإن ثبت عليه ذلك فانه لا يكون محصناً وتسقط العقوبة عن القاذف .

وإنما خَصَّ الله المقذوف من النساء بالذكر حين عبر (بالمحصنات) لأن ضرر الزنا يتعدى المرأة إلى أسرتها ، فقذفها يصيبهم منه عار عظيم بخلاف الرجل ، وكذلك خص القاذف من الرجال بالذكر حيث قال : (والذين يرمون) لأن النساء يغلب عليهن الحياء عادة ، فلا يقذفن الرجل بالزنا .

وقد بينت السُنّة أنه لا فرق بين الرجال والنساء في القذف ، كما بينت الشروط اللازمة لإقامة حد القذف من عقل وحرية الى آخر ما هو مبين في كتب الفقه ، كما أنه يترتب على عقوبة الجلد للقاذف عقوبة تبعية وهي الحرمان من حق أداء الشهادة لقوله تعالى : (ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) .

اللعان : أما حق الزوج فان الشريعة الاسلامية لم تهمله في حال ما إذا رأى امرأته تزني بل جعلت له مخرجاً معقولاً يدفع عنه أذى الغضب والغيظ من

---

(١) يرمون المحصنات : يتهمون العفيفات من النساء والاعفاء من الرجال بالزنا .

(٢) شروط الإحصان في القذف : الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والعفة عن الزنا .

جهة ، ويخفف ما علق به من العار من جهة أخرى . وبيان ذلك : أن الاجنبي إذا رمى امرأة عفيفة أو رجلاً عفيفاً بالزنا ولم يأت بأربعة شهود كان جزاؤه أن تنفذ عليه عقوبة القذف كما مرّ بيانها .

أما الزوج فانه إذا ادعى أن امرأته قد زنت فإن الشريعة لم تكلفه الإثبات كالاجنبي ، إذ لا مصلحة للزوج العاقل في قذف زوجته واتهامها بالزنا جزافاً ، فان عار ذلك يلحق أبناءه وبناته ، فان لم يكن له منها أبناء وبنات فانه يضن بكرامته عن الامتهان بين الناس ، ولهذا شُرع للزوجين في هذه الحالة اللعان ، وهو أن يقول الزوج أمام القاضي : أشهد بالله أنني صادق فيما رميتها به من الزنا ، ويكرر ذلك أربع مرات ، ثم يقول بعد ذلك : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . وتقول الزوجة : أشهد بالله انه لكاذب فيما يرميها به من الزنا ، وتكرر ذلك أربع مرات ، ثم تقول : إنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، وبذلك تتملص من العقوبة . والاصل في ذلك ما جاء في القرآن :

﴿ والذين يرمون ازواجهم ولم يكن شهداء إلا انفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ[1] عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ النور : ٦ — ٩ .

ويترتب على هذا : أن ينقطع الزواج بينهما ، وتحرم الزوجة على الزوج إلى الابد ، ويلحق الولد بالمرأة .

عقوبة الزنى

أما عقوبة الزنا فقد فرقت الشريعة الاسلامية فيها بين المحصن[2] وغير المحصن ، رجلاً كان أو امرأة .

أما غير المحصن وغير المحصنة ، أي غير المتزوجين ، فقد قدرت العقوبة لهما بمائة جلدة . والأصل في ذلك ما جاء في القرآن : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون

(١) يدرأ : يدفع .
(٢) شروط الإحصان التي يتوجب بمقتضاها رجم الزاني والزانية هي : الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والدخول في زواج صحيح .

بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ النور : ٢ .

أما المحصن أو المحصنة فجزاؤهما الاعدام رجماً ، لقول النبي ﷺ : (لا يحل دم امرىء مسلم إلاّ بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزناً بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق) .

وعقوبة الزنا منوطة في الواقع بإقرار الزاني ، فإذا لم يقر فانه لا يمكن إثبات الزنا عليه بالبينة ، والبينة لا تثبت إلا بأربعة شهود عدول يرون حقيقة الزنا بالفعل ، وذلك إن لم يكن محالاً فهو متعسر ، كما أن هؤلاء الشهود الأربعة إذا أخلّ واحد منهم في أداء الشهادة يتعرض الثلاثة الباقون لعقوبة القذف .

والحكمة من هذا التشديد في إثبات هذه الجريمة كي لا يجرؤ الناس على اتهام بعضهم بعضاً دون مبالاة .

ومن يتتبع حالات رجم الزاني في عهد النبي ﷺ وأتباعه يجد أن الحد وقع باعتراف الزاني لا بشهادة الشهود الأربعة ، حتّى أن المعترف بالزنا كان النبي يحقق معه سائلاً إياه أسئلة متعددة حتّى يتبين حقيقة اعترافه ليخفف عنه الحد بشبهة ترد في اعترافه ، فكان يقول له : لعلك قبلت ، لعلك لامست. فكأن هذه العقوبة لا تنفذ إلا على من أراد أن يطهر نفسه من هذه الفاحشة .

عُقوبَة اللـوَاط

أما اللواط فإنه من الجرائم الخلقية التي لا تليق بالنوع الإنساني ، فهو عدوان ظاهر على الانسانية ، ولهذا سماه الله فاحشة كالزنا . قال الله تعالى في شأن قوم لوط الذين انتشرت فيهم هذه الفاحشة : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ العنكبوت : ٢٨.

ثم يحدثنا القرآن بأن الله عاقبهم على سوء فعلهم ﴿ إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ العنكبوت : ٣٤.

وعقوبة اللواط في الشريعة الاسلامية كعقوبة الزنا كما ذهب بعض العلماء . وقيل : يقررها الحاكم بما تقتضي به المصلحة ، وبما يزجر الناس عن فعل ذلك العمل البشع ، وقيل : يقتل الاثنان .

عُقوبَة السَّرقَة

أما السرقة فعقوبتها كما جاء في هذه الآية : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ﴾ المائدة : ٣٨ . وقد فسرها النبي ﷺ باليد اليمنى .

ويشترط في السرقة التي تستوجب العقوبة عدة شروط :

أولاً : أن يكون السارق عاقلاً بالغاً، فالمجنون لا عقوبة عليه اذا سرق، والصغير لا تقطع يده وإنما يضمن وليه قيمة المسروق مع تأديبه .

ثانياً : ان يأخذ السارق مال الغير الذي ليس له فيه أدنى ملك . أما إذا كان شريكاً وسرق من مال الشركة فلا يعتبر عمله سرقة وإنما يعتبر خيانة، فتبدل عقوبة قطع اليد بعقوبة أخرى .

ثالثاً : أن يأخذ السارق المسروق من حرز مثله، أي من محل محفوظ فيه، فالمال الضائع من صاحبه ، والثمر الذي يكون في الشجر بلا حائط ، والماشية التي لا راعي لها ، ونحو ذلك فلا قطع فيها، ولكن يعزّر الآخذ بعقوبة أخرى.

رابعاً : أن لا تقل قيمة المسروق عن ربع دينار، لقول النبي ﷺ : (تقطع اليد في ربع دينار فأكثر) والحكمة في هذا التحديد هو أن الشريعة جعلت سبب قطع اليد في ما له قيمة في الجملة، أما ما دون ذلك فإنه لا يوجب القطع لقلته بل تجب عليه عقوبة التعزير من ضرب وسجن ونحوهما، ومثل ذلك إذا ما أراد أن يسرق فنقب الدار أو تسور الجدار ثم منعه من السرقة مانع .

خامساً : أن لا تكون السرقة عن حاجة ملحة كالجوع الشديد، ففي هذه الحالة يعدل عن عقاب السرقة إلى عقاب أخف وطأة، فإن عمر بن الخطب منع قطع اليد في عام المجاعة .

عقوبَة البَغي

والاسلام أتى بتشريع عادل للمحافظة على الامن الداخلي قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تَفيء إلى أمْر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إنّ الله يُحبُّ المقسطين ﴾ الحجرات : ٩ .

والمعنى : إن اقتتلت طائفتان من المؤمنين فاصلحوا بينهما بالدعوة إلى حكم الله، فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الاستجابة الى حكم الله وقبلت الاخرى فقاتلوا التي تعتدي وتأبى الاستجابة إلى حُكمِه حتى ترجع وتخضع طائعة له ، فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها فأصلحوا بينهما بالعدل إن الله يحب العادلين .

عقوبة شرب الخمر

أما عقوبة شارب الخمر فهي أربعون جلدة، فقد روى مسلم عن أنس : (كان النبي يضرب في الخمر بالجريد والنعال أربعين) وعن عليّ رضي الله عنه : (جلد النبي ﷺ أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وكلّ سنة ، وهذا أحب إليّ) .

وعلى هذا فللحاكم أن يزيد على أربعين جلدة إلى ثمانين على وجه التعزير .

وتقام العقوبة على الشارب إذا شهد عليه شاهدان عدلان ، أو أقرّ على نفسه ، وكان الشرب لغير ضرورة كالتداوي مثلاً .

عُقوبَة الـردّة

وفي عقوبة المرتد عن دينه، يقول النبي ﷺ : (من بدّل دينه فاقتلوه)، وحكمه ذلك: أن الاسلام لا يسوغ لذوي الاهواء أن يعبثوا بالإديان فيدخل في الاسلام لغاية ثم يخرج منه لغاية، بل اعتبر ذلك لعباً بالدّين وتضليلاً للمتدينين، ولذلك اعتبر القرآن الردة من أشد التضليل . قال الله تعالى :

﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ النساء : ١٣٧ .

التعـزيـر

أما التعزير فهو التأديب بما يراه الحاكم زاجراً للمذنبين : « فكل من أتى فِعلاً محرماً لا عقوبة عليه في القرآن والسنّة ، أو جريمة من الجرائم التي حددت لها عقوبة ، ولكن لم تتوفر فيها شروط تنفيذ هذه العقوبة، فإن على الحاكم أن يعزّره بما يراه زاجراً له ليمنعه من العودة الى هذا الفعل المحرم » . قال

الامام ابن تيمية في رسالته عن الحسبة: « منها عقوبات غير مقدرة، وتسمى: التعزير ، وتختلف مقاديرها وصفاتها بحسب كبر الذنوب وصغرها، وبحسب حال الذنب في قلته وكثرته ، والتعزير أجناس: فمنه ما يكون بالتوبيخ والزجر والكلام ، ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي عن الوطن، ومنه ما يكون بالضرب ... والتعزير بالعقوبات المالية مشروع أيضاً، في مواضع مخصوصة في مذهب مالك في المشهور عنه » .

من الجنايات التي يجب فيها التعزير : شهادة الزور ، أو أن يغش شخص شخصاً آخر ، أو يخدعه ، أو يحتال عليه ، أو يطفف الكيل والميزان ، إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره هنا .

فالتعزير مجال واسع أمام الحاكم يؤدب به من شاء ما دام رائده إصلاح المسيء ومنع استفحال خطره، وفي هذا من دقة التشريع الاسلامي ما يدل على أنه وحي من الله، فان مما لا ريب فيه أن أحوال الناس تختلف باختلاف الازمنة والأمكنة ، فالعقوبة التي تناسب جماعة لها حالة خاصة، لا تناسب جماعة اخرى تخالفها في عاداتها وأطوارها . وتعتبر العقوبة غير المحددة المدة في عصرنا الحاضر من العناصر الجوهرية في تدابير الأمن . ومن أحدث العقوبات التي يعالج بها الاجرام على أساس من علمي النفس والاجتماع .

وصايا عامة للمحافظة على الأمن

وفي القرآن والحديث وصايا عامة تتعلق بالمحافظة على الامن ، من ذلك: ما ورد في القرآن بوجوب أداء الشهادة بالحق وعدم كتمانها، لأن أكثر الجرائم يتوقف ثبوتها على وجود شهود لها ، ولذلك جاء في القرآن : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾ البقرة : ٢٨٣ .

كما أن شهادة الزور جعلتها الشريعة من أكبر كبائر المحرمات وقرنتها بالإشراك بالله (عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الاشراك بالله ، عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ، عدلت[1] شهادة الزور الإشراك بالله ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور .

---

(١) عدلت : ساوت .

حنفاء لله غير مشركين به ﴾ الحج : ٣٠، ٣١ .

وسنسرد بعض وصايا النبي ﷺ في المحافظة على الأمن والتي لها تعلق بالعقوبات التي ذكرناها : « لو يعطى للناس بدعواهم لادّعى رجال أموال قوم ودماءهم ، لكن البيّنة على المدعي واليمين على من أنكر[١] » . «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . «كل أحد أحق بماله من ولده ووالده والناس أجمعين » . « لا ضرر ولا ضرار »[٢]. « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

المساواة في العقوبة

ومما تمتاز به الشريعة الاسلامية عن الشرائع القديمة : المساواة في تطبيق قانون العقوبات بلا استثناء وهذا ما يشهد بعدالتها ، فقد كان نظام الطبقات قبل الاسلام معروفاً عند الرومان ، فقانونهم يقول: « ومن يستهوي أرملة مستقيمة أو عذراء فعقوبته إن كان من بيئة كريمة مصادرة نصف ماله، وإن كان من بيئة ذميمة فعقوبته الجلد والنفي من الارض »[٣].

أما الاسلام فقد سوّى بين الجميع في تطبيق العقوبة. من ذلك ما روت عائشة زوج رسول الله : « أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ؟ ثم قالوا: من يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله[٤] ، فكلمه أسامة ، فقال رسول الله: يا أسامة أتشفع في حدّ من حدود الله[٥] ! ثم قام فاختطب[٦] فقال: إنما أهلك الذين من قبلكم انهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٧] .

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ أقسم أنه لا يتأخر عن تنفيذ في القانون على الجميع ولو على بنته نفسها، وذلك حق لا ريب فيه، فإذا لم ينفذ القانون على

---

(١) أخرجه البيهقي ، وجاء بعضه في الصحيحين .

(٢) فمعنى قوله (لا ضرر) أي لا يضر الرجل أخاه وهو ضد النفع وقوله : (ولا ضرار) أي لا يضار كل واحد منهما صاحبه ، فالضرار منهما معاً والضرر فعل واحد .

(٣) مدونة جوستنيان ص ٣١٦ ترجمة المرحوم الأستاذ عبد العزيز فهمي .

(٤) حب رسول الله : أي محبوباً من الرسول . (٥) أي ما كان يليق بك ان تجرؤ على ذلك .

(٦) اختطب : خطب . (٧) رواه البخاري ومسلم .

القوي والضعيف بنسبة واحدة كان ذلك تحريضاً للقوي على انتهاك حرمات الضعيف والعدوان عليه وهو آمن من العقاب ، وهذا هو عين الفوضى المقوضة لدعائم العمران .

عقوباتُ الإسلام عادلة

ونختم هذا البحث بدحض شبهة عن العقوبات الاسلامية : بأنها قاسية لاتتفق مع روح المدنية لأنها حكمت برجم الزاني إذا كان متزوجاً ، وبجلد غير المتزوج مائة جلدة وقضت بقطع يد السارق وبجلد شارب الخمر أربعين جلدة .

ولدحض هذه الشبهة نقول : ان جميع الشرائع والقوانين السماوية والوضعية غايتها المحافظة على الضرورات الخمس : النفس ، والعقل ، والمال ، والنسل ، والعرض ، إذ يترتب على التفريط فيها والاعتداء عليها : التنازع ، وسفك الدماء ، وفقدان الامن ، وانتشار المفاسد والشرور ، ولكن القوانين الوضعية تنكبت عن الصراط السوي فلم تستطع المحافظة عليها بما يقطع دابر الفساد ، وذلك لانها لم تحرم الزنا الا في حالات معينة ، وأباحته عند الرضا في أكثر الحالات ، محتجة بالمحافظة على الحرية الشخصية ، فكانت عاقبة ذلك : كثرة اللقطاء ، وانتشار الامراض السرية ، والإحجام عن الزواج .

أما الاحتجاج بالحرية الشخصية فمردود، فان من القواعد المعروفة: أن للانسان مطلق الحرية الشخصية إلا فيما يعود بالضرر على نفسه أو على غيره ، وقد ثبت بالتجربة والمشاهدة أن الزنا ضار بالزانيين صحياً وأدبياً ، ويتعدى الضرر منهما إلى غيرهما من اسرتيهما ، وهي تدنسهما بفضيحة الجناية على الاعراض التي تعتبر عند الامم الشرقية كالتعدي بالقتل ، ولهذا نراهم يحفزهم دافع الشرف إلى الانتقام لأعراضهم ، وبذلك كثرت جرائم القتل من أجل الزنا.

كذلك أباحت القوانين الوضعية تعاطي المسكرات بحجة الحرية الشخصية وما دروا أن هذه الحرية جانية بشهادة الاطباء الذين قرروا ضرر الخمور للجسم ، هذا إلى جانب إضاعتها للمال في غير مصلحة ، وجنايتها أيضاً على العقل ، وذلك شر عظيم قد يؤدي إلى مفسدة كبرى ، فقد يقتل السكران غيره ، وقد يهجر زوجته ، ويخرب بيته .

أفترى مع هذا أن عقوبة الحبس أو التغريم زاجرة رادعة ؟ لا شيء من

ذلك يكون رادعاً إلا أن تكون العقوبة بدنية لأنها أشد وقعاً على النفس ، وأبلغ في زجر الجانين ، وردع غيرهم .

أما عقوبة القذف بثمانين جلدة فهي عادلة لأن القذف اعتداء على الاعراض التي يقتضي النظام العام صيانتها ، لأن قذف المحصنات بالزنا يسبب العداوة والبغضاء بين الأسر ، ويولد الضغائن والاحقاد ، وربما أفضى إلى الانتقام بقتل الانفس وذلك شر وبيل يستحق عقوبة شديدة تزجر الناس عنه .

اما السرقة التي تعاقب عليها الشريعة الاسلامية بقطع اليد فهي عادلة أيضاً لأن السارق يأخذ خفية ويعتدي على صاحب المال في غفلته ، فهو جبان في اعتدائه ، يستلب منه أعز شيء لديه بعد حياته ، وقد يرتكب جريمة القتل مع السرقة ، بل كثيراً ما تقع هذه الجريمة كوسيلة يتذرع بها السارق إلى إتمام سرقته والفرار من تبعاتها فيقتل من غير تمييز .

فاذا كانت عقوبة السارق هي الحبس كما تفعل القوانين الوضعية فهل ينزجر بها ويرتدع ؟ وهل يتحقق بذلك الأمن على النفوس والاموال ؟ كلا ... ولهذا نرى السرقات لا تقل ولا تنقطع ، بل تكثر لأن العقوبة غير زاجرة ، ومن ثم نرى اللصوص في هذا العصر ، ينظمون أنفسهم ويكونون عصابات قوية مسلحة كأنها حكومة داخل حكومة كما نشاهد في امريكا وغيرها .

ولو كانت عقوبة السارق قطع اليد لأخفنا جميع المجرمين خوفاً يمنعهم من اقتراف جريمة السرقة ، فتصبح السجون خالية منهم ، وتستريح دوائر الأمن وقضاة المحاكم من تلك المزعجات المقلقات التي لا حد لها .

فلو طبق الشرع الاسلامي في السرقة لانحسم الشر من أصله كما نشاهد آثار ذلك حالياً في المملكة العربية السعودية ، وقد كانت من قبل مسلوبة الأمن لا يطمئن فيها مقيم على نفسه وعلى ماله ، فانها بتنفيذها عقوبة قطع يد السارق — مرّات معدودة — قد أمنت من تكرار هذه الجريمة . هذا وقد قرّرت اخيراً الجمهورية العربية الليبية تطبيق عقوبة السرقة وفق الشريعة الاسلامية .

بذلك البيان الذي أوضحناه يقتنع كل منصف بأن العقوبات التي شرعها الاسلام قد دعت اليها الحكمة ، واقتضتها مصلحة الافراد وسعادة الجماعات ، ويصلح تطبيقها في هذه الايام كما صلح ذلك منذ أربعة عشر قرناً .

الفصل الخامس والعشرون

صحة الأبدان في الإسلام

فائدة الوضوء – فائدة الاستحمام – تنظيف الأسنان – قص الأظافر والشعر – التطهير من النجاسة – تحريم أكل الميتة وأنواعها – أضرار أكل الحيوان المفترس والطير الجارح – أضرار تناول الدم – أضرار أكل لحم الخنزير – أضرار تعاطي الخمور – النهي عن الشراهة – فوائد الصيام – فوائد العسل – التداوي – الحجر الصحي – اعتزال الحائض – أضرار الزنا – نجاسة الكلب – فائدة الصلاة – النهي عن الإجهاد .

العناية بصحة الأبدان

وضع الاسلام للابدان تشريعات خاصة تقيها من العلل وتحفظها من الأمراض ، وذلك لما للصلة المتينة بين الروح والجسد ، ولأن صاحب الجسد العليل لا تتاح له الفرصة للسير في مضمار الحياة ، والقيام بواجبه الانساني كعضو في الهيئة الاجتماعية .

فالانسان المريض ضعيف الارادة ، واهي الأعضاء ، مضطرب التفكير ، عصبي المزاج لا يستفيد منه المجتمع الانساني كما يستفيد من الاصحاء الاقوياء ، لذلك مدح الله في القرآن قوة البدن مع سلامة النفس ومتانة الاخلاق في قوله على لسان ابنة شعيب عن موسى عليه السلام : ﴿ يا أبت ستأجره إن خير من استأجرت القوي الامين ﴾ القصص : ٢٦ .

كما قد وردت آية اخرى في القرآن تدل على أن القوة البدنية ميزة محمودة . قال الله تعالى في طالوت : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم

ملاحظة : من مصادر هذا البحث : محاضرة للدكتور محمد وصفي عنوانها : « الإسلام وصحة الأبدان » نشرها في مجلة الشؤون الاجتماعية في القاهرة في ابريل ١٩٤١ .

والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ البقرة : ٢٤٧ .

والخطاب في هذه الآية لبني اسرائيل ، وقد بين الله أن اختياره لطالوت وتفضيله عليهم لأمرين هما : بسطة العلم وهو السعة في العلم الذي يكون به جودة الفكر وتدبير شؤون الأمة ، وبسطة الجسم وهو الكمال الجسماني المستلزم لصحة الفكر .

والحديث الشريف لم يخل من الاشارة إلى مزية المؤمن القوي ، قال النبي ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كُلٍّ خير)[1] .

والذي يتتبع التشريعات الاسلامية المتعلقة بصحة الابدان يلاحظ أن الاسلام فرض على أهله كثيراً من الاصول التي يعتبرها الطب الحديث اليوم من القواعد الاولية التي تصلح لدفع أكثر الامراض قبل وقوعها ، وللتخفيف من حدتها إذا وقعت ، وقد عني الاسلام بالتشريعات الوقائية ، ثم بالتشريعات العلاجية التي تخفف من علل الاجسام كما سنرى في هذا البحث .

التشريعات الوقائية : إن خير علاج للمرض هو أن تتفادى الوقوع فيه ، هذا ما يقوله الطب ، أي : ان الوقاية خير من العلاج ، لذلك نرى الطب الوقائي يزدهر وينمو في الدول المتحضرة ، ونرى حكومات هذه الدول تعمل على تلقينه لأبناء المدارس والمواطنين كشيء ضروري لا غنى عنه ، هذا وإن التشريعات الوقائية في الاسلام تقسم إلى أربعة أقسام رئيسية ، ولكل منها أجزاء تتفرع عنها : (١) النظافة (٢) المأكل والمشرب (٣) الصحة العامة (٤) الرياضة البدنية .

النظافة

عني الاسلام بالنظافة عناية فائقة ، قال النبي ﷺ : (النظافة من الايمان) ، ويظهر حرص الاسلام على النظافة من الامور الآتية :

---

(١) رواه مسلم .

فائدة الوضوء

فالوضوء شرع في الاسلام قبل القيام الى الصلاة قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ﴾ المائدة : ٦ .

وسنّ النبي زيادة على فرائض الوضوء : المضمضة ، والاستنشاق ، ومسح الأذنين ، وتدليك أجزاء الجسم التي يمرّ عليها ماء الوضوء ، وتخليل ما بين أصابع اليدين والرجلين ، وغسل كل عضو ثلاث مرات .

وإذا كان في اليوم والليلة خمس صلوات وكانت الطهارة واجبة عند كل صلاة علمنا أن عملية الوضوء – التي قد تتكرر خمس مرات أو ثلاث مرات أو مرتين – تقي العيون من إصابتها بالرمد ، لأن العين تغسل بالماء النظيف عدة مرات في اليوم، كذلك فإن غسل المنخرين بماء بارد من أهم أسباب الوقاية من الزكام المتكرّر ... وفوائد غسل الوجه والاذنين والأيدي ظاهرة لكثرة ما يصيب الوجه والأجزاء المعرضة عادة من الأمراض الجلدية والالتهابات، فإن غسلها عدة مرات كل يوم أحسن وقاية لها ، وقد اتضح أخيراً أن كثيراً من الجراثيم ، تصيب الانسان بطريق اختراق الجلد أيضاً . ولا شك في أن الغسل المتكرر من الوقايات البسيطة الفعالة ، لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع كل الجراثيم من الوصول الى داخل الجسم . وأما الجراثيم التي تدخل من الفم فلا تدخل إلّا من طريق تلويث الأيدي ، فإذا كانت الأيدي مغسولة نظيفة على الدوام كان ذلك وقاية من الجراثيم .

فائدة الاستحمام

وأوجب الاسلام غسل جميع البدن بالماء للرجل والمرأة عقب الاتصال الجنسي أو الاحتلام ، جاء في القرآن: ﴿ وإن كنتم جُنُباً فاطّهروا ﴾ المائدة: ٦

والطهارة عملية نافعة جداً للرجل والمرأة على السواء ، فقد ثبت طبياً وعملياً ان الجسم الانساني يفقد شيئاً من حيويته وقوته بعد الانتهاء من الاتصال الجنسي وليس من شيء يعيد اليه تلك القوة الحيوية مثل أن يُغسل الجسم كله، ويدلك جزءاً جزءاً بالماء النظيف .

تنظيف الأسنان

والاسلام يحض على تنظيف الاسنان بالسواك او بسواه. يقول النبي ﷺ : (لولا أن أشق على امتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة)، والسواك عود من خشب شجر الأراك له ألياف دقيقة يستعمل لتنظيف الأسنان .

« ولو نظرنا اليه من الناحية الطبية لوجدنا هذا النبات يتكون كيميائياً من الياف السيليلوز وبعض الزيوت الطيارة، وبه راتنج عطري وأملاح معدنية أهمها : كلورور الصوديوم وكلورير البوتاسيوم واكسالات الجير .

فالسواك فرشاة طبيعية زودت بأملاح معدنية ومواد عطرية تساعد على تنظيف الاسنان، فنرى : أن النبي وأصحابه قد استعملوا فرشاة الاسنان الطبيعية منذ قرون بينما استعمل الناس الفرشاة لتنظيف أسنانهم لأول مرة حوالي سنة ١٨٠٠م.

هذا وإن الانسان إذا أهمل أسنانه سرى فيها الفساد والتسوس، وأفرزت السموم التي يمتصها الجسم وتسبب أمراضاً كثيرة »[١] .

واستعمال فرشاة الاسنان يتحقق بها مقصود الحديث .

قص الأظافر والشعر

أمر النبي بالاعتناء بسائر أجزاء البدن كحلق الشعر الزائد في الجسم، وقص الأظافر، فقال : « خمس من الفطرة : الاستحداد[٢] ، والختان، وقص الشارب ، ونتف الابط ، وتقليم الاظافر »[٣] .

والمراد بالفطرة في الحديث : السنة القديمة التي اختارها الانبياء واتفقت عليها الشرائع وكأنها أمر طبيعي فطروا عليه ، وقيل المراد بها : الدين .

التطهر من النجاسة

وأطلق الاسلام اسم النجاسة على كل ما هو ملوث بالجراثيم ، أو على الاقل عرضة لنقل العدوى والمرض الى الإنسان لذا أمر الاسلام بالتطهر منها ، من

---

(١) من مقالة للدكتور حامد البدري الغوابي في مجلة « لواء الإسلام » .

(٢) المراد بالاستحداد حلق شعر الأعضاء التناسلية .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

ذلك: تقريره نجاسة الدماء والمواد البرازية والبول والقيح إذا خرجت من الجسم، وجثة الحيوان الميت الى غير ذلك من القاذورات التي تأتي الأوبئة من طريقها .

ولهذا أوجب الاسلام طهارة الثوب من النجاسات في الصلاة قال الله تعالى : ﴿ وثيابك فطهّر ﴾ المدثر : ٤ .

ومما سنه الدين الاسلامي للنظافة : الاستنجاء بالماء الطاهر الذي يزيل عين النجاسة ، فإن لم يوجد ماء فبالحجارة والورق ونحوهما . ومن حكم الاسلام في الاستنجاء ما سنّه من استعمال اليد اليسرى لإزالة النجاسة دون اليمنى التي قرّر بها التحية وتناول الطعام، قال النبي ﷺ : (إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الاناء ، واذا أتى الخلاء فلا يمس ذكره ، ولا يتمسح بيمينه)[1] .

كما ان النبي أوصى بغسل اليدين عند الاستيقاظ من النوم فقال : (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يده في الاناء حتى يغسلها ثلاث مرات، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده)[2] .

ومن وصايا النبي في النظافة : (لا يبولن احدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه) ففي هذا الحديث حارب النبي ﷺ البلهارسيا وغيرها من الامراض ، فالماء الراكد اذا بال فيه الانسان وخاصة اذا كان مصاباً بمرض ما ينقل العدوى الى سواه ، هذا فضلاً عمّا يتولد فيه من الروائح الكريهة . وان في قول النبي — في الماء الدائم — لحكمة أخرى وهي : ان الماء الجاري تقل فيه العدوى إن لم تنعدم .

المأكل والمشرب

ان الجسم الانساني يحتاج الى الغذاء الكامل ليقوم بوظيفته في الحياة ، ولهذا نرى الاسلام يأمر المسلم ان يأكل من طيبات ما رزقه الله ، ولا يقرب الخبيث من المآكل . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون . إنّما حرّم عليكم الميتةَ والدمَ ولحم الخنزير وما أهِلّ به لغير الله ﴾ البقرة : ١٧٢ ، ١٧٣ .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

فالقرآن ينص على تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ولنفصل ذلك :

أضرار أكل الميتة وأنواعها

فالميتة هي الحيوان الذي مات ميتة طبيعية أو بحادثة من الحوادث .

« فالحيوان الميت ميتة طبيعية لا يموت إلاّ لسبب ، فإن كان لمرض فمما لاشك فيه انه لا يزال في الجسم نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للإنسان حتى بعد أن يُعقّم من الجراثيم بطريق النار ، فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة يظل مضرّاً بالإنسان، وربما أدى الأكل منه إلى الوفاة »[1] .

وإذاكانت الميتة بالشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض ، لأن الشيخوخة معناها انحلال أحد الأنسجة قبل الأنسجة الاخرى فتؤدي إلى انحلال الكل ، وانحلال احد الانسجة لا يأتي إلا لضعف طبيعي فيها أو بمرض تدريجي يحدث تغييرات في لحوم الحيوان ، تقلل من قيمتها الغذائية وقابليتها للهضم .

وربّ قائل يقول : إن الميتة تؤكل يومياً في البلاد الباردة مثلاً ، وكذلك الدم، ولحوم الحيوانات تؤكل دون ذبحها وتصفية دمها ولا تشكل ضرراً ظاهراً . والجواب على ذلك : ان ضرر التخمر يقل كثيراً في الأقاليم الباردة ويزيد في الأقاليم الحارة ، والاسلام أنزل للعالم كله بما فيه الاقاليم الحارة التي يحدث فيها التخمر بسُرعة مدهشة . إذاً مما لا شك فيه طبياً أن لحم الحيوان السليم الذي يذبح ويصفى دمه أحسن غذاء وليس فيه أقل ضرر ، بخلاف الحيوان المريض المتخللة لحومه بالدم » .

أنواع الميتة : أما الميتة التي تموت بحادثة من الحوادث فقد حرّمها الاسلام أيضاً . جاء في القرآن : ﴿ حُرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أَكَلَ السبع ﴾

فالمنخنقة : هي الحيوانات التي تموت خنقاً . فالاختناق يجعل لحم الحيوان المخنوق أسرع إلى التعفّن ، كما أن المنخنقة لا تصلح طبياً ، لتغير شكل لحمها وكآبته واسوداده عند قطعه ، وكريه رائحته ولُزوجة ملمسه .

---

(١) « الإسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص ١٧ .

والموقوذة : هي المضروبة حتى تشرف على الموت ، فتترك حتى تموت . أو هي ماتت فعلا من أثر الضرب فوراً .

والمتردية: هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت من أثر صدمة الوقوع .

والنطيحة : هي التي ماتت من أثر عراكها مع مثيلاتها من الحيوانات ، وغالباً ما يحدث الموت من أثر النطح ، ولهذا خصّصه النص بالذكر .

فلحوم الموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة لا تصلح للأكل كما قـرّر الاطباء ، لاسودادها ولُزوجتها وكريه رائحتها ، أما إذا وصلت الجراثيم المدية أو القيحية إلى الجروح التي حدثت في الجثة من الضرب أو السقوط فهذا مما يزيد الطين بلّة ، وكذلك إذا أصيبت الجروح بالعطبة (الغنغرينا) .

أضرار اكل فضلات الحيوانات المفترسة

حرّم الاسلام أكل ما ترك السبع ، والسبع هو الحيوان المفترس الضاري الذي كثيراً ما يعتدي على قطعان الماشية فيتناول منها فريسته، ويتبعه الرعاة عادة للحيلولة بينه وبين الفتك بالفريسة ، وقد يدركونها قبل الفتك بها ، وقد يدركونها بعد خنقها أو بعد قتلها بصورة ما ، وقد يدركون الفريسة وقد أبقى منها جزءاً قليلاً أو كثيراً ، وفي جميع الحالات المتقدمة لا يجوز أكل الحيوان المباح أكله اذا كان ميتاً لأنه إن أخذ مخنوقاً فقد شابه ما تقدم : أو مقتولاً بجراح فلا يجوز أيضاً . وضرر ذلك أن الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة التي تحمل الأمراض . وربما انتقلت الجراثيم من فم السبع الى الفريسة .

أضرار اكل الحيوان المفترس والطير الجارح

كما ان الاسلام حرم أكل كل ذي مخلب من الطير وكل ذي ناب من السباع لصلابة عضلاتها ، وتلوّن لحمها ، وقبح رائحتها . يقول النبي ﷺ : (حرّم عليكم كل ذي مخلب من الطير ، وكل ذي ناب من السباع)، فلحوم هذه الحيوانات غير صالحة لمعدة الانسان لأنها تبذل مجهوداً عضلياً في افتراسها لغيرها ، فتقوى بذلك عضلاتها ، وتصلب وتكون عسرة الهضم .

أضرار تناول الدم

وحرّم الإسلام تناول الدم ، لأنه أصلح وسط لنمو شتى الجراثيم وتوالدها

وانتشارها ، ولأنه يحمل افرازات وسموماً يجب التخلص منها ، كما يحمل معه محتويات البول . أما إذا أخذ دم الحيوان المريض فهنالك الطامة الكبرى . والدم لا يُعتبر غذاء مطلقاً ، ونوع الزلال الذي يحتويه يعتبر من أردئه .

أضرارُ أكل لحْم الخنزير

وحرّم الاسلام كذلك لحم الخنزير ، فوقى المسلمين شر الاصابة بدودة لحم الخنزير ، يقول (بيتي وديكسون) : « إن الاصابة بها تكاد تكون عامة في جهات خاصة من فرنسا والمانيا وايطاليا وبريطانيا ، ولكنها تكاد تكون نادرة الوجود في البلاد الشرقية لتحريم دين اهلها أكل لحم الخنزير » . وينقل لحم الخنزير كذلك مرض (التريخينا) للإنسان ، ويكفي أن نذكر عن هذا المرض الحقائق الآتية :

أولاً : لا يمكن للطبيب الاخصائي ان يذكر ان خنزيراً ما غير مصاب بهذه الديدان إلا إذا فحص كل جزء من عضلاته تحت المجهر ، وهذا غير ممكن لأنه إذا فعل ذلك نفد لحم الحيوان .

ثانياً : الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو ١٥٠٠ جنين في الغشاء المخاطي المبطن لامعاء المصاب ، فتوزع الملايين المولودة من الاناث جميعاً بطريق الدورة الدموية الى جميع أجزاء الجسم ، فتتجمع الأجنة في العضلات الارادية حيث تسبب آلاماً شديدة والتهابات عضلية مؤلمة تدعو الى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته ، وتكون نتيجة ذلك الأورام التي تمتد بطول العضلات.

ثالثاً : لا يوجد علاج لهذا المرض ، ولأسباب فنية لا يجدي معه دواء . وبجانب ذلك ينقل لحم الخنزير للإنسان بعض الجراثيم العفنة والباراتيفود التي تسبب للانسان تسمماً حاداً مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي قد تسبب الوفاة في بضع ساعات .

لحم الخنزير والكولسترول : هذا ومن جهة أخرى فقد حلّل علماء التغذية اللحوم كيماوياً فوجدوا ان لحم الخنزير يحتوي على دهون اكثر من ضعفي اللحوم العادية ، وبذلك يجد أكلة لحم الخنزير رسوب كمية كبيرة من الدهن في أجسامهم، ووجد العلماء أيضاً: ان (الكولسترول) هو فضلة من فضلات الدهن يسير في الدم بنسبة خاصة فإذا زاد تعاطي الدهن والزبدة

والزيوت زادت نسبة (الكولسترول) في الدم .

وهذا الكولسترول هو الذي يحدث تصلب الشرايين وأمراض القلب .

أضرار تعاطي الخمور

وللوقاية من كثير من الأمراض حرَّم الاسلام شرب الخمر . جاء في القرآن: ﴿ إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رِجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ المائدة : ٩٠ .

ويقول النبي ﷺ : (كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام)[١]. ويقول : (لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه) ، ويقول أيضاً : (اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر) .

« الخمر أساسها مادة الكحول بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة في جسم الانسان في عملية هضم المواد السكرية ... ولها فوائدها طبياً ولكن يظهر ان هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جداً ، فإن زاد عن ذلك أحدث ضرراً خصوصاً إذا كان التعاطي لمدة طويلة ، فإنه يحدث التهاباً مزمناً في الاعصاب وفي الكلى، وتصلباً في الشرايين، وتحجراً في الكبد، وضعفاً في القلب .

ورب سائل يقول : لِمَ لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ والجواب : ان الكحول يختلف عن أغلب المواد في أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفاً في قوة الإرادة والحكم ، وتزداد به الانفعالات النفسانية وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يُصبح شخصاً آخر ، وارادته تصبح غير إرادته الطبيعية ، ومع علمه بضرر الزيادة (أي من الخمر) في حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه وهو تحت تأثير البسيط منه . وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعاش . ولكن ضعف الارادة يجعل الشخص عبداً لعادة شرب الخمر »[٢] .

وإن تأثير الخمر يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول إلى الدم للشخص البالغ ، وهذا القدر يوجد في كأس واحدة من الويسكي أو الكونياك ،

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الإسلام والطب الحديث ص ٢٥، ٢٦ .

وقد لا يصل الشخص إلى درجة السكر ولكن على كل حال له أثر ملموس في حالة الشخص الجسمية والعقلية . وإذا فحص الشخص في هذه الحالة نجد ان درجة ادراكه وتقديره قد تغيرت فعلاً ، فهو مثلاً إذا كتب على الآلة الكاتبة زادت اخطاؤه عن المعتاد، وإذا قاد سيارة لم يتبع بالضبط قوانين المرور . وقد ثبت من الاحصائيات ان أكثر من ١٣ في المائة من حوادث المرور سببها الخمر .

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شيئاً من الارتفاع في ضغط الدم ، وهذا الارتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ، ولكن الضرر يتضاعف إذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه ، ثم إذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لأن تحدث هيجاناً يزيد في الضغط لدرجة ينفجر معها شريان في المخ يسبب شللا قد ينجو منه الشخص جزئياً أو لا ينجو كلية ، إذ من المعلوم أن الشخص الذي ضغطه الدموي مرتفع يجب أن يلتزم الهدوء في حياته ، لأن أي هيجان يزيد في ارتفاع الضغط يعرضه لانفجار شرياني ، والسكران لا يمكنه أن يضبط عواطفه ، وبالتالي لا يمكنه أن يضمن لنفسه هذا الهدوء .

والخمر تحدث عند غير المتعود عليها احتقاناً في المعدة قد يسبب غثياناً أو قيئاً ، وإذا كانت الجرعة كبيرة تسبّب التهاباً في المعدة ، وعسراً في الهضم .

ويرى بعض الاطباء : ان الخمر ولو كانت قليلة جداً فهي ضارة بالخميرات في طول القناة الهضمية، وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيراً طبيعياً .

والخمر لها تأثير في الوراثة ، فقد شوهد أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحي الجسم ضعفاء البنية ، ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام والشر . وإن من يبحث في كتب الطب يتولاه العجب عندما يقرأ مسببات الأمراض المختلفة إذ يجد للخمر نصيب الأسد في ذلك .

كما أن العلم الحديث أثبت أن الخمر لا فائدة منها في التداوي ، وأن فكرة التداوي بالخمر كانت خاطئة ، وهذا ما سبق به الاسلام . (عن طارق بن سويد أنه سأل النبي عن الخمر فنهاه عنها ، فقال : إنما أصنعها للدواء فقال : انها ليست بدواء ولكنها داء)[1] .

وقد أشاد بعض الكتاب الغربيين بتشريع الاسلام في مكافحة الخمرة فقال

---

(١) رواه مسلم .

(بتنام) في كتابه (أصول الشرائع) ما نصه: « النبيذ في الاقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله ، وفي الاقاليم الجنوبية يصير كالمجنون، وقد حرمت ديانة محمد جميع المشروبات وهذه من محاسنها » .

النهيُ عَن الشَراهةِ

ووضع الاسلام كذلك مبدأ عاماً للوقاية من أمراض الجهاز الهضمي . قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ الاعراف : ٣١ .

فهذه الكلمات القليلة العد ، قانون من قوانين الصحة ، من سار على حكمها ضمن لنفسه الصحة وأبعد عن جسمه المرض . وللنبي ﷺ قول في هذا المعنى : (ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا بدّ فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسه) .

يوصي النبي ﷺ أن يجعل الانسان ثلث حجم معدته لطعامه، وثلثها الثاني لشرابه ، ويترك ثلثها الأخير خالياً حتى لا يعوق التنفس .

والانسان إذا أكثر من الطعام لم يستطع له هضماً ، ويصاب بالتخمة وعسر الهضم ، وقد يحدث أن تصاب المعدة بالاتساع والتمدد نتيجة الافراط ، فيفقد الانسان الشهية لتناول الطعام ، وإن تناوله لم يستطع له هضماً ، وقد يصاب الانسان نتيجة ذلك بالقيء أو الاسهال أو الامساك والصداع .

والاسراف في الطعام تتبعه البدانة عند الانسان ، والتعرض لأمراض القلب ، وارتفاع الضغط ، وأمراض الكُلى ، ومرض السكر .

فوائِد الصِّيام

وللوقاية من أمراض كثيرة شرع الاسلام الصيام ، وهو الآن العلاج المستعمل للأمراض الآتية :

١ ــ اضطرابات الامعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية ، وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وان تكون بين الأكلة والاخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان .

٢ ــ زيادة الوزن الناشيء من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجع من

كل علاج مع الاعتدال في الطعام وقت الافطار ، والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ – زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشـــار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، وخصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ – البول السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط من قلة السمن ، ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين . خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ – التهاب الكُلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورّم .

٦ – أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ – التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الاربعين ...

ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مرض على حدته ، والصيام الذي كُتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ؛ ولكن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الامراض وخصوصاً الامراض التي مرّ ذكرها ... وهذه الامراض كلهـــا تبتدىء في الانسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ... ومن المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الامراض هي في الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك ، أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكري ، وزيادة ضغط الدم الذاتي والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك . ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها »[1] .

---

(١) عن كتاب « الإسلام والطب الحديث » للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص ٢٣ – ٢٤ .

العَسَل وَفوائِدُه

جاء في القرآن في تقرير فوائد العسل :

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي مِنَ الجبال بيوتاً ومِنَ الشجر ومما يَعرشون . ثم كلي من كلّ الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربك ذُلُلاً ، يخرج من بطونها شَرابٌ مُختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ النحل : ٦٨ — ٦٩ .

فالقرآن يقرّر ان الشراب الذي يخرج من بطون النحل (فيه شفاء للناس) من بعض امراضهم ، وهذه معجزة من معجزات القرآن العلمية اثبتها الطب حديثاً .

وإذا رجعنا إلى تركيب العسل الكيماوي وجدنا انه يحتوي على ٢٥ — ٤٠ في المائة جلوكوز .

فالجلوكوز الموجود فيه هو بيت القصيد ، وهو سلاح الطبيب في أغلب الامراض ، واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالفم ، وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد وفي الوريد ، ويعطى بصفته مقوياً ومغذياً ، وضد التسمم الناشىء من أمراض أعضاء في الجسم مثل : التسمم البولي الناشىء من أمراض الكبد ، والاضطرابات المعدية والمعوية ، وضد التسمم في الحميات مثل: التيفوئيد، والالتهاب الرئوي، والسحائي المخي ، والحصبة، وفي حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحة الصدرية الخ ... كل هذه الامراض يفيدها الجلوكوز ، ويسير بها الى طريق الشفاء .

وللعسل تأثير ملطف يزيد في افرازات الفم ، فيفيد في حالات : صعوبة الابتلاع ، وجفاف الزور ، وفي حالات السعال الجافة ، ولذلك ادخل طبياً في تركيب كثير من الغراغر وأدوية السعال . والعسل ملين لطيف ، فابدأ صباح كل يوم بتناول ملعقة كبيرة منه تستفد غذاء وتجد فيه مليناً .

الصحّة العامة

من النظريات العلمية التي ثبتت : ان الوقاية خير من العلاج . والاسلام يقر هذه النظرية بما شرعه مِنَ الامور الآتية :

الدّعوةُ الى التداوي

فالاسلام حضّ على التداوي لقول النبي ﷺ : (لكلّ داءٍ دواء فإذا أصاب دواء الداء برىء بإذن الله عز وجل)[1] .

وحارب الاسلام الشعوذة والخزعبلات والأوهام، وابطل الطلاسم والرُّقى مما كان يستعمله الكهنة في الجاهلية ، وسفّه أحلام من نسبوا بعض الأمراض للجان والعفاريت . ولقد ترك الدين المجال للبشر لمعرفة أسباب الأمراض وكشف علاجها .

الحَجْرُ الصّحي

والإسلام أول من وضع قانون الحجر الصحي ، وسبق بذلك الطب الحديث وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا نزل وانتم بأرض فلا تخرجوا منها[2])، ولو علمت أوروبا بهذا القانون وعملت به حين اجتاحها الطاعون في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لخفت حينئذ الخسائر التي منيت بها في الارواح ، فقد قدّر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا المرض بـ ٢٥ مليون نسمة .

وكان سبب انتشار المرض نقل التتار له إلى جنوب روسيا سنة ١٣٤٦ م ، وبدأ ينتشر حتى سنة ١٣٧٠ م – ١٣٧٤ م ، فبينما كان الطاعون يجتاح أوروبا نفذت ميلانو والبندقية بعض القوانين الصارمة نقلتها بعد ذلك جمهورية راجواسا وهذبتها فأنشأت المآوي بعيداً عن المدينة ليقيم بها القادمون المشتبه فيهم ، ليبقوا معزولين لمدة ٣٠ يوماً ثم زيدت المدة بعد ذلك حتى صارت ٤٠ يوماً .

كما أن الاسلام وضع الحجر الصحي للحيوان وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يورد ممرض على مصح)، أي لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل السليمة فيعدي مريضها سليمها .

ومن تعاليم الاسلام للوقاية قول النبي ﷺ : (فرّ من المجذوم فرارك من الأسد)[3] .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أصحاب السنن .
(٣) رواه البخاري ومسلم .

التعجيل بدفن الميت : ومن أغراض الاسلام الوقائية حضه على التعجيل بدفن الموتى عند تحقق الوفاة وذلك لسرعة تعفن الجثث والخوف من انتشار الأوبئة والامراض بين الاصحاء .

اعتزال الحائض

ومن الاعمال التي حرمها الدين كذلك للوقاية من الامراض وطء الحائض . جاء في القرآن : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ البقرة : ٢٢٢ .

« افرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل الافرازات التي تساعد الهضم أو التناسل ، أو افرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته الخ . وهذا النوع يسمى : (Secretion) وهو ضروري للحياة وليس فيه ضرر .

ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب طرده من الجسم إلى الخارج وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به ، وذلك مثل : البول ، والبراز ، والعرق ، والحيض ، الخ ... وهذا النوع يسمى :(Excretion) .

فالآية القرآنية التي حرمت وطء الحائض هي معجزة علمية للاسلام لأنها علمت الانسان قبل أن يعرف شيئاً من أنواع الافرازات : ان المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم .

وأما الجزء الثاني من الآية : (فاعتزلوا النساء في المحيض) ، فقد منع الطب مخالطة المرأة في زمن الحيض لأنه ضار بالزوج والزوجة كليهما ، فهذا الدم الفاسد هو نجس ، كما أنه يحوي ميكروبات عديدة لا تلبث أن تصيب الرجل فتحدث له الالتهابات ، كما أنه في زمن المحيض تحتقن أغشية المرأة الداخلية ، وفي المخالطة قد يحدث لها التمزيق فتنتشر العدوى من المكروبات الموجودة ، وتنتقل من مكان الرحم إلى أمكنة أبعد مما يؤثر في صحة المرأة ويضرها ، كما أن الاختلاط ربما منع نزول الحيض ، كما يسبب كثيراً من الاضطراب العصبي : فانظر أيها القارىء كيف يسير الطب خلف القرآن مهتدياً بهديه !

أضرار الزنا

ومما حرمه الاسلام للوقاية من كثير من الامراض الجنسية : الزنا ، جاء في

القرآن : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ الاسراء : ٣٢ .

ولا يقتصر تحريم الاسلام لفاحشة الزنا على الاسباب الاجتماعية فحسب بل إن الامراض الجسمية والنفسية والخلقية التي تسببها لها نصيب كبير في التحريم .

وحسبك أن من آثار الزنا مرض الزهري الذي يصيب جميع أجهزة الجسم كالجهاز العصبي ، والدوري ، واللمفاوي ، والهضمي ، والتناسلي ، ويصيب العظام والمفاصل وجميع غدد الجسم القنوية واللاقنوية والجلد والعين والاذن باصابات لا حد لخطورتها .

ويحدث الزنا بجانب ذلك أمراضاً اخرى مختلفة كالقرحة الرخوة ، وكالقرحة الأكالة ، وجرب التناسل ، وسنط التناسل ، وهربس التناسل ، وغيرها . ويمكن الرجوع إلى أخطار هذه الامراض وتفاصيل اصابتها في كتبها الخاصة لنرى إلى أي مدى بلغت عناية الاسلام بالاجسام .

ويحدث الزنا بخلاف هذا مرض السيلان الذي ينذر العالم بشر كبير ، وسببه ميكروب صغير لا يرى إلا بالمجهر ، وسببه الجماع فيصاب الرجل إذا اتصل بامرأة مصابة بالسيلان ، كما تصاب المرأة إذا اتصلت برجل مصاب به .

نجاسة الكلب

ومن حكم الاسلام لوقاية الابدان تقريره نجاسة الكلب ، فقد قال النبي ﷺ : (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات احداهن بالتراب) .

ومعنى ذلك ألاّ يأكل الانسان من وعاء ولغ فيه الكلب ولوثه بفمه وأنفه ووضع فيه مختلف الجراثيم والامراض .

وهذه معجزة علمية للاسلام سبق بها الطب الحديث الذي أثبت : ان الكلاب تنقل كثيراً من الامراض إلى الانسان . جاء في مجلة (كوسموس) الالمانية تحت عنوان : « الاخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها » للدكتور (جراد فنتسر) ، قوله :

« ان ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الأخير يضطرنا إلى لفت الانظار للاخطار التي تنجم عن ذلك ، وخاصة إذا دفع اقتناؤها إلى

مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدي أصحابها وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها « فكل ما ذكر مع نُبوّه عن الذوق السليم ، ومنافاته للآداب لا يتفق وقوانين الصحة، فان الاخطار التي تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح مما لا يستهان بها . فان الكلاب تصاب بدودة شريطية[1] تتعداها الى الانسان ، وتصيبه بمرض عضال قد تصل إلى حد العدوان على حياته » .

« وقد ثبت ان جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجماً لا تسلم من الاصابة بهذه الديدان الشريطية .

« وقد رؤي في اقليم فريزلند بهولنده حيث تستخدم الكلاب في الجر : أن في كل مائة منها ١٢ إصابة . ووجد في اسلانده شخص مصاب بهذه الآفة في كل ٤٣ شخصاً من أهاليها ، وشوهد أن هذه النسبة تزيد في استراليا إذ ثبت وجود شخص في كل ٣٩ شخصاً من سكانها ، وثبت كذلك أنها كانت سبباً مباشراً للكثير من الامراض في الاقطار الاخرى » .

ثم يقول : « ومما تجب على الناس مراعاته : عدم مداعبة الكلاب وتعويد الاطفال التوقي منها ، فلا تترك تلعق أيديهم ، ولا يجوز ابقاء الكلاب بمحال نزهة الاطفال وميادين رياضتهم ، ويجب ان لا تطعم الكلاب في الاواني المعدة لأكل الناس ، وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والاسواق العامة أو المطاعم ، وعلى وجه عام : يجب ابعادها عن كل ماله صلة بمأكل الانسان ومشربه» .

الرياضة البدنية

واهتم الدين اهتماماً عظيماً بالرياضة البدنية ويتمثل ذلك فيما يلي :

فوائد الصلاة

فالصلاة هي رياضة دينية اجبارية لكل مسلم يؤديها خمس مرات يومياً بغير اجهاد ولا ارهاق . فتكون خير مقوم لبدنه ، ومنشط لامعائه ، ورياضة صالحة لعضلات جسمه ومفاصله ، « وإذا تأملنا حركات الصلاة وجدنا شبهاً بينها وبين النظام السويدي في الرياضة ، فالنظام السويدي لا يزيد عمره عن مئة

---

(١) اسمها العلمي (Taénia Fchinococcus)

سنة في حين ان نظام الصلاة في الاسلام قد مضى عليه ألف واربعمائة عام او أقل قليلاً .

وإذا قارنا بين حركات الصلاة وبين ما جاء به « لنج » السويدي نرى ان حركة الجسم في اثناء الصلاة أحكم وأصلح لكل سن وجنس .

فالصلاة تبدأ بالتكبير برفع اليدين وتحريك مفصلي الكتفين إلى أعلى ، وهذا من التمرينات التي تنصح النظم السويدية بعملها على أساس انها تفتح الصدر.

وبعد التكبير وقراءة الفاتحة وما بعدها يثني المصلي جذعه للامام واضعاً يديه على ركبتيه ، ويستفيد الجسم من اتخاذه هذا الوضع عدة فوائد منها : انه يحرك مفصل الفخذين ، ويبسط العمود الفقري ، ويضغط بيديه على ركبتيه فيشدهما ، وكلتا العمليتين ـ شد فقرات العمود الفقري وضغط الركبتين للخلف ـ هامتان ومفيدتان للجسم . وقد قلّدت النظم الرياضية هذا الوضع فجعلت الانسان يميل بجذعه للامام ولكن نظاماً واحداً منهم لم يتمكن من اضافة الحركتين معاً . وهذا يدل على الحكمة البالغة في حركات الصلاة .

أما السجود فحركة جامعة شاملة الفائدة لأكثر أجهزة الجسم . فثني الركبتين لآخرهما يفيد في منع تصلب مفصلي الركبتين ، وثني الجذع ووضع الجبهة على الارض في حركة السجود هذه تعتبر من أفيد الحركات في عمل نوع من التدليك الذاتي للمعدة والجهاز الهضمي مما يساعد على الهضم ويمنع الامساك . وهذا الوضع مفيد أيضاً للسيدات لأنه يبقي الرحم في مكانه الطبيعي ، ويمنع حدوث التواءات أو اعوجاج فيه »(١) . والسجود يساعد على ازالة هبوط المعدة ، وقد أقر الاطباء المعاصرون : ان أحسن علاج لهبوط المعدة هو السجود .

ومن حكم الاسلام أنه أوجب اعطاء عضلات البدن ومفاصله حقها من الرياضة والحركة في الصلاة ، ولهذا يقول النبي ﷺ : (أسوأ الناس الذي يسرق من صلاته) وهذه السرقة هي عدم اتمام الوقوف والركوع والسجود والقعود بنشاط تام ، وبدهي ان يكون ذلك مع خشوع القلب ، وقد ذم الله من لا يراعي هذا في قوله : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ .

ولا جدال ان خير الرياضات اليومية هي الرياضة المستمرة غير المجهدة

---

(١) للأستاذ أحمد محمد مرزوق إخصائي في التربية البدنية من جامعات اسكتلندا وألمانيا والسويد ، عن مجلة لواء الإسلام .

التي تتحرك بها أغلب عضلات الجسم ومفاصله ، الميسرة في أي مكان ، الموزعة على أوقات النهار قبل طلوع الشمس وبعد الزوال وقبل الغروب وبعده وقبل النوم مع الاعتناء بنظافة البدن ألا وهي الصلاة .

النهي عن الاجهاد

فرض الدين إعطاء الجسم حظاً من الرياضة وترك المجال متسعاً للاستزادة منها ، ولكنه اشترط عدم الاجهاد الذي يخرج الرياضة عن معناها الحقيقي . جاء في القرآن : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ البقرة : ٢٨٦ .

ولما كانت الصلاة بجانب معناها الرياضي عبادة روحية يجب أن يقوم بها الصحيح والسقيم على السواء، ولما كان المريض لا يمكنه القيام بجميع حركاتها، لهذا خفف الله عنه . فقد روي عن عمران بن حصين أنه قال : كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ في الصلاة فقال : (صلّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)[1] .

كما أن الاسلام أباح للمريض والمسافر الإفطار في رمضان : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أُخر ﴾ .

كما أنه أسقط فرض الحج عمن ليست له أية قدرة جسمانية على أدائه ، كما أسقط فرض الجهاد عن المريض جاء في القرآن : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ .

* * *

فالاسلام كما ترى يمزج المنافع الروحية بالمنافع الجسدية ليتأهل الآخذ به لسعادة روحه وسعادة بدنه .

واليوم ، اعتبرت تقوية الاجسام من موجبات تقوية العقل حتى قالوا : « العقل السليم في الجسم السليم » فسيجد الناس في الاسلام أكبر داعية إلى تقوية أجسامهم .

ونختم هذا البحث بالقول ان المعجزات العلمية الطبية التي جاءت في ثنايا القرآن والسُنّة النبوية والتي لم يكتشف علم الطب أسرارها إلا منذ زمن قريب هي من أقوى الأدلة على صدق نبوّة محمد عليه السلام .

---

(١) رواه البخاري .

الفصل السادس والعشرون

الأدلة العقلية

على صدق نبوة محمد عليه السلام

سيرة محمد قبل النبوة — الاصلاح الذي حققه في قومه — دحض شبهات عن نبوته — رسالة محمد مصدرها الوحي الالهي — أمية النبي — ادعاء النبوة — انتفاء المراءاة عن سلوكه — انعكاس سلوكه على أصحابه — تأييد الله له — تحقيق رسالة الانبياء .

سيرة محمد قبل النبوة

لم تثبت نبوة نبي في شريعة من الشرائع بالبرهان العقلي القاطع كما ثبتت نبوة محمد بن عبد الله ، وإليك الدليل مستقى من حياته .

فقد ثبت أنه نشأ عليه السلام أمياً بين قوم أميين ، لم يقرأ كتاباً ، ولا قال شعراً ، ولا ارتجل خطبة ، ولا ترأس قبيلة ، ولا انتحل كهانة ، ولا عرف شيئاً من شرائع الامم وأديانها ، ولو ثبت عنه شيء من ذلك لنقله اتباعه الذين عنوا برواية كل ما علموه وما سمعوه في شأنه — قبل النبوة وبعدها — أو لأذاعه أعداؤه ليكون ذريعة لهم في انكار نبوته .بقي هكذا شأنه حتى بلغ سن الاربعين ، ومن المشاهد المسلّم به ان اي شخص تظهر عليه بوادر النبوغ في علم ما تظهر آثاره في عنفوان شبابه ، ومحمد ﷺ في هذه الفترة لم يظهر عليه شيء من هذا القبيل، بل جُلّ ما اتصف به هو الأمانة والعزوف عن مخالطة قومه في المجون واللهو وعبادة الاصنام . ثم قام بدعوة النبوة بعد سن الاربعين وأيد دعواه بالقرآن الذي اشتمل على : اخبار الغيب الماضية والمستقبلة ، واشتمل أيضاً على : العقائد الإلهية المؤيدة بالبراهين العقلية والعلمية ، وأصح

قوانين الاخلاق والفضائل النفسية، والعبادات الجامعة بين المنافع الروحية والجسدية، وأعدل قواعد الشرائع السياسية مما ذكرناه في هذا الكتاب .

الأصلاح الذي حقّقه في قومه

وقد تم على يد محمد ﷺ حوادث ضخمة لا يعقل أن تتم إلّا في خلال آماد طويلة ، وعقب تطورات متتالية :

منها : توحيد الأمة العربية بعد أن كانت قبائل متفرقة .

ومنها : قضاؤه على وثنية متوارثة منذ آماد طويلة ، وإحلاله محلها ديناً سماوياً يرفع الإنسان إلى أعلى مراتب السمو .

ومنها : إحداثه إصلاحاً اجتماعياً قلب أخلاق العرب من جاهلية متخلفة وما تشتمل عليه من ضياع حقوق المستضعفين والانغماس في الشهوات الجسدية الى تحقيق العدالة الاجتماعية غير مفرقة بين الضعفاء والأقوياء .

وعملٌ من هذه الأعمال كفيل بأن يرفع مقيم صرحها إلى درجة ممتازة قلّ أن يبلغها غيره ، وتجعل له اسماً خالداً بين عظماء التاريخ، فما ظنك وقد تمت كلها على يد رجل واحد هو : محمد ﷺ .

هذه حوادث اجتماعية تحتاج إلى تعليل مقبول تطمئن اليه النفس ، وليس أمامنا إلّا أحد فرضين : إما التسليم بأن محمداً هو رسول الله ، كما صرح بذلك القرآن ، وكما أيدّه العقل المجرد عن الهوى ، وإما فرض أنه ليس برسول ، وأنه وصل إلى ما وصل اليه بالتدبير وحسن السياسة .

دحض شبهات عن نبوّة محمّد

إن مال مائل إلى الفرض الثاني ناقشناه المسألة وقلنا : ينبغي على فرضك جملة امــور :

(١) انه اقتبس دينه من احد الرهبان أو الاحبار .

(٢) أنه كان يجيد القراءة والكتابة وأنه اقتبس دينه من الشرائع السابقة .

(٣) أنه مدّع للنبوّة كذباً . (٤) أنه كان يتظاهر بما كان متصفاً به من الأخلاق والعبادة رياء ، وأنه استطاع أن يثبت على هذا الرياء طول حياته . (٥) أنه

استطاع أن يخفي هذا الكذب والرياء على كل فرد حتى على أخص أصحابه وأخص نسائه . (٦) أن الله أيده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات . (٧) أنه مدّع للرسالة وأنه أتى بأكثر مما جاء به المرسلون من الكمالات[1] .

ولنستعرض هذه الفروض على ضوء العقل المجرد .

رسالة محمّد مصدرها الوحي الالهي

أما الفرض الأول — وهو انه اقتبس دينه من أحد الرهبان او الاحبار — فهو فرضٌ ينقضه الواقع التاريخي من كافة الوجوه .

فمن الشبهات التي اثارها بعض المغرضين حول صدق نبوة محمد دعواهم ان محمداً تعلم القرآن من الراهب بحيرا الساكن في مدينة بصرى بالشام ، وانه كان نسطورياً من اتباع آريوس في التوحيد .

وللردّ على هذا الادعاء الباطل نقول : ان كتب التاريخ والسيرة قررتا ان محمداً لما خرج مع عمه ابي طالب الى الشام كان عمره تسع سنين ، وقيل: اثنتي عشرة سنة ، رآه هذا الراهب مع عمه ورأى سحابة تظلله من الشمس ، وذكر لعمه انه سيكون له شأن ، وحذّره من اليهود ، وليس في شيء منها ان محمداً سمع من بحيرا شيئاً من عقيدته ودينه ، وقد سافر محمد مرة اخرى الى الشام مع ميسرة خادم خديجة بنت خويلد ، وقد سافر محمد لتجارة لها ، وكان له من العمر ٢٥ سنة إلاّ انه لم ينفرد دون ميسرة وسائر تجار قريش لدراسة وغيرها ، بل لم يلبثوا إلاّ أياماً في بلدة بصرى باعوا واشتروا وعادوا سريعاً .

هذا ما ورد في الاخبار التاريخية عن صلة محمد بالراهب بحيرا التي لا نستشف من ورائها اي صلة فكرية تجمع بينهما .

ولكن لندع هذا جانباً ، وننظر الى القضية من جانب آخر ، فنرى ادعاءهم لا يقوم على اي دليل عقلي مقبول بل تتراءى لنا هذه الحقائق التي تنقض مزاعمهم ، وهي :

أولاً : لو كان محمد تلقى شيئاً من المعارف عن الراهب بحيرا او غيره

---

(١) اقتبسنا الفروض « ٣، ٤، ٥، ٧ » من كتاب « مقدمة تفسير القرآن » للعلامة محمد فريد وجدي بعد ان تصرفنا فيها ، وزدنا عليها بعض الوقائع من سيرة الرسول وشهادات بعض كتاب الغرب فيه .

لنقل ذلك اتباعه الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة من افعاله إلاّ ودونوها في كتب السيرة والاحاديث الشريفة .

ثانياً : لو ثبت ما يدعونه لاتخذه اعداؤه من المشركين شبهة يحتجون بها على ان ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى واليهود . فالشبهة الوحيدة في هذا الباب التي أخذها عليه أعداؤه من قومه هي : أنه كان يجتمع بجبر النصراني ، وكان يقرأ التوراة والكتب بلسانه ، فرد القرآن عليهم :

﴿ ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلّمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي[1] وهذا لسان عربي مبين ﴾ النحل : ١٠٣ .

ثالثاً : القرآن يشتمل على اكمل ما يعرفه رجال الدين في عصر محمد وبعد عصره ، فقد اشتمل على احكام وتشريعات لا يمكن ان تكون مستمدة من الراهب بحيرا وغيره ، بل القرآن كثيراً ما يخالف العهدين القديم والجديد فيما يذكران من الحوادث التاريخية والدينية .

رابعاً : القرآن نزلت آياته على حسب الحوادث والوقائع ، وكانت مدة الانزال ثلاثة وعشرين سنة ، فلم يأت محمد بالقرآن جملة واحدة كالكتب المتعارف عليها ، ينكب الأديب عليها فترة من الزمن ثم يقدمها للقراء بعد التنقيح وامعان الفكر ، وهذا مما ينفي ان يكون القرآن مستمداً من احد ، او من ذاتية محمد ، بل هو وحي إلهي اوحاه الله لمحمد ﷺ .

خامساً : الراهب بحيرا كان بالشام ومحمد موطنه الحجاز ، والتعلم لا يتم في السر وفي جلسة واحدة أو جلسات بل لا يتم إلاّ اذا اختلف المتعلم الى المعلم ازمنة متطاولة ، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين العرب ـ ان محمداً يتعلم العلوم من فلان ، وهذا ما لم يثبت تاريخياً .

سادساً : الراهب بحيرا ليس من بلغاء العرب وفصحائهم ، ومحمد لم يشتهر عنه انه كان من بلغاء العرب ، فمن اين مصدر هذه البلاغة القرآنية التي فاقت جميع بلاغة العرب والتي تحدى القرآن بها جميع البلغاء وعجزوا عن محاكاتها بما لا يمكن تعليلها إلاّ بأنها وحي إلهي .

---

(١) لسان الذي يلحدون اليه اعجمي : لغة الذي يميلون اليه قولهم ويفترون اليه غير عربية .

سابعاً : اذا كان الراهب بحيرا في هذه المنزلة العظيمة من المعارف ، فلماذا لم يفاجىء بها عصره ويحصل على الشهرة والمنزلة الرفيعة في قومه ؟ ولماذا يرضى ان يكون مطية لغيره ؟ ثم ماذا كان يمنعه بعد نجاح محمد أن يدعي هذا الفضل عليه كما يحصل عند كثير من الناس، ويظهر تفضله عليه في العلم والمعرفة؟

أُمِّيَّةُ النَّبِيّ

اما الفرض الثاني : وهو ان الرسول كان قارئاً كاتباً ، فهو فرض لا يقوى على الثبات أمام أي سند تاريخي ، فقد ثبت أن الرسول كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يشاهد في منزله أو خارجه قبل النبوّة أو بعدها أنه : كان يستعمل قرطاساً أو قلماً في تأليف شيء أو تدوينه .

فأمية الرسول هي آية من آيات نبوته ، لأنه مع هذه الامية أتى بكتاب ، وهو القرآن ، عجز كل واحد من البشر على أن يأتي بسورة من مثله .

وقد أطلق القرآن وصف الأمية على الرسول ، وهذا ما ذكره الرسول عن ربه على مسمع من العرب أجمعين : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ العنكبوت : ٤٨ .

وذكر الرسول عن ربه أيضاً : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ الأعراف : ١٥٧ .

سمع العرب هاتين الآيتين وغيرهما أيضاً . وكان كثير منهم يناصبونه العداء ، فلو كانوا يعلمون : أن الرسول يجيد القراءة والكتابة لكان لهم السبيل إلى نفي قوله ، ولقامت لهم الحجة على تكذيبه في أوضح برهان .

ثم لنفرض جدلاً : أن الرسول تعلم القراءة والكتابة، فإن التعلم يحتاج الى زمن طويل، ولا يتم في الخفاء . ولو كان الامر كذلك لاشتهر بين العرب ان محمداً يتعلم العلوم من فلان . والعلوم الموجودة في القرآن كثيرة ، وتعلمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلم في غاية المعرفة، فلو حصل في العرب أن انساناً بلغ من التعلم هذا المبلغ لكان مشاراً اليه مرموقاً جانبه، ولاضطر النبي إلى تقديمه على أصحابه ، ولأظهر له احتراماً زائداً، ولفاه المعلم لبعض الناس بذلك قصداً أو عفواً . وهذا لم يحصل قط .

ادعاء النبوّة

أما الفرض الثالث : وهو ادعاؤه النبوّة كذباً، فهو فرض لا يثبت أمام النقد، لأن النبوة أمر خطير لا يقوم على ادعائه زوراً وبهتاناً إلا رجل غليظ القلب واسع الأطماع ، فاسد الفطرة، جريء على الله، ومن كان كذلك كانت حياته كلها سلسلة جرائم وشبكة مآثم، بعيدة عن الخير في كافة وجوهها ، فهل كان في نشأة حياته من هذا الصنف من الناس ؟ أما شهد تاريخه بأنه كان من مكارم الأخلاق قبل النبوة بمكان كبير حتى سماه معاصروه : الأمين، لم تعرف عنه جريمة ولا خصلة ذميمة، ومن كانت حياته الأولى كلها طهراً فكيف ينقلب بعد الاربعين إلى ضدها ؟ هل تبدلت سنة الخليقة ؟ كلا !

ثم إن الذين عاشروه وجدوا في كلامه وحركاته ما ملأ قلوبهم يقيناً بأنه صادق جاء يخبر عن ربه بوحيه . من ذلك أن بعض الاعراب أسلم حين رآه ، وقال: والله ما هذا بوجه كذاب . وكذلك كانت خديجة زوجه تعلم أنه الصادق الامين ، فعندما جاءه الوحي قال لها : (لقد خشيت على نفسي ، فأجابته : والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق)[1].

انتفاء المراءاة عن سلوك النبيّ

أما الفرض الرابع : وهو أنه كان متظاهراً بتلك الخلال الكريمة والصفات القويمة رياء ، فهو أوهى أمام النقد من الفرض الثاني لأن المراآة لا تكون إلا لغرض ، فإن حصل ذلك الغرض عاجلاً أو آجلاً ضعفت المراآة ، وشفت عما وراءها من التمويه ، لأن نفس المرائي عادة لا تكون إلا نفساً منحطة يستطيرها بارق الأمل وتغريها أمارات النجاح فتنفضح .

فاذا كان الغرض مادياً نراه يتمتع بلوازمه ، وقد ثبت أن محمداً عاش فقيراً ومات فقيراً لم يصب من الدنيا شيئاً مع أنها كانت طوع يديه ، فلم يفترش الديباج ، ولم يكتس الحرير ، ولم يتحل بالذهب ، وكان بيته على أبسط ما يكون عليه بيت ، ولبسه كلباس أوساط الناس .

---

(١) راجع « صحيح البخاري » باب الوحي .

وإذا كان الغرض جاهاً لرأيناه يتقدم الناس إذا مشى ، ويأمر بأن تنحني له الرؤوس إذا مرّ ، بل أن يخروا بين يديه سجداً . وقد ثبت أن الرسول كان يجلس حيث انتهى به المجلس، وكان يمشي وسط أصحابه . روي عنه أنه خرج مرة على أصحابه متوكئاً على عصا فقاموا له احتراماً وإجلالاً ، فقال : « لا تقوموا لي كما تقوم الاعاجم لملوكها فلست بملك » . وكان الرسول يكره أن يمدحه أحد في وجهه ، ونهاهم عن إطرائه . ويروى عنه أنه قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ، فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وإذا كانت المراءاة لنيل الملك فقد بلغ الرسول من السلطان والتأثير على أصحابه بحيث لو أمرهم أن يعاملوه معاملة الرعية لملوكها لفعلوا وزادوا ؛ ولكنه بقي على ما كان عليه في أول مره ، فلم ينوّع مآكله ، ولم يغير ملابسه ، ولم يتخذ له حرساً ولا حجاباً ، ولم يستبد بأمر ، يأتيه الاعرابي فيجذبه من ردائه ، ويغلظ له في القول، فيهم أصحابه بزجره فيمنعهم . وروي: أنه جاءه رجل يرتعد يوم فتح مكة فقال له الرسول ﷺ : (هوّن عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) .

وهذا أبو الوليد ، وكان سيداً مطاعاً في قومه، يقول لسادات قريش عندما اجتمعت تتشاور في الأمر الذي جاء به محمد: ألا أقوم لمحمد فأكلمه واعرض عليه اموراً علّه يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا، فقالوا : يا أبا الوليد لك ذلك ، فذهب إلى رسول الله وقال له: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الأمر الذي يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى . فقال الرسول ﷺ : قد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . فقال فاسمع مني : ثم تلا عليه شيئاً من القرآن من أوائل سورة (فصّلت) .

وقد كتب المؤرخ الاميركي (واشنجتون أرفنج) في شخصية الرسول فقال :

« هل كان ثرياً ؟ لا ، بل كان فقيراً، الا انه تزوج خديجة فأصبح على جانب من الثراء ، وجاهد من أجل تنمية ثروته. هل كان بارزاً ؟ نعم، كان له

شأن في وطنه، فقد كان رجلاً ذكياً وأميناً . هل كان قوي النفوذ ؟ نعم ، فقد كانت اسرته تقوم بسدانة الكعبة وتتولى شئون مكة، تلك المدينة المقدسة ، ولذا كان مركزه وما اتصف به أخلاق كريمة يؤهلانه ليكون موضع الثقة . ولكن حينما دعا محمد الى الاسلام اصطدم بأسرته وقبيلته ، وجر على نفسه عداءها. فقد كان تحطيم الأوثان يقضي على سيطرة قريش على الكعبة وما تستفيده من قدوم الحجاج .

لقي الرسول من أجل نشر الاسلام كثيراً من العناء ، وبذل عدة تضحيات. فقد شك الكثير في صدق دعوته ، وظل عدة سنوات دون ان ينال نجاحاً كبيراً، وتعرض خلال ابلاغ الوحي الى الاهانات والاعتداءات والاضطهادات ، بل اضطر الى ان يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر اليه ...

فقد كان في الاربعين من عمره حينما نزل عليه الوحي ، وعانى كثيراً سنة بعد أخرى في نشر الاسلام بين أفراد قبيلته . وحينما هاجر من مكة كان قد مضى ثلاثة عشر عاماً . فتحول من تاجر ثري الى مهاجر معدم ، وحينما وصل الرسول الى المدينة المنورة لم يكن يفكر في القوة العظيمة التي كانت تنتظره ، فقد كان تفكيره منصرفاً الى بناء مسجد يستطيع ان يصلي فيه وينشر به دعوته، وقد كان كل أمله ان ينشر الاسلام في جوّ من الهدوء والسلام ».

ويقول أيضاً : «كان الرسول في كل تصرفاته ناكراً ذاته، رحيماً ، بعيداً عن التفكير في الثراء أو المصالح المادية، فقد ضحى بالماديات في سبيل الروحانيات »[1] .

انعكاس سلوك النبيّ على أصحابه

أما الفرض الخامس : وهو أنه استطاع ان يكتم رياءه على أخص أصحابه ونسائه ، فهذا الفرض أضعف أمام النقد من سابقيه ، لأن التاريخ دلنا أن كل صاحب مبدأ له أصحاب مثله ، فمن كان من المرائين يكون له أخصاء على شاكلته ، يعاونونه على نيل بغيته ، ويشاطرونه المغنم من فضلاته ، وقد دل تاريخ رسول الله ﷺ على أن أخص أصحابه : أبي بكر وعمر بن الخطاب

---

(١) (حياة محمد) تأليف واشنجتون ارفنج ، ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي ص ٢٩٦، ٢٩٨، ٢٩٩ .

وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب كانوا على شاكلته من الزهـــد في الدنيا والتضحية في سبيل الله ، وقد تولوا الخلافة بعده ، فلم تفتنهم السلطة وتغير حياتهم بل كانوا خدماً لمن تولوا شأنهم ، يلبسون أقل مما يلبسون ، ويأكلون أدنى مما يأكلون ، ويبيتون ركعاً سجداً لله ، وها هن أزواجه كن أمثلة كمال وفضيلة ، وعلى غاية من الزهد والصلاح حتى لحقن به ، فما هذا الرياء الذي يبلغ هذا المبلغ ! وما هي إذن الفضيلة بعد ذلك !!!

ومما يؤيد صدق الرسول : أن هؤلاء جميعاً كانوا مطلعين على أسراره ، ولو ارتابوا في صدقه لما آمنوا واقتدوا به .

تأييد الله للنبي

أما الفرض السادس: بأن الله أيده ونصره مع اتصافه بهذه الصفات ، فهو أضعف من كل الوجوه التي مرت ، لأنه متى عهد أن الله يؤيد المرائين المفترين ويمكنهم من التسلط على قلوب الناس ، لا سيما وهم منتحلون لقب النبوة وهي أكبر حوادث العالم خطورة .

وما أصدق ما قاله الكاتب الانجليزي (توماس كارليل) في كتـــابه (الأبطال): « لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمداً خداع مزوّر ، وآن لنا ان نحارب ما يشاع من مثل هذه الاقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصاء اكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها أن لا تخلق »[1] .

ويقول بعد ذلك: « وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع

---

(١) نقلا عن الترجمة العربية للاستاذ محمد السباعي ص ٥٤ ط ٣ .

أن يوجد ديناً وينشره ؟ عجباً والله — إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليماً بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك، فما ذلك الذي يبنيه ببيت وإنما هو تل من الانقاض وكثيب من أخلاط المواد ، نعم، وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الانفس، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ».

محمّد يُحقّق رسَالة الأنبيَاء

أما الفرض الاخير : وهو أن الرسول مدع ، ولكنه جاء بما أتى به الرسل من الكمالات والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة العبادات، فهو فرض لايثبت أمام النقد لأنه قلب لسنة الكون . إذ كيف يفرض أنه مفتر ثم ينتظر منه الإتيان بشريعة تعد أعدل شريعة ظهرت في الوجود لاشتمالها على أصول العدالة المطلقة واحتوائها على مستلزمات الرقي والمدنية ، وقد اعترف بهذه الحقيقة الدكتور (جوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب) فقال: « إن اصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الاخرى جميعها »[1] .

ويقول أيضاً : « ... فان مما لا ريب فيه أن محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الاسلام ومنها اليهودية والنصرانية ، ولذلك لا نرى حداً لفضل محمد على العرب »[2] .

ويقول أيضاً : « وإذا ما قيست الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ » . وقد أخذ بعض علماء الغرب ينصفون محمداً مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخيهم عن الاعتراف بفضله . قال العلامة (بارتلمي سنت هيلر) : « لقد كان محمد أكثر عرب زمانه ذكاء، وأشدهم تديناً ، وأعظمهم رأفة، وقد نال سلطانه الكبير بفضل تفوقه عليهم ، وقد كان دينه الذي دعا الناس إلى اعتقاده جزيل النعم على جميع الشعوب التي اعتنقته»[3] .

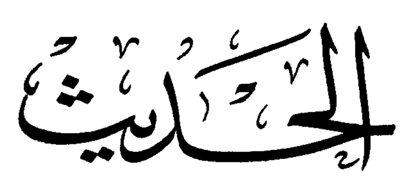
هذا ما أحببنا دحضه من الشبهات التي يدعيها منكرو نبوّة محمد ﷺ ، وقد أظهرنا مكانتها من العلم والواقع ، فلم يبق أمامنا إلا فرض انه رسول من رب العالمين .

---

(١) نقلا عن الترجمة العربية للاستاذ محمد عادل زعيتر ص : ٤٥ .

(٢و٣) نفس المصدر ص ١٢٨ .

الفصل السابع والعشرون



المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي

منزلة الحديث في الاسلام – تدوين الحديث – محاولة الدس على الحديث – اعتماد الاسلوب العلمي في تنقية الحديث – سند الحديث واقسامه – درجة الحديث من الصحة – نقد نص الاحاديث – اشهر الكتب المعتمدة في الحديث – الحديث مصدر للتشريع .

معنى الحديث : لكلمة الحديث معنى عام هو : الخبر او المحادثة دينية كانت ام غير دينية ، ثم اصبح لها معنى خاص هو : ما ورد عن النبي من قول ، او فعل ، او تقرير . ويرادف الحديث السُنّة[1] .

منزلة الحديث في الاسلام

وقد اجمع المسلمون على : ان الحديث متى ثبت وصح عن رسول الله كان حجة في الدين ، ودليلاً من أدلة الاحكام ، وجب اتباعه والرجوع اليه والعمل بمقتضاه وقد نطق القرآن بذلك في كثير من آياته ، قال تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ الحشر : ٧ .

وقال سبحانه : ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل اطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ آل عمران . وقال سبحانه مخاطباً رسوله محمداً : ﴿ وأنزلنا اليك الذكر[2] لتبيّن للناس ما نُزّل اليهم ﴾ النحل : ٤٤ .

---

(١) التقرير : هو عدم انكار النبي لأمر رآه او سمعه او بلغه عمن يكون منقاداً للشرع .
(٢) الذكر : القرآن .

فالحديث هو المصدر الثاني من مصادر الأحكام الشرعية العملية والاعتقادية، وهو الذي تلي رتبته في الاعتبار رتبة القرآن الكريم .

وللحديث اهمية كبرى في فهم معاني القرآن الكريم ، والكشف عن الاحكام المنطوية في نصوصه العامة وقواعده الكلية، والارشاد الى الكثير منها، ولولاه لبقي مجهولاً لنا خافياً علينا .

إن عدد آيات القرآن يبلغ نحو ستة آلاف ويصل المتعلق منها بالاحكام نحو مائتي آية ، اما مجموع احاديث الاحكام فيقرب نحو اربعة آلاف حديث .

والحديث يبيّن احكام القرآن من: تفصيل المجمل، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق .

فالقرآن أوجب الطهارة على من أراد الصلاة ، والسُنّة فصلت ما في القرآن من اجمال ، وبيّنت الطهارة بنوعيها : المائية والترابية .

والقرآن شرع الصلاة ، ولكنه لم يبين صريحاً اعدادها ، ولا اعداد الركوع والسجود ، ولم يذكر اوقاتها إلا اجمالاً ، فجاءت السُنّة وبينت كل ذلك قولاً وعملاً ، فكان النبي ﷺ يصلي بالناس ويقول لهم : (صلّوا كما رأيتموني أصلي) .

واشار القرآن الى وجوب الزكاة في آيات كثيرة منه ولكنه لم يبين فيها الزكاة بالتفصيل ، ولا المقدار الواجب دفعه، فبيّنت السنة كل ذلك ، ونقتصر على هذه الامثلة مما فصلته السنة من احكام القرآن خوفاً من التطويل .

كذلك كانت تُعرض للرسول حوادث يقضي فيها، واسئلة يجيب عليها ، ومبادلة اخذ وعطاء ، وتصرف في الشؤون السلمية والحربية ، كل هذه كانت احياناً ينزل فيها القرآن ، واحياناً لا ينزل . وهذا النوع الثاني وهو الحديث مرجع للمشرعين ، فاقتضى ذلك جميعه العناية بالحديث .

تدوين الحديث

لم يدوّن الحديث في عهد الرسول كما دون القرآن ، فإنا نرى ان رسول الله قد اتخذ كتبة للوحي يكتبون آيات القرآن عند نزولها ، ولكنه لم يتخذ كتبة يكتبون ما ينطق به من غير القرآن، بل وجدنا احاديث تنهى عن تدوين الحديث.

والحكمة في عدم تدوين السنة في زمنه عليه السلام هي خشية التباس القرآن بالحديث ، ولأن الوحي ماانقطع إلاّ بموته عليه السلام فكان لزاماً ألاّ تُدوّن السنة.

نشأ عن هذا انه كان بعد موت رسول الله كتاب مدوّن هو القرآن واحاديث غير مدونة تُروى عن رسول الله ، وكانت تُروى في الغالب من الذاكرة لا من صحيفة . فكان إذا عرض حادث ليس له حكم في القرآن وعرف بعض الصحابة انه حدث نظيره لرسول الله وكان له فيه حكم حدّث بذلك الحديث ، وكذلك كانوا يحدثون بما وقع في عهده من غزوات ومن وعد ووعيد .

لم يزل امر الحديث يروى شفاهاً وتتناقله الالسنة طوال عهد الرسول وخلفائه الراشدين الأربعة وشطراً من خلافة الامويين حتّى افضت الخلافة الى عمر بن عبدالعزيز الذي امر عامله على المدينة بجمع الحديث . فقد روى البخاري في صحيحه في (كتاب العلم) : ان عمر بن عبدالعزيز كتب الى ابي بكر بن حزم : « انظر ما كان من حديث رسول الله فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء » واذا علمنا ان ولاية عمر بن عبد العزيز من سنة (٩٩) الى (١٠١) هجرية فعلى هذا يكون بدء تدوين الحديث حصل في سنة ١٠٠ هجرية تقريباً .

ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بكتابه السابق الذكر الى عامله في المدينة بل كتب الى اهل الآفاق وامرهم بالنظر في حديث رسول الله وجمعه .

محاولة الدسّ على الحديث

ونشأ من عدم تدوين الحديث في كتاب خاص في العصور الاولى واكتفائهم بالاعتماد على الذاكرة وصعوبة حصر ما قال وفعل رسول الله ﷺ في مدة رسالته ان استباح قوم لانفسهم وضع الحديث ونسبته كذباً الى رسول الله . ويظهر ان هذا الوضع حدث في عهد رسول الله . فقول الرسول :(من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار)[1] يغلب على الظن انه قيل في حادثة حدثت زوّر فيها على الرسول ، وبعد وفاته كان الكذب عليه اسهل .

ثم لما فتحت الفتوح الاسلامية ودخل في الاسلام من لا يحصى كثرة من الأمم المفتوحة من: فارسي ورومي وبربري ومصري وسوري وسواهم ، وكان من هؤلاء من لم يتجاوز ايمانهم حناجرهم كَثُرَ وضع الاحاديث الكاذبة كثرة مزعجة.

---

(١) حديث متواتر .

وتلك الاحاديث الكاذبة التي وضعت كلها ضلالات في التشبيه في الألوهية. وفي بعضها تغيير لاحكام الشريعة، وحسبك دليلاً على مقدار الوضع ان أحاديث تفسير القرآن، التي ذُكر عن احمد بن حنبل انه قال: لم يصح عندي منها شيء وقد جُمِعَ فيها آلاف الاحاديث، وان البخاري وكتابه في الحديث الذي اشتمل على نحو سبعة آلاف حديث منه نحو ثلاثة آلاف مكررة، قالوا: إنه اختارها واستخرجها من ستمائة الف حديث كانت متداولة في عصره.

وقد حمل الوضّاع على وضع الحديث الكاذب امور اهمها:

اولاً: الخصومة السياسية؛ فالخصومة بين عليّ وابي بكر، وبين عليّ ومعاوية، وبين عبد الله بن الزبير وعبد الملك، ثم بين الأمويين والعبّاسيين، كل هذه كانت سبباً لوضع كثير من الحديث في تفضيل وتأييد كل فئة على الثانية.

ويتصل بهذا النحو أحاديث وضعها الوضاعون في تفضيل القبائل العربية، ذلك ان هذه القبائل كانت تتنازع الرياسة والفخر، فوجدوا في الأحاديث باباً يدخلون منه الى المفاخرة، كما انهم وضعوا احاديث في فضل العرب على غيرهم ومثل ذلك العصبية للبلد فلا تكاد تجد بلداً كبيراً إلاّ وفيه احاديث في فضله.

ثانياً: الخلافات الكلامية والفقهية، فمثلاً اختلف علماء الكلام في القدر والجبر والاختيار، فأجاز قوم لأنفسهم أن يؤيدوا مذهبهم بأحاديث يضعونها، وكذلك في الفقه، فلا تجد فرعاً فقهياً مختلفاً فيه إلاّ وحديث يؤيد هذا المذهب وآخر يؤيد ذاك.

ثالثاً: متابعة بعض من يتسمون بسمة العلم لهوى الأمراء والخلفاء يضعون لهم ما يعجبهم رغبة فيما بين ايديهم.

رابعاً: تساهل بعضهم في باب الفضائل والترغيب ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تحليل حرام او تحليل حلال، واستباحتهم الوضع فيها، فملأوا كتب الحديث بفضائل الأشخاص، وبفضائل آيات القرآن وسُوره، كالذي روي عن أبي عصمة نوح بن ابي مريم: انه وضع احاديث في فضائل القرآن وسُوره بعنوان أن من قرأ سورة كذا فله كذا، وهي الأحاديث التي نقلت في تفسير البيضاوي والخازن عند ختم كل سورة.

ومثل هذا ما ترى في كتب الاخلاق والتصوف وفي الترغيب والترهيب، ومن هذا الباب أُدخل كثير من الاحاديث الموضوعة (أي الكاذبة).

روعت هذه الفوضى في الحديث عن رسول الله جماعة من العلماء الصادقين ، فنهضوا لتنقيته مما ألمّ به ، وتمييز جيده من رديئه ، وقد سلكوا في ذلك طرقاً علمية دقيقة يصعب معها التلاعب او الاختلاق . يقول الدكتور اسد رستم[1] في مقدمة كتابه مصطلح التاريخ : « **ان القواعد التي وضعها أئمة الحديث منذ قرون عديدة للتوصل الى الحقيقة في الحديث تتفق في جوهرها واتجاهها والأنظمة التي اكتشفها علماء اوروبة فيما بعد في بناء علم المثودولوجية . ولو ان مؤرخي اوروبة في العصور الوسطى والعصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين (أي علماء الحديث) لما تأخروا في تأسيس علم المثودولوجية[2] حتى اواخر القرن الثامن عشر ، وبامكاننا ان نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكد لهم بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا** » .

من هذه الطرق العلمية التي سلكها علماء الحديث انهم طالبوا بتعيين اسماء رواة الحديث الذين نقلوا المتن احدهم عن الآخر ، ويسمى هذا : « بالاسناد » او « السند » اي البرهان على صحة الرواية ، فمن يروي الحديث كان يقول : سمعت فلاناً ، او حدّثني فلان عن فلان ، وهكذا يبدأ بالاسناد بالمحدّث ، ثم تذكر سلسلة السند الى ان يرفع الحديث الى مصدره الأول .

وتحقيق الاسناد جعل علماء المسلمين يقتلون الأمر بحثاً ، فألزموا انفسهم الكشف عن معايب رواة الحديث وناقلي الاخبار ، وذلك يستلزم معرفة تراجم الرواة ودرس اخلاقهم وتمييز درجاتهم ، ولهذا انشأوا : علم التراجم ، وهو المعروف بعلم : (الجرح والتعديل) لدرس احوال رواة الحديث ، ومعرفة الزمن الذي عاشوا فيه ، واحوال معاشهم ، ومكان وجودهم ، ومن منهم كان على معرفة شخصية بالآخر ، كما قد فحصوا عن قيمة المحدث صدقاً او كذباً ، وعن مقدار تحريه للدقة والأمانة في نقل المتون ليحكموا أي الرواة كان على ثقة في روايته ، ولهذا كانوا لا يأخذون الحديث من الراوي إلا اذا كان على درجة

---

(١) احد اساتذة التاريخ في جامعة بيروت الامريكية سابقاً .

(٢) المثودولوجية : هي مصطلح التاريخ ، أي العلم الذي يقوم على ضبط التاريخ ووقائعه لتحري الحقائق التاريخية وايضاحها ونقد الاصول القديمة التي انتقلت الينا لبيان درجتها من الصحة .

قوية من الصدق والديانة والسيرة الحسنة، كما انهم كانوا يحكمون بضعف الحديث لأقل شبهة في سيرة الناقل الشخصية، اما اذا اشتبهوا في صدق راوي الحديث وعلموا انه كذب في شيء من كلامه فقد رفضوا روايته وسموا حديثه (موضوعاً) او مكذوباً، وان لم يعرف عنه الكذب في رواية الحديث، من ذلك يقول الامام مالك بن انس (١٧٩ هـ): «لا يؤخذ العلم من اربعة ويؤخذ ممن سوى ذلك: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس الى هواه، ولا من كذاب يكذب في احاديث الناس، وان كان لا يتهم على احاديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة اذا كان لا يعرف ما يحدّث به».

كذلك توثق علماء الحديث من حفظ كل راو، وقارنوا رواياته بعضها ببعض، وبروايات غيره، فإن وجدوا منه خطأ كثيراً وحفظاً غير جيد ضعفوا روايته، وان كان لا مطعن عليه في شخصه ولا في صدقه خشية ان تكون روايته مما خانه فيها الحفظ.

ومما طالب به علماء الحديث: تحري النص، والمجيء باللفظ، يقول الدكتور اسد رستم في ذلك: «وهذه مأثرة من مآثر علماء الحديث، فإنهم قالوا بالأمانة في نقل الحديث وفرضوا وجوب تحري النص لأجل الوقوف على اللفظ الاصلي ومنهم من ابى ان يصلح الخطأ او يقوّم اللحن واكتفى بابداء رأيه على الهامش.. هذا ما توصّل اليه علماء الحديث في القرون الأولى، وهو المعول عليه لدى المؤرخين المعاصرين»[١].

وهكذا وضع علماء الحديث القواعد العلمية لقبول الحديث[٢] التي كانت ولا تزال اصح القواعد للاثبات التاريخي واعلاها وادقها، ثم جمعوا ومن جاء بعدهم كل ما وصل اليهم من روايات الحديث الصحيحة أو الضعيفة منها مع

---

(١) مصطلح التاريخ ص ٤٤، ٤٦.

(٢) اطلق على الكتب التي تحتوي على القواعد لتنقية الحديث اسم كتب مصطلح الحديث، ومن هذه الكتب: رسالة القاضي عياض في مصطلح الحديث التي يقول عنها الدكتور اسد رستم في كتابه «مصطلح التاريخ» «هي انفس ما صنف في موضوعها، وقد سما بها القاضي عياض الى اعلى درجات العلم والتدقيق، والواقع انه ليس بامكان اكابر رجال التاريخ في اوروبا واميركا ان يكتبوا احسن منها في بعض نواحيها وذلك بالرغم من مرور سبعة قرون عليها».

بيان قوتها او ضعفها في اكثر الأحوال ، وبعضهم جمع في كتابه احاديث صحيحة واقتصر عليها كالبخاري ومسلم . وبعض العلماء عُني بجمع الاحاديث التي ثبت انها مكذوبة على النبي ليحذّر الناس منها . وجمعوا ايضاً كل ما وصل الى علمهم من اسماء الرواة وانسابهم وأحوالهم وتفاصيل تراجمهم ليكون الباحث على بيّنة من بحثه في صحة الحديث، وألفوا في كل هذه الدواوين الكبار في مئات من المجلدات بل آلاف مما لاتجد النذر اليسير منه عند اي امة من الامم .

سَنَدُ الحَديث وَأقسَامُه

قسّم العلماء الحديث باعتبار طرق الاسناد الى الاقسام الآتية :

اولاً : الحديث المتواتر : وهو ما رواه جمع من الناس يمتنع اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب عن جمع كثير مثلهم وهكذا طبقة بعد أخرى حتى يصل الإسناد الى النبي ﷺ .

والمتواتر ينقسم الى قسمين الأول : متواتر لفظاً ومعنى ، وهو قليل جداً .

والقسم الثاني : المتواتر بالمعنى كعدد الصلوات الخمس ، وعدد الركعات في كل صلاة، وغير ذلك . وقد ألّف في الحديث المتواتر جماعة من الحُفاظ آخرهم العلامة المحدّث الكبير السيد محمد بن جعفر الكتاني سماه: (نظم المتناثر في الحديث المتواتر) بلغت احاديثه خمسمائة حديث .

ثانياً : الحديث المشهور : وهو ما رواه ثلاثة فأكثر من العدول، وهذا كثير جداً في السنّة باللفظ والمعنى .

ثالثاً : الحديث العزيز : وهو ما رواه اثنان .

رابعاً : حديث الآحاد : وهو ما رواه واحد .

دَرَجة الحَديث مِنَ الصحّة

كذلك قسم العلماء الحديث من حيث الصحة والضعف الى ثلاثة اقسام :

اولاً : الحديث الصحيح : وهو الحديث الخالي من الخطأ والذي لا توجد علة في إسناده ، وهو ما رواه العدل الضابط الثقة عن مثله من

غير شذوذ ولا علة الى منتهاه .

ثانياً : الحديث الحسن : وهو الحديث الذي لا يكون في اسناده راوٍ متهم بالكذب ، ولكن يوجد في رواته من أخذ عليه شيء في حفظه وضبطه ، ثم يتابعه عليه رواة آخرون غير متهمين بالكذب ايضاً ، فيقع في نفس المحدّث الناقد ان لهذا الحديث اصلاً معروفاً .

ثالثاً : الحديث الضعيف : وهو الذي يقع فيه شك ، كأن يكون ذلك في متنه ، او كأن يكون واحد او اكثر من سلسلة اسناده ممن لا يوثق بروايتهم ، او مِمّن اتهم بشيء من البدع .

اما الحديث الذي نسب الى الرسول كذباً فيسمى : الحديث الموضوع ، وهو ليس بحديث اصلاً ، وتحرم روايته إلاّ لبيانه والتحذير منه .

نقد نصّ الحديث

والعلماء لم يقتصروا في نقدهم على السند وحده والتحقق من صحته وانما تناولوا نصّ الاحاديث نفسها بالنقد ، وقد وضعوا قواعد للنقد لا تقل قيمتها وقوتها عن اي قواعد للنقد في وقتنا هذا ، وقد لخص شاه عبد العزيز هذه القواعد في كتابه « العجالة النافعة » وبيّن الاحاديث التي ترفض وهي :

اولاً : إذا تعارض الحديث مع واقعة تاريخية معروفة .

ثانياً : اذا كان الراوي من اهل البدع ، والحديث يطعن في احد الصحابة ، او إذا كان الراوي من الخوارج والحديث يطعن في اهل بيت الرسول . فإذا تأيد الحديث بسند غير متحيز فإنه يكون مقبولاً .

ثالثاً : اذا كان الحديث مروياً عن واحد فقط ، وكان يستلزم امراً يجب على المسلمين اتباعه .

رابعاً : إذا كان ظاهر الحديث يدل على انه مكذوب .

خامساً : إذا كان الحديث يخالف العقل والتعاليم الاسلامية .

سادساً : اذا ذكر الحديث ــ المروي عن راو واحد ــ واقعة لو صح حدوثها لعرفها الناس ورواها كثيرون .

سابعاً : إذا كان موضوع الحديث تافهاً لا يتفق وعظمة الرسول، او كانت كلماته غير فصيحة لاتساير بلاغة الرسول او فصاحته .

ثامناً : اذا تضمن الحديث عقاباً شديداً لصغائر الاعمال، او اجراً كبيراً لعمل بسيط .

تاسعاً : اذا تكلم الحديث عن الانبياء والرسل وأنهم يثيبون الناس على عملهم الصالح .

عاشراً : اذا اعترف الراوي بأنه كذب في الحديث .

أشهر الكتب المعتمدة في الحديث

ذكرنا من قبل انه حصل الجمع في تدوين الحديث ابتداء من اول القرن الثاني الهجري ، ومن اشهر الكتب المؤلفة في المائة الثانية (الموطأ) للامام مالك المتوفي سنة (١٧٩) ه ، ثم اشتد تدوين الحديث وكثر في اواسط هذا القرن ، ولكن تدوين الحديث والاعتناء به كعلم منفصل عن غيره مبوّب منظم لم يتمّ إلا في القرن الثالث .

هذا وكتب الحديث كثيرة جداً وأصحها عند العلماء هي الكتب الآتية :

اولاً : صحيح البخاري (لمحمد بن اسماعيل البخاري المتوفي سنة ٢٥٦ ه) .

ثانياً : صحيح مسلم (لمسلم بن الحجاج المتوفي سنة ٢٦١ ه) .

ثالثاً : سنن ابي داود (المتوفي سنة ٢٧٥ ه) .

رابعاً : سنن الترمذي (المتوفي سنة ٢٧٩ ه) .

خامساً : سنن ابن ماجة (المتوفي سنة ٢٧٣ ه) .

سادساً : سنن النسائي (المتوفي سنة ٣٠٣ ه) .

ويحظى كتابا صحيح البخاري وصحيح مسلم على وجه خاص بتقدير عظيم ويسميان : بالصحيحين ، وهما لا يشتملان إلاّ على الاحاديث المتفق على صحتهـــا .

واما الكتب الأربعة الباقية فهي لا تشتمل على الاحاديث التي تعتبر صحيحة

فقط بل تشتمل ايضاً على الاحاديث الحسنة ، كما ان مصنفي هذه الكتب عندما يروون حديثاً يمكن رفضه فانهم كانوا في العادة يلفتون نظر القارىء الى ذلك .

أقسام الحديث الصحيح : وقد قسم جمهور العلماء الحديث الصحيح بالنظر الى تفاوت الاوصاف المقتضية للصحة الى سبعة اقسام كل قسم منها اعلى مما جاء بعده :

فالأول : ما اخرجه البخاري ومسلم ويسمى بالمتفق عليه .

والثاني : ما انفرد به البخاري .

والثالث : ما انفرد به مسلم .

والرابع : ما كان على شرطيهما مما لم يخرجه واحد منهما .

والخامس : ما كان على شرط البخاري .

والسادس : ما كان على شرط مسلم .

والسابع : ما صححه احد الأئمة المعتمدين .

الحديث مصدرٌ للتشريع

ان المجتهدين الفقهاء لا يأخذون الاحكام إلاّ من الحديث الصحيح والحسن ، أما الحديث الضعيف فهو لايستعان به في استنباط الاحكام لأن الحديث الضعيف لا يفيد حكماً ، وقد اجاز بعض العلماء العمل به في فضائل الاعمال كالاحاديث التي تحث على الاخلاق الكريمة والعمل الصالح ، كما فعل الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) .

ويجدر بنا ان ننبه الى ان الحديث الضعيف يحوي قسماً من الاحاديث التي إن لم تنزل الى رتبة « الموضوع » فهي لم ترتفع عنه إلا قليلاً ، وبعض الاحاديث الضعيفة يخالف روح القرآن في عرض الحقائق لذا وجب الاحتياط والاختيار والأحسن الاستغناء عنه .

الحديث الموضوع لا يُؤخذ منه حكم : اما الحديث الموضوع فهو لا يؤخذ منه حكم بل تحرم روايته إلا للتنبيه على انه حديث موضوع ، ويقول واضعو دائرة المعارف الاسلامية :

« ومع ان المسلمين كانوا يلعنون واضعي الاحاديث ومن يذيعها بين الناس عن سوء قصد إلا أن ثمة اعتبارات مخففة أُخذ بها في بعض الأحوال وبخاصة إذا كان الحديث الموضوع يتناول بعض العظات او التعاليم الخلقية » هذا القول ينافي الحقيقة وافتراء على علم الحديث ، وقد دحض العلماء قديماً هذه الشبهة ، فقد جاء في كتاب «علوم الحديث المعروفة بمقدمة ابن الصلاح» ص١٠٠ مانصه : « والواضعون للحديث اصناف، واعظمهم ضرراً قوم من المنسوبين الى الزهد، وضعوا الحديث احتساباً فيما زعموا فتقبل موضوعاتهم ثقة منهم بهم، وركوناً اليهم ، ثم نهضت جهابذة الحديث بكشف عوارها ومحو عارها » .

الحديث يكون تشريعاً وغير تشريع : ينبغي ان يلاحظ ان كل ما ورد عن النبي ودوّن في كتب الحديث من اقواله وافعاله وتقريراته على اقسام :

احدها : ما سبيله سبيل الحاجة البشرية : كالاكل ، والشرب ، والنوم ، والمشي ، والتزاور ، والمصالحة بين شخصين بالطرق العرفية ، والمساومة في البيع والشراء .

ثانيها : ما سبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية او الاجتماعية : كالذي ورد في شئون الزراعة والطب .

ثالثها : ما سبيله سبيل التدبير الانساني اخذاً من الظروف الخاصة : كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية ، وتنظيم الصفوف في الموقعة الواحدة ، وما الى ذلك مما يعتمد على وحي الظروف والدربة الخاصة ، وكل ما نقل من هذه الانواع الثلاثة ليس شرعاً يتعلق بها طلب الفعل او الترك وإنما هو من الشئون البشرية التي ليس مسلك الرسول فيها تشريعاً ولا مصدر تشريع .

الحديث تشريع عام وخاص : اما ماكان سبيله التشريع فهو على اقسام :

اولاً : ما يصدر عن الرسول على وجه التبليغ بصفته انه رسول : كأن يبين مجملاً في الكتاب او يخصص عاماً ، او يقيد مطلقاً ، او يبين شأناً في العبادات ، او الحلال ، او الحرام ، او العقائد ، أو الأخلاق ، او شأناً متصلاً بشيء مما ذكر ، وهذا النوع تشريع عام الى يوم القيامة ، فإن كان مأموراً به اقدم عليه كل احد بنفسه ، وإن كان منهياً عنه اجتنبه كل إنسان بنفسه.

ثانياً : ما يصدر عنه بوصف الإمامة والرياسة العامة لجماعة المسلمين :

كبعث الجيوش للقتال ، وصرف اموال بيت المال في جهاتها ، وجمعها من محالها ، وتولية القضاة والولاة ، وعقد المعاهدات ، وغير ذلك مما هو شأن الإمامة والتدبير العام لمصلحة الجماعة .

وحكم هذا ليس تشريعاً عاماً فلا يجوز الاقدام عليه إلا بإذن الامام ، وليس لأحد ان يفعل شيئاً منه تلقاء نفسه بحجة ان النبي ﷺ فعله او طلبه .

ثالثاً : ما يصدر عنه بوصف القضاء ، فإنه كما كان النبي رسولاً يبلغ الاحكام عن ربه ورئيساً عاماً للمسلمين ينظم شئونهم ويدبر سياستهم كان عليه السلام مع ذلك قاضياً في الدعاوي .

وحكم هذا كسابقه ليس تشريعاً عاماً ، فمن كان له حق على آخر وجحده وله عليه بينة فليس له ان يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم لأن هذا هو الذي كان شأن اخذ الحقوق عند التجاحد على عهد الرسول .

من مراجع هذا الكتاب

القرآن الكريم .
تفصيل آيات القرآن الكريم – لجول لابوم ترجمة الاستاذ محمد فؤاد عبدالباقي .
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – للاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .
تفسير الزمخشري ، تفسير المنار ، تفسير المراغي، تفسير الفاتحة للشيخ محمد عبده .
صحيح البخاري، وصحيح مسلم .
دائرة المعارف الاسلامية .
دائرة معارف القرن العشرين – للاستاذ محمد فريد وجدي .
كتاب الفقه على المذاهب الأربعة (قسم العبادات) .
مجلة الازهر ، مجلة لواء الاسلام ، مجلة المسلمون ، مجلة المنار .
احياء علوم الدين – للامام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي .
رسالة التوحيد – للشيخ محمد عبده (دار المنار بمصر) .
الاسلام والنصرانية – للشيخ محمد عبده (مطبعة المنار بمصر) .
الدين الاسلامي في الاصول والعقائد – تأليف العلامة مولانا محمد علي .
الاسلام والنظام العالمي الجديد – للعلامة مولانا محمد علي .
الطلاق في الاسلام – للعلامة مولانا محمد علي – ترجمة السيدة حبيبة يكن .
اصول الفقه – للعلامة عبد الوهاب خلاف .
السياسة الشرعية أو نظام الدولة الاسلامية – للعلامة عبد الوهاب خلاف .
الأحوال الشخصية (قسم الزواج) – للعلامة محمد أبو زهرة .
حضارة العرب – للدكتور جوستاف لوبون – ترجمة الاستاذ محمد عادل زعيتر .
الابطال – تأليف توماس كارليل – ترجمة الاستاذ محمد السباعي .
تاريخ العرب – للدكتور فيليب حتي .
الدين والعلم – ألفه بالتركية المشير احمد عزت – ترجمة الاستاذ حمزة طاهر .
الوحي المحمدي – للشيخ محمد رشيد رضا .
في سنن الله الكونية – للاستاذ محمد احمد الغمراوي (مطبعة لجنة التأليف والنشر)
القرآن والقتال – للعلامة محمود شلتوت (مطبعة دار الكتاب العربي) .
الاسلام والطب الحديث – للدكتور عبد العزيز اسماعيل .

المدنية والاسلام – للعلامة محمد فريد وجدي .
الفلسفة القرآنية – للاستاذ عباس محمود العقاد .
الله – للاستاذ عباس محمود العقاد .
الرسالة الخالدة – للاستاذ عبد الرحمن عزام .
الاخلاق – للدكتور احمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .
ادب الاسلام – للمدارس الثانوية تأليف الاساتذة : محمد أبو بكر ابراهيم ، مصطفى خفاجي ، علي محمد حسب الله ، محمد عبد الرؤوف بهنسي .
العدالة الاجتماعية في الاسلام – للاستاذ سيد قطب (لجنة النشر للجامعيين بمصر) .
الدين في نظر العقل الصحيح – للدكتور محمد توفيق صدقي .
الدين والوحي والاسلام – للعلامة مصطفى عبد الرازق (دار الكتاب العربي) .
الاسلام واوضاعنا القانونية – للاستاذ عبد القادر عودة .
الخلافة أو الامامة العظمى – للشيخ محمد رشيد رضا (مطبعة المنار بمصر) .
آيات الله في الآفاق – للعلامة محمد احمد العدوي (مطبعة المنار بمصر) .
نداء للجنس اللطيف – للشيخ محمد رشيد رضا .
الشرع الدولي في الاسلام – للدكتور نجيب الارمنازي .
الاسلام والاوضاع الاقتصادية – للاستاذ محمد الغزالي .
عقيدة المسلم – للاستاذ محمد الغزالي (دار الكتاب العربي) .
تاريخ العرب قبل الاسلام – للدكتور جواد علي .
من بلاغة القرآن – للدكتور احمد البدوي .

وهناك بعض المصادر الأخرى أوردناها في حواشي هذا الكتاب .

محتويات الكتاب



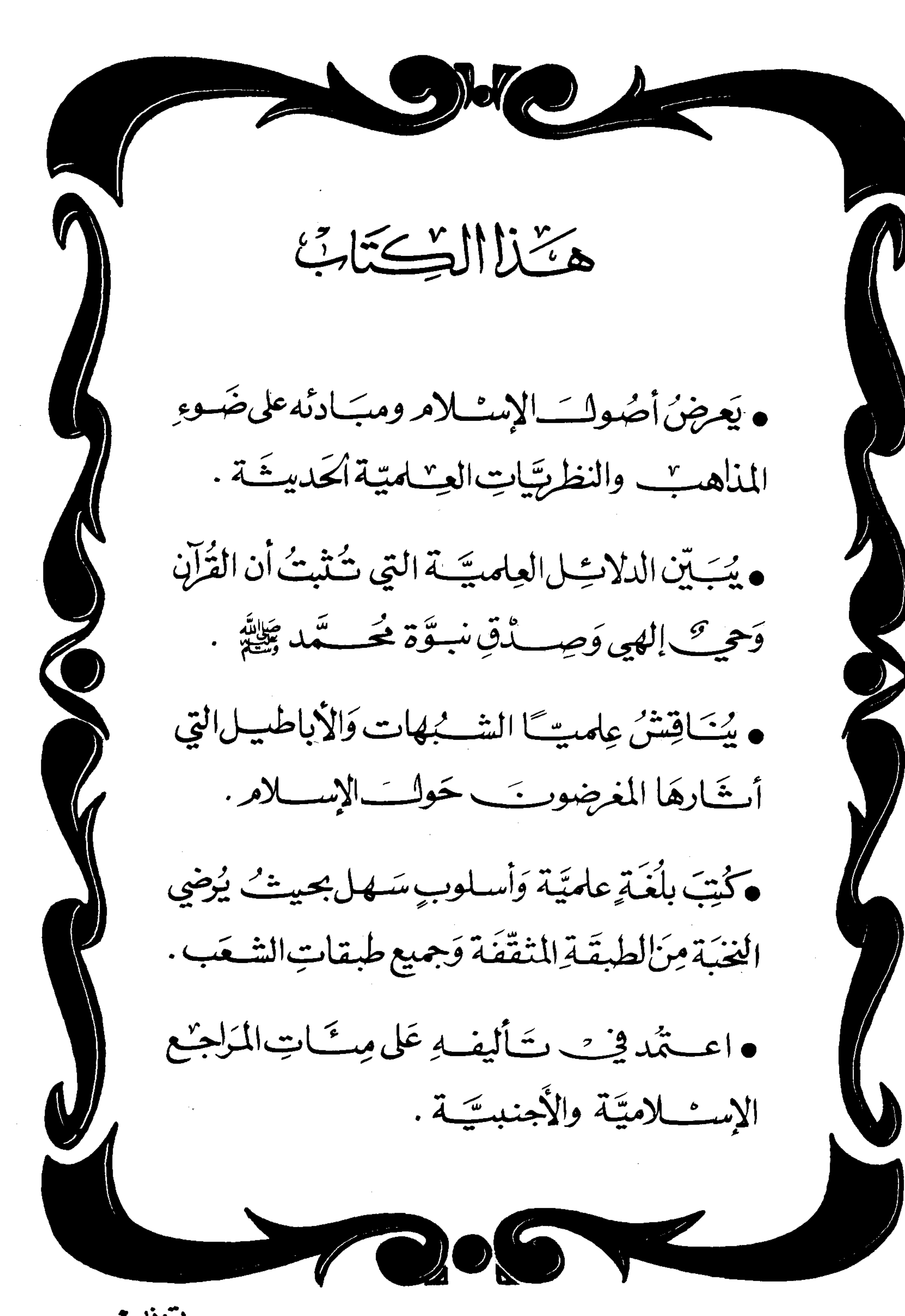
عنوان المؤلف

بيروت ـ ص.ب ١٠٨٥

كتب صدرت للمؤلف

- روح الدين الإسلامي .
- مع الأنبياء في القرآن .
- روح الصلاة في الإسلام .
- الخطايا في نظر الإسلام .
- اليهود في القرآن .
- روح القرآن ـ تفسير جزء عمّ .
- روح القرآن ـ تفسير جزء تبارك .
- روح القرآن ـ تفسير جزء قد سمع .
- روح القرآن ـ تفسير جزء والذاريات .
- روح القرآن ـ تفسير جزء الأحقاف .
- روح القرآن ـ تفسير جزء الشورى .
- روح القرآن ـ تفسير جزء الزمر
- روح القرآن ـ تفسير جزء يس





هذا الكتاب

• يعرض أصول الإسلام ومبادئه على ضوء المذاهب والنظريات العلمية الحديثة .

• يبين الدلائل العلمية التي تثبت أن القرآن وحي إلهي وصدق نبوة محمد ﷺ .

• يناقش علمياً الشبهات والأباطيل التي أثارها المغرضون حول الإسلام .

• كتب بلغة علمية وأسلوب سهل بحيث يرضي النخبة من الطبقة المثقفة وجميع طبقات الشعب .

• اعتمد في تأليفه على مئات المراجع الإسلامية والأجنبية .

توزيع
دار العلم للملايين
بيروت - لبنان - ص.ب ١٠٨٥